

أسباب نعيم القبر

إعداد

د/ جهاد محمود الأشقر

كلية الشريعة والقانون

جامعة الأزهر



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : 4 ميدان حليم خلف بنك

فيصل

ش 26 - ميدان الأوبرا - 01000040460 -

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: أسباب نعيم القبر
إعداد: د/ جهاد محمود الأشقر
رقم الإيداع:

الطبعة الأولى 2012



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : 4 ميدان حليم خلف بنك
فيصل

ش 26 - 01000040460 - 01000040460

المقدمة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين: الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة، وكسّرَ به ظهور الأكاسرة، وقصّرَ به آمال القياصرة، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد بالحق، فأرداهم في الحافرة، فنقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللاهود، ومن ملاعبة الجواري والنساء إلى مقاساة الهوام والديدان، ومن التمتع بالطعام والشراب إلى التمرغ في ألوان الوحل والتراب، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: بين لنا أن القبرَ مرحلةٌ تلي الموت، فقال ﷺ: {ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} [عبس: 21].

وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم: بين لنا أن القبر أول منزلة من منازل الآخرة، ومن ينج منه فما بعده أيسر، فروى ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه أحدٌ فما بعده أيسر منه، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشد).

أما بعد:

فإن القبر أول منزلة من منازل الآخرة، ومن ينج منه فما بعده أيسر، ومن لم ينج منه فما بعده أصعب، فروى الترمذي وابن ماجه والحاكم عن هانئ مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر يبكي، حتى يبيل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ فقال رضي الله عنه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه أحدٌ فما بعده أيسر منه، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشد).

والقبر الذي نراه الآن صامتاً، وهو عبارة عن حجارة وتراب، إنه يتكلم، ترى بم يتكلم؟ روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: دخل الرسول صلى الله عليه وسلم مصلاه، فرأى ناساً يكشرون

فقال: (إما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات لشغلکم عما أرى - الموت - فأكثرُوا من ذكر هادم اللذات - الموت - فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه، فيقول: أنا بيت الغربة، وأنا بيت الوحدة، وأنا بيت التراب، وأنا بيت الدود، فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر: مرحباً وأهلاً، أما إن كنت لأحب من يمشي - على ظهري إلي، فإذا وليتُك اليوم وصرت إلي فسترى صنيعي بك، فيتسع له مد بصره، ويفتح له باب إلى الجنة، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر، قال له القبر: لا مرحباً ولا أهلاً، أما إن كنت لأبغض من يمشي على ظهري إلي، فإذا وليتُك اليوم وصرت إلي فسترى صنيعي بك، قال: فملتئم عليه حتى يلتقي عليه، وتختلف أضلاعه-.

وقد يظن كثير من الناس أن الإنسان بالموت يكون قد انتهى كل شيء بالنسبة له، وبالتالي فهو لا يدري بأي شيء وهو محمول على الأعناق لوضعه في التراب، بل الأمر على العكس من ذلك تماماً، فالجنازة وهي في طريقها إلى القبر ترى كل من يشاهدها، وتعرف كذلك من صلى عليها، بل وتتكلم وهي سائرة إلى القبر، ترى بم تتكلم؟ إذا كانت الجنازة صالحة، قالت: قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها، أين يذهبون بها؟ ويسمع هذا الصوت الذي يخرج من الجنازة كل المخلوقات ما عدا الإنس والجن.

فروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني، وإن كانت غير ذلك قالت: يا ويلها، أين يذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الثقلين، أو قال: إلا الإنسان، ولو سمع الإنسان لصُعِقَ-.

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو: يا ترى سنكون من أي نوع من الجنائزات؟ هل الصالحة، فنقول: قدموني، لأدنا نفرح بلقاء الله تعالى، فيفرح الله تعالى بلقائنا، أم نكون من الغير الصالحة، فنَدعو على أنفسنا ونقول: يا ويلها، لأننا نكره لقاء الله تعالى، وبالتالي يكره الله تعالى لقائنا.

روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه-).

فقالت عائشة (رضي الله عنها): إنا لنذكره الموت، قال صلى الله عليه وسلم: (ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت، بُشِّر - برضوان الله تعالى وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله تعالى، وأحب الله تعالى لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بُشِّر بعذاب الله تعالى وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله تعالى، وكره الله تعالى لقاءه-.

فانتبه أخي المسلم، واعمل لهذا اليوم قبل فوات الأوان؛ لأن الندم بعد فوات الأوان لا يفيد، فالرسول صلى الله عليه وسلم نبهنا على العمل والاستعداد لهذا اليوم، فروى أحمد وابن ماجه عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: بيئنا نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ أبصر بجماعة، فقال: (علام اجتمع هؤلاء؟)، قيل: على قبر يحفرونه، قال ففرع رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدى بين يدي أصحابه مسرعاً، حتى انتهى إلى القبر، فجنثي عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بلّ الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا، فقال: (أي إخواني: لمثل هذا فأعدوا-.

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: لو علم أهل العافية ما تضمنت القبور من الأجساد البالية، لجدوا واجتهدوا في أيامهم الخالية، خوفاً من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار.

ومن هذا المنطلق شرعنا بعون الله تعالى وتوفيقه في كتابة أسباب النعيم في القبر، حتى يجتهد الإنسان في الدنيا، قبل فوات الأوان، ويعمل للأخرة، كي ينعم في القبر، وينال رضوان الله تعالى.

وفي النهاية أدعو الله ﷻ أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله في ميزان حسناتي: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: 88، 89].

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

د. جهاد محمود الأشقر

ميت العامل - أجا - دقهلية

* * *

حب الله تعالى

حب الله تعالى

أسباب نعيم القبر

حب الله تعالى

الحمد لله رب العالمين: هو الأول فلا شيء قبله، وهو الآخر فلا شيء بعده، وهو الظاهر فلا شيء فوقه، وهو الباطن فلا شيء دونه، وصدق الله تعالى إذ يقول: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد: 3].

سبحانه: أشهد له بالوحدانية، وأقر له بالربوبية، فلا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه، جلّ في علاه، فقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: 26].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: بين لنا إذا أحب عبداً كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، فروى البخاري أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ بِمَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَّافِلِ حَتَّى أَحْبَبُهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْظِيَّتِهِ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيدَتِهِ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ).

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: بين لنا أن الله تعالى إذا أحب عبداً من عباده أمر أهل السماء بحبهم لهذا العبد، ثم يضع له المولى تعالى القبول في الأرض، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أَحْبَبْتُ فَلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيَحِبُّهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحْبِبُوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضْتُ فَلَانًا فَأَبْغِضْهُ، فَيَبْغِضُهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، فَيَبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

إننا اليوم على موعد مع أسباب نعيم القبر، ألا وهو: حب الله تعالى.
فأعبروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني
وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على
بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا اليوم:

الحقيقة الأولى: من الله؟

الله تعالى : هذا الاسم الكريم الذي يطلق على الذات المقدسة، التي
نؤمن بها، ونعمل لها، ونعرف أن منها حياتنا، وإليها مصيرنا.

الله تعالى : هو قبل كل شيء، وآخر كل شيء، وهو وارث كل
شيء، أحاط بعلمه كل شيء، ولا يتوارى عنه شيء، ولا يُعجزه شيء في
الأرض ولا في السماء.

الله تعالى : هو أول من شهد لنفسه بالوحدانية، فقال تعالى : {شَهِدَ
اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ} [آل عمران: 18].

الله تعالى : هو الاسم الذي ما تعلق به فقيرٌ إلا أغناه الله تعالى.

الله تعالى : هو الاسم الذي ما تعلق به مريضٌ إلا شفاه الله تعالى
وعفاه.

الله تعالى : هو الاسم الذي ما تعلق به ذليلٌ إلا أعزه الله تعالى
وكفاه.

الله تعالى : هو الاسم الذي تقال به العثرات، وتستجاب به الدعوات،
وتستدر به الرحمات.

الله تعالى : هو الاسم الذي به ولأجله قامت الأرض والسموات.

الله تعالى : أعلن عن نفسه فقال: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ
سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ

كُرْسِيُّهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: 255].

الله تعالى : أعلن عن نفسه فقال: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الحشر: 22 - 24].

الله تعالى : أعلن عن نفسه فقال: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 1 - 4].

الله تعالى : الذي لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفَضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ).

الله تعالى : اسمع معي وهو يقول: {ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: 26].

ولقد تكرر هذا اللفظ في القرآن تسعمائة وثمانين مرة.

الحقيقة الثانية: لماذا خلقنا الله تعالى ؟

إن الله تعالى لم يخلق الخلق لحاجة يحتاجها منهم، ولم يخلق الخلق ليستأنس بهم من وحشة، ولم يخلق الخلق ليستكثر بهم من قله، ولم يخلق الخلق ليستعين بهم على عمل عجز عن فعله، ولم يخلق الخلق ليجلب بهم منفعة، أو يدفع بهم مضرة، بل خلق الخلق ليعبدوه وحده، ويشكروه وحده، ويقدسوه وحده، ويعظموه وحده، وليسبحوه وحده.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: 56 - 58].

وقال في الحديث القدسي: (يا عبادي: ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة، ولا لأستعين بكم على عمل عجزت عن فعله، ولا لأستكثر بكم من قلة، ولكني خلقتكم كي تعبدوني طويلاً، وتذكروني كثيراً، وتسبحوني بكرة

وأصيلاً.

ولكن للأسف الشديد شذ فریق من الناس وانحرفوا عن عبادة الله تعالى، فاستحقوا عقاب الله تعالى في الدنيا والآخرة، واسمع معي إلى ما قاله المولى تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [الحج: 18].

وروي أنه قال في الحديث القدسي: (يا عبادي إني أثمت عليكم نعمتي، وأرسلت إليكم الرسل الكرام لتعرفوا أحكام شريعتي، فلماذا تعرضون عني وأنا الغني الكريم، فوعزتي وجلالي لو أطعتموني لنصرتكم على أعدائكم، ولو استعتم بي في الشدائد لأعتكم، ولكنكم عصيتموني، فأعرضت عنكم، فوقعتم في الذل والعذاب المهين).

الحقيقة الثالثة: إن العباد كلهم لو عبدوا الله تعالى عبادة صحيحة، ما زاد ذلك في ملك الله تعالى شيئاً، ولو أن العباد كلهم عصوا الله تعالى، ونسوه، وكفروا به، ما خدش ذلك شيئاً من جلاله، ولا نقص ذرة من سلطانه، ولا كف شعاعاً من ضيائه، ولا غضّ بريقاً من كبريائه، فهو تعالى أغنى بحوله وطوله وقوته.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فروى مسلم أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: (... يا عبادي: إِنَّكُمْ لَن تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّوَنِي، وَلَن تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يا عبادي: لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يا عِبَادِي: لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً، يا عِبَادِي: لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يا عِبَادِي: إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصَاهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ).

وصدق الله تعالى إذ يقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ

[الحَمِيدُ] {فاطر: 15}.

الحقيقة الرابعة: إن الشرع الحذيف قد ربط قضية الإيمان بمحبة الله تعالى، فالفرد منا لا يؤمن ولا يصح إيمانه، إلا إذا حقق الحب الحقيقي لله تعالى.

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا).

أخي المسلم:

اسأل نفسك الآن: هل أنت تحب الله تعالى حباً حقيقياً، أم لا؟ فإذا كنت تحب الله تعالى، فما الدليل على هذا الحب؟ هل التزمت بقول الله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} [النساء: 13، 14].

وإذا كنت لا تحب الله تعالى كما ينبغي، فعليك أن تجتهد و تدعوا الله تعالى أن يرزقك محبته تعالى.

والفرد منا لا يستطيع أن يتذوق حلاوة الإيمان إلا إذا حقق الحب الحقيقي لله تعالى، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ).

فحب الله تعالى فرض عين على كل مسلم؛ لأن العبودية معقودة بها، فقال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: 24].

ولقد مدح القرآن الكريم المؤمنين الذين حققوا الحب الحقيقي لله تعالى، فقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} [البقرة: 165].

ولقد حقق الصحابة رضوان الله عليهم الحب الحقيقي لله تعالى، ففضلوا حب الله تعالى على الآباء، والأبناء، والإخوة، والعشيرة، فقال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: 22].

الحقيقة الخامسة: ما معنى محبة الله تعالى ؟

محبة الله تعالى هي: أن تهيب كلك لمن أحببت، فلا يبق لك منك شيء، والمراد: أن تهيب إرادتك وعزمك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحبه، وتجعلها حبساً في مرضاته.

ويمكن أن يقال في تعريف محبة الله تعالى : إسلام الوجه لله تعالى، والتفاني في طاعته، والبعد عن معصيته، وأن يعتقد الكمال الذاتي لله تعالى، وأن ينسب النعم كلها لله تعالى.

وفي هذا يقول المولى تعالى: {قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنُسَكِيَّ وَنَحْيَايَ وَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [الأنعام: 162 - 164].

وهذا سيدنا سليمان عليه السلام أحب الله تعالى حباً فاق كل شيء، فنراه يترك كل شيء من أجل حب الله تعالى، بل يقوم بذبح الذيل التي شغلته عن صلاة العصر، كما قال بعض المفسرين، فقال تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِئَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} [ص: 30 - 33].

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف كيف يحقق الإنسان الحب الحقيقي لله تعالى.

إذا أراد المسلم فينا أن يحقق الحب الحقيقي لله تعالى، فعليه أن يتبع عدة أمور، إذا التزم بها المسلم حقق في النهاية الحب الحقيقي لله تعالى، وهذه الأمور ما يأتي:

أولاً: تحقيق العبودية لله تعالى :

إذا أراد المسلم فينا أن يحقق الحب الحقيقي لله تعالى فعليه أن يحقق العبودية لله تعالى؛ لأن عبودية الله تعالى ليست أمراً على هامش الحياة، بل هي الأصل الأول الذي من أجله خلق الله تعالى الحياة، بل هي الأصل الذي من أجله خلق الله تعالى السموات والأرض والجنة والنار، ومن أجل العبادة أنزل الله تعالى الكتب، وأرسل جميع الأنبياء والرسل، فقال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا { [الذاريات: 56، 57].

فالواجب على كل مسلم أن يحقق العبادة الكاملة لله تعالى، وأن يسلم حياته كلها لله تعالى، مصداقاً لقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ { [الأنعام: 162 - 164].

أما إذا نظرنا إلى الواقع الذي نعيش فيه نجد أن الناس قد اختلفوا تجاه هذا الأمر على النحو التالي:

أولاً: صنف من الناس صرف العبادة لغير الله تعالى، وذلك بتحكيم غير شرع الله تعالى، وحكم القوانين الوضعية، وأعرض عن شرع الله تعالى، وانقاد لأحكام البشر، ممن تتحكم فيهم الأهواء والنزوات والشهوات والرغبات، فقال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: 50].

وقال تعالى: {إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: 40].

هذا الصنف الذي لم يحكم شرع الله تعالى لم يحقق العبودية لله تعالى، وحكم الله تعالى عليه بالكفر، والفسق، والظلم، فقال تعالى: {وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ

بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: 44].

وقال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [المائدة: 45].

وقال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [المائدة: 47].

ثانياً: صنف من الناس صرف العبادة لغير الله تعالى في كثير من صورها، فذبح لغير الله تعالى، ونذر لغير الله تعالى، وحلف بغير الله تعالى، واستعان بغير الله تعالى، واستغاث بغير الله تعالى، ولجأ إلى غير الله تعالى، فوجد الكثير من المسلمين يذهبون إلى الأضرحة والقبور؛ ليطلبوا منهم النجاة، أو تفريج الكربات، ونسوا هؤلاء قول الله تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} [النمل: 62].

فالواجب على كل مسلم أن لا يسأل نبياً ولا ولياً، وأن يسأل الحي الذي لا يموت، فهو بيده الأمر كله، وهو صاحب الضر والنفع، فقال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأنعام: 17].

ثالثاً: صنف من الناس صرف العبادة لغير الله تعالى، وقال: إن لاكون أقطاباً، تدبر نظام الكون، وتسير شؤونه، وهذا يعتدب شركاً بالله تعالى؛ لأن الله تعالى جعل أمر الكون كله في يده، فقال تعالى: {قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ} [آل عمران: 154].

وقال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر: 67].

بل أعلن المولى تعالى أن الرسول صلى الله عليه وسلم مع مكانته وقربه من المولى تعالى لا يملك شيئاً، فقال تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} [آل عمران: 128].

وقال تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: 188].

واسمع إلى هذا التحذير من المولى تعالى للرسول صلى الله عليه

وسلم، فيقول تعالى: {وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} * بَلِ اللَّهُ فَاغْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ [الزمر: 65، 66].

رابعاً: صنف من الناس يعبد الله تعالى وحده لا شريك له، ولكنه عبد الله تعالى بغير هدي الرسول صلى الله عليه وسلم، عبد الله تعالى بالبدع، عبد الله تعالى بالضلالات، عبد الله تعالى بالعبادات التي توارثها الأجيال عن الآباء والأجداد، وهذه العبادة مردودة على صاحبها، فلا بد أن تكون العبادة على وفق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: 110].

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد).

خامساً: صنف من الناس فهم العبادة فهماً ناقصاً، فالعبادة عنده لا تتجاوز ولا تتعدى الشعائر، كالصلاة، والزكاة، والحج، فهو يصلي في المسجد، ويحج بيت الله تعالى، ويؤدي الزكاة، ويصوم رمضان، لكن إن تجاوز هذا المسلم المسجد تجده إنساناً آخر، فامراته وبناته متبرجات، تجده يتعامل بالربا، يأكل أموال الناس بالباطل، تجده لا يؤدي حق جيرانه، تجده لا يصل أرحامه، تجده لا يؤدي حق والديه، ترى شخصية مختلفة تماماً عن الشخصية التي تراها في المسجد، لماذا؟

لأنه فهم العبادة فهماً ناقصاً، فالعبادة تشمل الحياة كلها، فبر الوالدين عبادة، والإحسان إلى اليتيم عبادة، والإحسان إلى الجار عبادة، والصدق في الكلام عبادة، والوفاء بالوعد عبادة، وأداء الأمانات عبادة، والإخلاص في القول والعمل عبادة، والابتسام في وجه المسلم عبادة، وغض البصر عن المرأة الأجنبية عبادة، فالعبادة تشمل الحياة كلها.

وإلى هذا النوع من الناس يقول تعالى: {أَفَتَوْمَنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمُ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة: 85].

والنتيجة الحتمية لتحقيق العبودية لله تعالى هي التمكين في الأرض، قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور: 55].

ثانياً: مراقبة الله تعالى :

فعلى كل مسلم يريد أن يحقق الحب الحقيقي لله تعالى أن يراقبه في كل لحظة من لحظات الحياة، حتى يتم له اليقين بأن الله تعالى مطلع عليه، عالم بأسراره، رقيب على أعماله، قائم عليه، وعلى كل نفس بما كسبت، فيتحقق فيه ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم: (اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

ولقد حثنا القرآن على مراقبة الله تعالى، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1]. وقال تعالى: {يَا بُنَيَّ إِنَّمَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 16].

ولقد حقق سيدنا يوسف عليه السلام مراقبة الله تعالى على أكمل وجه، اقرأ معي قول الله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} * وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: 22 - 24].

واسمع معي أخي المسلم إلى هذه الذمماذج من حياة سلفنا الصالح لنتعلم كيف تكون مراقبة الله تعالى.

النموذج الأول: في يوم صائف يكاد حره يذيب الجبال، أطل عثمان بن عفان رضي الله عنه من بناية له بالعالية، فرأى رجلاً يسوق أمامه بعيرين صغيرين، والهواء الساخن يغشاه كلفح السموم، فقال محدثاً نفسه:

ما على هذا الرجل لو أقام بالمدينة حتى يُبرد؟

وأمر خادمه أن ينظر من فرجة الباب، فقال: أرى رجلاً معمماً بردائه، يسوق بكرين أمامه، وانتظر حتى اقترب الرجل، فعرفه الخادم، وصاح: إنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إنه أمير المؤمنين!

فأخرج عثمان بن عفان رضي الله عنه رأسه من كوة صغيرة متوقياً سخونة الريح، ونادى: ما أخرجك هذه الساعة يا أمير المؤمنين؟

أجاب سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بكران من إبل الصدقة، تخلفا عن الحمى، وخشيت أن يضيعا، فيسألني الله تعالى عنهما. فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: هلم إلى الظل والماء، ونحن نكفيك هذا الأمر.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عد إلى ظلك يا عثمان.

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: عندنا من يكفيك هذا الأمر يا أمير المؤمنين.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مرة أخرى: عد إلى ظلك يا عثمان، ومضى عمر رضي الله عنه لسبيله، والحر يصهر الصخر.

فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: من أراد أن ينظر إلى القوي الأمين، فليُنظر إلى عمر.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقسم ويقول: لو أن بغيراً من إبل الصدقة ضاعت على ضفاف دجلة أو الفرات، وعمر بالمدينة، لخاف أن يسأله الله تعالى عنه.

النموذج الثاني: يقول عبد الله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة، فعرسنا ببعض الطريق - نزلنا للراحة - فانحدر علينا راع من الجبل، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا راعي الغنم بعنا شاة من هذا الغنم، فقال: إني مملوك، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قل لسيدك أكلها الذئب، فقال العبد: فأين الله؟

فبكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأخذ يقول: فأين الله تعالى؟

ثم غدا إلى سيد الراعي، فاشتراه من مولاه، وأعتقه، وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

النموذج الثالث: أراد أحد سلفنا الصالح أن يعلم تلاميذه كيفية مراقبة الله تعالى، فأمر كل تلميذ من تلاميذه أن يحضر كل تلميذ دجاجة، ثم يقوم بذبحها شريطة أن يكون ذلك في مكان لا يراه فيه أحد.

وفي اليوم التالي جاء كل تلميذ وقد ذبح كل واحد منهم دجاجة، إلا واحداً، فقد أتى بها حية لم يذبحها، فسأله الشيخ: لما لم تذبح الدجاجة؟ قال: لأنني لم أستطع الوفاء بالشرط، قال له: كيف ذلك؟ قال: لأنني حيثما ارتحلت، وحيثما اتجهت وجدت أن الله تعالى مطلع عليّ ويراني.

ثم قرأ قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7].

إخوة الإسلام:

يوجد في مجتمعنا أقوال وأمثال تنافي الحب لله تعالى، فتعالوا معي لنتعرف على هذه الأمثال:

المثل الأول: يدي الحلق للي بلا ودان.

وهذا القول يتنافى تماماً مع حب الله تعالى؛ لأن فيه اتهام صريح لله تعالى بأنه يسيء التصرف في كونه وخلق، فيعطي لمن لا يستحق، ويمنع عمن يستحق، ويدل على أن البشر هم أعلم بمواقع الفضل من ربهم تعالى، مع أن الله تعالى يقول: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: 26].

وقال تعالى: {قُلِ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبا: 39].

وقال تعالى: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَةً

رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف: 32].

المثل الثاني: رزق الهبل على المجانين:

وهذا القول يتنافى تماماً مع حب الله تعالى، لأن فيه إساءة أدب معه تعالى، لأنه في هذا المثل يتهم الله تعالى بالجنون والعياذ بالله؛ لأن الرزق كله بيد الله تعالى، وقد كتبه الله تعالى وقدره قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، فقال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: 6].

المثل الثالث: اللي بيعتقد في حجر ينفعه:

وهذا القول قبيح، بل عبرة شركية آثمة، فإن الحجر لا ينفع ولا يضر، والله تعالى هو وحده النافع الضار، فقال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الذعام: 17].

وقد وقف سينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمام أشرف حجر في هذا الوجود، وهو الحجر الأسود في الكعبة المشرفة، وقال: إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت الرسول صلى الله عليه وسلم يقبلك، ما قبلتك.

المثل الرابع: ربنا افكره:

وهذا المثل يقال بالتحديد عندما يموت إنساناً، فنقول ربنا افكره، ومتى نسيه الله تعالى كي يتذكره؟ إنها كلمة تدل على سوء الأدب مع الله تعالى؛ لأنها وصف له تعالى بالذسيان، وهو نقص، والنقص محال في حق الله تعالى، كما أنها من صفات الإنسان، ولقد ذفي الله تعالى الذسيان عن نفسه، فقال تعالى: {قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى} * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} [طه: 51، 52].

وقال تعالى: {وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [مریم: 64].

المثل الخامس: أنا اصطبحت بوس مين:

أو عند رؤية شخص ما، يقولون: وشه يقطع الخميرة من البيت، على

سبيل التشاؤم، والتشاؤم والطيرة أمور شركية، فيها سوء أدب مع الله تعالى، روى أبو داود وأحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الطَّيْرَةُ شِرْكٌ - قالها: ثلاثاً).

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا عَدْوَى وَلَا طَيْرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَالُ الصَّالِحُ، الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ).

وأما الطيرة: فهي ترك الإنسان حاجته، واعتقاده عدم نجاحها، تشاؤماً بسماع بعض الكلمات القبيحة، وكذا التشاؤم في بعض الطيور كالبومة، وما شاكلها إذا صاحت، وكذا التشاؤم بملاقاة الأعور، أو الأعرج، أو المهزول.

المثل السادس: طور الله في برسيمه:

وهذا القول يدل على سوء الأدب مع الله تعالى، فهو يدل على أن هناك ثيران لله تعالى، وأن هناك ثيران أخرى للناس، حيث إن ثور الله تعالى يرمز إلى الغباء والبلاهة دون غيره من الثيران، والمؤمن لا يكون ذلك، وإنما يكون مراعياً لألفاظه وأقواله، فينتقي الألفاظ المهدبة، الألفاظ التي ترضي الله تعالى.

سابعاً: الرزق يحب الضلوة:

وهذا أيضاً فيه إساءة أدب مع الله تعالى، ولكن الصحيح أن الرزق يحب التوكل الصحيح على الله تعالى، ويحب أن يتقي الله تعالى صاحبه، فقال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق: 2، 3].

والاستغفار وفعل الطاعات هي التي تجلب الرزق، فقال تعالى: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً} [نوح: 10 - 12].

لكن المعاصي والسيئات ونكران النعم تؤدي إلى سلب النعم، وضنك العيش، فقال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [النحل: 112].

وإن كان المقصود بالخفية الاجتهاد في الأسباب، فإن كانت الأسباب مباحة شرعاً، فالأخذ بها مشروع، وإن كانت محرمة، فلا يجوز الأخذ بها.

* * *

حب الرسول صلى الله عليه وسلم

حب الرسول صلى الله
عليه وسلم

أسباب نعيم القبر

حب الرسول صلى الله عليه وسلم

الحمد لله رب العالمين: الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة، وجعلنا والله الحمد خير أمة أخرجت للناس، فقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: 110].
سبحانه: أراد لعباده الخير والبر، وطلب من عباده إقامة منهج العدل والفضيلة، فقال تعالى: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} [البقرة: 138].

وقال تعالى: {أَفْحَكَمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: 50].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: بين لنا في قرآنه أن من أكبر النعم التي أنعم بها علينا، أن أرسل إلينا النبي صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [آل عمران: 164].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: القائل في الحديث الذي رواه أحمد وأحمد والبخاري والطبراني والبيهقي: (إني عند الله لخاتم النبيين - في علمه الأزلي - وإن آدم لمنجدل في طيئته، وسأخبركم عن ذلك، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت - فرأت فيما يرى النائم حين حملت به أنه خرج منها نورٌ أضاء لها الأرض - وكذلك أمهات النبيين يرين-).

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع حب أعظم مخلوق على وجه الأرض، مع حب من خلقه الله ﷻ لإسعاد البشرية كلها، مع حب من بعثه الله ﷻ رحمة للعالمين، مع حب صاحب الشفاعة العظمى، والحوض المورود، إنه الرسول

صلى الله عليه وسلم.

فأعبروني القلوب والأسماع والأبصار، والله أسأل أن يرزقني وإياكم حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحب من يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه ولي ذلك وهو القادر عليه.

أُحِبُّتِي فِي اللَّهِ:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا:

الحقيقة الأولى: من هو الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ (في الوقت ذاته لو سألت أي شخص: ماذا تعرف عن لاعب كرة؟، أو ممثل فلان؟... لبادرك القول وأخذ يسرد لك كل كبيرة وصغيرة عنه، في الوقت ذاته لو سألته ماذا تعرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ لوقف صامتاً وعجز الكلام).

إنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب، ينتهي نسبه إلى عدنان، ومنه إلى سيدنا إسماعيل عليه السلام ابن سيدنا إبراهيم عليه السلام.

إنه الرسول صلى الله عليه وسلم: صاحب الحوض العظيم، والشفاعة العظمى.

إنه الرسول صلى الله عليه وسلم: الرحمة المهداة، والنعمة المسداة.

إنه الرسول صلى الله عليه وسلم: الذي بعثه الله تعالى رحمة للعالمين.

إنه الرسول صلى الله عليه وسلم: طيب العشرة، كان يحب المساكين والفقراء، ويجالسهم.

إنه الرسول صلى الله عليه وسلم: الذي أخذ الله تعالى العهد على كل نبي أن يؤمن به إن لحق بعثته وينصره، فقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: 81].

إنه الرسول صلى الله عليه وسلم: الذي وصفه ربه في القرآن فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا { [الأحزاب: 45، 46].

إنه الرسول صلى الله عليه وسلم: الذي وصفه الله ﷻ بنفس الصفات التي في القرآن في التوراة، فروى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم قال: والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفاته في القرآن الكريم: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} وحرزا للأمة، أنت عبيدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، فيقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عمياء، وآذاناً صماء، وقلوباً غلفاء، فيهدي به بعد الضلالة، ويعلم به الجهالة.

إنه الرسول صلى الله عليه وسلم: الذي زكاه ربه في كل شيء، زكاه في عقله، فقال: {وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ} * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ { [النجم: 1، 2].

وزكاه في لسانه، فقال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ} [النجم: 3].
وزكاه في شرعه، فقال تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} [النجم: 4].
وزكاه في صدره، فقال تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: 1].
وزكاه في بصره، فقال تعالى: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ} [النجم: 17].
وزكاه في ذكره، فقال تعالى: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [الشرح: 4].
وزكاه في فؤاده، فقال تعالى: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ} [النجم: 11].
وزكاه في حلمه، فقال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: 128].
وزكاه كله، فقال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: 4].

وفي القرآن الكريم سراجان: سراج وهاج، وسراج مذير، فالسراج الوهاج: هو الشمس في ضحاها، والسراج المذير: هو الرسول صلى الله

عليه وسلم في جماله وبهائه وكماله.

السراج الوهاج فيه نور وحرارة، والسراج المنير فيه نور وليس فيه حرارة، والشمس تؤذيك بحر ها صيفاً، والحبيب صلى الله عليه وسلم يهديك صيفاً وشتاءً، والشمس إذا ازدادت منها قرباً تصيبك بالأمراض، والحبيب صلى الله عليه وسلم إذا ازدادت منه قرباً ازدادت من الرحمن حباً، الشمس تغيب ليلاً، ونور المصطفى صلى الله عليه وسلم لا يغيب ليلاً ولا نهاراً.

سيدي يا رسول الله:

أنت الذي من نورك البدر اكتسى :: والشمس مشرقة بنور بهاك
أنت الذي لما رفعت إلى السما :: بك قد سمت وتزينت لسراك
أنت الذي ناداك ربك مرحباً :: ولقد دعاك لقربه وجباك
وخفضت دين الشرك ياعلم الهدى :: ورفعت دينك فاستقام هناك
ما ذا يقول المادحون وما عسى :: أنت تجمع الكتاب من معنك

الحقيقة الثانية: إن الله تعالى فرض علينا جميعاً حب الرسول صلى الله عليه وسلم وأمرنا أن نحبه أكثر من حبنا لأنفسنا، وأكثر من حبنا لأولادنا، وأكثر من حبنا لأي شيء، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ} [الأحزاب: 6].

ولقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك، فروى أبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فأيا رجل مات وترك ديناً فإليّ، ومن ترك مالا فهو لورثته).

والمسلم فينا لا يستطيع أن يذوق طعم الإيمان إلا إذا حقق الحب الحقيقي للرسول صلى الله عليه وسلم، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ).

ولقد نفى الرسول صلى الله عليه وسلم الإيمان على الشخص الذي لم يحقق الحب الحقيقي له، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله

عليه وسلم قال: (لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحبَّ إليه من والده، وولده، والناس أجمعين).

فهل أنت تحب الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من نفسك، وأكثر من والدك وولدك، وأكثر من الناس أجمعين؟

فإذا كانت إجابتك بلا، فأنت لست بمؤمن حقاً، وإذا كانت إجابتك بنعم، فماذا قدمت للرسول صلى الله عليه وسلم؟ هل حفظت على سنته؟ هل تفعل ما أمرك به؟ هل انتهيت عما نهى عنه؟

فايمان الفرد منا لا يكمل إلا إذا أحب الرسول صلى الله عليه وسلم حباً يفوق حب النفس والمال والولد والناس أجمعين.

فروى البخاري عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال: "كنا مع الرسول صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له عمر رضي الله عنه: يا رسول الله: لأنت أحبُّ إلى من كل شيء إلا من نفسي".

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا، والذي نفسي بيده حتى أكون أحبَّ إليه من كل شيء..، فقال له عمر رضي الله عنه: "والله لأنت أحبُّ إلي من نفسي"، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (الآن يا عمر، أي: الآن كمل إيمانك).

واسمع معي أخي المسلم إلى هذا النموذج من حب الصحابة رضوان الله عليهم للرسول صلى الله عليه وسلم، ليتبين لنا جميعاً الفرق الشاسع بين حب الصحابة للرسول صلى الله عليه وسلم وبين حبنا لنبينا صلى الله عليه وسلم، روى الطبراني وأبو نعيم بسند حسن عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً جاء يوماً للرسول صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، والله لأنت أحبُّ إلي من ولدي، وأحبُّ إلي من كل شيء، وإنني أكون في بيتي فأذكرك، فما أصبر حتى آتي لأنظر إليك، وإنني ذكرتُ اليوم موتي وموتك، وعرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين، وإنني إذا دخلت الجنة خشيت ألا أراك، فسكت الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يلبث النبي صلى الله عليه وسلم إلا قليلاً، حتى نزل جبريل عليه السلام ولا

يزال الرجل جالساً في حضر الرسول صلى الله عليه وسلم، بقول الله تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً [النساء: 69، 70].

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف لماذا فرض الله تعالى علينا حب الرسول صلى الله عليه وسلم؟

أقول: فرض الله تعالى حب الرسول صلى الله عليه وسلم لعدة أسباب:

السبب الأول: لأن الرسول صلى الله عليه وسلم حريص علينا جميعاً، ويريد أن يدخلنا معه الجنة، فقال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: 128].

فالرسول صلى الله عليه وسلم حريص علينا في حياته، و حريص علينا بعد مماته، فروي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (حياتي خير لكم، ومماتي خير لكم، فقال الصحابة رضوان الله عليهم: " علمنا أن حياتك خير لنا، فكيف يكون مماتك خيراً لنا؟ ").

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (تعرض علي أعمالكم، فإن وجدتُ خيراً حمدت الله، وإن وجدتُ غير ذلك، استغفرت الله تعالى لكم، فقال الصحابة رضوان الله عليهم: "وكيف تعرض عليك أعمالنا وأنت قد أَرَمْتَ؟"، قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء-).

السبب الثاني: لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يخاف على أمته، ويدعو لها دائماً، فروى مسلم أن جبريل عليه السلام ينزل ذات ليلة، فيجد الرسول صلى الله عليه وسلم يبكي، فيقول له: يا رسول الله ما يبكيك؟، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لقد قرأت قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: {رَبِّ إِنِّنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [إبراهيم: 36]، وقرأت قول الله تعالى على

لسان عيسى عليه السلام: {إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الأنعام: 118]، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: (اللهم أمتي، وبكى.

فقال الله تعالى لجبريل: (اذهب إلى محمد فسله: ما يبكيك؟-.

فأتاه جبريل فسأله، فأخبره الرسول صلى الله عليه وسلم بما قال، والله أعلم، فقال الله تعالى لجبريل: (يا جبريل: اذهب إلى محمد، فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك-.

وهنا يقول المولى تعالى: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [الضحى: 5].

السبب الثالث: لأن حب الرسول صلى الله عليه وسلم من أساسيات إسلامنا، بل إن إيمان الفرد منا لا يكمل إلا إذا حققنا الحب الحقيقي للرسول صلى الله عليه وسلم، وقد اقترن حب الرسول صلى الله عليه وسلم بحب الله تعالى في كثير من الآيات القرآنية، منها على سبيل المثال لا الحصر قول الله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: 24].

السبب الرابع: لأن المرء يحشر مع من أحب يوم القيامة، كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، فإذا أحببناه حقاً صرنا جيرانه في الفردوس الأعلى، فقد روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن أعرابياً جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله متى الساعة؟، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (وما أعددت لها؟-، قال الأعرابي: يا رسول الله ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (فأنت مع من أحببت-.

السبب الخامس: أمرنا الله تعالى بحب الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه لولاه لنزل العذاب بأمته، فقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: 107]، رحمة لأتباعه، ورحمة لأعدائه.

وقال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: 33].

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين، ومنعني واحدة، سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة - القحط - فأعطانيها، وسألت أن لا يهلك أمتي بالغرق، فأعطانيها، وسألت ربي أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها - وفي رواية للترمذي والنسائي: (فسألت ألا يسلط عليهم عدوا من غيرهم، فأعطانيها).

إخوة الإسلام:

إن حب الرسول صلى الله عليه وسلم لن يتحقق بالكلام، بل لا بد من عدة أمور لا بد أن يلتزم بها الفرد، حتى يدقق الحب الحقيقي للرسول صلى الله عليه وسلم، فتعالوا معي لنتعرف كيف ندقق الحب الحقيقي للرسول صلى الله عليه وسلم.

الأمر الأول: التأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم في الأقوال والأفعال:

قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21].

فالواجب على كل مسلم أن يتأسى بالرسول صلى الله عليه وسلم في كل الأحوال وفي كل الأعمال، تتأسى به في وضوئك، تتأسى به في صلاتك، تتأسى به في صومك، تتأسى به في أكلك وفي شربك، تتأسى به في نومك، تتأسى به في معاملتك لجيرانك، تتأسى به في كلامك، تتأسى به في مشيك، تتأسى به في معاملتك لأهل بيتك، تتأسى به في بيعك وشرائك، لأن حياتنا لن تستقيم ولا يكون لها طعم إلا إذا تأسينا بالرسول صلى الله عليه وسلم، والله ﷻ لن يقبل منا أي عمل إلا إذا كان على هدي الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد).

وروى الطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به).

واسمع إلى هذا النموذج لتتعلم كيف يكون التأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم، فهذا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم كان يتبع آثار الرسول صلى الله عليه وسلم في كل شيء، حتى في الأعمال الحياتية التي لا دخل لها في التشريع، ولم نؤمر باتباعها.

فعن نافع أن ابن عمر رضي الله عنه كان يتبع آثار الرسول صلى الله عليه وسلم فيصلي في كل مكان صلى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم نزل تحت شجرة، فكان ابن عمر رضي الله عنه يتعاهد تلك الشجرة، فيصب في أصلها الماء لكيلا تيبس.

وقال مجاهد: كنا مع ابن عمر رضي الله عنه في سفر، فمر بمكان فحاده، فسئل لم فعلت ذلك؟ فقال رضي الله عنه: رأيت الرسول صلى الله عليه وسلم فعل ذلك ففعلته.

أما نحن الآن فحدث ولا حرج، أصبح البعض منا يتأسى بفنان ساقط، أو لاعب كرة تافه رخيص...

الأمر الثاني: الاتباع فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

فإن الله تعالى أمرنا أن نتبع الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء به، فقال تعالى: {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: 158].

وقال تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [المائدة: 15، 16].

وروى أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطبنا الرسول صلى الله عليه وسلم خطا بيده، ثم قال: (هذا سبيل الله مستقيماً) - ثم خط خطاً عن يمينه وخطاً عن شماله، ثم قال: (هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه)، ثم قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

فالواجب على كل مسلم يريد أن يحقق الحب الحقيقي للرسول صلى

الله عليه وسلم أن يتبع هديه، قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر: 7].

بل إن الله تعالى جعل علامة محبته في اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} آل عمران: 31].

فمن لم يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم وادعى محبته فهو كاذب في دعواه.

واسمع معي أخي المسلم إلى هذا النموذج لنتعلم كيف يكون الاتباع، سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه استلم الحجر الأسود وقال: "إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت الرسول صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك".

وكذلك موقف سيدنا أبي بكر في صلح الحديبية، فروى البخاري وغيره أن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بَلَى)، قَالَ رضي الله عنه: أَلَيْسَ قَتَلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بَلَى)، قَالَ رضي الله عنه: فَفِيمَ نُعْطَى الدِّيَّةَ فِي أَنْفُسِنَا، وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنَّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَكِنْ يُضَيِّعُنِي اللَّهُ).

قَالَ: فَانْطَلَقَ ابْنُ الْخَطَّابِ وَلَمْ يَصْبِرْ مُتَعِظًا، فَاتَى أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَلَيْسَ قَتَلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟، قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَعَلَى مَا نُعْطَى الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، قَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَكِنْ يُضَيِّعُهُ اللَّهُ أَبَدًا.

قَالَ: فَنَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ فَأَقْرَأَهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ فَتَحَ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ.

وكذلك في جيش أسامة....

فلقد ضرب الصحابة رضي الله عنه أروع الأمثلة في كيفية اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، أما نحن الآن فحدث ولا حرج، أصبح الكثير منا لا يتبع منهج الرسول صلى الله عليه وسلم ويتبع هواه، ومن الأمور التي تدل على ذلك: عدم الذكر بعد الصلاة..

والله تعالى قد حذرنا من عدم اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم واتباع الهوى، ورتب العقاب الشديد على ذلك، فقال تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: 115].

وقال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 36].

وقال تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا} * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا} [الطلاق: 8 - 11].

فالواجب على كل مسلم أن يتبع هدي الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يحقق الحب الحقيقي له صلى الله عليه وسلم.

الأمر الثالث: تحكيم الرسول في كل أمور الحياة:

فالواجب على مسلم يريد أن يحقق الحب الحقيقي للرسول صلى الله عليه وسلم أن يحكم الرسول صلى الله عليه وسلم في كل أمور الحياة، فقال تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: 59].

وقال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 65].

وروى البخاري في سبب نزول هذه الآية: أن رجلا من الأنصار خاصم

الزبير بن العوام في شراج الحرة، فقال الرسول: (اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك)، فقال الأنصاري رضي الله عنه: يا رسول الله: أن كان ابن عمتك؟، فتلون وجه الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم قال: (اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك)، قال الزبير رضي الله عنه: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك.

واسمع إلى ما قاله المولى تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} * وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور: 51، 52].

أما المنافقون الدجالون الكذابون الذين لا يجيدون إلا الرقص والطنبل والزمير والغناء، فإنهم لم يحكموا الرسول صلى الله عليه وسلم في كل أمور الحياة، وقد فضحهم الله تعالى في قرآنه، وذكر علامة عملية على نفاق قلوبهم، ألا وهي عدم تحكيم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} [النساء: 60، 61].

وقال تعالى: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ} * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ} * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [النور: 47 - 50].

الأمر الرابع: توقيره والتأدب معه:

ويكون هذا في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد مماته، فالله تعالى لم يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم باسمه مجرداً أبداً، فما من ذبي إلا ونادى عليه باسمه مجرداً، فقال تعالى: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: 35].

وقال تعالى: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [هود: 48].

وقال تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الصافات: 104، 105].

وقال تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِنِّي تُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران: 55].

وقال تعالى: {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص: 26].

وقال تعالى: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} [مريم: 7].

وقال تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} [مريم: 12].

أما النبي صلى الله عليه وسلم فالأمر يختلف، فحينما ينادي الله تعالى عليه، قال: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: 45]

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} [المائدة: 67].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ} [المائدة: 41].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} [المزمل: 1، 2].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ} [المدثر: 1، 2].

ولما ذكر الله تعالى اسم النبي، ذكر اسمه مقترناً بوصف النبوة والرسالة، فقال تعالى: {وَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الأحزاب: 40].

وقال تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: 144].

فهذه مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم عند الله تعالى، ولما علم الله تعالى مكانة نبيه صلى الله عليه وسلم، أنزل من فوق سبع سموات قرآناً،

ليعلم الله تعالى الصحابة رضوان الله عليهم والمؤمنين من بعدهم كيف يوقرون الرسول صلى الله عليه وسلم ويتأدبون معه، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الحجرات: 1].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: 2].

الأمر الخامس: عدم الغلو في مدحه:

والغلو هنا: مجاوزة الحد، ولقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن المغالاة في مدحه، فروى البخاري وأحمد والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، وإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله).

وروى ابن حبان أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: ((أيها الناس: ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي، إنما أنا عبد الله ورسوله).

والحق الذي يجب أن يقال: أن الغلو في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم قد بلغ عند بعض مدعي المدبة حداً خطيراً، حتى خلعوا عليه صفات الألوهية، ومنحوه بعض صفات الربوبية، فالرسول صلى الله عليه وسلم بشر، والمولى تعالى قد أعلن ذلك في القرآن الكريم، فقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [الكهف: 110].

وقال تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ} [يونس: 2].

وقال تعالى: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [ص: 4].

وقال تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: 129].

وقال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ

عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: 128].

وقال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [آل عمران: 164].

فالرسول صلى الله عليه وسلم بشر، وهذا لا ينقص من قدره صلى الله عليه وسلم.

* * *

حب الصحابة رضوان الله عليهم

حب الصحابة رضي
الله عنهم

أسباب نعيم القبر

حب الصحابة رضوان الله عليهم

الحمد لله رب العالمين: الذي نذر بقدرته البشر، وصرّف بحكمته وقدر، وابتعث محمداً إلى كافة أهل البدو والحضر، فأحلّ وحرّم، وأباح وحذّر، وابتلاه في بداية النبوة بمدارة من كفر، فدخل دار الأرقم فاختمى واستتر، إلا أن أعز الله تعالى الإسلام بأشخاص أفاض كأي بكر وعمر.

سبحانه: يغفر الذنوب، ويستتر العيوب، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما تفعلون، وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: وصف لنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفاً دقيقاً في قرآنه، فقال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيَّاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} [الفتح: 29].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: جعل حب الصحابة رضوان الله عليهم حباً له، وبغضهم بغضاً له، وأذيتهم أذية له، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي- بغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله أو شك أن يأخذه-).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

ما زال الحديث موصولاً في أسباب نعيم القبر، وها نحن اليوم مع سبب آخر من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: حب الصحابة رضوان الله

عليهم، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا اليوم:

الحقيقة الأولى: إن الله تعالى اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على الأولين والآخرين، واصطفى له خير الناس بعد النبيين، فجعلهم أصحابه، فأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هم خير الأمة، وأعظمهم فضلاً، وأعمقهم علماً، وأصدقهم إيماناً، وأبرهم قلباً، لا يشك في ذلك إلا جاهل أو حاقد، فهم مصابيح الدجى، وأئمة الهدى، شهدوا الوحي والتنزيل، وعلموا التفسير والتأويل، الأسبقون إلى الفضائل والكرامات، والمتبئون في الآخرة أعالي الجنات.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: 110].

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة أيضاً: فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، قَالَ عُمَرَانُ: فَمَا أَذْرِي قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ قَوْلِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا،) (ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَحُونُونَ وَلَا يُؤْتَمُّونَ، وَيَنْدُرُونَ وَلَا يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ-.

فأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هم قدر الله تعالى، اصطفاهم الله تعالى وانتقاهاهم واختارهم لنصرة دينه ونبيه صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [البقرة: 105].

وروى أحمد والبخاري والطبراني أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرَ

قُلُوبُ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَأَتَتْهُ بِرَسُولِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وَزَرَءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ.

فلا خير إلا في سبيلهم، ولا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق.
الحقيقة الثانية: إن ديننا الحنيف قد تميز عن سبقه من الأديان بمعجزة تتجدد في كل وقت وأن، ألا وهي معجزة الرجال، الذين عاشوا حياتهم للإسلام.

هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم لم يعرفوا للراحة طعماً، ولم يعهدوا الخمول إلى نفوسهم طريقاً، فكانوا حركة نشيطة لا تهدأ، لا تمل، لا يهتمهم من الحياة مالاً أو متاعاً، وحدوا همتهم في إرضاء الله تعالى، مدحوا من قلوبهم كل ذية تشوبها الشوائب، فكانوا خالسين لله تعالى، فأكرمهم الله تعالى بأن جعلهم من معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى الحاكم والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَنِي، وَاخْتَارَ لِي أَصْحَابًا، فَجَعَلَ لِي بَيْنَهُمْ وَزَرَءًا وَأَنْصَارًا وَأَصْهَارًا، فَمَنْ سَبَّهَمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ).

ولقد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نفتدي بهم، فروى البيهقي والحاكم وابن ماجه عن العرياض بن سارية قال: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَّظَنَا مَوْعِظَةً وَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّهَُا مَوْعِظَةٌ مُودَّعٌ، فَأَوْصِنَا، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ).

ولكن للأسف الشديد نسيت الأمة الآن هذه الوصية الغالية من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففرقت إلى فرق وأحزاب وشيع، ففعلت هذه

التفرقة بالأمة الأفاعيل.

الحقيقة الثالثة: إن أخبار الصحابة رضوان الله عليهم دواء للقلوب، وجلاء للألباب من الدنس والعيوب، وقدوة في زمن كادت القدوة أن تغيب فيه، فهم رضوان الله عليهم مثال يحتذى، ونبراس يُقتدى؛ ليعرف المتأخر للمتقدم فضلاً، فيسعى على دربه ونهجه.

فبالوقوف على أخبار هؤلاء الصحابة تحيا القلوب، وباقتفاء أثارهم تحصل السعادة، وبمعرفة سيرهم ومناقبتهم تحيا النفوس.

وإن معرفة أحوال الصحابة رضوان الله عليهم وأخلاقهم وسيرهم، لتتبرر الطريق أمام المؤمن الذي يريد أن يعيش أسوة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن هنا كان لزاماً علينا معرفة أخبارهم وسيرهم، ونشرها بين المسلمين عظة وذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

وإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا كالشمس للدنيا، وكالعافية للبدن، ولا ينكر فضلهم إلا أعمى البصر، ميت القلب، مشلول الضمير.

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى مسلم وأحمد وابن حبان أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: ((النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءُ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبَتْ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ)).

أي: النجوم ما دامت باقية، فالسمااء باقية، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في القيامة، وهنت السماء، فانفطرت، وانشقت، وذهبت.

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ، أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ- أي: من الفتن والحروب، وارتداد من الأعراب، واختلاف القلوب).

وقوله صلى الله عليه وسلم: ((وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي، أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ- أي: ظهور البدع والحوادث في الدين، والفتن فيه).

ولا أبالغ إذا قلت لكم: إن المسلمين بل الإنسانية كلها في أشد الحاجة

اليوم إلى معرفة فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكرم معدنهم، وأثر تربيته فيهم، وما كانوا عليه من علو المنزلة، التي صاروا فيها الجيل المثالي الفذ في تاريخ البشر كله.

وإن شباب الإسلام اليوم معذرون إذا لم يحسنوا التأسي بالجيل المثالي في الإسلام؛ لعدة أسباب:

السبب الأول: لأن الأمة قد عُرِزَتْ طويلاً عن دراسة تاريخ أسلافها، وأسهمت الأمة في دراسة التاريخ الفرعوني، وقد أفلح العدو الصهيوني في إحداث فجوةٍ سحيقةٍ بين ماضيها وحاضرها؛ لتظل غارقةً في نومها.

السبب الثاني: أن أخبار أولئك الأخيار قد طرأ عليها من التحريف والأغراض والبتّر والزيادة وسوء التأويل، في قلوب شَجِنَتْ بالغل على المؤمنين الأولين، فأنكرت عليهم حتى نعمة الإيمان.

وقد أصبح من الفرض الديني على كل من يستطيع تصحيح تاريخ صدر الإسلام، أن يعتبر ذلك من أفضل العبادات، وأن يبادر له، ويجتهد فيه ما استطاع، من أجل أن يكون أمام شباب المسلمين مثالاً صالح من سلفهم يقتدون به، ويجددون عهده، ويصلحون سيرتهم بصلاح سيرته.

السبب الثالث: لأننا الآن في زمن تطول فيه الأباعر على الأكابر! فأسأؤوا معهم الأدب، وخطوا من شأنهم، وحاولوا تهميش دورهم، وأنى لهم ذلك؟ وصدق الله تعالى: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ} [النحل: 25].

إخوة الإسلام:

لقد اهتم الشرع الحنيف اهتماماً بالغاً بالصحابة رضوان الله عليهم وحبهم، فتعالوا معي لتتعرف على مكانة الصحابة في القرآن الكريم:

أولاً: بين الله تعالى أنهم السابقون في الإسلام: فقال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: 100].

أي: لهم فضل الأسبقية، وكفى بها منقبة.

ثانياً: وصفهم الله تعالى بالصادقين: فقال تعالى: {الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يُبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصَرُّونَ لِلَّهِ وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحشر: 8].
والصادقين في أعلى درجات الجنة.

ثالثاً: وصفهم الله تعالى بالفلاح: فقال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُودْرِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9].

رابعاً: أعلن الله توبته عليهم: فقال تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: 117، 118].

خامساً: وصفهم بالشدة على الأعداء والرحمة فيما بينهم: فقال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: 29].

سادساً: وصفهم الله تعالى بالركع والسجد: فقال تعالى: {تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} [الفتح: 29].

سابعاً: أعلن الله تعالى رضاه عن الصحابة رضوان الله عليهم: فقال تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً} [الفتح: 18].

ثامناً: وعد الله ﷺ الصحابة رضوان الله عليهم الحسنى: فقال تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا

وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [الحديد: 10].

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف لماذا أوجب الشرع علينا حب الصحابة رضوان الله عليهم.

أقول: أوجب الشرع علينا حب الصحابة لعدة أسباب:

السبب الأول: لأن حب الصحابة رضوان الله عليهم من الإيمان، روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله).
السبب الثاني: لأن حب الصحابة رضوان الله عليهم حب للرسول صلى الله عليه وسلم، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي يبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله أو شك أن يأخذه).

ففي هذا الحديث يبين الرسول صلى الله عليه وسلم حالة من جعلهم غرضاً بعده صلى الله عليه وسلم، وسبهم وافتري عليهم، وعابهم، وكفرهم، واجترأ عليهم.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (الله الله - كلمة تحذير وإنذار، كما يقول المحذر: النار النار، أي: احذروا النار).

وقوله صلى الله عليه وسلم: (لا تتخذوهم بعدي غرضاً - أي: لا تتخذوهم عرضاً للسب والطعن).

وقوله تعالى: (فمن أحبهم فبحبي أحبهم - فهذا من أجل الفضائل والمناقب؛ لأن محبة الصحابة رضي الله عنه من محبة الرسول صلى الله عليه وسلم).

السبب الثالث: لأن الصحابة رضوان الله عليهم هم أفضل قرن على وجه الأرض، ما طلعت شمس ولا غربت على أشخاص أفضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النبيين.

فقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: 100].

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو شاء الله تعالى لقال: أنتم، فكنا كلنا، ولكن قال: {كُنْتُمْ} خاصة في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ومن صنع مثل صنيعهم، كانوا خير أمة أخرجت للناس.

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، قَالَ عِمْرَانُ: فَمَا أَذْرِي قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ قَوْلِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، (ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَحُونُونَ وَلَا يُؤْتَمُّونَ، وَيَنْذَرُونَ وَلَا يَنْفُونَ، وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ).

السبب الرابع: لأنهم لا قوا في سبيل الدعوة إلى الله تعالى ما لا قوا، وهناك بعض النماذج التي تدل على هذا.

النموذج الأول: سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه لما أسلم، أخذه عمه الحكم ابن أبي العاص بن أمية، فأوثقه رباطاً، وقال له: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟ لا أدلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه، فقال سيدنا عثمان بن عفان: والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه، فلما رأى الحكم صلابة عثمان بان بـ

عفان رضي الله عنه في دينه تركه.

النموذج الثاني: جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد عن مجاهد قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وبلال، وخباب، وصهيب، وعمار، وسمية أم عمار.

قال: فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمذعه عمه، وأما أبو بكر رضي الله عنه فمذعه قومه، وأخذ الآخرون فألبسهم أدراع الحديد، ثم صهروهم في الشمس حتى بلغ الجهد منهم كل مبلغ، فأعطوهم ما سألوا، فجاء كل رجل منهم قومه بأنطاع الأدم فيها الماء فألقوهم فيه وحملوا

بجوانبه إلا بلالاً.

فلما كان العشي جاء أبو جهل فجعل يشتم سمية ويرفث، ثم طعنها فقتلها، فهي أول شهيد استشهد في الإسلام، إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه في الله حتى ملوه، فجعلوا في عنقه حبلاً ثم أمروا صبيانهم أن يشدوا به بين أخشبي مكة، فجعل بلال يقول: أحد أحد.

النموذج الثالث: جاء في حلية الأولياء عن سعد قال: كنا قوماً يصيبنا ظلف العيش بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشدته، فلما أصابنا البلاء اعترفنا لذلك، ومرنا عليه، وصبرنا له، ولقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، خرجت من الليل أبول، وإذا أنا أسمع بقعقة شيء تحت بولي، فإذا قطعة جلد بغير، فأخذتها، فغسلتها، ثم أحرقتها، فوضعتها بين حجرين، ثم استفها، وشربت عليها من الماء، فقويت عليها ثلاثاً.

السبب الخامس: قوة عزيبتهم وصلابة إرادتهم، فهذه مدينة النبي صلى الله عليه وسلم تموج وتضطرب حيث ذهلت النفوس، وحارت العقول، وتشنجت الأعصاب، وذهب الحزم والصواب، وقد أشعل ذلك الإعلان المهيب وأشعل الفتنة، فارتدت القبائل عن الإسلام، وعطلت الجمعة، فلم تعد تقام إلا في مكة والمدينة، في مثل هذه الفتنة العمياء، ومواجهة المرتدين بحزم وبأس نادرين، فيأتيه أعقل الناس وأشدهم بأساً فـي ديين الله تعالي، يأتيه عمر رضي الله عنه فيقول: يا خليفة رسول الله: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقها وحسابهم على الله).

كيف تقاتلهم يا خليفة رسول الله؟ فيجيبه الصديق رضي الله عنه بلغة الواثق ومنطق المطمئن: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه.

ما هذا؟ إنها العزيمة الحديدية، والإرادة الفولاذية، التي لا تصلح السياسة إلا بها، لقد كان الصديق بدهائه الخارق يدرك أن أي إبطاء في تأديب المرتدين الساخرين من شرائع الإسلام، الراغبين في خلخلة وحدة الأمة من خلال تصرفاتهم اللامسؤولة، كان يدرك أن أي إبطاء في تأديب هؤلاء كفيل بإحداث انهيار مدمر وشرخ خارق في صرح الإسلام.

ذلك الصرح الذي بني بدماء القتلى والشهداء، وسُقي بأنهار من الدموع والبكاء، إنك لتعجب من موقف أبي بكر رضي الله عنه وإصراره على قتال المرتدين.

ولكنك تتعجب أكثر من عزمه في الوقت نفسه على إنفاذ جيش أسامة الواقف على أطراف المدينة، ويقسم صادقاً: والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لو جرت الكلاب بأرجل أمهات المؤمنين، وحتى لو لم يبق في المدينة غيري.

هذه العزيمة الخارقة والإرادة الصلبة سر من أسرار نجاحهم، وعامل من عوامل إبداعهم، وسبب من أسباب حبنا لهم.

السبب السادس: إثباتهم ما عند الله تعالى، وتقديم الآخرة على الفانية، انطلاقاً من قول الله تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 96].
واسمع معي إلى هذه النماذج ليتبين لنا هذا.

النموذج الأول: هذا أبو خيثمة يرجع إلى أهله في يوم شديد الحر لافح السموم، فيجد امرأته في عريش لهما، داخل بستان وقد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت فيه ماءً، وهيات طعاماً، فلما دخل وقف على باب العريش فنظر إلى زوجتيه ما صنعتا له، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهياً، وامرأة حسنة.

ما هذا بالعدل، والله لا أدخل عريشاً واحدة منكما حتى ألتحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، فهيئاً له زاداً فارتحل لاحقاً برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك.

انظر يا من رعاك الله كيف يكون الزهد في العرض الزائل والمتاع الرخيص إثارةً لما عند الله، ماءً بارداً، وطعامٌ مهياً، وزوجةٌ حسناء، وروضةٌ غناء، فلا يكثر ثلشيء منها ولا يلتفت يعباً بها، ولكن هيئوا لي دابتي، واحزموا لي متاعي، فليس من الإنصاف أن أهنأ بالنعيم ورسول الله في الضح والحر.

النموذج الثاني: يركب أبو ذر الغفاري رضي الله عنه بعيره لاحقاً برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك أيضاً، فيستعصي عليه بعيره ويصعب عليه قياده، فينطلق ماشياً على قدميه يشق المغاور وحده، تحرقه الشمس ويلفحه السموم وتسمه الريح، فلما هذا يا صاحب رسول الله؟ أما كان يسعك أن تتعجل عائداً إلى المدينة بعد أن فقدت الظهر، واستعصت عليك دابتك؟ لما كل هذا العناء؟ لما كل هذا يا صاحب رسول الله؟ إنه الإيثار لما عند الله تعالى، والحماسة لهذا الدين، والإخلاص لندصرتة، لذا لم يكن استعصاء بعير أبي ذر يحتاج منه إلى مراجعة حساباته لينظر أينطلق إلى تبوك أم يعود إلى المدينة؟.

السبب السابع: لأنهم أنفقوا أموالهم كلها في سبيل الله ﷻ، واسمع معي إلى هذا النموذج، فروى أبو داود والترمذي عن زيد بن أسلم عن أبيه، قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق، فوافق ذلك مالا، فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أبقيت لأهلك؟) - قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (يا أبا بكر: ما أبقيت لأهلك؟) - قال رضي الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: والله لا أسبقه إلى شيء أبداً.

السبب الثامن: لأن الصحابة أمانة لأمة الرسول صلى الله عليه وسلم: فروى مسلم وأحمد وابن حبان أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّاءُ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ).

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف كيف يحقق المسلم فينا الحب الحقيقي لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالمسلم فينا لا يستطيع أن يدقق الحب لهم إلا باتباع الأمور التالية:

الأمر الأول: احترامهم وتوقيرهم:

وهذا الاحترام وذلك التوقير معناه: أن يعترف كل مسلم وموحد بسبقهم وفضلهم.

يقول الإمام الطحاوي: وذهب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من ييغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان.

وقال بعض العلماء: إذا رأيت الرجل ينتقض أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق، وذلك لأن الرسول حق، والقرآن حق، وما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم حق، والذي بلغنا ذلك كله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هم أصحابه رضوان الله عليهم، فهؤلاء لا يريدون أن يهدموا الصحبة؛ ليبطلوا القرآن والسنة، وأنى لهم ذلك، فقد قال تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [الصف: 8].

الأمر الثاني: عدم سبهم والنيل منهم:

إن الرسول صلى الله عليه وسلم حذرنا من سب الصحابة رضوان الله عليهم أو النيل منهم، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ).

قال النووي: وَسَبَبُ تَفْضِيلِ نَفَقَتِهِمْ أَنَّهَا كَانَتْ فِي وَفْتِ الضَّرُورَةِ وَضِدِّقِ الْحَالِ، بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ، وَلَئِنْ إِنْفَاقَهُمْ كَانَ فِي نُصْرَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحِمَايَتِهِ، وَذَلِكَ مَعْدُومٌ بَعْدَهُ، وَكَذَا جِهَادُهُمْ وَسَائِرُ طَاعَتِهِمْ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً} [الحديد: 10].

هَذَا كُلُّهُ مَعَ مَا كَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الشَّقَقَةِ وَالتَّوَدُّدِ وَالْخُشُوعِ وَالتَّوَاضُّعِ
وَالْإِيثَارِ وَالْجِهَادِ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَفَضِيلَةِ الصُّحْبَةِ، وَلَوْ لَحْظَةً لَا
يُؤَازِيهَا عَمَلٌ، وَلَا تُنْذَلُ دَرَجَتُهَا بِشَيْءٍ، وَالْفَضَائِلُ لَا تُؤْخَذُ بِقِيَاسٍ، ذَلِكَ
فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

ومن سب الصحابة رضوان الله عليهم مستحلاً ذلك، فقد كفر، وإن لم
يكن مستحلاً، فسق ولم يكفر، وقد ذهب بعض العلماء: إلى قتل من سب
الصحابة.

قال الإمام أحمد بن حنبل: وخير هذه الأمة بعد النبي صلى الله عليه
وسلم أبو بكر، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أبي بكر رضي الله
عنه، وعثمان بن عفان رضي الله عنه بعد عمر ابن الخطاب رضي الله
عنه، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد عثمان بن عفان رضي الله
عنه، ووقف قوم، وهم خلفاء راشدون مهديون، ثم أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم بعد هؤلاء الأربعة خير الناس، لا يجوز لأحد أن
يذكر شيئاً من مساوئهم، ولا يطعن على أحد منهم بعيب، ولا نقص، فمن
فعل ذلك فقد وجب تأديبه وعقوبته، وليس له أن يعفو عنه، بل يعاقبه،
ويستتبيه، فإن تاب قبل منه، وإن ثبت أعاد عليه العقوبة، وخلده في
الحبس، حتى يموت أو يراجع.

فهذه عقوبة من يسب الصحابة في الدنيا، فما بالك بالعقوبة الأخروية،
لا شك أنه أعظم وأخطر وأسوأ عقوبة، وليس أدل على ذلك من قول
الرسول صلى الله عليه وسلم: (الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي،
فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي- بغضهم، ومن آذاهم فقد
آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله أو شك أن يأخذه-.

الأمم الثالث: عدم الخوض فيما شجر بينهم:

يقول ابن تيمية: وأهل السنة والجماعة يمسكون عما شجر بين الصحابة
رضوان الله عليهم، ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساوئهم، منها ما
هو كاذب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص.

وسئل ابن تيمية عن يلعن معاوية، فماذا يجيب عنه؟

فقال: ومن لعن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه مستحق للعقوبة البليغة، باتفاق أئمة الدين.

ولما سئل أحمد بن حنبل عمن تنقص معاوية وعمرو: أيقال له رافضي؟ فقال: إنه لم يجترأ عليهما إلا وله خبيثة سوء، وما انتقص أحد أحداً من الصحابة إلا وله داخله سوء.

وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم عدم الخوض في أمر يسيء إلى أصحابه علامة من علامات الإيمان، فقال: (إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا).

وقد يقول قائل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا تَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَأَلْقَا تِلْ وَالْمُقْتُولُ فِي النَّارِ-، فكيف توجه هذا الحديث؟ قال الإمام الخطابي: هذا إنما يكون كذلك إذا لم يكونا على تأويل، إنما يقتتلان على عداوة بينهما وعصبية، أو طلب دنيا، أو رئاسة، أو علو.

الأمر الرابع: الترضي عنهم والدفاع عن أعراضهم:

فالواجب على كل مسلم كلما ذكر أحد من الصحابة أن يقول: رضي الله عنه، وينبغي على المسلم أن يدافع عنهم ويذب عن أعراضهم، إذا ما حاول طاعن من الطاعنين، أو مارق من المارقين أن يخوض بكلمة سوء في حقهم، وذلك من كمال الإيمان وتمام الإسلام.

وقد جاءت السنة والأحاديث النبوية تحض المسلم أن يدافع عن أخيه المسلم، ويذب عن حرمة، فما بالك بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فما بالك بخير قرون الإسلام؟ فما بالك بالذين رفعوا راية الإسلام عالية خفاقة؟ ما بالك بالذين نشروا الإسلام في البلاد، فروى ابن أبي شيبة وغيره أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من ذب عن عرض أخيه بظهر الغيب، كان حقاً على الله أن يعتقه من النار).

روي أن زين العابدين علي بن الحسين أتاه زفر من أهل العراق، فقالوا في أبي بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم فلما فرغوا قال: ألا تخبروني أنتم المهاجرون الأولون: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ

هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحشر: 8].

قالوا: لا.

قال: فأنتم {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُودْرِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَنَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9].

قالوا: لا.

قال: أما أنتم فقد تبرأتم أن تكونوا من أحد هذين الفريقين، ثم قال: أشهد أنكم لستم من الذين قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10].

الأمر الخامس: الدعاء والاستغفار لهم:

وهذا أمر يغيب على كثير من الناس، بل كثير من خواص المسلمين من يغفل هذه القضية، بل البعض من طلبه العلم لا يعلم أن من حق الصحابة رضوان الله عليهم عليه أن يدعو لهم وأن يستغفر لهم.

من حق الصحابة الكرام رضوان الله عليهم على كل من جاء بعدهم من عباد الله المؤمنين أن يدعو لهم ويستغفر لهم ويترحم عليهم، وذلك لما لهم من الفضل على من أتى بعدهم. قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10].

وقد فهم أهل السنة والجماعة أن المراد من الآية السابقة الأمر بالدعاء والاستغفار من اللاحق للسابق، ومن الخلف للسلف الذين هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* * *

حب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

حب آل بيت رسول الله
صلى الله عليه وسلم

أسباب نعيم القبر

حب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

الحمد لله رب العالمين: الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه، ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة؛ لعلكم تشكرون.

سبحانه: أشهد له بالوحدانية، وأقر له بالربوبية، فلا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه، جلّ في علاه، فقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: 26].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: أعلن عن طهارة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: 33].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: جعل حب آل بيته حباً له صلى الله عليه وسلم، فروى الترمذي والطبراني والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْدُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّوا لِحُبِّ اللَّهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي).

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

ما زال الحديث موصولاً في أسباب نعيم القبر، وها نحن اليوم مع سبب آخر من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: حب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا اليوم:

الحقيقة الأولى: إن الانتساب إلى آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ليس تشريفاً، ولا هروباً من الأحكام الشرعية، وليس تواكلاً على القرابة، وإنما هو زيادة في التكاليف الشرعية، وعبء في المسؤولية، فليس القرب من النبي صلى الله عليه وسلم يجوز التكاسل في أحكام الله تعالى وشرعه، أو يجعل الشخص ينال الذجاة في الآخرة دون تقوى وعمل صالح، فكل عباد الله تعالى في ميزان الله تعالى سواء.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ} * فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} [المؤمنون: 101 - 103].

وقال تعالى في شأن أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} * وَمَن يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا} [الأحزاب: 30، 31].

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن القرابة لا تنفع صاحبها لا في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك إذا امتنع عن منهج الله تعالى.

أما في الدنيا: فروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن قُرَيْشًا أَهَمَّتْهُمْ الْمَرْأَةُ الْمَخْزُومِيَّةَ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَنْ يَجْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حَبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟) ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ، فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّمَا ضَلَّ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا).

وأما في الآخرة فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ).

وروى مسلم أن عائشة رضي الله عنها قالت: لَمَّا نَزَلَتْ: {وَأَنْذِرْ

عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّفَا فَقَالَ: (يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ).

وروى البيهقي قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} فقال: (يا معشر قريش: اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت محمد سأليني ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا).

فمدار الذجاة على الأعمال الصالحة، لا على الأحساب والأنساب، فقال تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: 13]. وهل أفادت قرابة أبي لهب من الرسول صلى الله عليه وسلم؟ ولقد بشره الله تعالى بالنار وهو على قيد الحياة، فقال تعالى: {رَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ} [المسد: 1 - 5].

وكذلك الحال مع أبي طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي كان يدافع عنه ضد أعداء الدعوة الإسلامية من قريش، فروى البخاري ومسلم عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَكَرَ عِنْدَهُ عَمَّهُ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلَ فِي صَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ، يَبْلُغُ كَعْبِيهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاعُهُ).

الحقيقة الثانية: إن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى أمته بآل بيته، وذلك

منه صلى الله عليه وسلم، واتصالهم بذسبه، ولنصرتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحلك الظروف، وأشد الأزمات، منذ بدء الدعوة، فروى مسلم عن زيد بن أرقم أن الرسول صلى الله عليه وسلم وقف خطيباً فقال: (أَمَّا بَعْدُ: أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ، أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ

وَأَسْتَمْسِكُوا بِهِ، وَأَهْلُ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي.

ومن هنا احتل آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفوس المؤمنين مكانة رفيعة، وعرف المسلمون لهم هذا الفضل، واسمع معي إلى هذه النماذج من حب الصحابة لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

النموذج الأول: كان أبو بكر رضي الله عنه يحب صلة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل بيته، فروى البخاري ومسلم أن أبا بكر رضي الله عنه قال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ: لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي".

وروى البخاري أن أبا بكر رضي الله عنه قال: "ارقبوا محمداً صلى الله عليه وسلم في أهل بيته" أي: احفظوه فيهم؛ فلا تؤذوهم، ولا تسيؤوا إليهم.

وكان أبو بكر رضي الله عنه قد توسط لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه في زواجه بفاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، وساعده فيه، كما كان أحد الشهود على نكاحه بطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا ما يرويه أحد علماء الشيعة ويسمى بشيخ الطائفة أبي جعفر الطوسي عن الضحاك بن مزاحم، أنه قال: سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: أتاني أبو بكر وعمر، فقال لي: لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له فاطمة، قال: فأتيته، فلما رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك، ثم قال: (ما جاء بك يا علي، وما حاجتك؟) - قال: فذكرت له قرابتي، وقدمي في الإسلام، ونصرتي له، وجهادي، فقال صلى الله عليه وسلم: (يا علي: صدقت، فأنت أفضل مما تذكر،) فقلت: يا رسول الله، فاطمة تزوجنيها.

بل إن أبا بكر رضي الله عنه هو الذي اشترى لفاطمة ما يناسبها في الزواج، فروى الطوسي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه باع درعه، وأتى بثمنه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم قبض الرسول صلى الله

عليه وسلم من الدراهم بكتلتا يديه، فأعطاهما أبا بكر رضي الله عنه، وقال: (ابتع لفاطمة ما يصلحها من ثياب وأثاث البيت).

وأردفه بعمار بن ياسر وبعده من أصحابه، فحضرُوا السوق، فكانوا يعرضون الشيء مما يصلح، فلا يشترونه حتى يعرضوه على أبي بكر، فإن استصلحه اشتروه، حتى إذا استكمل الشراء، حمل أبو بكر بعض المتاع، وحمل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كانوا معه.

النموذج الثاني: كان عمر بن الخطاب يجلس أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم أكثر مما يجلس أهل بيته هو، وكان يحترمهم ويقدمهم في الحقوق والعطاء على نفسه وأهل بيته، فروى الطبراني ورجاله رجال الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للعباس رضي الله عنه: "فَوَاللَّهِ لَأَسْلَمُكَ يَوْمَ أَسْلَمْتُ، كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ، وَمَا بِي إِلَّا أَنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ إِسْلَامَكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ".

ولقد تزوج عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أم كلثوم بنت علي بن أبي

طالب رضي الله عنه وأُمها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنها صغيرة! فقال عمر رضي الله عنه: إنني لم أَرِدْ حَيْثُ ذَهَبْتُ، لَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (كُلُّ نَسَبٍ وَسَبَبٍ يَنْقُطُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا سَبِيَّ وَصَهْرِي)، فأردت أن يكون لي سبب وصهر برسول الله صلى الله عليه وسلم، فتزوجها، وأمهرها عشرة آلاف دينار.

وفي نفس الوقت كان آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبون أبا بكر وعمرًا، فروى البخاري عن مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي: "أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟" قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ، قَالَ: مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ".

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "وُضِعَ عُمَرُ عَلَى

سريره، فَكَتَفَهُ النَّاسُ يَدْعُونَ وَيُصَلُّونَ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ، وَأَنَا فِيهِمْ، فَلَمْ يُرْغَبِي إِلَّا رَجُلٌ أَخَذَ مِنْكِبِي، فَإِذَا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَتَرَحَّمَ عَلَيَّ عُمَرُ، وَقَالَ: مَا خَلَفْتَ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ، وَأَيْمُ اللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَا ظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ، وَحَسِبْتُ إِنْ كُنْتُ كَثِيرًا أَسْمَعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ).

قال ابن حجر: وفي هذا الكلام أن علياً كان لا يعتقد أن لأحد عملاً في ذلك الوقت، أفضل من عمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الحقيقة الثالثة: من هم آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم؟ لقد اختلف العلماء في تحديد آل البيت إلى مذاهب متعددة، وذلك على النحو التالي:

الرأي الأول: أن آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم من حرمت عليه الصدقة، وهم بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، واستدل أصحاب هذا الرأي بما يأتي:

1 - ما رواه مسلم عن زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ رضي الله عنه قال: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فِيْنَا خَطِيبًا يَمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، فَحَمَدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَوَعَظَ، وَذَكَرَ، ثُمَّ قَالَ: (أَمَّا بَعْدُ: أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ).

فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: (وَأَهْلُ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي).

فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدٌ؟ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مِنْ حُرْمِ الصَّدَقَةِ بَعْدَهُ، قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ، وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُلُّ هَؤُلَاءِ حُرْمِ الصَّدَقَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ.

2 - روى البخاري والنسائي عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: مَشَيْتُ أَنَا وَعُثْمَانُ

بُنْ عَفَّانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُعْطِيتَ بَنِي الْمُطَّلِبِ وَتَرَكْنَا، وَنَحْنُ وَهُمْ مِنْكَ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّمَا بَنُو الْمُطَّلِبِ وَبَنُو هَاشِمٍ شَيْءٌ وَاحِدٌ).

3 - روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أَتَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَمْرٍ مِنْ تَمَرِ الصَّدَقَةِ، فَأَمَرَ فِيهِ بِأَمْرِهِ، فَحَمَلَ الْحَسَنَ أَوْ الْحُسَيْنَ عَلَى عَاتِقِهِ، فَجَعَلَ لُعَابُهُ يَسِيلُ عَلَيْهِ، فَظَنَرَ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ يَلُوكُ تَمْرَةً، فَحَرَكَ خَدَّهُ، وَقَالَ: (أَلْقَهَا يَا بُنَيَّ، أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ آلَ مُحَمَّدٍ لَا يَأْكُلُونَ الصَّدَقَةَ).

الرأي الثاني: ذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن المراد من آل بيت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم أزواجه فقط، واستدلوا بما يأتي:

1 - قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرًا حَيْثُ أَهْلًا بِجَمِيلٍ * وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَن يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا * وَقرن في بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} [الأحزاب: 28 - 33].

فالخطاب في هذه الآيات كلها موجه إلى أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقط، ولعل هذا يدعونا إلى التساؤل: إذا كان الأمر كذلك، فلم لم يعبر عنهم بنون النسوة، بدلا من ميم الجماعة؟

الجواب على هذا التساؤل: أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو رأس أهل بيته، وهو داخل بلا شك في الآية مع نسائه، كما قال تعالى في سيدنا

إبراهيم عليه السلام: {قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيمٌ} [هود: 73].

مع أن الخطاب لامرأة سيدنا إبراهيم عليه السلام، ولكنه لما دخل إبراهيم عليه السلام وزوجته في مسمى أهل البيت، عبر عنهم جميعاً بميم الجماعة في قوله تعالى: {رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ} تغليباً.

بل إن إطلاق تسمية أهل على الزوجة وارد في قوله تعالى عن سيدنا موسى عليه السلام: {فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} [القصص: 29].

مع أنه لم يكن مع موسى عليه السلام سوى زوجته، فما العجب في أن تعني الآية نساء النبي صلى الله عليه وسلم، وتستخدم في حقهن ميم الجماعة.

ومما يؤكد أن الآية لم تنزل في أصحاب الكساء رضوان الله عليهم بل في نساء النبي خاصة، حديث الكساء نفسه، ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الكساء دعا لأصحاب الكساء، بأن يذهب الله تعالى عنهم الرجس بقوله: (اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس).

فإذا كانت الآية نزلت فيهم، وقد أخبر الله فيها بإذهاب الرجس، فما الداعي لدعاء كهذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! وإنما أراد رسول الله من دعائه هذا أن يضم الله تعالى أصحاب الكساء وهم من أهل بيته بلا ريب إلى نساءه اللاتي نزلت فيهن الآية، في المعنى الذي تضمنته الآية، وهو إرادة التطهير، ورفع الرجس.

2 - روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: " مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ خُبْزٍ بَرٍّ مَادُومٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ تَعَالَى ".

3 - روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ

مُحَمَّدٍ قُوتًا-، ومعلوم أن هذه الدعوة خاصة بأزواجه صلى الله عليه وسلم، فكان رزقهن قوتاً، وما كان يحصل لأزواجه بعد من الأموال، كن يتصدقن به، ويجعلن رزقهن قوتاً.

4 - روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل في حجرة عائشة رضي الله عنها فقال: (السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله-، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته).

الرأي الثالث: ذهب أصحاب هذا الرأي أن أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم هم: أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلي بن أبي طالب، وفاطمة، والحسن، والحسين، واستدلوا بما يأتي:

1 - قال الله تعالى: {وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيراً} [الأحزاب: 32].

2 - روى الطبراني عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عِنْدَهَا وَفِي بَيْتِهَا ذَاتَ يَوْمٍ، فَجَاءَتِ الْخَادِمُ، فَقَالَتْ: إِنَّ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ بِالسُّدَّةِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تَنَحَّيْ لِي عَنْ أَهْلِ بَيْتِي-، فَتَنَحَّيْتُ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، وَجَاءَ عَلِيٌّ، وَفَاطِمَةُ، وَحَسَنٌ، وَحُسَيْنٌ، وَهُمَا صَبِيَّانِ صَغِيرَانِ، فَأَخَذَ حَسَنًا وَحُسَيْنًا، وَوَضَعَهُمَا فِي حَجْرِهِ، وَأَخَذَ عَلِيًّا بِإِحْدَى يَدَيْهِ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَغَدَقَ عَلَيْهِمْ قُطِيفَةً سَوْدَاءَ، ثُمَّ قَالَ: (اللَّهُمَّ إِلَيْكَ لَا إِلَهَ إِلَّا النَّارُ، أَنَا وَأَهْلُ بَيْتِي-، قَالَتْ: فَنَادَيْتُهُ، فَقُلْتُ: وَأَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (وَأَنْتِ-).

الرأي الرابع: ذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن آل البيت هم: علي بن أبي طالب، والحسن، والحسين، دون غيرهم، واستدلوا بما يأتي:

1 - روى الترمذي عن عمر بن أبي سلمة قال: لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً} [الأحزاب: 32] في بيت أم سلمة، فدعا فاطمة، وحسناً، وحسيناً، فجلبهم بكساء، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه خلف ظهره، فجلبهم بكساء، ثم قال: (اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً-، قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله؟ قال: (أنت على مكانك، وأنت على خير-).

2 - روى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: (الصلاة يا أهل البيت، ثم يقرأ قول الله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً} [الأحزاب: 32].

وهذا الرأي خاص بالشيعة، فقد حصروا أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم في هؤلاء الأربعة: علي، وفاطمة، والحسن، والحسين رضوان الله عليهم، وأخرجوا منهم كل من سواهم، ثم اخترعوا طريقة أخرى فأخرجوا أولاد علي غير الحسينين من أهل البيت، ولا يعدون بقية أولاده من أهل البيت من محمد ابن الحنفية، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، والعباس، وجعفر، وعبد الله، وعبيد الله، ويحيى، ولا أولادهم من الذكور الاثنى عشر، ولا من البنات الثماني عشر ابنة.

كما أخرجوا بنات السيدة فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث لا يعدون بناتها زينب وأم كلثوم ولا أولادهما من أهل البيت، وهذه نكتة وطريفة، ومثل هذا الحسن بن علي، حيث لا يجعلون أولاده داخلين في أهل البيت، وكذلك أخرجوا من أولاد الحسين من لا يهوي هواهم، ولا يسلك مسلكهم، ولا ينهج منهجهم.

إخوة الإسلام:

لقد اهتم الشرع الحنيف اهتماماً بالغاً بآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتعالوا معي لتتعرف على موقف الشرع من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم.

لقد جعل الدين الإسلامي محبة أهل البيت والولاء لهم عنصراً أساسياً من عناصر العقيدة، ومقومات الإيمان، ولقد جاءت الآيات القرآنية تؤكد هذا المبدأ.

فقال تعالى: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} [الشورى: 23].

روى الطبراني في معجمه الكبير في تفسير هذه الآية: عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}

[الشورى: 23]، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ قَرَأَبَدُّكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَجَبَتْ عَلَيْهِمْ
مَمَاتُهُمْ؟

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (عَلِيٌّ، وَفَاطِمَةُ، وَابْنَاهُمَا).

وقال ابن كثير في تفسير قول الله تعالى: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}: ولا نذكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم، وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخرًا، ودسبًا، وذسبًا، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه، وعلي وأهل ذريته.

وهذه الآية تدل على وجوب المودة والمحبة لأهل البيت، الذين نص عليهم الحديث، يقول الإمام الرازي: لا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحب فاطمة، لما رواه البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، فَمَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي، وفي رواية مسلم: أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي، يُؤْذِنُنِي مَا آذَاهَا). وثبت بالنقل المتواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب عليًا، والحسن، والحسين، وإذا ثبت هذا فالواجب على الأمة أن تحب ما كان يحبه الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لقول الله تعالى: {وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: 185].

ولقوله تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 63].

ولقوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: 21].

ويقول الرازي أيضاً: أن الدعاء للآل منصب عظيم، ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة، وهو قوله: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل، فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب.

وقال الشافعي (رحمه الله):

يا أهل بيت رسول الله حبكم :: فرض من الله في القرآن أنزله

ومن الآيات التي تدل على وجوب حب آل البيت، قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} [مريم: 96].

فقد روي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: (يا علي: قل: رب اقذف لي المودة في قلوب المؤمنين، رب اجعل لي عنك عهداً، رب اجعل لي عندك وداً،، فأُنزل الله تعالى قوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} [مريم: 96]. فلا تلقى مؤمناً ولا مؤمنة إلا وفي قلبه ود لأهل البيت.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في تفسير قول الله تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا مَنَّهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [القصص: 84]: الحسنه: حبنا أهل البيت، والسيئة: بغضنا، ثم قرأ الآية.

وقال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28]، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية قال: (ذاك من أحب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأحب أهل بيتي صادقاً غير كاذب، وأحب المؤمنين شاهداً وغائباً، ألا بذكر الله يتحابون).

وعلى نفس نهج القرآن تحدثنا السنة النبوية على حب آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (وَأَهْلُ بَيْتِي، أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي).

وروي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم، وحب أهل بيته، وقراءة القرآن).

ولقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن حبنا لأهل البيت هو حب للرسول صلى الله عليه وسلم، فروى الترمذي والطبراني والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُم مِّنْ نِّعَمِهِ، وَأَحِبُّوا اللَّهَ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي حُبِّي).

وعن زيد بن أرقم قال: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمرت فاطمة وهي خارجة من بيتها إلى حجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال: (من أحب هؤلاء فقد أحبني، ومن أبغضهم فقد أبغضني).

بل جعل الرسول صلى الله عليه وسلم حب أهل البيت عبادة، فروى الطبراني في الأوسط والكبير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَأَهْلِي أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ، وَذَاتِي أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ ذَاتِي).

وبين الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى سيُسأل العبد يوم القيامة عن محبته لأهل البيت، فروى الطبراني في الأوسط أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيْمَا أَفْتَأَهُ، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيْمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ فِيْمَا أَنْفَقَهُ وَمَنْ أَتَى كَسْبَهُ، وَعَنْ حُبِّمَا أَهْلَ الْبَيْتِ).

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف كيف يحقق المسلم فينا الحب الحقيقي لآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم.

أولاً: احترامهم وتوقيرهم:

فالواجب على كل مسلم أن يحترم أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، فاحترام أهل البيت ما هو إلا إجلالاً ومحبة للرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا كان من البر بعد الموت أن يصل الرجل ود أبيه، فإن من أعلى أنواع البر: أن نصل أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، باحترامهم، وتوقيرهم، ومحبتهم.

وإذا كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول بعد موت عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " لو أن عمر أحب كلباً، كان أحب الكلاب إلي " فهل يعقل أن يكره مسلم أحداً من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم أتقى الناس، وأبرهم قلوباً، وأعمقهم علماً، وأخشاهم لله تعالى.

ولذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم يوقرون آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، فروى البخاري ومسلم أن أبا بكر رضي الله عنه

قال: " والذي نفسي بيده لقراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي أن أصل من قرابتي " .

وروى البخاري أن أبا بكر رضي الله عنه قال: " ارقبوا محمدا صلى الله عليه وسلم في أهل بيته " أي: احفظوه فيهم؛ فلا تؤذوهم ولا تسيئوا إليهم.

وقد كان أبو بكر رضي الله عنه يحب ويجل الحسن والحسين ويمازحهما، فقد روى البخاري عن عقبة بن الحارث قال: " صَلَّى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْعَصْرَ، ثُمَّ خَرَجَ يَمْشِي، فَرَأَى الْحَسَنَ يَلْعَبُ مَعَ الصَّبِيَّانِ، فَحَمَلَهُ عَلَى عَاتِقِهِ، وَقَالَ: يَا بَنِي شَيْبَةَ النَّبِيِّ لَا شَيْبَةَ بَعْلِي، وَعَلِيٌّ يَضْحَكُ " .

وروي أن قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنك تصنع بعلي - يعني من الإكرام - شيئا لا تصنعه بأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنه مولاي.

ثانيا. متابعة آل البيت،

فمتابعة آل البيت في هديهم دليل على محبة التابع لهم، وقد انقسم الناس تجاه آل البيت إلى فريقين:

الفريق الأول: غلاة الشيعة، وجهال الصوفية: وهؤلاء ارتكبوا باسم حب آل البيت من الشراكيات والبدع ما يهتز له عرش الرحمن، فالشيعة يقولون: إن الأئمة عليهم السلام عندهم جميع الكتب التي نزلت من عند الله تعالى، وأنهم يعرفونها على اختلاف ألسنتهم.

ويقولون: إن الأئمة يعلمون متى يموتون، وأنهم لا يموتون إلا باختيارهم، ويقولون: إن الأئمة يعلمون علم ما كان، وما يكون، وأنه لا يخفى عليهم شيء، وهذا كله بهتان عظيم.

وأما جهال الصوفية: فحدث ولا حرج، تمشح بالأضرحة، استعانة بغير الله تعالى، طواف سبعة أشواط حول القبور، طلب المدد من غير الله تعالى، الاختلاط بالنساء، والخلوة بهن في الموالد، تقبيل أعتاب الأضرحة والتمسح بها، ونداءها لنيل الشفاء وتقريج الكرب.

الفريق الثاني: أهل السنة والجماعة: فعقيدة أهل السنة والجماعة في آل

البيت، أنهم يحبون المؤمنين منهم، ويرون أن المؤمن من آل البيت له حقان: حق الإيمان، وحق القرابة.

ويرون أنهم ما شرفوا إلا لقربهم من الرسول صلى الله عليه وسلم، وليس هو الذي شرف بهم، ويتبرؤون من طريقة من يغالون في حبهم، كالذين رفعوا بعضهم إلى مقام العصمة.

ويرون أن آل البيت على مراتب ومنازل، وإنهم وإن تميزوا، فلا يعني أن لهم الفضل المطلق على غيرهم في العلم والإيمان، فالثلاثة: أبو بكر، وعمر، وعثمان رضوان الله عليهم، أفضل من علي، وإن امتاز عليهم بخصوصيات.

روى البخاري عن مُحَمَّدِ بْنِ الْهَنْفِيَّةِ قَالَ: (قُلْتُ لِأَبِي: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ، قَالَ: مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ).

ثالثاً: الصلاة عليهم:

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم كيفية الصلاة عليه، وأن الصلاة على آله تبع للصلاة عليهم، فروى البخاري ومسلم أن أبا حميد الساعدي رضي الله عنه أنهم قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ).

* * *

الاتباع

الاتباع

أسباب نعيم القبر

الاتباع

الحمد لله رب العالمين: أنزل الكتاب المكنون، وأرسل السحاب المتون، تكونت بقدرته الأشياء، وتوالت برحمته الآلاء، واندشت بحكمته الأرض والسماء، وكتب بمشيئته السعادة والهناء، فيرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون.

سبحانه: أراد لعباده الخير والبر، وطلب من عباده إقامة منهج العدل والفضيلة، فقال تعالى: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} [البقرة: 138].

وقال تعالى: {أَفْحَكَمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: 50].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: بين لنا أن السعادة والهداية في اتباع منهجه ﷺ، فقال تعالى: {قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} [طه: 123 - 127].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: أوجب علينا جميعاً الاتباع، فروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (دعوني ما تركتكم عليه، فإنما أهلك من كان قبلكم: سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم).
فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام،

الاتباع وليس الابتداع: هذا هو عنوان لقائنا مع حضراتكم اليوم،

فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك وهو القادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا اليوم :

الحقيقة الأولى: إن من أكبر النعم التي أنعم الله تعالى علينا جميعاً، أن أكمل لنا الدين، فلا نحتاج إلى دين غيره، ولا نحتاج إلى رسول غير الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولهذا جعل الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، وبعثه إلى الإنس والجن، فقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ: 28].

فلا حلال إلا ما أحل الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا حرام إلا ما حرمه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا دين إلا ما شرعه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3]. وقال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام: 115].

وبالتالي لا يجوز لأي فرد منا مهما بلغ أن يزيد في دين الله تعالى شيئاً، أو ينقص من دين الله تعالى شيئاً؛ لأن هذا العمل (الزيادة أو النقصان) اتهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالخيانة، واتهم الله تعالى بالتقصير.

يقول الإمام مالك: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم خان الرسالة؛ لأن الله تعالى يقول: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3].

الحقيقة الثانية: إن الله تعالى فرض علينا اتباع سبيله، وما شرع من الدين القويم، اقرأ معي قول الله تعالى وهو يوضح هذه الحقيقة، فيقول: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

ويقول تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: 108].

فإن الله تعالى بين لنا أن له سبيلاً واحداً، سماه صراطاً؛ لأنه أقرب طريق إلى الحق والخير والسلام.

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة أيضاً، فروى أحمد وغيره أن الرسول صلى الله عليه وسلم خط خطاً، ثم قال: (هذا سبيل الله تعالى - ثم خط خطوطاً عن يمينه، وخطوطاً عن يساره، وقال: (هذه السبل المتفرقة، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه - ثم قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

فالأوجب علينا جميعاً أن نتبع كل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع أقواله وأفعاله، والتأسي به في سائر أحواله، قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر: 7].

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (دعوني ما تركتكم عليه، فإنما أهلك من كان قبلكم: سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم).

فمن لم يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم وادعى محبته، فهو كاذب في دعواه، فعدم اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم عصيان لله تعالى، قال تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا} [النساء: 80].

ولله در من قال:

تَعْصِي الْإِلَهِ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ :::: هذا لعمرى في القياسِ شنيعٌ
لو كان حُبُّكَ صادقاً لأطعته :::: إن المحبَّ لمن يُحبُّ مطيعٌ

الحقيقة الثالثة: إن الاتباع لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون في كل مجالات الحياة، من عبادة، وشرعية، وأخلاق، وسياسة، فالاتباع في كل مجالات الحياة أمر محتَم علينا، وليس لنا فيه أيُّ خيار، اقرأ معي قول الله تعالى وهو يوضح هذه الحقيقة، فيقول: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} [الأحزاب: 36].

فالمسلم ليس له خيار إذا قضى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أمراً، سواء أكان ذلك الأمر يتعلق بالعقيدة، أم بالعبادة، أم بغيرهما، فليس أمامنا إلا خيار واحد، ألا وهو الاتباع.

وروى البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير، أن عبد الله بن الزبير رضوان الله عليهم حدثه: أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير بن العوام رضي الله عنه عند الرسول صلى الله عليه وسلم في شراج الحرة (مسابل الماء، والحرة هي الأرض الملسة التي بها حجارة سوداء) التي كانوا يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سَرَّحَ الماءَ يَمُرُّ، فأبى عليهم، فاختصموا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير: (اسق يا زبير، ثم أرسل إلى

جَارِكَ

فغضب الأنصاري، فقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك!، فتلون وجه الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال: (يا زبير، اسق ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجُدْرِ - (وجمعه جُدْر، والمراد به بالجدر أصل الحائط).

فقال الزبير رضي الله عنه: والله إنني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِئَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 65].

الحقيقة الرابعة: إن الله ﷻ حذرنا من عدم اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم

وسلم واتباع الهوى، ورتب العقاب الشديد على ذلك، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: 115].

وقال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 63].

واقراً معي قول الله تعالى: {وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا} [الطلاق: 8 - 11].

وبالفعل لقد خالفت الأمة الآن أمر ربها، فتفرقت إلى فرق ومذاهب شتى، ففعلت هذه التفرقة الأفاعيل في الأمة، مما جعلت الأمة لقمة سائغة لأعداء الله ﷻ، وجعلت الأمة تخضع لأذل أمم الأرض، أليس بنو إسرائيل قد كتب الله ﷻ عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله تعالى ؟

إن أغلب المسلمين الآن من هذه الأمة أذل من إخوان القردة والخنازير، لماذا؟ لأن أولئك ضيعوا التوراة فأذلهم الله تعالى، وهؤلاء ضيعوا أعظم من التوراة، فأذلهم الله تعالى.

فالواجب على كل المسلمين إذا أرادوا أن يخرجوا من هذه الدوامة التي تمر بها الأمة الإسلامية الاعتصام بكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وإلا فإن الأمر سيزداد شدة على شدة، ومرارة على مرارة، ونحن قد لمسنا هذا بأيدنا، فماذا نريد بعد هذا؟ وإلى متى هذا التيه في الظلمات، والقرآن بين أيدينا، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم بين أيدينا، وفيهما النجاة، والضمان من الهلاك والخسران، قال تعالى: {رَفَمَنْ

اتَّبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً
وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ
كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ
يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى { [طه: 123 - 127].

وروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما).

الحقيقة الخامسة: ما هو الاتباع؟ الاتباع هو: أن يجعل كل مسلم فينا الرسول صلى الله عليه وسلم قدوته، مصداقاً لقول الله تعالى: {لَقَدْ كُنَّا أَنْ لَوْ كُنَّا فِي رُءُوسِ الْأَشْيَاءِ لَأَنبِئُكَ بِمَا نَعْمَلُ الْغُيُوبَ} [الأنبياء: 21].

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على موقف الشرع الحنيف من الاتباع.

لقد اهتم الدين الإسلامي اهتماماً بالغاً بالاتباع؛ لأن الاتباع أصل الدين، فالله تعالى قبل أن يأمرنا بالاتباع أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} [الأنبياء: 1، 2].

وقال تعالى: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [يونس: 109].

وقال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأُمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} [الجاثية: 18، 19].

وقال تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل: 123].

وقال تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قُرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [القيامة: 16 - 18].

وفي نفس الوقت نجد أن الله تعالى حذر نبيه محمداً من عدم الاتباع، فقال تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [البقرة: 120].

وقال تعالى: {وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: 145].

بل نجد أن الله تعالى وجه إنذاراً شديداً للهجة للرسول صلى الله عليه وسلم لو تقول على الله تعالى، فقال تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [الحاقة: 44 - 47].

بل كانت مهمة الأنبياء السابقين تعليم أممهم الاتباع، فقال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا} [مريم: 43].

وهذا سيدنا هارون عليه السلام، قال تعالى: {وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي} [طه: 90].

ولقد أمرنا الله تعالى بالاتباع، فقال: {المص} * كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} [الأعراف: 1 - 3].

وقال تعالى: {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [لقمان: 15].

ولقد علق الله تعالى محبته باتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [آل عمران: 31].

ورتب الله تعالى الفلاح على الاتباع، اقرأ معي قول الله تعالى: {الَّذِينَ

يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: 157].

وعلق الله تعالى الهداية على الاتباع، فقال: {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: 158].

ورتب الله تعالى السلام على الاتباع، فقال تعالى: {وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى} [طه: 47]. وفي آية أخرى رتب الله تعالى الأمان على الاتباع، فقال تعالى: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 38].

إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على وجوب الاتباع، والتي تزيد على الخمسين آية، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أهمية الاتباع في حياة المسلم.

وإذا نظرنا إلى السنة النبوية نجد أنها اهتمت اهتماماً بالغاً بالاتباع، فروى البخاري عن جابر رضي الله عنه أنه قال: جَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ نَائِمٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ.

فَقَالُوا: إِنْ لَصَاحِبُكَ هَذَا مَثَلًا، فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنْ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: إِنْ مَثَلَهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَجَعَلَ فِيهَا مَادُبَةً، وَبَعَثَ دَاعِيًا، مَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ، وَآكَلَ مِنَ الْمَادُبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ، لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ، وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَادُبَةِ.

فَقَالُوا: أَوَلَوْهَا لَهُ أَنْ يَفْقَهَهَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، قَالُوا: فَالدَّارُ الْجَنَّةُ، وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ تَعَالَى، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ عَصَى اللَّهَ تَعَالَى، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَقٌ بَيْنَ النَّاسِ.

وروى الترمذي عن العرياض بن سارية قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: (أوصيكم بتقوى الله تعالى، والسمع والطاعة، وإن عبد حبشي، فإنه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ- وفي رواية البيهقي: (وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة-).

تعالوا معي لنسوق بعض النماذج من حياة سلفنا الصالح؛ لنتعلم كيف يكون الاتباع لمنهج الله تعالى ومنهج الرسول صلى الله عليه وسلم.

النموذج الأول: في صلح الحديبية وعندما تم الاتفاق على بنود الصلح، اعترض بعض الصحابة رضوان الله عليهم على هذا الصلح، لما فيه من شروط جائرة.

ووقف سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه معترضاً، فقال: فَأَتَيْتُ
نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ: (بَلَى)، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ
وَعَدُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بَلَى - قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّينَةَ
فِي دِينِنَا

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَغْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي) -، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَا سَنَاتِي النَّبِيِّ فَتَطُوفُ بِهِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بَلَى)، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَا نَاتِيهِ الْعَامَ -، قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بَلَى)، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَا نَاتِيهِ الْعَامَ -، قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بَلَى).

وسلم: {فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ}.

قَالَ عمر رضي الله عنه: فَاتَّيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيُّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدُّنْيَا فِي دِينِنَا إِذَا؟

قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَ اللَّهُ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ.

قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ، قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ، قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ.

النموذج الثاني: سيدنا عمر بين الخطاب رضي الله عنه عندما استلم الحجر الأسود قال: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت الرسول صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك.

النموذج الثالث: روى البيهقي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لو كان الدين بالرأي لكان باطن الخفين أحق بالمسح من ظاهرهما، ولكني رأيت الرسول صلى الله عليه وسلم يمسخ على ظاهرهما.

وهكذا يكون الاتباع للرسول صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى في حق من حاد عن هديه: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 63].

وكيف لا نتبع هدي الرسول صلى الله عليه وسلم وقد قال الله تعالى في شأنه: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: 128].

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على ثمرة الاتباع:

أولاً: الاتباع دليل المحبة الكاملة، ويجلب محبة الله تعالى لعبده:

قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [آل عمران: 31].

ثانياً: الاتباع دليل الفلاح وقبول التوبة:

قال تعالى: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} [طه: 123].

وقال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور: 51].

ثالثاً: الاتباع مجاب لرحمة الله تعالى ومغفرته ورضوانه:

قال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} * فَاَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} [آل عمران: 173، 174].

وقال تعالى: {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} [يسن: 11].

رابعاً: دعاء الملائكة:

قال تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [غافر: 7 - 9].

خامساً: السعادة في الدارين: ارضا الله:

قال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: 100].

سادساً: حصول الهداية:

قال تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٌ { [المائدة: 15، 16].

وقال تعالى: {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ} [الزمر: 18].

وقال تعالى: {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: 158].

سابعاً: السلام؛

فقال تعالى: {وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى} [طه: 47].

ثامناً: الأمان؛

فقال تعالى: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 38].

* * *

التقوى

التقوى

أسباب نعيم القبر

التقوى

الحمد لله رب العالمين: الذي خلق آدم من طين فسواه، ورد إلى يعقوب بصره حين ابديت عيناه، وقال لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم: {وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل: 127].

الملك ملكه، والحكم حكمه، والأمر أمره، إنما أمره بين الكاف والنون إذا قال للشيء كن فيكون.

سبحانه: إذا قال العبد: لا إله إلا الله، أخذها ملك وصعد بها إلى السماء، فيلتقيه ملك نازل إلى الأرض، فيسأل الملك النازل الملك الصاعد: إلى أين؟ فيقول الملك الصاعد: أصد بكلمة لا إله إلا الله من عبد قالها، ثم يسأل الملك الصاعد الملك النازل: وأنت إلى أين؟ فيقول الملك النازل: أنزل له براءة من النار من قبل الواحد القهار.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: جعل التقوى سبباً في النجاة من كل كرب، فقال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: 2، 3].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: جعل التقوى سبباً في دخول الفرد الجنة، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (اتقوا الله ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا إذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم).

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع درس من الدروس المستفادة من الصيام، بل يعتبر من أهم الدروس، هذا الدرس الذي معنا اليوم أعلن عنه القرآن الكريم، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 183].

فأعبروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك وهو القادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا اليوم.

الحقيقة الأولى: لا يوجد إنسان على وجه الأرض إلا وهو يبحث عن السعادة، فهي غاية يتفق فيها البشر على اختلاف عقائدهم وعقولهم ومبادئهم وغاياتهم.

فلو سألت أي إنسان عن أي شيء تبحث عنه؟ لأجابه على الفور: أبحث عن السعادة، فكل الناس يريدون السعادة، ولكن الكثير من الناس يخطئ الطريق الموصل للسعادة!

فكثير من الناس يظن أن السعادة في جمع المال! وهذا ليس بحقيقة، فربما يكون المال سبباً من أسباب التعمسة والشقاء في الدنيا والآخرة، إذا لم يدرك صاحب المال غايته، وكلنا نعلم قصة قارون الذي خسف الله تعالى به وبداره الأرض، فقال تعالى: {فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ} [القصص: 81].

وقد يظن بعض الناس أن السعادة في الشهرة، وقد يظن البعض الآخر أن السعادة في الأولاد والزوجة، وكل هذا وهم خاطئ واعتقاد باطل.

ولكن أين توجد السعادة الحقيقية؟ إن السعادة الحقيقية تكمن في تقوى الله تعالى، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور: 52].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً} [الأحزاب: 70، 71].

وقال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: 2، 3].

ولقد أشارت السنة النبوية إلى هذه الحقيقة أيضاً، فروى أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رجلاً جاءه، فقال: أوصني، فقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: سألت عما سألت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم من قبلك، فقال صلى الله عليه وسلم: (أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله، وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء، وذكرك في الأرض).

وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر، فقال له: (أوصيك بتقوى الله في سرائك وعلانيتك).

فالواجب على كل مسلم يبحث عن السعادة ويتمناها أن يتخلق بخلق التقوى، فاستمسك بها أخي المسلم، واجعلها مالك إن كنت فقيراً، اجعلها جندك إن كنت ضعيفاً، اجعلها حارساً أميناً لنعمتك إن كنت ذا نعمة، اجعلها بركة دارك وأهلك إن كنت ذا مال وعيال، اجعلها ذخراً لعقبك إن كان لك عقب وذرية، اجعلها أنيسك إن كنت غريباً، اجعلها جليسك إن كنت وحيداً، اجعلها دواءك إن كنت مريضاً عليلًا، ازرعها في أولادك وأحبائك، وحض عليها أصحابك وأتباعك، وأوصي بها أهلك وذويك، وصدق الله تعالى إذ يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 102].

ويقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: 70، 71].

الحقيقة الثانية: إن التقوى هي ميزان التفاضل بين الناس، ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى الترمذي وصحح الحديث الشيخ الألباني: لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة،

ودخل المسجد الحرام، وأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت وفي يده قوس، وحول البيت وفوقه ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنهما بالقوس، ويقول: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء: 81]

ولما حان وقت الصلاة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بلال بن رباح رضي الله عنه أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وأبو سفيان بن حرب، وعتاب بن أسيد، والحارث بن هشام، جلوس بفناء الكعبة.

فقال عتاب: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم، فيسمع ما يغيبه، وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً، وقال أبو سفيان بن حرب: إني لا أقول شيئاً، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء، فيخبره به رب السماء.

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: 13]

فلقد جعلت التقوى من العبيد سادة، ومن المستضعفين قادة، جعلت التقوى من رعاة الغنم زعماء للبشر، لقد جعلت التقوى من بلال الحبشي أخا لسلمان الفارس، جعلت التقوى حمزة القرشي أخا لصهيب الرومي، لا فرق بين هذا وذاك، بل لا فضل بين أبيض على أسود، ولا فضل لعربي على أعجمي، ولا لفضل لقرشي على حبشي إلا بالتقوى.

روى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أيها الناس: ألا إن ربكم واحد، ألا إن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود، إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغت؟- قالوا: بلى يا رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم: (فليبلغ الشاهد الغائب).

ولقد جعل الله تعالى التقوى ميزان التفاضل بين الناس في الآخرة، فروى البيهقي والطبراني في الأوسط والكبير، أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي الذي يرويه لنا الرسول صلى الله عليه وسلم: (إذا جمع الله

الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم، يقول الله تعالى : يا أيها الناس إني جعلت لي نسباً، وجعلت لكم نسباً، فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم، قلت: إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وأبستم إلا فلان ابن فلان، فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي، أين المتقون؟ فيُنصب للمتقين لواءً فيتبعون لواءهم، فيدخلون الجنة بغير حساب.

الحقيقة الثالثة: ما هي التقوى؟ التقوى هي: أن يمدّثل الإنسان إلى ما أمر به المولى تعالى، ويجتنب ما نهاه عنه، وأن يعبد الله تعالى بصدق وإخلاص نية كأنه يراه، فإن لم يكن يرى ربه، فإن ربه يراه.

التقي هو من يتحقق فيه قول الله تعالى : {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران: 133 - 136].

التقي هو من يتحقق فيه قول الله تعالى : {الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة: 1 - 5].

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على موقف الشرع الحنيف من التقوى.

لقد اهتم الشارع الحنيف بالتقوى اهتماماً بالغاً، فإذا ما فتحت كتاب الله تعالى لتقرأ، فلا تكاد تقرأ سورة من سور القرآن إلا وتجد فيها أمراً بالتقوى، أو حثاً للعمل بها، أو بياناً لجزاء المتقين، فهي متخللة في كل آياته، شائعة بين كلماته، كما أنها واردة في كل ما شرعه الله تعالى لنا.

فعلى سبيل المثال: لما شرع الله تعالى القصاص، ذكر ثمرته، فقال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْعُرُوفِ وَأَدَاءٍ إِلَيْهِ

بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ *
وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 178، 179].

ولما شرع الله تعالى الوصية جعلها حقاً على المتقين، فقال تعالى:
{كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} [البقرة: 180].

ولما شرع الله تعالى الصيام لعباده بين أن هذه العبادة تنثمر التقوى،
فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن
قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 183].

ولما شرع الله تعالى قتال الكفار، بين أنه مع المتقين، فقال تعالى:
{الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا
عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [البقرة: 194].

ولما فرض الله تعالى الحج والعمرة وأمر بإتمامها، ووضح بعض
الأحكام المتعلقة بهما، أمر بالتقوى، فقال تعالى: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ
فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ
فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ
فَإِذَا أَتَيْتُم مِّنَ الْحَجِّ فَالْعُمْرَةَ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِنَ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ
حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * الْحَجُّ أَشْهُرٌ
مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا
تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ}
[البقرة: 196، 197].

وعندما بين الله تعالى ما يحل وما يحرم من الصيد في حالة الإحرام
أمر بالتقوى، فقال تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ
وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [المائدة: 96].

ولما بين الله تعالى بعض أحكام الطلاق، أمر بالتقوى، فقال تعالى:
{وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُغَنِّ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ
وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لَّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ

اللَّهُ هُزُؤًا وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: 231].

وعندما بين الله تعالى أحكام الرضاع وما يتعلق به، أمر بالتقوى، فقال تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَزِعِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة: 233].

ولما امتن الله تعالى على عباده بتحليل الطيبات لهم أمرهم بالتقوى، فقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مَنِ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [المائدة: 4].

ولما أنعم الله تعالى على المؤمنين بنعمة الطهارة، أمر بالتقوى، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} * وادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [المائدة: 6، 7].

وعندما أمر الله تعالى بتحري الصدق والعدل في الشهادة، أمر بالتقوى، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: 8].

ولما أراد الله تعالى أن يحرم الربا، نادى عليهم بنداء المؤمنين، وأمرهم أن يبتعدوا عن أكل الربا، ثم أمرهم بعد ذلك بالتقوى، فقال تعالى

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: 130].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ} * وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ يَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} * وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [البقرة: 278، 281].

وعندما بين الله تعالى أنه يجوز كتابة الدين، أمر جميع الأطراف بالتقوى، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَنْحَسِ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِّجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْب الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: 282].

ولما بين الله تعالى أن الرجل يأتي امرأته بأي طريقة طالما الإتيان في موضع الحُرث، أمر بالتقوى، فقال تعالى: {زِنَاوَكُمْ حَرْتُ لَكُمْ فَأْتُوا حَرَّتْكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ- الْمُؤْمِنِينَ} [البقرة: 223].

وإذا خاف على الإنسان على أولاده بعد موته، فعليه بتقوى الله تعالى، فقال تعالى: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} [النساء: 9].

ولقد أمر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالتقوى، فقال

تعالى: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا} [الأحزاب: 37].

ولو تتبعنا آيات القرآن الكريم قلما نجد سورة تخلو من الأمر بالتقوى، حتى بلغ ذكرها في القرآن الكريم مائة وثمان وخمسون مرة.

بل كانت التقوى و صية جميع الأنبياء والمرسلين لأقوامهم، لأنها الهدف العام الذي بعث الله تعالى من أجله الرسل.

فهذا سيدنا نوح عليه السلام يأمر قومه بالتقوى، فقال تعالى: كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * [الشعراء: 105 - 107].

وهذا سيدنا هود عليه السلام قال الله تعالى في شأنه: {كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْتُنَّ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * [الشعراء: 123 - 131].

وهذا سيدنا صالح عليه السلام قال الله تعالى في شأنه: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْتَرَكُونِ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْتَحِبُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ * [الشعراء: 141 - 151].

وهذا سيدنا لوط عليه السلام قال الله تعالى في شأنه: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * [الشعراء: 160 - 163].

وهذا سيدنا شعيب عليه السلام قال الله تعالى في شأنه: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا

الله وَأَطِيعُونَ} [الشعراء: 176 - 179].

وهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يأمر قومه بالتقوى، فقال تعالى:
{وَابْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}
[العنكبوت: 16].

وهذا سيدنا عيسى يأمر قومه بالتقوى، فقال تعالى: {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ
يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ
إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ} [المائدة: 112].

وهذا سيدنا إلياس عليه السلام يأمر قومه بالتقوى، فقال تعالى: {وَإِنَّ
إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ
الْخَالِقِينَ} [الصافات: 123 - 125].

إخوة الإسلام:

لقد أصبح كثير من الناس يفهمون التقوى فهماً ضيقاً، ويدسبونها
مجرد ركعات تصلى وأيام تصام، ورسوم ظاهرة تؤدي، وطقوس تنظم
وتقام، وكذلك تراهم مع صلاتهم وصيامهم من الحرام يعيشون، وبالرأى
يتعاملون، ولاسرقة والغش والخيانة يفعلون، ولحقوق الناس يغتالون،
وبالكذب والنفاق والرياء وخراب الذمم يتعاملون، ومع ذلك يدسبون أنهم
لمجرد صلاتهم أو صيامهم متقون ناجون، ألا فليعلم هذا الصنف من
الناس أنهم عن طريق النجاة حائدون، وعن سبيل الخير والفلاح ضالون،
وفي شهواتهم وأهوائهم متورطون، وصدق الله تعالى إذ يقول: {قُلْ هَلْ
نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا} * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا} * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا
نُفْعَ لَّهُمْ بِشَيْءٍ لَّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا} * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا} [الكهف: 103 - 106].

ليست التقوى كذلك أيها المسلم، بل التقوى عبادة ومعاملة، فالتقي
يعبد الله تعالى عبادة صحيحة خالية من الرياء، بعيدة عن البدع
والخرافات، لا دجل فيها، ولا شعوذة ولا تضليل، ثم بعد ذلك يعامل

الناس معاملة حسنة، ومعاملة مبذية على الذمة والأمانة، وسلامة الذية، وطهارة القلب، فلا يدهن، ولا يغش، ولا يخادع، ولا يمكر الناس.

ولقد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالتقوى في كل الأحوال والظروف والمناسبات، فقال في الحديث الذي رواه ابن ماجه: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن).

يعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال هذا الحديث أن التقوى تكون في الصلاة وفي الصوم وفي الزكاة والحج، وتكون كذلك في البيع والشراء، وفي الأخذ والعطاء، وتطلب من الإنسان بالليل وبالنهـار، في الصباح والمساء، في حالة الشدة والرخاء، وفي أي حالة وجد عليها الإنسان نفسه.

ولقد ضرب لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة في تقوى الله تعالى، فكان يصلي حتى تتورم قدماه، وكان على شدة قربـه من ربه، يخشاه ويخافه، فكان صلى الله عليه وسلم يقول: (أنا أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية).

وكذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم خير مثل للتقوى، فكانوا إلى الخيرات يسارعون، وعلى ملء حياتهم بالطاعات يحرصون، يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال في أصحابه: (من أصبح منكم صائماً؟) قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (من أطلع منكم اليوم مسكيناً؟) قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (من عاد منكم مريضاً؟) قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (من شيع منكم اليوم جنازة؟) قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال صلى الله عليه وسلم: (ما اجتمعت هذه الأربعة في امرئ إلا دخل الجنة).

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على الثواب الذي أعده الله تعالى للمتقين.

أولاً: الثواب الدنيوي:

1 - معية الله تعالى :

قال تعالى: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: 36].

2 - محبة الله تعالى :

قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: 4].

3 - الخيرية:

قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ اتِّكُم وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأعراف: 26].

4 - النجاة:

قال تعالى: {وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [النمل: 53].

5 - قبول الأعمال:

قال تعالى: {وَأَوَّلَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة: 27].

7 - تكفير السيئات ومغفرة الذنوب:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الأنفال: 29].

8 - تسهيل الأعمال:

قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ} [الليل: 5 - 7].

9 - نزول البركات:

قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأعراف: 96].

ثانياً: الثواب الأخروي:

1 - البشري: قال تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *}

الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {يونس: 62 - 64}.

2 - الجنة: قال تعالى: {لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ} [آل عمران: 198].

وقال تعالى: {لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادُ} [الزمر: 20].

وقال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَمِنْهُمْ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ} [القمر: 54، 55].

* * *

طاعة الله تعالى

طاعة الله تعالى

أسباب نعيم القبر

طاعة الله تعالى

الحمد لله رب العالمين: المتوحد بإبداع المصنوعات، المتفرد باختراع المخلوقات، المخصوص بقدّم الأسماء والصفات، المنزه عن التحيز والسكون والحركات، القريب ممن دعاه لا بقرب المسافات، المجيب لمن نجاه بإخلاص الدعوات.

سبحانه: يغفر الذنوب، ويستتر العيوب، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ويعلم ما تفعلون، وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: حدد الشعار الذي ينبغي على كل مؤمن أن يلتزم به، فقال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} * وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور: 51، 52].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: أوجب الاسم والطاعة على كل فرد مسلم، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب أو كره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

طاعة الله تعالى هذا هو عنوان لقائنا مع حضراتكم اليوم، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك وهو القادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا اليوم:

الحقيقة الأولى: إن الإنسان العاقل هو الذي يعلم أن عمره في الدنيا محدود، وأنفاسه في هذه الدار معدودة، وعمله محسوب له أو عليه، وأن الموت نهايته، وأن القبر بيته، وأنه يوجد هناك سؤال مذكر ونكير، وأن القيامة آتية لا ريب فيها، وأن الله تعالى يبعث من في القبور، وأن الجميع يُعرض على الله تعالى للحساب، وأن هناك جنة أو نار كما يريد الواحد القهار، فما النجاة من هذه الأهوال كلها؟.

النجاة تكمن أو تتمثل في طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فالسعيد من أطاع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة في القرآن الكريم، فقال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [النساء: 13].

واقراء معي قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: 70، 71].

وقال تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا} [النساء: 69، 70].

فالواجب على كل مسلم يريد النجاة من أهوال الآخرة أن يحقق الطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، انطلاقاً من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: 59].

الحقيقة الثانية: إن جميع المخلوقات تدين لله تعالى بالطاعة، أي كانت هذه المخلوقات، سواء أكانت حيوانات، أم جمادات، أم نباتات.

اسمع معي إلى قول الله تعالى وهو يشير إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [آل عمران: 83].

ويقول تعالى: {قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تُكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: 9 - 11].

وقال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء: 44].

ويقول تعالى: {وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [الرعد: 15].

المخلوق الوحيد الذي شذ في جزء من بني جنسه هو الإنسان، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [الحج: 18].

الحقيقة الثالثة: إن طاعة الله تعالى، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، يجب أن تكون في كل مجالات الحياة، من عبادة، وشرعية، وأخلاق، وسياسة، فطاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في كل مجالات الحياة أمر محتتم علينا، وليس لنا فيه أي خيار.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا} [الأحزاب: 36].

وقال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور: 51].

فالمسلم ليس له خيار إذا قضى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أمرًا، سواء أكان ذلك الأمر يتعلق بالعقيدة، أم بالعبادة، أم بغيرهما، فليس أمامنا إلا خيار واحد، ألا وهو طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وروى البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير، أن عبد الله بن الزبير

رضوان الله عليهم حدثه: أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير بن العوام رضي الله عنه عند الرسول صلى الله عليه وسلم في شراج الحرة (مسائل الماء، والحرة هي الأرض الملساة التي بها حجارة سوداء) التي كانوا يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سَرَّحَ الماءَ يَمُرُّ، فأبى عليهم، فاختصموا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير: (اسق يا زبير، ثم أرسل إلى جارك، - فغضب الأنصاري، فقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك!، قتلون وجه الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال: (يا زبير، اسق ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، - وجمعه جدر، والمراد به بالجدر أصل الحائط). فقال الزبير رضي الله عنه: والله إنني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 65].

الحقيقة الرابعة: إن الله تعالى حذرنا من المعصية، ورتب العقاب الشديد على ذلك، فقال تعالى: {وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [النساء: 14].

وقال ﷺ: {وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا} [الجن: 23].

ولقد وجه الله تعالى إنذاراً شديداً للهجة لكل من تُسول له نفسه الانحراف عن طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {وَكَايْنِ مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّتُخْرَجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا} [الطلاق: 8 - 11].

فمعصية الله تعالى تورث الذل؛ لأن العز كل العز في طاعة الله تعالى، فقال تعالى: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ

الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ {فاطر: 10}.

أي: فليطلبها بطاعة الله تعالى.

ولذلك كان إبراهيم بن أدهم يدعو ربه بهذا الدعاء ويقول: " اللهم أعزني بطاعتك، ولا تذلني بمعصيتك ".

واسمع إلى ما قاله عبد الله بن عباس رضي الله عنه في أثر المعصية على العبد: " إن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القلب، وهناً في البدن، وضيقاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلائق ".

فإياك أخي المسلم أن تكون من الذين انحرفوا عن طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأصبحوا من العاصين.

فإن كنت ممن انحرفوا عن منهج الله تعالى، وعن منهج الرسول صلى الله عليه وسلم، فينطبق عليك قول الله تعالى: {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} [النساء: 14].

الحقيقة الخامسة: ما هي الطاعة؟

الطاعة هي: فعل المأمورات، وترك المنهيات.

أو بمعنى آخر: أن يحقق الإنسان منهج أفعول ولا تفعل، قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر: 7].

وقال ﷺ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: 208].

قال ابن عباس رضي الله عنهم: " يعني الطاعة ".

وروى البخاري ومسلم: أن أعرابياً جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله: دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان).

قال الأعرابي: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئاً أبداً ولا أنقص

منه، فلما ولى، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا).

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لتتعرف على موقف الشرع الحنيف من الطاعة.

لقد اهتم الشرع الحنيف اهتماماً بالغاً بالطاعة؛ لأنها هي الأساس لكل شيء، فلقد أرسل الله تعالى جميع الرسل ليعلموا الناس تحقيق الطاعة لله تعالى.

فهذا سيدنا نوح عليه السلام قال الله تعالى في شأنه: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} [الشعراء: 105 - 107].

وقال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَعْزِزْ لَكُمْ مَن ذُنُوبَكُمْ وَيُخْزِرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [نوح: 1 - 4].

وهذا سيدنا هود عليه السلام قال الله تعالى في شأنه: {كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} [الشعراء: 123 - 131].

وهذا سيدنا صالح عليه السلام قال الله تعالى في شأنه: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَنْتَحُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْتَحُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ} [الشعراء: 141 - 151].

وهذا سيدنا لوط عليه السلام قال الله تعالى في شأنه: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا

الله وَأَطِيعُونَ} [الشعراء: 160 - 163].

وهذا سيدنا شعيب عليه السلام قال الله تعالى في شأنه: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} [الشعراء: 176 - 179].

وهذا سيدنا عيسى عليه السلام قال الله تعالى في شأنه: {وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} [آل عمران: 50].

وهذا سيدنا هارون عليه السلام قال الله تعالى في شأنه: {وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي} [طه: 90].

ولم يكتف الأمر عند هذا الحد، بل أمر الله تعالى نساء الرسول صلى الله عليه وسلم بالطاعة، فقال تعالى: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ نِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا * وَقرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: 32، 33].

بل وأمرنا الله تعالى بالطاعة له ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فقال ﷺ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد: 33].

وقال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مِمَّا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [التغابن: 16].

وعندما أمر الله تعالى المؤمنين بالتثبت عند لقاء العدو، أمرهم بالطاعة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: 45، 46].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: 59].

إلى غير ذلك من الآيات التي تأمرنا بوجوب الطاعة لله ﷻ ولرَسُوله صلى الله عليه وسلم.

إخوة الإسلام:

لقد جعل الشارع الحنيف الطاعة من مقتضيات الإيمان الكامل، فإيماننا لا يكمل بل لا يصح إلا إذا حققنا منهج الطاعة لله تعالى ولرَسُوله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 64، 65].

فكل فرد فينا يقول: أنا مؤمن، ولكن من منا سأل نفسه ما علامة هذا الإيمان؟

إنها الطاعة بلا انحراف وتردد، اقرأ معي قول الله تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} * وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور: 51، 52].

فهذا هو شعار المسلم: طاعة بلا انحراف، وسمع بلا تردد.

أخي المسلم:

أعرض نفسك على أوامر الله تعالى، وأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم، واسأل نفسك: هل امتثلت لأوامر الله تعالى، وأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ هل وقفت عند حدود الله تعالى، وحدود رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

فإن كنت ممن سمع الأمر وامتثل، والنهي فاجتنب، والحد فوقف عنده، فأنت مطيع لله ﷻ ولرَسُوله صلى الله عليه وسلم، وينطبق عليك قول الله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [النساء: 13].

وإن كنت ممن سمع الأمر ولم يمتثل، والنهي فلم يذته، والحد فلم يقف، فاعلم أنك عاص لله ﷻ ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وينطبق عليك قول الله ﷻ: {وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} [النساء: 14].

فشعار المسلم السمع والطاعة، وشعار المنافق السمع والمعصية، قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} [النساء: 60 - 63].

وقال تعالى: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور: 47 - 52].

والله الذي لا إله إلا هو ما رحمت هذه الأمة إلا ببركة السمع والطاعة، والله الذي لا إله إلا هو ما نالت هذه الأمة الخيرية إلا من يوم حققت منهج سمعنا وأطعنا، والله الذي لا إله إلا هو ما خفف الله تعالى عن هذه الأمة إلا بعد أن حققت منهج سمعنا وأطعنا.

واسمع إلى بركة السمع والطاعة، لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الله ﷻ: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: 284].

قال أبو هريرة: " اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلقوا حتى جثوا على الركب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: يا رسول الله كلفنا من العمل ما نطيق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، ولقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيعها".

فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: (أتريدون أن تقولوا ما قاله اليهود والنصارى: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير).

فلما قرأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى في إثرها: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة: 285].

فلما فعلوا ذلك، نسخها الله تعالى، فأنزل الله ﷻ قوله: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [البقرة: 286].

استجاب الله تعالى وخفف عن الأمة الإسلامية ببركة السمع والطاعة، وإن ما تحياه الأمة الآن من شقاء، وضنك وضيق في الرزق، وغلاء في الأسعار، وتسليط عدي علينا من غيرنا، يأكل خيراتنا، ويذهب ثرواتنا، ويحتل أرضنا، إنما هو نتيجة حتمية لانحراف الأمة عن منهج سمعنا وأطعنا.

فيا من تدعي الإيمان؛

أمرك الله تعالى بالصلاة في وقتها، فهل أديت الصلاة في أوقاتها؟
أمرك الله تعالى أن تؤدي الزكاة، فهل أديت الزكاة كما أمرك الله ﷻ؟
أمرك الله تعالى بترك الحرام والربا، فهل تركت الحرام والربا؟
أمرك الله تعالى ببر الوالدين، هل امتثلت الأمر؟
أمرك الله تعالى بالإحسان إلى الأقارب، هل امتثلت الأمر؟

أوامر كثيرة اعرض نفسك عليها، وهناك نواهي من الشرع الحكيم، هل انتهيت عنها؟ نهاك الشرع عن الغيبة والنميمة والظلم وأكل أموال الناس بالباطل، هل انتهيت عن هذا كله؟.

أخِي المسلم:

ادع الله تعالى أن يرزقك الطاعة، فأفضل شيء يحصل عليه الفرد هو طاعة الله ﷻ، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعو الله تعالى أن يرزقه الطاعة.

فروى الترمذي والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قلما كان رسول صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: (اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا).

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنسوق بعض النماذج من حياة سلفنا الصالح لنتعلم كيف تكون الطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

النموذج الأول: كان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه يذفق على رجل فقير يسمى مسطح بن أثاثه، وكان هذا الرجل ممن يتكلم في حادثة الإفك، فلما قال ما قاله عن السيدة عائشة رضي الله عنها ونزلت الآيات تبرئ السيدة عائشة، قال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ساعته: "والله لا أعد أنفق على مسطح أبداً"

فنزل قول الله ﷻ: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: 22].

فدعا الرسول صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه، فتلا عليه هذه الآية، فما أن سمعها أبو بكر رضي الله عنه حتى قال: بلى والله إنني

لأحب أن يغفرَ الله لي، والله لأردنَّ على مسطح ما كنت قطعته منه.

الله أكبر: إنه لم يتوان لحظة عن طاعة الله تعالى ولا عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه لم يقل للرسول صلى الله عليه وسلم: إنه دنس كرامتي ولطخ شرفي، وأذاني في عرضي، ولكنه كان من الذين قالوا: سمعنا وأطعنا.

وكثير من الصحابة رضوان الله عليهم غير سيدنا أبي بكر، كانوا يسارعون في الخيرات في طاعة الله ﷻ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فطاعة الله ﷻ هي حصن رب العالمين تعالى، الذي من دخله كان من الأمنين.

النموذج الثاني: انطلق الرسول صلى الله عليه وسلم إلى السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها ليخطبها لسيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنه، وكانت بنت عمته، فظننت أن الرسول صلى الله عليه وسلم يخطبها لنفسه، فلما تبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم يريد لها لزيد بن حارثة، كرهت وأبت وامتنعت، وامتنع أخوها عبد الله رضي الله عنه لندسها من قريش، وأن زيدا كان بالأمس عبداً، فنزل قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 36].

فقال له أخوها: مرني بما شئت، فزوجها من زيد.

النموذج الثالث: روى البخاري عن أنس بن مالك قال: كان غلام يهودي يخدم الرسول صلى الله عليه وسلم فمرض، فأتاه الرسول صلى الله عليه وسلم يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: (أسلم- فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم، ففرح الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقول: (الحمد لله الذي أنقذه من النار).

النموذج الرابع: قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعد جيشاً تحت إمرة أسامة بن زيد، وجهته الشام، وكان الجيش يوم أن مات الرسول صلى الله عليه وسلم معسكراً على بعد ثلاثة أميال من المدينة متهيأً للسير، وأرجأت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وسلم زحفه، واختلف الرأي بعد هذا في أمره.

فرأى فريق من المسلمين وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن بعث جيش أسامة إلى الشام مخاطرة رهيبة، في الوقت الذي أصبحت المدينة نفسها عاصمة الإسلام مهددة بغزو المرتدين، ورأوا ضرورة عودة الجيش إلى المدينة؛ ليكون في مواجهة الأحداث، وكان أسامة من أصحاب هذا الرأي.

والمسألة حين تقاس بالمنطق المجرد لا يبدو الصواب إلا في هذا الرأي، الذي تبناه عمر وأسامه بن زيد رضوان الله عليهم.

لكن أبا بكر أراد أن يعطي الدنيا بأسرها درساً عملياً في طاعة الله ﷺ ورسوله صلى الله عليه وسلم، فكل قضية عند أبي بكر تتسع للاجتهاد، إلا قضية أبرم الله ﷺ فيها حكماً، أو أصدر الرسول صلى الله عليه وسلم فيها أمراً.

ولقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته أن ينفذ بعث أسامة، فليكن ما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم به، مهما تكن مستجدات الظروف، ومهما تكن الأخطار التي تهدد المدينة.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: أنفذوا بعث أسامة، فو الله لو خطفتني الذئاب لأنفذته، كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما كنت أرد قضاء قضاه الرسول صلى الله عليه وسلم.

وعاد بعض المسلمين وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطلبون من أبي بكر أن يجعل على رأس الجيش قائداً غير أسامة الذي كان فتى صغيراً محدود الخبرة، لا سيما وفي هذا الجيش شيوخ الصحابة رضوان الله عليهم.

وهذه المسألة إذا بحثت في ضوء المنطق المجرد، يبدو ذلك الرأي سديداً، لم يكد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعرض الرأي على أبي بكر رضي الله عنه حتى وثب أبو بكر رضي الله عنه من مكانه، وأخذ بلحية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: ويحك يا بن الخطاب أيوليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتأمرنى أن أعزله، فماذا كانت

نتيجة بعث جيش أسامة؟

كانت النتيجة أن القبائل التي مر بها جيش أسامة وهو في طريقه إلى الشام، لم تكذب ترى هذا الجيش حتى عاد إليها صوابها.

وقال بعضهم لبعض: والله لو كانت المدينة تنن تحت وطأة الضعف والخلاف كما سمعنا، ما كان بوسعها أن تبعث هذا الجيش في هذه الأيام لتقاتل الروم.

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لتتعرف على فوائد الطاعة التي تعود على من التزم بها، فهناك فوائد دنيوية وفوائد أخروية، أما الفوائد الدنيوية تتمثل فيما يأتي:

أولاً: الهداية:

قال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النور: 54].

ثانياً: الصلاح والنور:

قال تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور: 52].

ثالثاً: كمال الأجر:

قال تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: 14].

رابعاً: الرحمة:

قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: 71].

خامساً: التمكين في الأرض:

قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي

الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِكَيْمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور: 55].

وأما الفوائد الأخروية فهي ما يلي:

أولاً: الفوز العظيم:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً} [الأحزاب: 70، 71].

ثانياً: الفوز بالجنة:

قال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً} [الفتح: 17].

ثالثاً: المعية مع الأنبياء:

قال تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: 69].

* * *

ذكر الله تعالى

ذكر الله تعالى

أسباب نعيم القبر

ذكر الله تعالى

الحمد لله رب العالمين: الذي خلق آدم من طين فسواه، ورد إلى يعقوب بصره حين ابديت عيانه، وقال لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل: 127].

الملك ملكه، والحكم حكمه، والأمر أمره، إنما أمره بين الكاف والنون، إذا قال للشيء كن فيكون.

سبحانه: يذكر من يذكره، فقال تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البقرة: 152].

وروى البخاري ومسلم أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْسِيهِ أَتَيْتُهُ هَرُولَةً).

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: جعل طمأنينة القلب متوقفة على ذكره ﷻ، فقال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم: بين لنا أن الذاكرين لله تعالى في ظلال عرش الرحمن ﷻ يوم القيامة، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَاطِئٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ كَانَ قَلْبُهُ مُعَلَّقًا فِي الْمَسْجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالَ إِلَى نَفْسِهَا، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَمْ تَعْلَمْ شِئًا لَهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع سبب من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: ذكر الله تعالى، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا:

الحقيقة الأولى: إن الإنسان العاقل هو الذي يعلم أن عمره في الدنيا محدود، وأنفاسه في هذه الدار معدودة، وعمله محسوب له أو عليه، وأن الموت نهايته، وأن القبر بيته، وأنه يوجد هناك سؤال مذكر ومنكير، وأن القيامة آتية لا ريب فيها، وأن الله تعالى يبعث من في القبور، وأن الجميع يعرض على الله تعالى للحساب، وأن هناك جنة أو ناراً كما يريد الواحد القهار، فما النجاة من هذه الأهوال كلها؟.

النجاة تكمن أو تتمثل في ذكر الله تعالى، فالسعيد من داوم على ذكر الله ﷻ، والشقي من غفل عن ذكر الله تعالى.

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى الحاكم وأحمد والطبراني في معجميه الأوسط والصغير، ورجالهما رجال الصحيح، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا أَنْجَى مِنْ الْعَذَابِ، مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى -، قِيلَ: وَلَا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: (وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا أَنْ تَضْرِبَ بِسَيْفِكَ حَتَّى يَنْقَطِعَ -).

فالواجب على كل مسلم يريد النجاة من أهوال الآخرة، أن يداوم على ذكر الله تعالى، انطلاقاً من قوله تعالى: {فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} [البقرة: 200].

وقال تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} [النساء: 103].

الحقيقة الثانية: إن قضية ذكر الله تعالى ليست بالقضية الهينة التي

نذكرها مرة وكفى، وإنما ينبغي أن تكون قضية ملحة في حياتنا، فيجب أن يكون الله تعالى منا على بال، لماذا؟ لعدة أسباب:

السبب الأول: لأنه ما من عبادة تعبدنا الله تعالى بها، إلا ولها وقت معلوم، وحد معلوم، إلا عبادة الذكر، فإنها ليس لها وقت معلوم، ولا حد معلوم، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} [الأحزاب: 41].

وقال تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا} [النساء: 103].

وبالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والسر والعلانية، وعلى كل حال، فقال تعالى: {وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الأحزاب: 42].

السبب الثاني: لأن ذكر الله تعالى هو الحل الأمثل لكل المشاكل التي نعاني منها الآن، كيف هذا؟

نعم: فإذا كنت تشكو أنك لا تستطيع أن تغض بصرك عما حرمه الله تعالى، فعليك بذكر الله تعالى، وإن كنت تشكو من الفتور في الطاعة، فعليك بذكر الله تعالى، وإن كنت تشكو من ضعف القوة في العبادة، فعليك بذكر

الله تعالى، وإن كنت تشكو من الفقر، فعليك بذكر الله تعالى، وإذا كنت تشكو من غيبة الضمير، فعليك بذكر الله تعالى، وإن كنت تشكو من عدم الأمان، فعليك بذكر الله تعالى.

نعم لا أبالغ إذا قلت لكم: أن الحل الأمثل لكل مشاكلنا المداومة على ذكر الله تعالى، ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رجلاً جاءه، فقال: أوصني، فقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: سألت عما سألتُ عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبلك، فقال صلى الله عليه وسلم: (أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله، وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء، وذكرك في الأرض).

وروى مالك والترمذي وابن ماجه وأحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَزْفَعُهَا لِدَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا رِقَابَهُمْ وَيَضْرِبُونَ رِقَابَكُمْ). - قَالُوا: بَلَى، قَالَ صلى الله عليه وسلم: (ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى -).

السبب الثالث: لأن ذكر الله تعالى هو باب الله الأعظم، المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن الكريم، فإن وجدتم، وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

السبب الرابع: لأن الله تعالى هدد وتوعد من غفل عن ذكره، فقال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} [طه: 124 - 127].

الحقيقة الثالثة: إن جميع العبادات التي شرعها الله تعالى، إنما شرعت لإقامة ذكر الله تعالى، فعبادة الصلاة شرعت لإقامة ذكر الله تعالى، فقال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: 14].

وقال تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الجمعة: 9].

وهذه عبادة الحج شرعت لذكر الله تعالى، فقال تعالى: {لَبَسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ} [البقرة: 198].

وقال تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} [البقرة: 200].

[200].

وقال تعالى: {وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [البقرة: 202].

وهذه فريضة الصيام كلها ذكر ومراقبة الله تعالى، ومن جهة أخرى فشهر الصيام هو شهر الذكر، بل أعظم، قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ} [البقرة: 185].

وهذه عبادة الزكاة فقد جاء ما يشعر بارتباطها بالذكر والدعاء، فقال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة: 103].

وارتبط الذكر بالعادات من مأكَل ومشرب وملبس، ففي المأكَل، قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (يا غلام: سمِّ الله-).

والفرق بين حل الذبيحة وحرمتها ذكر الله تعالى، فقال تعالى: {فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأنعام: 118].

وقال تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام: 121].

وقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [المائدة: 4].

والسر في اشتراط ذكر الله تعالى على الذبيحة حتى تحل، هو أن الأصل في تلك الكائنات أنها ملك لله تعالى، هو خالقها ورازقها، أنزل لها الماء من السماء، وأنبت لها المرعى من الأرض، ورباها حتى صارت صالحة لمنفعة الإنسان، فكان حق الله تعالى في هذه البهيمة أن لا يعتدي عليها بذبح وإزهاق روحها والانتفاع بها، إلا بإذن من خالقها ﷻ، وهو قول: بسم الله، الله أكبر، أي: باسم الله أذبحها، والله أكبر مني عليها، وهو الذي سخرها لي، فهي بمثابة الاستئذان، وبمثابة الاعتراف لله بالجميل والإنعام.

ولهذا يعتبر الشرع كل إزهاق للروح بدون ذكر اسم الله تعالى ميتة، كما يعتبر الشرع أيضاً كل ذكر لغير الله تعالى شركاً مع الله تعالى. وبهذا يظهر عظمة السر في ذكر الله تعالى عند الذبح، سواء كان المذبوح بعيراً، أو طيراً صغيراً.

حتى في الجهاد أمرنا الله تعالى بالذكر، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأنفال: 45].

الحقيقة الرابعة: ما حقيقة الذكر؟ يظن كثير من الناس أن الذكر عبارة عن أن يردد المسلم قول لا إله إلا الله فقط، فليس هو الذكر الشرعي.

ولكن الذكر هو: أن يكون الله تعالى على بال المسلم دائماً، فيقوم المسلم بأداء ما أمره الله تعالى به، والانتهاز عما نهى عنه، والالتزام بطاعته، ومراقبته في السر والعلانية، فإذا كان العبد كذلك، فهو ذاكر لله تعالى.

وتأمل معي حين أراد أحد المشايخ الكرام أن يعلم تلاميذه أن العبد الذاكر لمولاه هو من يعلم تمام العلم أن ربه مطلع عليه ويراه، يراه في سره، يراه في علانيته، يراه حيث كان، وأراد أن يزرع فيهم مراقبة الله تعالى، فماذا فعل؟

أمر هذا الشيخ أن يحضر كل تلميذ من تلاميذه دجاجة حية، ثم يقوم بذبحها شريطة أن يكون ذلك في مكان لا يراه فيه أحد.

وفي اليوم التالي جاء كل تلميذ وقد ذبح كل واحد منهم دجاجة، إلا واحداً، فقد أتى بها حية لم يذبحها، فسأله الشيخ: لماذا لم تذبح الدجاجة؟ قال: لأنني لم أستطع الوفاء بالشرط، قال له: كيف ذلك؟ قال: لأنني حيثما اتجهت، وحيثما ارتحلت، وجدت أن الله تعالى مطلع علي ويراني، وفي هذا يقول المولى تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7].

هذا هو ذكر الله تعالى، فالذكر الصحيح أن تراقب الله تعالى في السر

والعلانية.

يقول عبد الله بن دينار خرجت مع عمر رضي الله عنه إلى مكة، فعرّسنا - نزلنا للراحة - ببعض الطريق، فأنحدر إلينا راعٍ من الجبل، فقال له عمر رضي الله عنه: يا راعي الغنم بعنا شاة من هذه الأغنام، فقال الرجل: أنا مملوك، فقال له عمر رضي الله عنه: قل لسيدي أكلها الذئب، فقال الراعي: إن قلت ذلك لسيدي وصدقني، فأين الله؟ ماذا أقول لله تعالى؟ فبكى ابن عمر رضي الله عنه، وذهب إلى سيد الراعي فاشترى منه الأغنام، واشترى العبد وأعتقه، وأهدى له قطيع الأغنام.

فليس الذاكر هو الذي يجلس في مسجد، أو مكان فسيح، ويكبر ويهلل، وإنما الذاكر هو الذي يستحضر عظمة مولاه تعالى في كل أمور الحياة.

فالزراع يستطيع أن تكون حياته كلها ذكر، وذلك إذا ما تأمل ما يخرج من الأرض، وعلم أن ذلك الزرع، وأن تلك النبات من فيض عطاء الله تعالى وكرمه، ولا دخل له، إلا أنه سبب؛ لأن الزارع الحقيقي هو الله تعالى، فقال تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ} [الواقعة: 63 - 65].

روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بامرأة تغيب عنها زوجها منذ شهور في الجهاد في سبيل الله تعالى، قد تغيبت في ظلمات ثلاث، في ظلمة الغربّة والبعد عن زوجها، وفي ظلمة الليل، وفي ظلمة قعر بيتها، وإذا بها تنشد وتقول وتحكي مأساتها:

تطاول هذا الليل وازور جانبه :: وأرقني أن لا حبيب إلا عبه
فو الله لولا الله لا رب غيره :: لحرك من هذا السريري جوانبه
فما الذي منعها أن تخون زوجها، وتلطح عرضه؟ ذكرها الله تعالى.

إخوة الإسلام:

لقد اهتم الشارع الحنيف اهتماماً بالغاً بعبادة الذكر؛ لأنها الأساس في الحياة، فتعالوا معي لتتعرف على موقف الشرع الحنيف من الذكر.

أولاً: لم يجعل الله تعالى حداً ينتهى إليه في الذكر:

فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} [الأحزاب: 41].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً، ثم عذر أهلها حال العذر، غير الذكر، فإن الله تعالى لم يجعل له حداً يُنتهى إليه، ولم يعذر أحداً في تركه، إلا مغلوباً على عقله، فقال تعالى: {فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ} [النساء: 103].

وبالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والسر والعلانية، وعلى كل حال، فقال تعالى: {وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الأحزاب: 42].

فإذا فعلنا ذلك، صلى علينا تعالى وملائكته الكرام، فقال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: 43].

ثانياً: الله تعالى يذكر من يذكره:

فقال تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البقرة: 152].

قال سعيد بن جبیر (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: {فَاذْكُرُونِي} بطاعتي، {أَذْكُرْكُمْ} بمغفرتي ورحمتي.

بأنه عليكم خبروني: من نحن حتى يذكرنا المولى تعالى؟ من أنت أيها المسكين حتى يذكرك مولاك؟ وأين يذكرك؟ يذكرك في الملاء الأعلى، عند جبريل، وميكائيل، وعند حملة العرش، فمن أنت؟

يقول يحيى بن معاذ: يا غفول، يا جهول، لو سمعت صرير الأقلام في اللوح المحفوظ، وهي تكتب اسمك عند ذكرك لمولاك، لمت شوقاً إلى مولاك.

ثالثاً: الذكر من صفات المؤمنين المتدينين:

قال تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ}

وَالْحَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: 35].

رابعاً: رتب الله تعالى الفلاح على الذكر:

فقال تعالى {وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الجمعة: 10].

إلى غير ذلك من الآيات التي تحدثنا على الذكر، والتي بلغت 174 آية.

وجاءت السنة النبوية على نفس نهج القرآن الكريم، فحدثت الجميع على هذه العبادة، وذلك على النحو التالي:

أولاً: الذكر من أفضل العبادات:

روى البيهقي والطبراني في الكبير، وحسنه الألباني، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أحب الأعمال إلى الله تعالى، أن تموت ولسانك رطب بذكر الله تعالى -).

وروى مالك والترمذي وابن ماجه وأحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعَهَا لِدَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا رِقَابَهُمْ وَيَضْرِبُونَ رِقَابَكُمْ -، قالوا: بلى، قال صلى الله عليه وسلم: (ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى -).

ثانياً: الذكر سبب في النجاة من عذاب الله تعالى :

روى الحاكم وأحمد والطبراني في معجميه الأوسط والصغير، ورجالهما رجال الصحيح، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا أَنْجَى مِنْ الْعَذَابِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى -، قِيلَ: وَلَا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: (وَلَا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا أَنْ تَضْرِبَ بِسَيْفِكَ حَتَّى يَنْقُطَ -).

ثالثاً: الذكر تُرفع به الدرجات وتمح به الخطايا:

روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (يَعْرِضُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ -، فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ:

كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحِطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ).

رابعاً: الذكر يكثر من غرس الأشجار في الجنة:

روى ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر بأبي هريرة رضي الله عنه وهو يغرس غرساً، فقال صلى الله عليه وسلم: (يا أبا هريرة ما الذي تغرس؟) -قلت: غراساً لي، قال لأبي هريرة رضي الله عنه: (ألا أدلك على غراس خير لك من هذا؟) -، قال: بلى يا رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم: (قل سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، يغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة).

خامساً: مباهاة الله تعالى ملائكته بالذاكرين له:

روى مسلم والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلَقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجَلَسَكُمْ؟، قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ، قَالَ: اللَّهُ مَا أَجَلَسَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ؟، قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجَلَسْنَا إِلَّا ذَلِكَ، قَالَ: أَمَّا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَى حَلَقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: (مَا أَجَلَسَكُمْ؟)، قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ، وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ عَلَيْنَا بِكَ، قَالَ: (اللَّهُ، مَا أَجَلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟)، قَالُوا: اللَّهُ مَا أَجَلَسْنَا إِلَّا ذَلِكَ، قَالَ: (أَمَّا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ، إِنَّهُ أَتَانِي جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخْبَرَنِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ).

إلى غير ذلك من الأحاديث التي بلغت ثلاثة وسبعين حديثاً.

مواطن الذكر

مواطن الذكر

أسباب نعيم القبر

مواطن الذكر

الحمد لله رب العالمين: الذي خلق آدم من طين فسواه، ورد إلى يعقوب بصره حين ابديت عيدناه، وقال لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم: {وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل: 127].

سبحانه: لم يقيد عبادة الذكر بزمان معين، ولا بعدد معين، كما قيد العبادات الأخرى، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الأحزاب: 41، 42].

وقال تعالى: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} [آل عمران: 41].
كما أنه تعالى لم يقيدها بحالة معينة، فقال تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا} [النساء: 103].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: هدد وتوعد من يغفل عن ذكره، بالعذاب في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} [طه: 124 - 127].

وقال تعالى: {وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} [الزخرف: 36 - 39].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم: جعل الفرق بين الذاكر لله تعالى والغافل عن ذكر الله تعالى، كالفرق بين الحي والميت، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ، وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

وعلى آله وصحابه أجمعين.

أما بعد : إخوة الإسلام :

ما زال الحديث موصولاً في ذكر الله تعالى، وها نحن اليوم على موعد مع مواطن الذكر، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا:

الحقيقة الأولى: إن الذكر عبادة جميع الكائنات، فجميع المخلوقات تذكر الله تعالى، أي كانت هذه المخلوقات، سواء أكانت حيوانات، أم جمادات، أم نباتات.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة في القرآن الكريم، فقال تعالى على سبيل الإجمال: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء: 44].

ثم بعد ذلك أخبرنا بطريق التفصيل، فقال تعالى عن الطير: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [النور: 41].

وهذا هو الهدد يذكر الله تعالى، فلقد قص الله تعالى علينا ما أنكره الهدد على قوم بلقيس، ودعوته للتوحيد، فقال تعالى: {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [النمل: 23 - 26].

وأخبرنا عن الرعد بأنه يذكر الله تعالى، فقال تعالى: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ} [الرعد: 13].

وأخبرنا عن الملائكة بأنها تذكر الله تعالى : فقال ﷺ: {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} [الأنبياء: 20].

وهذه الجبال تذكر الله تعالى، فقال تعالى: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء: 79].

وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَآلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ} [سبا: 10].

وقال تعالى: {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ} [ص: 18]. وكذلك الذمل يذكر الله تعالى، فروى البخاري ومسلم وغيرهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بَجَهَارِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا، وَأَمَرَ بِهَا فَأُحْرِقَتْ فِي النَّارِ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ: فِي أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكَتْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ، فَهَلَا نَمْلَةٌ وَاحِدَةً).

وروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، حَتَّى النَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتُ فِي الْبَحْرِ، لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ).

حتى مؤمن الجن يذكرون الله تعالى، فروى الترمذي عن جابر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: (لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: 13]، قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد).

المخلوق الذي شذ في جزء من بني جنسه وغفل عن ذكر الله تعالى هو كافر الجن والإنس، فقال تعالى: {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا * وَأَنَّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَعَدًا} [الجن: 13 - 17].

وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ

وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [الحج: 18].
وصدق الشاعر إذ يقول:

الطير سبحه، والوحش مجده :::: والموج كبره، والحوث ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه :::: والنحل يهتف حمداً في خلاياه
والناس يعصونه جهراً فيسترهم :::: والعبد ينسى، وربى ليس ينساه

الحقيقة الثانية: إن الذكر من أفضل العبادات التي يتقرب بها العبد إلى المولى تعالى، ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى مالك والترمذي وابن ماجه وأحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِكِكُمْ، وَأَرْفَعَهَا لِدَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرَ لَّكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ، وَخَيْرٍ لَّكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا رِقَابَهُمْ وَيَضْرِبُوكُمْ رِقَابَكُمْ؟) قَالَوا: بَلَى، قال صلى الله عليه وسلم: (ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى -).

ولفضل هذه العبادة ومكانتها عند الله تعالى، جعل الله تعالى ملائكة يطوفون في الطرقات يبحثون على أهل الذكر، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى، تَنَادَوْا: هَلُمَّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، قَالَ: فَيُخَفَوْنَهُمْ بِأَجْنَحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ، مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيُحَمِّدُونَكَ، وَيُمَجِّدُونَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمَجُّدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا، قَالَ: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ

لَهَا حَافَّةٌ، قَالَ: فَيَقُولُ: فَأَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ عَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فَلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمُ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ.

ولفضل هذه العبادة ومكانتها أيضاً، يباهي الله تعالى ملائكته بالذاكرين، فروى مسلم والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلَقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟، قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ، قَالَ: اللَّهُ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ؟، قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَلِكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَقَلَّ عَذُّهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَى حَلَقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: (مَا أَجْلَسَكُمْ؟)، قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ، وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ عَلَيْنَا بِكَ، قَالَ: (اللَّهُ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟)، قَالُوا: اللَّهُ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَلِكَ، قَالَ: (أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ، إِنَّهُ أَتَانِي جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخْبَرَنِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ).

فالواجب على كل مسلم يحب أو يريد أن يباهي الله تعالى به ملائكته، أن يداوم على ذكر الله تعالى.

الحقيقة الثالثة: إن الذكر ليس نوعاً واحداً، لكنه يتنوع إلى أنواع عديدة، مختلفة المراتب، متفاوتة التأثير، وهي ما يأتي:

النوع الأول: القرآن الكريم:

فاعلى الذكر منزلة، القرآن الكريم، فقال تعالى: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} [ص: 1].

وقال تعالى: {وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} [القلم: 51، 52].

وجعله الله تعالى من أحسن الحديث، فقال تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر: 23].

ولقد وردت آيات عديدة تحثنا على هذا النوع من الذكر، وتبين لنا المنزلة العالية لمن داوم على هذا النوع من الذكر.

فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَرْيَدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} [فاطر: 29، 30].

وبين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم المنزلة العالية لمن يداوم عليه، فروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به، مع السفارة (الملائكة الكتبة) الكرام البررة (البررة جمع بار، وهو المطيع) والذي يقرأ القرآن وهو يتعتع فيه، وهو شاق عليه، له أجران).

وروى الترمذي والطبراني في الكبير والأوسط أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِّنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَا م حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ).

وكلما ازداد الإنسان في القراءة، ازدادت درجاته في الجنة، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها).

بل بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن القرآن يشفع لصاحبه يوم القيامة، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه).

ولكن للأسف الشديد أهملنا هذا النوع من الذكر إلى حد بعيد، فأصبحنا لا نقرأ القرآن الكريم في المناسبات الحزينة، وزينا به صدور النساء، فأصابنا ما نحن فيه، وصدق الله تعالى إذ يقول: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان: 30].

إن الله تعالى لم ينزل القرآن ليقرأ على الأموات في القبور، ولم ينزله الله تعالى ليوضع في العلب القطيفة الفخمة التي توضع في مؤخرة السيارة، وفي غرف الصالون.

ولم ينزله الله تعالى ليوضع في البراويز الفضية والذهبية، ويعلق على الجدران والحوائط، ولم ينزله الله تعالى ليحلى به النساء صدورهن

في مصاحف صغيرة، ولم ينزله الله تعالى ليهديه الحكام والزعماء إلى بعضهم البعض، بل أنزله الله تعالى على الرسول صلى الله عليه وسلم ليقيم به أمة ودولة، ويسعد به البشر في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} [الإسراء: 9].

وقال تعالى: {وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء: 82].

النوع الثاني: ذكر أسماء الرب تعالى وصفاته والثناء عليه:

ويكون ذلك بالثناء عليه، وتنزيهه عما لا يليق به، ولقد حدثنا المولى تعالى على الذكر بهذا النوع، فقال تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: 180].

وروى مسلم وغيره أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ} قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَجَّدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ-.

النوع الثالث: ذكر أمره ونهيه:

فالمؤمن يذكر أمر الله تعالى فيبادر إليه، ويذكر نهى الله تعالى فيبتعد عنه، وإلى هذا النوع يشير المولى تعالى، فيقول: {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتُ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}.

[آل عمران: 133 - 135].

النوع الرابع: ذكر آلائه ونعمه:

وإلى هذا النوع يشير المولى تعالى فيقول: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل: 18].

النوع الخامس: ذكر الدعاء والاستغفار:

وذلك كما قال المولى تعالى: {قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: 23].

النوع السادس: ذكر الرعاية:

مثل قول الذاكر: الله تعالى معي، والله تعالى ناظر إليّ، وذخوه مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله تعالى.

واسمع معي إلى هذا النموذج من الذكر، عن عبد الله بن الزبير بن أسلم عن أبيه عن جده أسلم، قال: بيّنا أنا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يَعْصُ بالمدينة، إذ أعيا، فاتكأ على جانب جدار في جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء، فقالت لها: يا أمتاه، أو ما علمت ما كان من أمير المؤمنين اليوم، قالت: وما كان من عزمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر منادياً، فنادى ألا يشاب اللبن بالماء، فقالت: لها يا بنتاه قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء، فإنك بموضع لا يراك عمر، ولا منادي عمر، فقالت الصبية لأُمها: يا أمتاه والله ما كنت لأطيعه في الملاء، وأعصيه في الخلاء، وعمر يسمع كل ذلك، فقال: يا أسلم علّم الباب وأعرف الموضع، ثم مضى في عسه، فلما أصبحا قال: يا أسلم امض إلى الموضع فانظر من القائلة، ومن المقول لها، وهل لهم من بعلى؟ فأتيت الموضع فنظرت فإذا الجارية أيّم لا بعلى لها، وإذا تيك أمها، وإذا ليس بها رجل، فأتيت عمر أخبرته، فدعا عمر ولده، فجمعهم، فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه؟ فقال عاصم: يا أبته لا زوجة لي، فزوجني، فبعثت إلى الجارية، فزوجها من عاصم، فولدت لعاصم بنتاً، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز.

إخوة الإسلام:

إن الذكر مطلوب من الإنسان على طول الدوام، ولكن هناك مواضع يتأكد فيها الذكر، فتعالوا معي لتتعرف على هذه المواضع.

أولاً: الذكر عند دخول الخلاء، والخروج منه:

روى البيهقي والطبراني وأبو داود وأحمد وابن ماجه عن زيد بن أرقم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ هَذِهِ الْحُشُوشَ مُحْتَضَرَةٌ، فَإِذَا أَتَى أَحَدُكُمْ الْخَلَاءَ، فَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ).

وعند الخروج يقول كما روى الترمذي وابن ماجه والبيهقي، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا خَرَجَ أَحَدُكُمْ مِنَ الْخَلَاءِ، فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي مَا يُؤْذِينِي، وَأَمْسَكَ عَنِّي مَا يَنْفَعُنِي).

ثانياً: الذكر بعد الوضوء:

روى البيهقي والنسائي والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ، فُتِّحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ).

ثالثاً: الذكر أثناء الأذان:

روى مسلم وأبو داود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا قَالَ الْمُؤَذِّنُ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ أَحَدُكُمْ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِنْ قَلْبِهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ).

رابعاً: الذكر بعد الأذان:

وهو متعدد وذلك على النحو التالي:

1 - النطق بالشهادتين: روى مسلم والنسائي وابن ماجه والترمذي والبيهقي

أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،

رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، غُفِرَ لَهُ.

2 - الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم: روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ، حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ).

3 - الدعاء للرسول صلى الله عليه وسلم بالوسيلة: روى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مُحَمَّدًا الَّذِي وَعَدْتُهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

خامسا: الذكر عند افتتاح الصلاة:

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَبَّرَ فِي الصَّلَاةِ سَدَّكَتْ هُنَيْدَةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَدْتَ وَأُمِّي، أَرَأَيْتَ سُدَّكَتْ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنْقَى الثُّوبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي بِالْثَّلَاجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرْدِ).

وروى مسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إِذَا قَامَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: (وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي فَاعْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، إِلَّا أَنْتَ، لَبِّكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ).

وروى أبو داود عن جبير بن مطعم أنه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم

وسلم يصلي صلاة قال: (الله أَكْبَرُ كَبِيرًا، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لله كَثِيرًا، وَالْحَمْدُ لله كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، أَعُوذُ بالله مِنَ الشَّيْطَانِ، مِنْ نَفْخِهِ، وَنَفْثِهِ، وَهَمْزِهِ- قَالَ: نَفْثُهُ: الشَّعْرُ، وَنَفْخُهُ: الْكِبَرُ، وَهَمْزُهُ: الْمَوْتَةُ.

سادسا: الذكر في الركوع والسجود:

روى أحمد وأبو داود وابن ماجه عن عقبة بن عامر قال: لما نزلت: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} [الواقعة: 74]، قال لنا الرسول صلى الله عليه وسلم: (جعلوها في ركوعكم- ولما نزلت: {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى: 1]، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (جعلوها في سجودكم- وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقول في ركوعه وسجوده: (سبح قدوس، رب الملائكة والروح).

وروى مسلم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا ركع: (اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَخَيِّي، وَعَظْمِي، وَعَصْبِي-، وَإِذَا رَفَعَ قَالَ: (اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ-، وَإِذَا سَجَدَ قَالَ: (اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ-.

سابعا: الذكر بعد الصلاة:

روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقول بعد التسليم: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ-.

وروى مسلم والترمذي عن عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم لا يقعد إلا مقدار ما يقول: (اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ-.

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا انصرف من صلاته، أستغفر الله ثلاثاً، وقال: (اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت

ذا الجلال والإكرام.-

وروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من قرأ دبر كل صلاة آية الكرسي، ليس بينه وبين الجنة إلا أن يموت.-

وروى أبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (يَا أَبَا ذَرٍّ أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ تُدْرِكُ بِهِنَّ مَنْ سَبَقَكَ، وَلَا يَلْحَقُكَ مَنْ خَلْفَكَ، إِلَّا مَنْ أَخَذَ بِمِثْلِ عَمَلِكَ؟- قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ صلى الله عليه وسلم: (تُكَبِّرُ اللَّهَ تَعَالَى دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدُهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُسَبِّحُهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُحْتَمِهَا بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، غُفِرَتْ لَهُ ذُنُوبُهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ.-

وروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من صلى الصبح في جماعة، ثم جلس في مصلاه يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كان له مثل أجر حجة وعمرة تامة، تامة، تامة.-

ثامنا: الذكر في الصباح:

روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدَلٌ عَشْرَ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَحُجِّتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمِيتَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.-

تاسعا: الذكر عند النوم:

روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة، كفناه.-

وروى البخاري أن الشيطان قال لأبي هريرة: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فأخبر أبو هريرة رضي الله عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: (أما إنه صدقك، وهو كذوب.-

عاشرا: الذكر عند الكرب والهم:

روى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (يا حي يا قيوم: برحمتك أستغيث).

حادي عشر: الذكر عند المصيبة:

قال تعالى: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ { [البقرة: 156، 157].

وروى مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أَجْرُنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا، قَالَتْ: فَلَمَّا تَوَفَّى أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ، رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

ثاني عشر: الذكر عند زيارة المريض:

روى أبو داود والترمذي والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَخْضُرْ أَجَلُهُ، فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مَرَاتٍ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، أَنْ يَشْفِيكَ، إِلَّا عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ).

ثالث عشر: الدعاء عند السفر:

روى مسلم عند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعبيره خارجاً إلى سفره، كبر ثلاثاً، ثم قال: (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ -، وَإِذَا رَجَعَ، قَالَ هُنَّ، وَزَادَ فِيهِنَّ: (أَيُّسُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ).

رابع عشر: الذكر عن القيام من المجلس:

روى الترمذي والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ كَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ: سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ ثُمَّ اتَّوْبُ إِلَيْكَ، إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ).

خامس عشر: الذكر عند دخول السوق:

روى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، وبني له بيتاً في الجنة).

سادس عشر: الذكر عند العطاس:

روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ، أَوْ صَاحِبُهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَإِذَا قَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَلْيَقُلْ: يَهْدِيكُمُ اللَّهُ، وَيُصْلِحْ بَالَكُمْ).

سابع عشر: الذكر عند دخول البيت:

روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عِشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَذْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، فَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَذْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعِشَاءَ).

ثامن عشر: الذكر عند الخروج من المنزل:

روى أبو داود والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ -، قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: (هُدَيْتَ، وَكُفَيْتَ، وَوُقِيتَ، فَتَنَنْحَى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ، وَكُفِيَ، وَوُقِيَ).

* * *

الشكر

الشكر

أسباب نعيم القبر

الشكر

الحمد لله رب العالمين: الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة؛ لعلكم تشكرون.

سبحانه: يغفر الذنوب، ويستتر العيوب، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما تفعلون، وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: أمرنا بالشكر، ونهاينا عن الكفر، فقال تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البقرة: 152].

ثم توعّد بسلب النعمة عند عدم شكره عليها (كفر النعمة) فقال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [النحل: 112].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: أمرنا أن ندعو الله تعالى أن يعنا على شكره، فروى أبو داود والبيهقي عن مُعَاذِ ابْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: (يَا مُعَاذُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ-)، فَقَالَ: (أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدْعَنِي فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ-).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد:

أخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع سبب من أسباب الذعيم في القبر، ألا وهو: الشكر، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن

يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا.

الحقيقة الأولى: إن نعم الله تعالى على عباده تتوالى، وعطاءه دائم لا ينقطع، ورعايته للإنسان موصولة منذ أن أوجده في هذا الكون، ولقد تنوعت آلاؤه، لدرجة أن العقول تعجز عن حصرها.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذا الحقيقة تارة على طريق الإجمال، وتارة على طريق التفصيل، فقال على سبيل الإجمال: {وَاتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم: 34].

وقال تعالى: {وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النحل: 18].

ثم بعد ذلك أشار إلى نعمه على الإنسان بطريق التفصيل، وذلك على النحو التالي:

1- أشار إلى نعمة الخلق: فقال تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الذحل: 78].

وقال تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} [السجدة: 7-9].

وقال تعالى: {أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَن نَّبْدَلِ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} [الواقعة: 58-62].

2- أشار إلى نعمة السكن: فقال تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا

وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ {النحل: 80}.

3- أشار إلى نعمة الظل ونعمة الثياب التي تقينا من الحر والبرد: فقال تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} [النحل: 81].

وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا} [الفرقان: 45].

4- أشار إلى سهولة العيش على الأرض: فقال تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُم الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ} [طه: 53، 54].

5- أشار إلى نعمة الليل والنهار: فقال تعالى: {وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [القصص: 73].

وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} [غافر: 61].

وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} [الفرقان: 62].

6- أشار إلى نعمة الفلك وهي تسير في البحر: فقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [لقمان: 31].

وقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [الشورى: 32، 33].

7- أشار إلى نعمة الماء الذي نشربه: فقال تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ} [الواقعة: 68-70].

8- أشار إلى نعمة الزرع الذي نزرعه: فقال تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ *}

أَأَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ {الواقعة: 63-65}.

9- أشار إلى نعمة النار التي نستخدمها: فقال تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَذِيرًا لِلْمُقْوِينَ} [الواقعة: 71-73].

وقال تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ} [يسن: 80].

10- أشار إلى تذليل الدواب: فقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ} [يسن: 71-73].

إلى غير ذلك من النعم التي يعجز الإنسان على حصرها، فقال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النحل: 18].
فما الواجب تجاه هذه النعم كلها؟ إنه الشكر لله تعالى.

الحقيقة الثانية: إن الشكر كان صفة أصيلة من صفات الأنبياء المرسلين، فهذا النبي صلى الله عليه وسلم كان دائم الشكر لله تعالى على نعمه عليه، فروى البخاري ومسلم عن الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّ الذَّبِّيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: أَتَكْلَفُ هَذَا، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا).

وهذا سيدنا نوح عليه السلام قد اتصف بهذه الصفة، فقال تعالى: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء: 3].

قال بعض المفسرين: كان نوح عليه السلام إذا أكل قال: الحمد لله، وإذا ركب قال: الحمد لله، فسماه الله تعالى عبداً شكوراً.

وهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام كان شاكراً لله تعالى: فقال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [النحل: 120، 121].

وهذا نبي الله داود عليه السلام قد أنعم الله تعالى عليه بنعم كثيرة،

وأمره بالشكر على هذه النعم، فقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارَ لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَسْلِمَانِ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اْعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: 10-13].

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن علي بن الجعد، قال: سَمِعْتُ سُفْيَانَ بْنَ سَعِيدٍ وَذَكَرَ دَاوُدَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَمَا يَنْبَغِي لِكَرَمِ وَجْهِ رَبِّي وَعِزِّ جَلَالِهِ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ يَا دَاوُدُ أَتَعْبَتِ الْمَلَائِكَةُ- أَيْ: مِنْ كِتَابَةِ ثَوَابِ ذَلِكَ.

وهذا سيدنا سليمان عليه السلام دعا ربه تعالى أن يعينه على شكره، فقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَخْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَبَسَّسَ صَاحِبُهَا مِنْ قَوْمِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} [النمل: 15-19].

وقال تعالى: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [النمل: 38-40].

وهذا سيدنا موسى عليه السلام أمره الله تعالى بالشكر، فقال تعالى: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ

مَنْ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف: 144].

وهذا لقمان الحكيم قد أمره الله تعالى بالشكر، فقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [لقمان: 12].

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية الشكر في حياة الفرد والمجتمع.

الحقيقة الثالثة: لقد جعل الشرع الحنيف الشكر أمراً واجباً على جميع المسلمين، دون تفرقة بين رجل وامرأة، ودون تفرقة بين متعلم وغير متعلم، فالكل سواء أما هذا الخلق العظيم.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيْكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} * فَادْكُرُونِيْ أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البقرة: 151، 152].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [البقرة: 172].

فشكر الله تعالى واجب على كل مسلم ومسلمة، في كل الأحوال والأوقات، فروى مسلم وغيره أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ).

حتى عندما يصاب الإنسان بأي أذى، عليه أن يشكر الله تعالى، وقد يقول إنسان: كيف يشكر الإنسان المولى تعالى على الابتلاء؟

أقول: إن في كل بلاء أربعة أشياء، يُسرُّ بها أولوا الألباب، فيشكرون المولى تعالى عليها.

أولها: أن من المتصور أن يكون وقوع المصيبة على درجة أكبر مما هي عليه، فمجئها على هذه الدرجة، نعمة تستوجب الشكر.

الثاني: أن المصيبة التي وقعت بالإنسان لم تكن في الدين، إذ لا مصيبة أعظم من المصيبة فيه، فإن من أصيب في دينه والعياذ بالله، فقد

خسر الدنيا والآخرة، قال تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: 65].

وقال تعالى: {ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 88].

الثالث: أن في المصيبة من ثواب للصابر عليها، ورفعة في المقام، وتكفير للسيئات، ما يحولها إلى رحمة، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا؛ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ).

الرابع: إن المصيبة التي وقعت بالإنسان مكتوبة في اللوح المحفوظ، ولم يكن بد من وصولها إلى من كتبت عليه، ولا مناص للإنسان من التسليم والرضا بها، لأن الرضا بالمصيبة رضوان من الله تعالى، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ، فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ، فَلَهُ السَّخَطُ).

ولقائل يقول: لماذا أوجب الله تعالى علينا الشكر؟ أقول: أوجب الله تعالى الشكر على الجميع لعدة أسباب:

السبب الأول: لأن منفعة الشكر ترجع إلى العبد في الدنيا والآخرة، لا إلى الله تعالى، فالعبد وحده هو الذي ينتفع بالشكر، فقال تعالى: {وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [لقمان: 12].

وقال تعالى: {وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [النمل: 40].

فشكر العبد إحساناً منه إلى نفسه في الدنيا والآخرة، فإنه مدسن إلى نفسه بالشكر، لا أنه مكافئ لنعم الرب تعالى، فالرب لا يستطيع أحد أن يكافئ نعمه أبداً، ولا أقله، ولا أدنى نعمة من نعمه، فإنه تعالى هو المنعم المتفضل الخالق للشكر والشاكر وما يشكر عليه، فلا يستطيع أحد أن يحصي ثناء عليه، فإنه هو المدسن إلى عبده بنعمه، والمدسن إليه بأن

أوزعه شكرها.

السبب الثاني: لأن قلة الشكر خسة يجب التنزه عنها، فلو أنك أطعمت إنساناً شهراً أو شهرين، أو قضيت عنه ديناً، أو رفعتة درجة، ثم أنك هذا كله، وأعرض عنك، لرأيت أن فراغ الحياة من مثله واجب، وأن بقاءه على ظهر الأرض أذي يتحرك، فما ظنك بمن خُلِق من عدم، وأطعم وسُتر، وأغدق النعم، وأمدّ الأعوام بعد الأعوام، ولم يَشْكُرْ، فهو أولى أن يُعَدَم.

السبب الثالث: لأن النعم تزداد بالشكر، وتزول بالكفر، فقال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: 7].

السبب الرابع: لأن الشكر فيه إرضاء لله تعالى: وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر: 7].

الحقيقة الرابعة: ما حقيقة الشكر؟ قال ابن القيم: الشكر هو: ظهور أثر نعمة الله تعالى على لسان عبده ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبّة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة.

وقال أيضاً: وشكر القوم هو عملهم بطاعة الله تعالى، واستعانتهم بنعمه على محابه، قال تعالى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا} [سبأ: 13].
وقيل هو: الاجتهاد في بذل الطاعة، مع الاجتناب للمعصية في السر والعلانية.

أخوة الإسلام:

إن التخلق بخلق الشكر لله تعالى ليس أمراً هيناً، لأن الشكر لا يكون بالكلام، ولا بتقبيل اليد، ولكن يجب أن يكون من كل عضو أنعم الله تعالى به على الإنسان، فتعالوا معي لنتعرف كيف يحقق المسلم الشكر لله تعالى.

أولاً: شكر العينين:

ويتحقق شكر العينين بأمر منها:

1- النظر إلى ما أحل الله تعالى النظر إليه، وعدم النظر إلى ما حرم

الله تعالى النظر إليه، فقال تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ} [النور: 30، 31].

2- إذا رأى الإنسان بهما شراً ستره، وإن رأى بهما خيراً أعلنه، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

3- أن ينظر الإنسان إلى من هو أقل منه حالاً، ولا ينظر إلى من هو من أعلى منه، فروى مسلم وغيره أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ).

4- إن رأى ضريراً عاجزاً عن السير بمفرده، قاده إلى حيث يريد.

ثانياً: شكر القلب:

ويتحقق شكر القلب بأمور منها:

1- وجوب صرف العبادة كلها لله تعالى: فالعبادة حق لله تعالى وحده، قال تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: 110].

2- طهارة القلب من الحقد والحسد وكل الآفات المهلكة: فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ).

3- وجوب الاستعانة بالله تعالى: فقال تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5].

وروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (.. إذا استعنت فاستعن بالله ..).

4- تحقيق الخوف من الله تعالى: فقال تعالى: {فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} * رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} [النور: 36، 37].

وقال تعالى: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا [الإنسان: 9، 10].

ثالثاً: شكر الأذنين:

ويتحقق شكر الأذنين بأمور منها:

1- الاستماع إلى القرآن الكريم: فقال تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: 204].

2- الاستماع إلى الأحاديث النبوية: فروى أبو داود والترمذي وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ، حَتَّى يُبْلَغَهُ، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهِهِ-).

3- عدم الاستماع إلى ما نهى الله تعالى عنه: فلوا استمعت بأذنك إلى ما حرم الله تعالى، فتكون جاحداً لنعمة السمع، وستسأل عن ذلك يوم القيامة، فقال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: 63].

وأقول لمن أطلق العنان لأذنيه، وجعلها تسمع إلى الغناء: اتق الله تعالى في أذنك، فالله تعالى قد حرم الغناء، فقال: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [لقمان: 6].

قال مجاهد: حلف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات: إنه الغناء.

وقال تعالى: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} [الإسراء: 64].

قال مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه: صوت الشيطان الغناء، والمزامير، واللهم.

رابعاً: شكر اليدين:

ويتحقق شكر اليدين بأمور منها:

1- الاستعمال فيما أحل الله تعالى : وذلك كرفع الأذى عن الطريق، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الإيمانُ بضعٌ وسبعون، أو بضعٌ وستون شعبةً، فأفضلُها قولُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأدناها إمَاطَةُ الأذى عَنِ الطريق، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ).

وروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إمَاطَةُ الأذى عن الطريق صدقة).

2- مد العون إلى المحتاج: روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (والله في عَوْنِ الْعَبْدِ، مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ).

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ، قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسُدَّطْعْ؟ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ).

3- تقديم الصدقة بها: فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ... وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ).

4- التسبيح بها: فكان من هدي الرسول صلى الله عليه وسلم التسبيح على يديه الشريفة.

5- مصافحة المسلم بها: فروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أيما مسلم يصافح أخاه، ليس في صدر واحد منهما على أخيه حنة، لم تفرق أيديهما حتى يغفر الله لهما ما مضى من ذنوبهما).

وروي أيضاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذه بيده، تحات ذنوبهما كما تحات الورق من الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحر).

6- عدم مصافحة النساء بها: فمصافحة النساء بدون حائل حرام شرعاً، روى الطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد، خير له من أن يمسه امرأة لا تحل له).

7- عدم السرقة بها: فالسارق يستحق قطع يده، فقال تعالى: {وَالسَّارِقُ

وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {
[المائدة: 38].

خامساً: شكر اللسان،

ويتحقق شكر اللسان بأمور منها:

1- أن يكون رطباً بذكر الله تعالى : فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ... وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ).

وروى البيهقي وأحمد أن رجلاً ذهب للرسول صلى الله عليه وسلم فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِأَمْرٍ أَتَشَبُّثُ بِهِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّهِ).

2- الكلام بالخير فقط: فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ: فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ).

وبين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن إسلام الفرد لا يكمل ولا يصح، إلا إذا حافظ الإنسان على لسانه، وسلم المسلمون من لسانه، فروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم من سلم المسلم من لسانه ويده).

و بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن المحافظة على اللسان طريقاً من الطرق المؤدية للجنة، فروى الترمذي أن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال للرسول صلى الله عليه وسلم : ما النجاة؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : (أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسْعَكَ بَيْتُكَ، وَابْكْ عَلَى خَطِيئَتِكَ).

3- عدم الغيبة: فالله تعالى قد نهانا عنها، فقال تعالى: {وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} [الحجرات: 12].

4- عدم النميمة: فالله تعالى قد حذرنا منها، فقال تعالى: {فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَذُوا لَوْ تَذَكَّرْنَا فَيَذْنُ فَيَقُولُوا * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هُمَا زَمَانٌ مَّشَاءٍ بَنِيمٍ * مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ * عَثَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٌ} [القم: 8 - 13].

سادساً: شكر الفرج،

ويتحقق شكر الفرج بأمر منها:

1- المحافظة عليه: فقال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [المؤمنون: 5-7].

2- عدم الزنا به: فقال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء: 32].

سابعاً: شكر الرجلين:

ويتحقق شكر الرجلين بأمر منها:

1- المشي بهما للعبادة: فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَرَّمَهُمَا اللَّهُ عَلَى النَّارِ).

2- قضاء مصالح العباد بهما: فروى الطبراني في معجميه الكبير والأوسط أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ولئن أمشي - مع أخ لي في حاجة، أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً، في مسجد المدينة).

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمُسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ).

قال راوي الحديث: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: (وَالْقَائِمُ لَا يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمُ لَا يُفْطِرُ).

3- عدم المشي مع الظالم: روى البيهقي في شعب الإيمان أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ مَشَى مَعَ ظَالِمٍ لِّعَيْنِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ ظَالِمٌ، فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الْإِسْلَامِ).

ثامناً: شكر المال:

ويتحقق شكر المال بأمر منها:

1- أن يكون كسب المال بطريق الرضا: فلا يجوز أخذ مال الغير بدون رضاه، وإلا كان سحتاً، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء: ٢٩].

وروى البيهقي وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّمَا

الْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ-.

2- عدم الإسراف: فالإسلام حرم الإسراف في المال، ولقد عد الله تعالى عدم الإسراف في المال من صفات عباد الرحمن، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: ٦٧].

3- عدم التبذير: فالله تعالى قد نهى عن التبذير، وجعل المبذر قرين الشيطان، فقال تعالى: {وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

4- الإنفاق في حقه: فالواجب على المسلم أن ينفق المال في حقه، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَكَةٍ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا، وَيَعْلَمُهَا-).

5- تأدية الحق الواجب فيه: ويجب فيه ما يأتي:

أ- الزكاة، فالله تعالى وإن اقتضت حكمته أن يكون هناك أغنياء وفقراء، إلا أنه لم يترك الفقراء ديارى مهملين، ولكن فرض لهم حقاً معلوماً يصرف لهم كل عام من أموال الأغنياء، وذلك عن طريق الزكاة، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [المعارج: 24، 25].

ب- النذور: فقال تعالى: {يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} [الإنسان: ٧].

ج- الكفارات، وذلك على النحو التالي:

كفارة اليمين: فقال تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [المائدة: ٨٩].

كفارة الظهار: فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكُمْ تُوَعِّظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *}

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَّسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ [المجادلة: ٣، ٤].

كفارة القتل الخطأ: فقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: ٩٢].

6- أداء التطوع: وذلك مثل الصدقة، فالله تعالى قد حدثنا عليها قبل فوات الأوان، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: 254].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} * وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِي أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ} * وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المنافقون: 11-9].

تاسعا: شكر العلم:

ويتحقق شكر العلم بأمر منها:

1- العمل به: فالعالم قبل أن يأمر الناس ويعلمهم، عليه أن يعلم نفسه، ويعمل بما يقوله، فليس من المعقول أن يعلم العالم الناس الخير ولا يعمل به، فمن الأمانة على العالم أن يعلم نفسه أولاً، قبل أن يعلم غيره، ويعمل بعلمه قبل أن يأمر الناس بالعمل.

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة، فكان صلى الله عليه وسلم يعمل بما علم، فروى أحمد عن قَتَادَةَ، عَنْ زُرَّارَةَ، عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) فَقُلْتُ: أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَتْ: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ".

ولقد ذم الله تعالى من خالف فعله قوله، فقال تعالى: {تَأْتُمِرُونَ النَّاسَ

بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: 44].
وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: 2، 3].

ولقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم العقاب الذي أُعد لمن خالف فعله قوله، فروى مسلم وأحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِجَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ).

2- التواضع به: والتواضع بالعلم معناه: انكسار القلب، وخفض الجناح والرحمة للخلق، وسئل الفضيل بن عياض عن التواضع، فقال: يذضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله، ولو سمعه من صبي قبله، ولو سمعه من أجهل الناس قبله، انطلاقاً من قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه ابن ماجه وغيره: (الحكمة ضالة المؤمن، أتي وجدها فهو أحق بها).

ولقد طبق الرسول صلى الله عليه وسلم التواضع بالعلم، فروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي: (إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: {لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} [البينة: 1]).

3- عدم كتمانها: فالواجب على العالم أن يبين للناس العلم الذي يعلمه، فالله تعالى قد أخذ العهد والميثاق على أهل الكتاب أن يبينوا العلم للناس، ولا يكتُمونه، فقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [آل عمران: 187].

قال القرطبي: هذا متصل بذكر اليهود، فإنهم أمروا بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبيان أمره، فكتُموا نعته، فالآية توبيخ لهم، ثم مع ذلك هو خبر عام لهم ولغيرهم.

قال الحسن وقتادة: هي في كل من أوتي علم شيء من الكتاب، فمن علم شيئاً فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم، فإنه هلكة.

وأمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بتبليغ العلم، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ).

وروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ).

أخوة الإسلام:

تعالوا معي لنسوق بعض النماذج لنتعلم كيف يحقق المسلم فينا شكر الله تعالى :

النموذج الأول: روى البخاري ومسلم أن النَبِيَّ صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَنْبَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَآتَى الْأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْ أَنَّ حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ السَّالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ، قَالَ: فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشْرَاءَ، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا، قَالَ: فَآتَى الْأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَذَرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ السَّالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا، قَالَ: فَآتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي، فَأَبْصَرَ - بِهِ النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَردَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصْرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ السَّالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا، فَاتَّجَعَ هَذَانِ، وَوَلَدَ هَذَا، قَالَ: فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مُسْكِينٌ قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْجِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ بَكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ، وَالسَّالَ، بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ: الْحَقُّوْكَ كَثِيرَةً، فَقَالَ لَهُ كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْدُرُكَ النَّاسُ؟ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا السَّالَ

كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَصَبِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ، قَالَ: وَآتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ: مِثْلُ مَا قَالَ هَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلُ مَا رَدَّ عَلَى هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَبِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ، قَالَ: وَآتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مُسْكِينٌ، وَابْنُ سَبِيلٍ، انْقَطَعَتْ بِي الْحَبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاعَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ بَكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ، شَاءَ أَتَبْلُغَ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى، فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ اللَّهُ، فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّهَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ عَنْكَ، وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ.

وهكذا يكون الأعمى قد نجح في الاختبار، فشكر ربه، وتصدق بما رزقه الله تعالى، فزاد الله تعالى عليه هذه النعمة، وبارك له فيها، بينما بخل الأبرص والأقرع، ولم يشكرا ربهما، فسلب الله تعالى منهما النعمة.

النموذج الثاني: روي أن رجلاً ابتلاه الله تعالى بالعمى، وقطع اليدين والرجلين، فدخل عليه أحد الناس، فوجده يشكر الله تعالى على نعمه، ويقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به غيري، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً، فتعجب الرجل من قول هذا الأعمى، المقطوع اليدين والرجلين، وسأله: على أي شيء تحمد الله تعالى وتشكره؟ فقال له: يا هذا: أشكر الله تعالى أن وهبني لساناً ذا كراً، وقلوباً خاشعاً، وبدناً على البلاء صابراً.

النموذج الثالث: روي أن رجلاً ذهب إلى أحد العلماء يشكو إليه فقره، فقال العالم: أيسرك أنك أعمى، ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال الرجل: لا، فقال العالم: أيسرك أنك أخرس، ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال الرجل: لا، فقال العالم: أيسرك أنك مقطوع اليدين والرجلين، ولك عشرون ألفاً، فقال الرجل: لا، فقال العالم: أما تستحي أن تشكو مولاك، وله عندك بخمسين ألفاً.

فعرف الرجل مدى نعمة الله تعالى عليه، وظل يشكر ربه، ويرضى بحاله، ولا يشتكي إلى أحد أبداً.

أما إذا نظرنا إلى حالنا اليوم فعلى الرغم أن الله تعالى قد زاد من

فضله علينا، وأكثر لنا النعم التي لم ينعم بها أجدادنا، فنرى التقدم في جميع المجالات، في العلم، والاقتصاد، والطب، والآلات، والنبات، والحيوان، والمأكل والمشرب، فتُفتح في العلوم والمعارف، تحسّن بها أسباب العيش، إلا أن كثيراً من البشر لا يشكرون الله تعالى على هذه النعم، ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في أكثر من موضع، فقال تعالى: {وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ} [سبأ: 13].

وقال تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} [السجدة: 7-9].

وقال تعالى: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَجِدُهُم مِّن بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: 16، 17].

وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ} [يسن: 77].

أخوة الإسلام:

تعالوا معي لننتعرف على النتائج المترتبة على شكر الله تعالى.

أولاً: زيادة النعمة: فقال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: 7].

وقال الحسن: كلما شكرت نعمة، تجدد لك بالشكر أعظم منها.

ثانياً: النجاة من العذاب وتفريج الكرب: فقال تعالى: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء: 147].

وعندما أرسل الله تعالى العذاب على قوم سيدنا لوط عليه السلام؛ لأن فطرتهم قد انتكست، فكانت النجاة من حظ المؤمنين الأطهار الشاكرين على نعمائه، فقال تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ} [القمر: 33-35].

ثالثاً: الفوز برضا الله تعالى : قال تعالى : {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر: 7].

رابعاً: الثواب العظيم: فقال تعالى : {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ- اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: 144].

أما إذا جدد الإنسان النعمة، فإن الله تعالى ينتقم منه، وهذا ما حدث في قصة أصحاب الجنة، فقال تعالى : {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَشْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ * أَنْ أَغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ * وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [الْقلم: 17- 34].

وحدث أيضاً في قصة أصحاب الجنتين، فقال تعالى : {وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاءً غَورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا} [الكهف: 35-44].

وقال تعالى في قصة سبأ: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ وَبَدَّلْنَا هُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَا هُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {سبأ: 15-20}.

قال أهل السير: سكن قوم سبأ بأرض اليمن، وأغدق الله تعالى عليهم من نعمه الظاهرة والباطنة، وأصلح لهم البال والاحال، وبارك لهم في الأرض والمال، ووضع عنهم الأوزار والأحمال، ونقى لهم الهواء، ونزلت عليهم بركة السماء والأرض، فقال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ} [سبأ: 15].

أي: علامة دالة على كمال قدرة الله تعالى، وبديع صنعته.

قال بعض المفسرين: إن الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم: أنهم كانوا لا يرون فيها بعوضة، ولا ذباباً، ولا برغوثاً، ولا قملة، ولا حية، ولا غير ذلك.

قال تعالى: {جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ} [سبأ: 15].

كان الماء يأتيهم بين جبلين، وتجتمع إليه السيول، فعمد ملوكهم فبنوا سداً عظيماً محكماً، هو سد مأرب، فغرسوا الأشجار، وكانت الأشجار تنثر أجود وأنضج وأحلى الثمر، بقدرة الله تعالى.

قال قتادة: إن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار، وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف؛ لكثرتهم، ونضجه، واستوائه.

ولقد طلب الله تعالى منهم الأكل والشكر، فقال: {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} [سبأ: 15].

فماذا فعلوا: قال تعالى: {فَأَعْرَضُوا} [سبأ: 16].

فماذا كانت العاقبة، قال تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ} [سبأ: 16]. أرسل الله تعالى عليهم سيلاً شديداً لا يُطاق، فشق السد وهدمه، فلم

يَبْقُ الْمَاءُ، وَأَبْدَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْجِيدِ رَدِيئاً، فَقَالَ تَعَالَى: {وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ} [سبأ: 16].
قال بعض المفسرين: خمط هو ثمر مر لا يؤكل ثمره، والأثل شجر لا ثمر فيه.

يا ترى ما السبب؟ قال تعالى: {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ} [سبأ: 17].

* * *

الصلاة

الصلاة

أسباب نعيم القبر

الصلاة

الحمد لله رب العالمين: فرض علينا الصلاة ليلة المعراج؛ لتكون صلة بحضرته، وتذكيراً لعظمته، وشكراً لنعمته، وكسباً لرحمته، وطمعاً في جنته، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: 22 - 24]

سبحانه: أعد الجنة والرحمة لمن أطاعه، وأعد النار وسخطه لمن عصاه، فقال تعالى: {إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى} [طه: 74 - 76].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: جعل إقامة الصلاة معيار الرجولة الكاملة، فقال تعالى: {فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [النور: 36 - 38].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: بين لنا أن الصلوات الخمس يمحو الله تعالى بهن الخطايا، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بَيَّابٌ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟)، قالوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ صلى الله عليه وسلم: (فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا).

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الصَّلَوَاتُ

الْحَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكْفَرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا اجْتَنِبْتَ الْكِبَائِرُ.

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابه أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

ما زال الحديث موصولاً في أسباب نعيم القبر، وها نحن اليوم مع سبب آخر من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: الصلاة، فأعيدوني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا اليوم:

الحقيقة الأولى: إن الصلاة لم تكن مفروضة على النبي صلى الله عليه وسلم ولا على أمته فحسب، بل كانت مفروضة على كل الأمم السابقة، فكانت الصلاة عبادة كل رسول من رسل الله تعالى من لدن سيدنا آدم عليه السلام إلى سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فيقول في شأن سيدنا إبراهيم عليه السلام: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [البقرة: 125].

وقال تعالى: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم: 37].

ويقول تعالى في شأن سيدنا إسماعيل عليه السلام: {وَإِذْ كُفِّرْنَا فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} [مريم: 54، 55].

ويقول تعالى في شأن سيدنا موسى عليه السلام: {وَأَنَا اخْرَجْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: 13،

ويقول تعالى في شأن مريم البتول: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [آل عمران: 43].

ويقول تعالى في شأن سيدنا عيسى عليه السلام: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا} [مريم: 30، 31].

إذاً كانت الصلاة شرع من قبلنا، ولكنها كانت تختلف عن صلاتنا، فالصلاة التي أمرنا الله تعالى بها، وأمر بها نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم خاصيتها أنها جمعت ميزات كل صلوات الرسل السابقين، فصلاة بعضهم كانت في بعض الأزمنة غدوة وعشية، ركعتين في أول النهار، وركعتين في آخر النهار، شكل خاص في القيام، وشكل خاص في الركوع، وشكل خاص في السجود.

الحقيقة الثانية: لقد انفردت الصلاة عن غيرها من العبادات بعدة انفرادات، لم تشاركها عبادة أخرى في هذه الانفرادات، وهي ما يأتي:

الانفراد الأول: الصلاة هي العبادة الوحيدة التي فرضت في السماء: فكل العبادات ما عدا الصلاة فرضت في الأرض، أما الصلاة فكان فرضها في السماء ليلة المعراج، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ، فَفَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ، حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللَّهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَارْجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَارْجَعْتُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَارْجَعْتُ، فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، فَارْجَعْتُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبِّكَ، فَقُلْتُ: اسْتَخِيْتُ مِنْ رَبِّي).

الانفراد الثاني: الصلاة هي العبادة الوحيدة التي تجمع أركان الإسلام كلها: ففيها:

1- الشهادة: فالمصلي في الصلاة يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

2- الزكاة: حيث يقدم المصلي جزءاً من وقته، يتفرغ فيه لمناجاة ربه، وكان يمكنه في هذا الوقت أن يكسب مالاً عن طريق أي عمل مشروع.

3- الصيام: فالصوم عبارة عن إمساك عن شهوتي البطن والفرج نهار رمضان، لكن في الصلاة يمسك الإنسان عن شهوتي البطن والفرج، ويمسك عن الحركة والكلام، وعن كل شيء ينافي الصلاة، إذاً ففيها لون من الصيام متعلقاته في المنع أوسع من متعلقات الصيام.

4- الحج: حيث يتحرى المصلي بيت الله الحرام، ويتجه إليه في صلاته دائماً.

الانفراد الثالث: الصلاة هي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة: فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ الرَّبُّ تَعَالَى: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَيُكَمَّلُ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ).

وروى البيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ كَانَ أَكْمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ كَامِلَةٌ، وَإِنْ لَمْ يُكْمِلْهَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لِمَلَأْتَكِيهِ: هَلْ تَجِدُونَ لِعَبْدِي تَطَوُّعًا تُكْمَلُوا بِهِ مَا ضَيَّعَ مِنْ فَرِيضَتِهِ؟).

الانفراد الرابع: الصلاة لا تسقط عن الفرد بأي حال من الأحوال: وذلك بخلاف العبادات الأخرى، فالصوم يسقط عن العاجز عليه، والزكاة لا تجب على الفقير، والحج لا يجب إلا على المستطيع، وهذا كله بخلاف الصلاة، فقال تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ

تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 238، 239].

حتى في حالة الحرب أو جب الله تعالى الصلاة، فقال تعالى: {وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِّنْ مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا} [النساء: 102].

الانفراد الخامس: الصلاة هي العبادة الوحيدة التي لا تجوز فيها نيابة: وهذا بخلاف الصوم والزكاة والحج، فقد اتفق الفقهاء على أن الصلاة عبادة بدنية محضة، لا يصح التطوع بها عن الغير، بمعنى أن من مات وعليه صلاة واجبة أو نافلة، لا يصح أن يصلي عنه غيره، كما أنه لا يصح أن يصلي شخص عن آخر حال الحياة، فقال تعالى: {وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} [النجم: 39].

الانفراد الخامس: الصلاة هي العبادة الوحيدة التي أوصى بها الرسول صلى الله عليه وسلم في لحظات حياته الأخيرة: فروى أبو داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت آخر وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يغرغر بها لسانه: (الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم).

الانفراد السادس: الصلاة هي أم العبادات: لأن فيها ألوان العبودية الشاملة لسائر بدن الإنسان: للقلب، والعقل، واللسان.

فلسان: الشهادتان، والتكبير، والتعوذ، والبسملة، وتلاوة القرآن، والتسبيح، والتحميد، والاستغفار.

وللجوارح: القيام، والركوع، والسجود، والاعتدال، والخفض، والقعود.

وللعقل: التفكير، والتدبر، والتفقه، والتفهم.

وللقلب: الخشوع، والرقعة، والبكاء، والخوف، والتضرع.

الانفراد السابع: الصلاة هي الشعار الفاصل بين المسلم والكافر: بل لقد

جعلها الرسول صلى الله عليه وسلم الدليل على عقد الإيمان، فروى مسلم وأحمد والترمذي أن الرسول قال: (بين الرجل والكفر ترك الصلاة). وروى البيهقي والحاكم والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر).

الانفراد الثامن: الصلاة هي العبادة الوحيدة التي تكرر كل يوم خمس مرات: وهذا بخلاف العبادات الأخرى، فالصوم يكون مرة واحدة كل عام، والزكاة مرة كل عام، والحج مرة في العمر كله، بشرط الاستطاعة، أما الصلاة فهي بخلاف ذلك، فتكرر كل يوم خمس مرات، الصبح، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وفي هذا يقول المولى تعالى: {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} [الروم: 17، 18].

الحقيقة الثالثة: أن الله ﷻ جعل للصلاة أوقاتاً معلومة، لا يجوز للمسلم مهما كان أن يتجاوزها، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} [النساء: 103].

وجعل المولى تعالى أداء الصلاة في غير وقتها من غير عذر كبيرة من الكبائر، توعّد فاعل ذلك بالويل والعذاب، فقال ﷻ: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} [الماعون: 4، 5].

وجاء في تفسير هذه الآية: عن مصعب بن سعد رضي الله عنه قال: قلت لأبي: يا أبتاه أرايت قوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} [الماعون: 4، 5].

وأينا لا يسهو، أينا لا يحدث نفسه؟ قال: ليس ذاك، إنما هو إضاعة الوقت، يلهو حتى يضيع الوقت.

وقال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا} [مريم: 58، 59].

وجاء في تفسير هذه الآية: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

ليس معنى أضاعوا الصلاة أي: تركوها بالكلية، ولكن المراد بإضاعتها: تأخيرها عن وقتها.

ومن هنا نعلم خطأ كثير من الناس الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها غير عذر شرعي، كمن يلعب الكرة بعد العصر حتى يخرج وقت المغرب، ويدخل وقت العشاء، أو من يلهيه العمل حتى يخرج وقت الصلاة، أو من ينام عن الصلاة المكتوبة وخصوصاً صلاة الفجر التي تعود الناس تركها والنوم عنها، فهؤلاء متوعدون بالعذاب، فروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةُ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي: انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا آتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بَصْخَرَةٌ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيُثَلِّغُ رَأْسَهُ فَيَسْهَدُهُ الْحَجَرُ هَهُنَا، فَيَتَّبِعُ الْحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصْحَ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا هَذَانِ؟ فَقَالَا: أَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثَلِّغُ رَأْسَهُ بِالْحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فِيرْفُضُهُ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ).

إخوة الإسلام:

إن الصلاة ليست شعائر وطقوساً تؤدي فقط، فكثير من المصلين إذا دخلوا في الصلاة كان همهم قضاؤها، كأنها حمل ثقيل يرمونه عن ظهورهم، مع أنهم يناجون رب العالمين تعالى، فقال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 45، 46].

ف نجد الرجل منا لا يخرج من صلاته إلا بجزء منها، قد يكون العشر، وقد يكون السبع، وقد يكون الثمن، وقد يكون الربع، وقد يكون النصف، روى البيهقي وأبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ مَا لَهُ مِنْهَا إِلَّا عَشْرُهَا، تُسْعُهَا، ثُمْنُهَا، سُبْعُهَا، سُدُسُهَا، خُمْسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا).

بل ربما يصلي الفرد منا ستين سنة، ولا تقبل منه أي صلاة؛ لأن الفرد جعل الصلاة طقوس تؤدي فقط، فروى ابن أبي شيبة في مصنفه

أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الرجل ليصلي ستين سنة، ما تقبل له صلاة، لعله يتم الركوع ولا يتم السجود، ويتم السجود ولا يتم الركوع). فلا بد من أمور تتوافر في الصلاة، حتى تكون صحيحة ومقبولة، وسبباً في مغفرة الذنوب، فتعالوا معي لنتعرف على الأمور التي يجب أن تتوافر في الصلاة، حتى تخرج بالشكل الذي يرضي الله تعالى، ويرضي الرسول صلى الله عليه وسلم.

فهناك أمور قبل الدخول في الصلاة، وأمر أثناء الصلاة، وأمر بعد انتهاء الصلاة.

أولاً: الأمور التي يجب أن تتوافر قبل الدخول في الصلاة:

1 - الوضوء في البيت:

فالأفضل للمسلم قبل أن يخرج للصلاة أن يتوضأ في بيته، لما رواه مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ تَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ مَشَى إِلَى الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، فَصَلَّاهَا مَعَ النَّاسِ، أَوْ مَعَ الْجَمَاعَةِ، أَوْ فِي الْمَسْجِدِ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ).

وروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعَشْرِينَ ضِعْفًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مَصَلَاةٍ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، وَلَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا انتَظَرَ الصَّلَاةَ).

وروى البيهقي والطبراني وأبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ مَشَى إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ وَهُوَ مُتَطَهَّرٌ، فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُحْرِمِ، وَمَنْ مَشَى إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى، فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُعْتَمِرِ).

2 - تحسين الهيئة قبل الدخول في الصلاة:

فالواجب على المسلم أن يحسن من هيئته قبل الدخول في الصلاة، ويكون ذلك باختيار الملابس النظيفة، والسواك، واستعمال الطيب إن أمكن، قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [الأعراف: 31].

وذلك لأن المصلي مقبل على مالك الملك، وملك الملوك، فأولى به أن يتزين لله ﷻ.

3 - الإسراع في أداء الصلاة أول الوقت:

فالأوجب على كل مسلم إذا سمع النداء أسرع بالتلبية، فروى الطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إذا سمعت النداء، فأجب داعي الله-).

وروى البخاري ومسلم وغيرهما أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت الرسول صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أفضل؟ قال: (الصلاة لوقتها- قلت: ثم أي؟ قال: (بر الوالدين- قلت: ثم أي؟ قال صلى الله عليه وسلم: (الجهاد في سبيل الله-).

أما من سمع النداء ولم يلب وأخر الصلاة، فإن ذلك من صفات المنافقين، فقال تعالى: {وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارَهُونَ} [التوبة: 54].

وقال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: 142].

ثانياً: الأمور التي يجب أن تتوافر أثناء الصلاة:

1 - الإقبال على الصلاة بالسكينة والخشوع:

فالأوجب على كل مسلم أن يقبل على الله تعالى في الصلاة بالسكينة والخشوع؛ لأنه يناجي من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وقد وصف الله تعالى الخاشعين في الصلاة بالفلاح، ووعدهم في الآخرة بجنة الفردوس، فقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [المؤمنون: 1، 2].

ولقد طبق الرسول صلى الله عليه وسلم الخشوع الكامل في الصلاة،

تقوة _____
عائشة رضي الله عنها: " كان الرسول يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة، فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه ".

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا حضرت الصلاة يتلون

وجهه، فيقال له: ما بالك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: جاء وقت الأمانة التي عرضها الله تعالى على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملتها.

وقد كانت الصلاة تستولي على قلوب الصالحين الأتقياء؛ لدرجة أنهم كانوا لا يدركون ما حولهم، حتى لو وقفت على ظهورهم الطير، فهذا هو عبد الله بن الزبير رضي الله عنه كان يصلي يوماً في جوف الكعبة، فتسقط العصافير على ظهره من فوق الحرم، وتنزل وتصعد، وهي آمنة تظن أنه جذع شجرة.

2 - أن يتجنب المصلي الالتفات:

فالعبد إذا دخل في صلاته، وأقبل على الله تعالى، نصب الله تعالى وجهه إليه، فإذا التفت العبد، قال له الله تعالى: يا عبدي، أهنالك خير مني تنظر إليه وتتركني؟

ولقد حذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من الالتفات في الصلاة، فروى البخاري وغيره أن عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة، فقال: (هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد).

3 - عدم مجاوزة بصر المصلي موضع سجوده:

فالواجب على المصلي أن يديم النظر إلى موضع سجوده؛ لأن هذا من تمام الخشوع في الصلاة، والرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن عدم النظر إلى موضع السجود، فروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلَاتِهِمْ؟ فَأَشَدُّنَّ قَوْلُهُ فِي ذَلِكَ، حَتَّى قَالَ: (لَيَنْتَهِيَنَّ عَنْ ذَلِكَ، أَوْ لَتُخَطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ).

4 - التفكير والتدبر لمعاني الآيات:

فالواجب على كل مسلم وهو في الصلاة أن يتدبر معاني الآيات التي يقرأها، فمثلاً فالواجب على المسلم أن يتدبر فاتحة الكتاب، روى مسلم أن الله تعالى يقول: (قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَضْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مُحَمَّدِي عَبْدِي، وَإِذَا

قَالَ: (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَتْنَى عَلَى عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: (مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ)، قَالَ: مَجْدِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) * صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

أما عدم التفكير في الصلاة لمعاني الآيات يقلل من ثواب الصلاة، فروى أحمد وأبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عَشْرُ صَلَاتِهِ، تُسْعُهَا، ثُمْنُهَا، سُبْعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبْعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا).

5 - الاطمئنان في أدائها، وتجنب العجلة في أركانها:

فالطمأنينة ركن أصلي في الصلاة، فبدون الطمأنينة تكون الصلاة ناقصة، إن لم تكن باطلة، روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَا مِنْ أَمْرٍ مُسْلِمٍ تَخْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيَحْسِنُ وَضُوءَهَا، وَخُشُوعَهَا، وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ، مَا لَمْ يَأْتِ كَبِيرَةٌ، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ).

ثالثاً: الأمور التي يجب أن تتوافر بعد الانتهاء من الصلاة:

1 - الجلوس في المصلى عقب كل صلاة للاستغفار والذكر والدعاء:

روى مسلم وأحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمْدَ اللَّهِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَبَلَغَ تِسْعَةَ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ تَمَامَ الْمِائَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، غُفِرَتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ).

ويستحب قراءة آية الكرسي عقب الصلاة؛ لما رواه الطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، كَانَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ إِلَى الصَّلَاةِ الْآخَرَى).

وروى البيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ، لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، إِلَّا أَنْ يَمُوتَ، فَإِذَا

مات دخل الجنة.-

2 - المحافظة على أداء السنن التابعة للفرائض:

فلا ينبغي للمسلم أن يتهاون بها، ولا يرخص لنفسه في تركها؛ لأنها زيادة في التقرب إلى الله تعالى، روى البخاري وأحمد أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرَجُلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَكِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ.-

والسنن التابعة للفرائض اثنتا عشرة ركعة، روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّيَ لِلَّهِ كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتِي عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعًا غَيْرَ فَرِيضَةٍ، إِلَّا بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ.-

فهذه النوافل التابعة للفرائض شرعت لتكفير السيئات، ورفع الدرجات، وترغيم الشيطان، وتكميل ما عساه من نقص من الفرائض بنقص شيء من آدابها، كخشوع، وتدبر في قراءة، ونحو ذلك، روى أحمد وابن ماجه وأبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ كَانَ أَكْمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ كَامِلَةٌ، وَإِنْ لَمْ يُكْمِلْهَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمَلَائِكَتِهِ: هَلْ تَجِدُونَ لِعَبْدِي تَطَوُّعًا تُكْمِلُوا بِهِ مَا ضَيَّعَ مِنْ فَرِيضَتِهِ، ثُمَّ الزَّكَاةُ مِثْلُ ذَلِكَ، ثُمَّ سَائِرُ الْأَعْمَالِ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ.-

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على النتائج المترتبة على أداء الصلاة على الوجه الأكمل.

أولاً: الصلاة نور لأصحابها: روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَاللهُ أَكْبَرُ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّوْمُ جَنَّةٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ

فَمُعْتَقَهَا أَوْ مُوبِقُهَا-

وقال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} [الفتح: 29].

ثانياً: الصلاة تحط الخطايا عن صاحبها: روى أحمد والطبراني عن أبي عثمان النهدي، قال: كُنْتُ مَعَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَأَخَذَ عُصْدًا مِنْ أَغْصَانِهَا يَابِسًا فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ، ثُمَّ قَالَ: سَلْنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟ فَقُلْتُ: وَلِمَ تَفْعَلُهُ؟ قَالَ: هَكَذَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كُنْتُ مَعَهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَأَخَذَ عُصْدًا مِنْ أَغْصَانِهَا يَابِسًا، فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ، ثُمَّ قَالَ: (أَلَا تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا يَا سَلْمَانُ؟) - فَقُلْتُ: وَلِمَ تَفْعَلُهُ؟ فَقَالَ: (إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ صَلَّى الصَّلَاةَ الْخَمْسَ تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتُّ هَذَا الْوَرَقُ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود: 114].

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بَابَ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلُّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟) - قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا).

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الصَّلَاةُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ لِّمَا بَيْنَهُنَّ، مَا اجْتَنَبْتَ الْكَبَائِرَ).

ثالثاً: الصلاة ترفع الدرجات: روى أحمد وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً، إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا حَسَنَةً، وَحَاحَ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةٌ وَرَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، فَاسْتَكْبَرُوا مِنَ السُّجُودِ).

رابعاً: دخول الجنة: روى أبو داود أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: (إِنِّي فَرَضْتُ عَلَى أُمَّتِكَ خَمْسَ صَلَوَاتٍ، وَعَهَدْتُ عِنْدِي عَهْدًا أَنَّهُ مَنْ جَاءَ يُحَافِظُ عَلَيْهِنَّ لَوْ قِهِنَّ، أَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهِنَّ، فَلَا عَهْدَ لَهُ عِنْدِي).

خامساً: حفظ الملائكة له: روى البزار أن الله تعالى يقول في الحديث

القدسي: (إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل على خلقي، ولم يبت مصراً على معصيتي، وقطع نهاره في ذكرى، ورحم المسكين، وابن السبيل، والأرملة، ورحم المصاب، ذلك نوره كنور الشمس، أكلؤه بعزتي، وأستحفظه ملائكتي، أجعل له في الظلمة نوراً، وفي الجهالة حليماً، ومثله في خلقي كمثله الفردوس في الجنة).

سادساً: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: قال تعالى: {أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

سابعاً: الصلاة تطهر الإنسان من الخلق الدنيئة: فقال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُسْلِمِينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّوَمَ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ} [المعارج: 19 - 35].

* * *

صلاة الجماعة

صلاة الجماعة

أسباب نعيم القبر

صلاة الجماعة

الحمد لله رب العالمين: فرض علينا الصلاة ليدلة المعراج؛ لتكون صلة بحضرته، وتذكيراً بعظمته، وشكراً لنعمته، وكسباً لرحمته، وطمعاً في جنته، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٢٢ - ٢٤].

سبحانه: يغفر الذنوب، ويستتر العيوب، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما تفعلون، وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: جعل إقامة الصلاة في جماعة معياراً من معايير الرجولة الكاملة، فقال تعالى: {فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لَيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [النور: 36-38].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: جعل الصلاة في جماعة سبباً من أسباب النجاة من النار والنفاق، فروى البيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من صلى الله أربعين يوماً في جماعة، يدرك التكبيرة الأولى، كتبت له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد

أخوة الإسلام:

ما زال الحديث موصولاً في أسباب نعيم القبر، وها نحن اليوم مع

سبب آخر من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو:

صلاة الجماعة، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا.

الحقيقة الأولى: إن الله تعالى خصَّ أمة الرسول صلى الله عليه وسلم بعدة خصائص، لم تشاركها فيها أمة من الأمم السابقة، ومن هذه الخصائص: صلاة الجماعة، فصلاة الجماعة لم تكن مشروعة على الأمم السابقة.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِّنْ مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا} [النساء: 102].

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة أيضاً، فروى ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَا حَسَدَتْكُمْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى آمِينَ، فَأَكْثَرُوا مِنْ قَوْلِ آمِينَ).

وروى ابن ماجه إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَا حَسَدَتْكُمْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّائِمِينَ).

وليعلم الجميع أن صلاة الجماعة تغني عن أعداء الأمة الإسلامية، فالواجب على كل مسلم أن يكون حريصاً عليها، حتى يرضي الله تعالى ويرضي الرسول صلى الله عليه وسلم، وينال الثواب العظيم على أدائها.

الحقيقة الثانية: لقد أخذت صلاة الجماعة حيزاً كبيراً من اهتمام الشرع

الحنيف بها، وهذا واضح كل الواضح في القرآن والسنة، وأقوال الصحابة، وذلك على النحو التالي:

أولاً: القرآن الكريم:

1- قال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} [البقرة: ٤٣].

قال ابن كثير: استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة.

2- قال تعالى: {وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن رَّائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا} [النساء: 102].

فهذه الآية تدل على صلاة الجماعة في حالة الخوف وفي الحرب، وإذا لم يُرخص في ترك الجماعة في الخوف والحرب، فكيف بوقت السلم.

3- قال تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ} * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُفُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ} [القلم: 42، 43].

قال كعب الأحبار: والذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام، والإنجيل على عيسى عليه السلام، والزبور على داود عليه السلام، والفرقان على محمد صلى الله عليه وسلم، أنزلت هذه الآيات في الصلوات المكتوبات، حيث ينادى بهن.

وقال ابن عباس رضي الله عنه في قول الله تعالى: {وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ} أي: الرجل يسمع الأذان، فلا يجيب الصلاة.

وقال سعيد بن جبير: وقد كانوا يدعون إلى الصلوات في الجماعات.

4- قال تعالى: {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ

وَيُجْرِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ { [الأحقاف: 31، 32].

ثانياً: السنة النبوية:

وجاءت السنة النبوية تؤكد على أهمية صلاة الجماعة، وذلك على النحو التالي:

1- روى أبو داود وابن ماجه والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من سمع النداء، فلم يأت، فلا صلاة له، إلا من عذر، قيل: وما العذر يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: (خوف أو مرض). وهذا يعني: أنه لا يجوز للمسلم أن يترك صلاة الجماعة إلا لعذرين فقط، هما: الخوف، أو المرض.

روى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ أعْمَى، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِي قَائِدٌ يَفُودُنِي إِلَى الْمَسْجِدِ، فَسَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُرَخَّصَ لَهُ، فَبِصَلَّى فِي بَيْتِهِ، فَرَخَّصَ لَهُ، فَلَمَّا وَلَّى، دَعَاهُ، فَقَالَ: (هَلْ تَسْمَعُ النَّدَاءَ بِالصَّلَاةِ؟)، فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: (فَأَجِبْ).

وفي رواية: (ما أجد لك رخصةً، فإن سمعت النداء فأجب ولو حبواً، أو زحفاً).

3- روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (صَلَاةُ الْجَمِيعِ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعَشْرِينَ دَرَجَةً، فَإِنْ أَحَدُكُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ، وَأَتَى الْمَسْجِدَ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ خَطِيئَةٌ حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ، وَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَتْ تَحْسِبُهُ، وَتُصَلِّيَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ).

ثالثاً: أقوال الصحابة:

ولقد وردت أقوال عديدة من الصحابة رضي الله عنه تدل على الاهتمام بصلاة الجماعة، وذلك على النحو التالي:

1- روى البزار والطبراني وابن خزيمة عن ابن عمر رضي الله عنه

قال: "كنا إذا فقدنا الرجل في الفجر والعشاء، أسأنا به الظن"

2- وروى الترمذي أن ابن عباس رضي الله عنه سئل عن رجل يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يشهد الجماعة، فقال: هذا في النار.

3- روى مسلم أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "وَلَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا، إِلَّا مُتَأَفِّقٌ مَعْلُومٌ النَّفَاقِ".

وهذا كله إن دل على شيء، فإنما يدل على مدى اهتمام الشرع الحذيف بصلاة الجماعة، وهذا الاهتمام جعل بعض الفقهاء يقولون إن صلاة الجماعة فرض عين، وإن الصلاة لا تصح إلا بها، فاجعلوا صلاة الجماعة شرط من شروط صحة الصلاة.

الحقيقة الثالثة: لقد اهتم سلفنا الأصالح بصلاة الجماعة اهتماماً بالغاً، فكانوا يحافظون عليها كالمحافظة على أنفسهم وأموالهم، بل أكثر من ذلك، فلم تشغلهم الدنيا بزخارفها، ولم يمنعهم من المحافظة عليها تجارة ولا صناعة ولا مال، ولذلك كانت المساجد تكتظ بهم في كل وقت وحين، لا فرق بين فرض وفرض.

فكانوا إذا سمعوا المؤذن يؤذن للصلاة، تركوا تجارتهم وصناعاتهم، وأسرعوا إلى المسجد، يلبون داعي الله تعالى، ويجيبون نداء الصلاة.

وكانوا يعملون بقول الله تعالى: {فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} * لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [النور: 36-38].

وكانوا يعملون بقول الله تعالى: {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} * وَمَن لَّا يَجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [الأحقاف: 31، 32].

كانوا يرون أن فوات الجماعة مصيبة كبيرة، فكان إذا تخلف أحدهم عن تكبيرة الإحرام، عزوه ثلاثة أيام، ومن فاتته الصلاة في جماعة عزوه سبعة أيام، وكانوا يقولون: ليس المصاب من فقد الأحباب، بل المصاب

من حرم الأجر والثواب، بل كانوا إذا فقدوا الرجل في الجماعة أسأوا به الظن.

بل الأعجب من هذا كله: أنهم عدوا فوات الجماعة معصية، تحتاج إلى كفارة، روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج ذات مرة إلى بستان له، فرجع وقد صلى الناس العصر في جماعة، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فانتني صلاة العصر جماعة، فقال: أشهدكم أنني قد تصدقت ببستاني هذا على الفقراء والمساكين؛ ليكون كفارة لما صنع عمر رضي الله عنه.

وبهذا ساد السلف الصالح العالم بأسره، ومكن لهم في الأرض، أما الآن فقد أصبحت الأمة لا قيمة لها في نظر أعدائها؛ لأنها فرطت في كثير من شعائر الإسلام، ومن هذه الشعائر التي فرطت فيها الأمة الآن، صلاة الجماعة.

فيا ليتنا نقدّي بسلفنا الصالح، ونحافظ على الصلاة في جماعة، فإن الأمة لن تستطيع أن تسترد عزها ومجدها، إلا إذا حافظت على الصلاة في جماعة.

أخوة الإسلام:

لقد جعل الشرع الحنيف فوائد متعددة في صلاة الجماعة، وهذه الفوائد تعود على الفرد في الدنيا وفي الآخرة، فتعالوا معي لتتعرف على هذه الفوائد، أما الفوائد الدنيوية فهي ما يأتي:

أولاً: الشهادة بالإيمان:

وجاءت هذه الشهادة أولاً من الله تعالى، فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَهْتِدِينَ﴾ [التوبة: 18].

وروى البيهقي والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيت الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان).

فهنيئاً لمن حافظ على صلاة الجماعة، بهذه الشهادة العالية من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وكفى بها منقبة.

ثانياً: مغفرة الذنوب:

فالمسلم الذي يحافظ على صلاة الجماعة، يُغفر له ذنوبه، ما اجتنب الكبائر، روى أحمد والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أَتَانِي رَبِّي تَعَالَى اللَّيْلَةَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، أَحْسَبُهُ يَعْنِي فِي النَّوْمِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ: هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ، حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ، أَوْ قَالَ: نَحْرِي، فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ: هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، يَخْتَصِمُونَ فِي الْكُفَارَاتِ، وَالذَّرَجَاتِ، قَالَ: وَمَا الْكُفَارَاتُ وَالذَّرَجَاتُ؟ قَالَ: الْمُكْثُ فِي الْمَسَاجِدِ، وَالْمَشْيُ عَلَى الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَإِبْلَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكَارِهِ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، عَاشَ بِخَيْرٍ، وَمَاتَ بِخَيْرٍ، وَكَانَ مِنْ خَاطِبَتِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ إِذَا صَلَّيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرَكْتُ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً أَنْ تَقْبِضَنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ-.

ثالثاً: البراءة من النفاق:

ومعنى البراءة من النفاق: أن الله تعالى يؤمنه في الدنيا أن يعمل عمل المنافق، ويوفقه لعمل أهل الإخلاص، وفي الآخرة يؤمنه مما يعذب به المنافق، ويشهد له بأنه ليس منافقاً، وذلك بأن المنافقين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، وحال المحافظ على الجماعة بخلاف ذلك.

فروى البيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من صلى الله أربعين يوماً في جماعة، يدرك التكبيرة الأولى، كتبت له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق-).

وفي رواية للبيهقي: (مَنْ صَلَّى الْغَدَاةَ، وَالْعِشَاءَ الْآخِرَةَ، أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فِي جَمَاعَةٍ، لَا تُفَوِّتُهُ رَكْعَةً، كُتِبَتْ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النَّفَاقِ-).

رابعاً: مضاعفة الأجر:

فلقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن صلاة الجماعة تزيد في الثواب عن صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلَاةَ الْفَرْدِ بِسَبْعِ

وَعِشْرِينَ دَرَجَةً.

روى أن أحد سلفنا الصالح وهو شيخ البخاري، فاتته صلاة العشاء في جماعة يوماً؛ لأنه كان عنده ضيف، فأخره عن صلاة العشاء في جماعة المسجد، فخرج مسرعاً، فوجد الجماعة تخرج من المسجد، فذهب مسرعاً إلى مسجد آخر، يريد أن يلحق بصلاة الجماعة، فلم يجد مسجداً مفتوحاً، فعاد إلى بيته حزيناً، ثم قال: صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، فأعوض ما فاتني، وأصلي العشاء سبعاً وعشرين مرة، ثم نام، فرأى في المنام أنه راكب على فرس، وأمامه مجموعة فرسان، منطلقون بخيولهم، وهم يحاولون أن يلحق بهم، ولا يستطيع، حتى التفت إليهم أحدهم، وقال له: إنك لن تستطيع أن تلحق بنا، فقال له: ولم؟ قال: لأننا صلينا العشاء في جماعة، وأنت صليت وحدك.

خامساً: استغفار الملائكة:

فالملائكة تستغفر وتصلي للجالس في المسجد ينتظر الصلاة في جماعة، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ، ثُمَّ جَلَسَ فِي مُصَلَّاهُ، لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، فَإِنْ قَامَ مِنْ مُصَلَّاهُ، فَجَلَسَ فِي الْمَسْجِدِ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ، لَمْ يَزَلْ فِي صَلَاةٍ حَتَّى يُصَلِّيَ).

وروى أبو داود والبيهقي وغيرهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصُّفُوفِ الْأُولَى).

سادساً: تكريم الله تعالى:

فالذي يصلي في جماعة، فهو ضيف الله تعالى، والله تعالى يكرم ضيفه، فروى الطبراني في معجمه الكبير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من توضع في بيته، فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد، فهو زائر الله، وحق على المزور أن يكرم الزائر).

وكيف يكون تكريم الله تعالى زائره، وهو أكرم الأكرمين، مالك السموات والأرضين؟، فلا شك أنه يكون أفضل تكريم.

سابعاً: فرح الله تعالى به:

فإنه تعالى وهو الغني عن كل شيء يفرح بقدوم العبد إلى المسجد؛ لأداء الصلاة فيه، فروى ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يُوطَّنُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ، إِلَّا تَبَشَّشَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ، كَمَا يَتَبَشَّشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ، إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ).

ثامنا: رفع الدرجات:

فالرجل إذا خرج من بيته يريد الصلاة مع الجماعة، جعل الله تعالى له كل خطوة ترفع درجة، وتحط خطيئة، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (صَلَاةُ الْجَمِيعِ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً، فَإِنْ أَحَدُكُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ، وَأَتَى الْمَسْجِدَ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ خَطِيئَةٌ حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ، وَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَتْ تَحْبِسُهُ، وَتُصَلِّيَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ).

تاسعا: صلاة الجماعة تعدل قيام الليل:

وبالتحديد صلاة الفجر والعشاء، فروى أحمد وأبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ، فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ، فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ).

عاشرًا: أجر الحاج والمعتمر:

فمن صلى الصبح في جماعة، وجلس في المسجد حتى تطلع الشمس، فله أجر الحاج والمعتمر، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ، ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ، كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ، تَامَّةً، تَامَّةً، تَامَّةً).

أما الفوائد الأخروية فتتمثل فيما يأتي:

أولًا: المنزلة العالية في الجنة:

روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نَزْلًا، كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ).

ثانيًا: النور التام يوم القيامة:

روى أبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (بَشِّرِ الْمَشَائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ، بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

والقرآن الكريم يصور لنا مشهد النور يوم القيامة، فقال تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الحديد: ١٢].

ثالثاً: في ظلال عرس الرحمن:

روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِئْلَهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ).

قال النووي: ورجل قلبه معلق بالمساجد، أي: شديد الحب لها، والملازمة للجماعة فيها، وذلك معناه دوام القعود في المسجد.

أخوة الإسلام:

على الرغم من هذه الفوائد المتعددة لصلاة الجماعة، إلا أنه قد جهل كثير من المسلمين في هذه الأيام أهمية صلاة الجماعة، فتركوها وأعرضوا عنها، ونسوا أن صلاة الجماعة مهذبة للنفوس، مروضة لهم على الخير، مفرجة للكروب، مضيعة للهموم.

جهل كثير من المسلمين في هذه الأيام فوائد صلاة الجماعة، فانصاعوا لشهواتهم، ورضخوا لأهوائهم، وقلدوا الأفرنج في عاداتهم.

فنرى أكثر المسلمين اليوم لا يهتمون بصلاة الجماعة، ولا يدخلون المساجد إلا أيام الجمع والأعياد، ومع ذلك يدخلون المساجد وهم لها كارهون، بل إذا مكث الخطيب يخطب وزاد على النصف ساعة، قامت قيامتهم، وضجت النفوس، وارتفعت الشكاوى، كأنهم في سجن ضيق، أو عذاب أليم.

لقد عمرت المسارح والملاهي ودور السينما، وخربت المساجد

وبدبت العباد، وتسابق كثير من الناس في ميادين الضلال، وامتلات نفوسهم بحب الدنيا والبهتان، والبعد عن طاعة الله تعالى، وتغلب عند الناس جانب الشر على جانب الخير، وسمعوا نداء الله تعالى وأعرضوا عنه، ولم يجيبوه، وانشغلوا بتجارته، أو صناعتهم، أو أحاديثهم وسمهم، مع أن الله تعالى يقول: {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [الأحقاف: 31، 32].

وها هو الرسول صلى الله عليه وسلم يتوعد ويهدد هؤلاء الناس الذين يتخلفون عن صلاة الجماعة بحرق بيوتهم، وتخريبها عليهم، فروى البخاري ومسلم وغيرهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمَرَ رَجُلًا يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَخَالَفَ إِلَى رَجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا، فَأَمَرَهُمْ، فَيَحْرَقُوا عَلَيْهِمْ بِحُزْمِ الْحَطَبِ بُيُوتَهُمْ، وَلَوْ عَلِمَ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَظْمًا سَمِينًا لَشَهِدَهَا، يَعْنِي: صَلَاةَ الْعِشَاءِ).

وروى ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ليتهين رجال عن ترك الجماعة، أو لأحرقن بيوتهم).

فمن أين لنا برسول الله صلى الله عليه وسلم الآن، فيرى الكثرة من المسلمين الذين يتخلفون عن الجماعة، ولا يشهدونها إلا في الجمع فقط.

من أين لنا برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ليهدد هؤلاء الناس الذين ألهمتهم الدنيا، وشغلتهم الحياة الفانية، فعمروا المقاهي، وضيعوا أعمارهم في العبث واللغو واللعب؟

من أين لنا برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ليضرب على أيدي هؤلاء الناس، ويسوقهم إلى بيوت الله تعالى؛ لتتنزل عليهم رحمة الله تعالى؟

من أين لنا برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ليحرق بيوت الذين يتخلفون عن الجماعة بدون عذر شرعي، فالله تعالى لم يدخل علينا بكرمه، ولم يدخل علينا بإحسانه، حتى نبخل عليه بزيارة بيته، وحتى نكره الحضور إلى أماكن العبادة ومكان نزول الرحمت.

أخوة الإسلام:

لقد سمح الشرع الحنيف بترك الجماعة، ولكن بأعذار شرعية، فتعالوا معي لتتعرف على هذه الأعذار، فهناك أعذاراً عامة، وأعذار خاصة ببعض الناس دون البعض، أما الأعذار العامة، فهي ما يأتي:

أولاً: المطر أو ثلج يبيل الثوب ليلاً كان أو نهاراً:

فروى البخاري ومسلم وغيرهما، عن ابن أبي المليح عن أبيه قال: كنا مع الرسول صلى الله عليه وسلم زمن الحديدية فأصابنا مطر لم يبيل أسفل نعالنا، فنادى مناد رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَلَا صَلُّوا فِي رِحَالِكُمْ، أَلَا صَلُّوا فِي الرِّحَالِ).

ويشترط حصول مشقة بالخروج مع المطر، فلا يعذر بالخفيف ولا بالشديد إذا كان يمشي في كن، ولو تقطر المطر من سقوف الأسواق كان عذراً في الجمعة والجماعات؛ لأن الغالب فيه النجاسة.

ثانياً: الريح الشديد بالليل:

لما روي أن ابن عمر رضي الله عنهم أذن بالصلاة في ليلة ذات برد وريح، فقال: "ألا صلوا في رحالكم".

وفي رواية: كان يأمر مناديه في الليلة الممطرة واللييلة الباردة ذات الريح أن يقول: "ألا صلوا في رحالكم".

وخرج بالريح الشديدة بالليل الريح الخفيفة ليلاً والشديدة نهاراً.

ثالثاً: الوحل الشديد:

سواء أكان هذا الوحل ليلاً كان أو نهاراً؛ لأنه أشق من المطر، بخلاف الخفيف منه.

والشديد: هو الذي لا يؤمن معه التلويث.

أما الأعذار الخاصة، فهي ما يلي:

أولاً: المرض الذي يشق معه الحضور:

كمشقة المشي في المطر، وإن لم يبلغ حداً يسقط القيام في الفرض، بخلاف المرض الخفيف كصداع يسير وحمى خفيفة فليس بعذر، ومثله

تمريض من لا متعهد له، ولو غير قريب ونحوه؛ لأن دفع الضرر عن الآدمي من المهمات، ولأنه يتألم على القريب أكثر مما يتألم بذهاب المال، وغير القريب كالزوجة والصهر والصديق والأستاذ. ودليل عذر المرض قول الله تعالى : {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: 78].

وروى البخاري ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم لما مرض تخلف عن المسجد، وقال: (مُرُّوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ).

ثانياً: الجوع والعطش الظاهرين:

وذلك إذا كان المطعم حاضراً، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا وُضِعَ عِشَاءُ أَحَدِكُمْ، وَأَقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَأَبْدَءُوا بِالْعِشَاءِ وَلَا يَعْجَلَنَّ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْهُ).

فيتخلف عن الجماعة ندباً؛ ليكسر شهوته في الجوع، بأن يأكل لقيمات يكسر بها حدة الجوع، لكن في شرح مسلم وغيره تصويب إكمال حاجته من الأكل.

ثالثاً: مدافعة حدث من بول أو غائط أو ريح:

لما رواه مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ، وَلَا هُوَ يُدْفَعُ الْأَخْبَثَانِ).

رابعاً: الخوف من ظالم:

على نفس أو عضو أو منفعة أو مال أو عرض، أو حق له، أو لمن يلزمه الذب عنه، حتى على خبزه في التنور وطبيخه في القدر على النار، ولا متعهد يخلفه، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (من سمع النداء فلم يأت، فلا صلاة له إلا من عذر- قالوا: يا رسول الله وما العذر؟ قال صلى الله عليه وسلم: (خوف أو مرض).

خامساً: الخوف من ملازمة أو حبس غريم معسر:

ومحل هذا إذا عسر عليه إثبات إعساره، وإلا لم يعذر، ولو كان الحاكم لا يسمع إلا البينة إلا بعد الحبس فوجودها كالعدم، هذا إذا لم يقبل قوله في الإعسار، أما إذا قبل كأن لزمه الدين لا في مقابلة مال كصداق الزوجة فإنه لا يعذر، وكذا إذا ادعى الإعسار وعلم المدعي بإعساره

وطلب يمينه على عدم علمه فرد عليه اليمين، فالمتجه أنه يكون عذراً.

سادساً: الخوف من عقوبة:

كتعزير لله تعالى، أو لآدمي، وقَوْدٍ، وحد قذف مما يقبل العفو؛ يرجى تركها إن تغيب أياما يسكن فيها غيظ المستحق، بخلاف ما لا يقبله كحد الزنا، وكذا ما يقبل إذا لم يُرَجَّ التَّرك لو تغيب.

سابعاً: التأهب لسفر مباح:

يريده مع رفقة ترحل ويخاف من التخلف للجماعة على نفسه أو ماله أو يستوحش فقط للمشقة في التخلف عنهم.

ثامناً: أكل ذي ريح كريهة:

كبصل أو فجل أو ثوم أو كرات نيئ، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من أكل بصلاً أو ثوماً أو كُرَّاتاً فلا يَقْرَبَنَّ مسجدنا- وفي رواية: (فلا يَقْرَبَنَّ المساجد، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم-.

هذا إن تعسر زوال رِيحه بغسل ومعالجة بخلاف ما إذا لم يتعسر، أما المطبوخ فلا يعذر به، ويعذر أيضاً بالبخر والصنان المستحکم بطريق الأولى، ويعذر كذلك بالجذام والبرص لأن التأذي بهما أشد منه بأكل الثوم ونحوه.

تاسعاً: حضور نحو قريب كزوجة ورقيق وصديق وصهر محتضر:

أي حضره الموت وإن كان له متعهد؛ لما روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه أنه ترك الجمعة، وحضر عند قريبه سعيد بن زید أحد العشرة المبشرين بالجنة، لما أخبر أن الموت قد نزل به؛ ولأنه يتألم بغيبته عنه أكثر مما يتألم بذهاب المال.

عاشراً: حضور مريض بلا متعهد له:

لئلا يضيع، سواء أكان قريباً أم أجنبياً، إذا خاف هلاكه إن غاب عنه، وكذا لو خاف عليه ضرراً ظاهراً.

أخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على عقوبات تارك صلاة الجماعة.

العقوبة الأولى: النفاق:

روى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ أَثْقَلَ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ: صَلَاةُ الْعِشَاءِ، وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا، لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا-).

وروى مسلم أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: " وَلَقَدْ رَأَيْتَنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا، إِلَّا مُتَّفَقٌ مَعْلُومُ النَّفَاقِ ".

وروى أحمد والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الْجَفَاءُ كُلُّ الْجَفَاءِ، وَالْكَفْرُ وَالنَّفَاقُ، مَنْ سَمِعَ مُنَادِيَّ اللَّهِ يُنَادِي بِالصَّلَاةِ، يَدْعُو إِلَى الْفَلَاحِ، وَلَا يُجِيبُهُ-).

العقوبة الثانية: اللعن:

روى الحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاثة لعنهم الله تعالى : رجل أم قوماً وهم له كارهون، وامرأة بات زوجها عليها ساخطاً، ورجل سمع حي على الصلاة ولم يجب-).

العقوبة الثالثة: الشقاء والخيبة:

روى الطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (بحسب المؤمن من الشقاء والخيبة، أن يسمع المؤذن يثوب بالصلاة، فلا يجيبه-).

العقوبة الرابعة: استيلاء الشيطان عليه:

روى أحمد وأبو داود والنسائي وابن خزيمة والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ، لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ، إِلَّا قَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذُّبُّ الْقَاصِيَةَ-).

واسمع معي أخي المسلم إلى هذه القصة؛ لعلك تتعظ وتفيق من نومك العميق.

روى أحمد وأبو داود عَنْ عَمْرِو بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ رضي الله عنه قَالَ: جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: كُذِّتُ ضَرِيرًا شَاسِعَ الدَّارِ، وَلِي قَائِدٌ لَا يُلَايِمُنِي، فَهَلْ تَجِدُ لِي رُخْصَةً أَنْ أُصَلِّيَ

فِي بَيْتِي، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَتَسْمَعُ النَّدَاءَ؟-)، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَا أَجَدُ لَكَ رُخْصَةً، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُتَخَلِّفُ عَنِ الصَّلَاةِ فِي الْجَمَاعَةِ، مَا لَهَذَا الْمَاشِي إِلَى الْجَمَاعَةِ، لَأَتَى الْجَمَاعَةَ وَلَوْ جَوًّا عَلَى يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ-).

فهذا رجل أعمى ضرير، ومنزله بعيد عن المسجد، وفي طريقه نخل وشجر، ويحتاج إلى رجل بصير في كل وقت يقوده إلى المسجد، ومع هذا كله لم يبيح له الرسول صلى الله عليه وسلم التخلف عن الجماعة؛ ليصلي في بيته، بل حتم عليه ضرورة الذهاب إلى المسجد.

فكيف بك أخي المسلم، وأنت صحيح البدن، وقادر على الذهاب إلى المسجد، وتسمع الأذان، ولا عذر لك، وتلهيك تجارتك، ويلهيك عملك، ويلقي الشيطان في روعك الكسل، وعدم خشية الله تعالى، فتهمل إجابة المؤذن.

فاحرص أيها المسلم دائماً على الصلاة في جماعة، ولا تكن من المتخلفين المتكاسلين، الذين يصلون دائماً في بيوتهم، وينقرونها نقر الغراب، فترفع إلى الله تعالى خالية من الخشوع والخضوع، فتضرب بها وجوههم، وترد عليهم أعمالهم.

* * *

الزكاة

الزكاة

أسباب نعيم القبر

الزكاة

الحمد لله رب العالمين: على نعمه التي لا تعد، وعلى إحسانه الذي لا يحد، صاحب الفضل العظيم على كل أحد، فقال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل: 18].

سبحانه: من اعتمد عليه كفاه، ومن سأله أعطاه، ومن استعان به أعانه على مصائب الدنيا والدين، فقال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: 3].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: جعل إيتاء الزكاة معياراً من معايير الرجولة الكاملة، فقال تعالى: {فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [النور: 36 - 38].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: جعل الزكاة ركناً من أركان الدين الخمسة، وقاعدة في بنائه المتين، وأصلاً من أصول الشريعة الإسلامية، فروى البخاري ومسلم وغيرهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ).

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع سبب من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: الزكاة، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا.

الحقيقة الأولى: اقتضت حكمة الله تعالى أن يختلف الناس في الرزق، وأن يتباينوا في متاع الدنيا، والرزق كله بيد الله تعالى يبدسه لمن يشاء، ويمنعه من يشاء.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: 26، 27].

فالخير كله من عند الله تعالى، يرسله إلى قوم ويمنعه عن قوم، فهذا غني وذاك فقير، وهذا ميسور الحال وذاك بانس محروم، فقال تعالى: {أَلَمْ يَقْسِمُوا رَحْمَةً رَّبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف: 23].

ولا يظن أحد أن الغنى دليل على رضا الله تعالى، ولا يظن أحد أن الفقر دليل على سخط المولى تعالى، فالله تعالى لا يغني أحداً لأنه راض عنه، ولا يفقر شخصاً لأنه غضبان عليه، فقد يغني عبداً وهو له كاره وغاضب عليه، وقد يفقر الله تعالى عبداً وهو عنه راض، وذلك ليلجأ إليه بالدعاء والاستعانة والعبادة، فقال تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآ آخِرَةَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} [الإسراء: 20، 21].

ولو كان الغنى دليلاً على رضا الرب ﷻ، ما أغنى الله تعالى فرعون وقارون، ولما أغنى الله ﷻ المغرب الملاحد، فروى أحمد والحاكم أن

الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ

بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ، فَقَدْ أَحَبَّهُ-.

والله تعالى وإن اقتضت حكمته أن يكون هناك أغنياء وفقراء، إلا أنه لم يترك الفقراء خياراً مهمليين، ولكن فرض لهم حقاً معلوماً يصرف لهم كل عام من أموال الأغنياء، وذلك عن طريق الزكاة، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [المعارج: 24، 25].

الحقيقة الثانية: إن الله تعالى اهتم اهتماماً شديداً بالزكاة، ولم يتهاون في شأنها، ولم يتركها لأحد يوزعها على حسب هواه أو مزاجه، ولم يرض فيها بحكم نبي ولا غيره، شأنها شأن الميراث، فنظمها نظاماً دقيقاً، وأوجبها لأصناف معينة ذكرهم في قرآنه، وقسم الزكاة بينهم.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال ﷺ: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: 60].

وأشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة أيضاً، فروى أبو داود والبيهقي عن زياد بن الحارث الصدائي قال: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعْتُهُ، فَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا، قَالَ: فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَعْطِنِي مِنَ الصَّدَقَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ، حَتَّى حَكَمَ فِيهَا هُوَ، فَجَزَّأَهَا تَمَانِيَةً أَجْزَاءً، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ أَعْطَيْتَكَ حَقَّكَ-.

أما الأصناف الذين تصرف لهم الزكاة، فهم على النحو التالي:

أولاً: الفقير: وهو من لا مال له ولا كسب، أي ليس له القدرة على كسب المال الحلال.

أما الفقير الذي ليس له مال، ولديه القدرة على الكسب الحلال ولا يعمل، ويمد يديه للناس، ويطلب منهم الزكاة، فهذا الصنف من الناس قد أساء لنفسه ولدينه، ولا يستحق من الزكاة؛ لأن هذا يؤدي إلى البطالة والتكاسل، وعدم طلب العمل لجلب الرزق الحلال.

اقرأ معي قول الله تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا

يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [البقرة: 273].

وروى أبو داود وأحمد والنسائي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا حظ فيها لغني، ولا لقوي مكتسب).

ثانياً: المسكين: وهو الشخص الذي لا يفي دخله حاجته الضرورية.
ثالثاً: العاملون عليها: وهم الذين يسعون في جمع الزكاة من أهلها، وصرفها إلى من يستحقها.

رابعاً: الغارمين: جمع غارم، وهو الذي استقرض مالاً في طاعة، أو فعل مباح، وعجز عن أدائه، أو استدان لإصلاح ذات البين.

خامساً: سبيل الله تعالى: هم الغزاة الذين يجاهدون لإعلاء كلمة التوحيد، فيعطى لهم من الزكاة، وإن كانوا أغنياء؛ إعانة لهم على الغزو.

فروى أبو داود وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيِّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ: لِعَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ لِعَامِلٍ عَلَيْهَا، أَوْ لِغَارِمٍ، أَوْ لِرَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِإِلَهِ، أَوْ رَجُلٍ كَانَ لَهُ جَارٌ مِسْكِينٌ فَتُصَدَّقُ عَلَى الْمِسْكِينِ، فَأَهْدَى الْمِسْكِينُ لِلْغَنِيِّ).

سادساً: ابن السبيل: وهو المسافر في سفر مباح، وانقطع به الحال، فيؤخذ من الزكاة بالقدر الكافي.

وبعد هذا البيان لأصناف المستحقين للزكاة، يمكن القول: بأنه لا يجوز صرف الزكاة في بناء المدارس، ولا يجوز صرفها في بناء المساجد، ولا يجوز صرفها في وقف خيري، ولا أي جهة غير الأصناف المذكورة في الآية.

الحقيقة الثالثة: إن الرسول صلى الله عليه وسلم حرم المسألة، فروى البخاري والبيهقي واللفظ له، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ الْجَبَلَ، فَيَجِيءَ بِحُزْمَةٍ مِنْ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا فَيَسْتَعِينَهَا، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَعَوْهُ).

ولقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم خطورة المسألة يوم القيامة، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ

بِأَحَدِكُمْ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُرْعَةٌ لَحْمٍ.

وروى أحمد وأبو داود عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَمَّا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟)، قَالَ: بَلَى جُلُسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ، وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اِئْتِنِي بِهِمَا)، فَأَتَاهُ بِهِمَا، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: (مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟)، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذَهُمَا بِدِرْهَمٍ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ؟ - مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذَهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ، فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ، وَأَخَذَ الدَّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِي، وَقَالَ: (اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا، فَأَنْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قُدُومًا، فَأْتِنِي بِهِ، فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَوْدًا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: (اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ، وَلَا أَرَيْتَكَ خَمْسَةَ عَشَرَ - يَوْمًا - فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمٍ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا تَوْبًا، وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَحِيَّاءَ الْمَسْأَلَةِ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِي عَرْمٍ مُفْطَعٍ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ).

ولقد حدد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأصناف الذين تجوز لهم المسألة، فروى مسلم وأحمد والذسائي وأبو داود عَنْ قَبِيصَةَ بِنِ مُخَارِقِ الْهَلَالِيِّ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حِمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: (أَقِمِ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا)، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: (يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةً: رَجُلٌ تَحْمِلُ حِمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ، حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاَحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ، حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةً مِنْ دَوَى الْحِجَابِ مِنْ قَوْمِهِ، لَقَدْ أَصَابَتْ فَلَانًا فَاقَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ، حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُخْنًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُخْنًا).

الحقيقة الرابعة: إن الله تعالى فرض الزكاة على الأغنياء لفوائد تعود عليهم أولاً، وفوائد تعود على الفقراء ثانياً، وفوائد تعود على المجتمع ثالثاً.

أولاً: الفوائد التي تعود على الغني:

- 1 - الزكاة تطهر المال من أي شائبة حرام، فقال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة: 103].
- 2 - ترفع البلاء والأمراض عن صاحبها، وتحصن المال، فروى البيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (دَاوُوا مَرَضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ، وَحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ-).
- 3 - تطهر النفس من درن الشح والبخل، وترفع النفس إلى درجة الجود والتصدق ابتغاء مرضات الله تعالى، فقال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [التغابن: 16].
- 4 - تجعل الغني يعيش مرتاح البال والضمير، ويعيش آمناً مطمئناً على ماله وأولاده.

ثانياً: الفوائد التي تعود على الفقير:

الزكاة تنشل الفقير من ذل الفقر، وترفعه من حضيض الفاقة والعوز، وتمسح دموع البائسين، وتخفف لوعات اليتامى والمحتاجين، فيهدأ بالهم، وتطمئن نفوسهم، فلا يضمرّون شراً للأغنياء.

ثالثاً: الفوائد التي تعود على المجتمع:

الزكاة ترفع من المستوى الاقتصادي للمجتمع، وتحقق التوازن بين الغني والفقير، ويعيش المجتمع في أمن وسلام، وهدوء وطمأنينة، وبالتالي يعم الرخاء على المجتمع كله.

الحقيقة الخامسة: إن المسلم فينا ليس له الحق في أن يمنع زكاة ماله؛ لأن المسلم ليس له خيار إذا قضى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أمراً، سواء أكان ذلك الأمر يتعلق بالعقيدة، أم بالعبادة، أم بغيرهما، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال ﷺ: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا} [الأحزاب: 36].

وقال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور: 51].

وعلى هذا الأساس فإن مانع الزكاة تؤخذ منه قهراً في الدنيا، وهذا ما فعله أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما تولى الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وامتنع قوم عن أداء الزكاة، بحجة أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي كان يأخذ الزكاة، وأما غيره فلا يأخذها، فأراد أبو بكر رضي الله عنه أن يقاتل هؤلاء الناس الذين امتنعوا عن أداء الزكاة، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه لأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ)).

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: والله لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، والله لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤْثِدُونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهِ.

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: فَوَ اللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ.

أما الذي لا يقوم بإخراج زكاة ماله مطلقاً، فإن الله تعالى سرعان ما يسلب منه هذه النعمة في الدنيا، وهذا ما حدث في قصة أصحاب الجنة، فقال تعالى: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَشْنُونَ * فطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ * أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا يَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ * وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْهُمْ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [القلم: 17 - 33].

وأما العقاب في الآخرة لمانع الزكاة، فقد أعلن عنه الرسول صلى الله عليه وسلم، فروى البخاري وغيره أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مَثَلٌ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَيْبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِهِ زَمَتَيْهِ، يَغْنِي شِدْقِيهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [آل عمران: 180].

الحقيقة السادسة: إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لو طبقوا زكاة أموالهم بالصورة التي ترضي الله تعالى وترضي رسوله صلى الله عليه وسلم، ما وجدنا سائلاً في الطرقات، ولا عاطلاً في البيوت، ولا جائعاً لا يجد كسرة خبز ولا شربة ماء؛ لأن الزكاة من شأنها تحقق التوازن بين الغني والفقير، وتعتبر الزكاة من أهم ثروات الدخل للدولة.

وقد تأكدت هذه الحقيقة في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، حيث جمعت الزكاة من أرجاء الدولة الإسلامية، ووضعت في بيت مال المسلمين في عاصمة الدولة الإسلامية، وأراد عمر بن عبد العزيز أن يوزع الزكاة على مستحقيها من أبناء الدولة الإسلامية، فلم يجد عمر بن عبد العزيز مسكيناً واحداً يستحق الزكاة، عقلت الدولة العمرية أن تلد مسكيناً.

فماذا فعل بالزكاة؟ أصدر أمراً بإعتاق العبيد، وقال: أي سيد عنده عبد ويريد إعتاقه، فثمنه من بيت مال المسلمين، فأعتق العبد، وما زال المال فائضاً عن حاجة المسلمين، فأصدر أمراً ثانياً بسداد الديون، وقال: أي رجل عليه دين، فأداؤه من بيت مال المسلمين، فأديت الديون، وما زال المال فائضاً عن حاجة المسلمين، فأصدر أمراً ثالثاً بزواج الشباب، فقال: أي شاب يريد الزواج، فزواجه من بيت مال المسلمين، فزوج الشباب من بيت مال المسلمين.

أعتق العبيد، وأديت الديون، وزوج الشباب، كل هذا من مال الزكاة فقط، فباليتميز نؤدي زكاة أموالنا بالصورة التي ترضي الله تعالى، وترضي الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى نحقق للمجتمع السعادة

إخوة الإسلام:

إن الزكاة ليست عبارة عن إخراج المال للفقراء وفقط، بل لا بد من عدة أمور يجب مراعاتها عند إخراج الزكاة، حتى تكون الزكاة صحيحة ومقبولة شرعاً، فتعالوا معي لنتعرف على الأمور التي يجب مراعاتها عند إخراج الزكاة.

أولاً: إخلاص النية لله تعالى : فالنية أساس قبول الأعمال عند الله تعالى، فروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِأَمْرٍ مَا نَوَى).

فإذا لم يكن العبد مخلصاً يبتغي وجه الله تعالى، فلا ثواب له عند الله تعالى، فروى مسلم وغيره أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تعالى إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ يَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أَعْلَمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَهَذَا عَمِلْتَ فِيهَا عِلْمَتٌ، قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آثَاءَ اللَّيْلِ وَآثَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُوتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أَوْسَعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدْعُكَ تَحْتَاجَ إِلَى أَحَدٍ، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَهَذَا عَمِلْتَ فِيهَا آثِمَتُكَ، قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ، وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُوتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ، فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، ثُمَّ صَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رُكْبَتَيْ فَقَالَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ: أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى تُسْعَرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

فلما بلغ ذلك الخبر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بكى بكاءً شديداً، وقال: صدق الله ورسوله، ثم تلا هذه الآية: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ

الدُّنْيَا وَزَيَّنَتْهَا نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْحَسُونَ* أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [هود: 15، 16].

ثانياً: أن لا يفسدها بالمن والأذى: والامن أن يذكرها ويتحدث عنها، أو يستخدمه بالعتاء، أو يتكبر عليه لأجل إعطائه، والأذى أن يظهرها، أو يعيره بالفقر، أو يوبخه.

وفي هذا يقول المولى تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: 264].

ثالثاً: أن تكون الزكاة من كسب طيب: فالله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب، فعلى المسلم أن ينتقي من ماله أفضله وأجوده، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ* الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 267، 268].

وقال تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [آل عمران: 92].

فإن لم يكن من جيد المال وأفضله، فهو من سوء الأدب مع الله تعالى، فإن الزكاة قبل أن تقع في يد الفقير فإنما تقع عند الله تعالى بمكان، وقد ذم الله تعالى قوماً جعلوا لله ﷻ ما يكرهون، فقال تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ} [النحل: 62].

رابعاً: إخفاء الزكاة أو إظهارها: فإخفاؤها: أي الإسرار بها؛ لأن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة، قال تعالى: {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [البقرة: 271].

وقد بالغ السلف الصالح في الإخفاء، حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطي، فكان بغضهم يوصل إلى يد الفقير على يد غيره، بحيث لا يعرف المعطي، وكان يستكنم الموصل لها، ويوصيه بأن لا يخبر عنه، كل ذلك توصلاً إلى رضا الله تعالى، واحترازاً من الرياء والسمعة.

فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابُّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ).

* * *

الصدقة

الصدقة

أسباب نعيم القبر

الصدقة

الحمد لله رب العالمين: على نعمه التي لا تعد، وعلى إحسانه الذي لا يجد، صاحب الفضل العظيم على كل أحد، فقال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل: 18].

سبحانه: وعد من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، بأن ييسره لليسر، وتوعد من بخل واستغنى، وكذب بالحسنى، بأن ييسره للعسر، فقال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: 5 - 10].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: نهانا عن الربا، وأمرنا بالصدقة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: 278 - 280].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: بين لنا أن الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، فروى الترمذي وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الصَّوْمُ جَنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع سبب من أسباب الذعيم في القبر، ألا وهو: الصدقة، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا:

الحقيقة الأولى: إن المال نعمة من الله تعالى، فهو الذي يعطيه من يشاء، ويمنعه من يشاء، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: 26، 27].

فالخير كله من عند الله تعالى، يرسله إلى قوم، ويمنعه عن قوم، فهذا غني وذاك فقير، وهذا ميسور الحال وذاك بائس محروم، فقال تعالى: {أَلَمْ يَقْسِمُوا رَحْمَةً رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف: 23].

والله تعالى ييسر الرزق لمن يشاء، ويمنعه من يشاء، ابتلاءً منه تعالى، وامتحاناً للغني كيف يشكر الله تعالى فيما أعطاه، واختباراً للفقير كيف يصبر على ما ابتلاه الله تعالى، فقال تعالى: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا} [الفجر: 15 - 17].

ولا يظن أحد أن الغنى دليل على رضا الله تعالى، ولا يظن أحد أن الفقر دليل على سخط المولى تعالى، فالله تعالى لا يغني أحداً لأنه راض عنه، ولا يُفقر شخصاً لأنه غضبان عليه، فقد يغني الله تعالى عبداً وهو له كاره وغاضب عليه، وقد يفقر الله تعالى عبداً وهو عنه راض، وذلك ليلجأ إليه بالدعاء والاستعانة والعبادة، فقال تعالى: {كَلَّا تُمَدِّدُهُمْ هُؤْلَاءِ وَهَؤْلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} [الإسراء: 20، 21].

ولو كان الغنى دليلاً على رضا الرب ﷻ، ما أغنى الله تعالى

فرعون وقارون، ولما أغنى الله ﷺ الغرب الملحد، فروى أحمد والحاكم أن

الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ، فَقَدْ أَحَبَّهُ).

الحقيقة الثانية: إن مال العبد الحقيقي الذي يمتلكه، هو ما قدمه لنفسه؛ ليكون ذخراً له بعد موته، وليس ماله ما جمعه، فاقتسمه الورثة بعد مماته، ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى البخاري وأحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالٌ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ).

وفي رواية البيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟) قَالُوا: مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالٍ وَارِثِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اعْلَمُوا أَنَّ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَمَالٌ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ، مَالُكَ مَا قَدَّمْتَ، وَمَالٌ وَارِثُكَ مَا أَخَّرْتَ).

ومعناه: أن ما ينفقه الإنسان من ماله حال حياته في وجوه البر والإحسان، من صدقات، وإقامة المشاريع الخيرية، والأوقاف النافعة، وكفالة اليتيم، وإطعام الجائعين، وإعانة المعسرين، كل هذا يقدمه أمامه، ويجد ثوابه مدخراً عند الله تعالى، ومضاعفاً أضعافاً كثيرة، فهو ماله الحقيقي الذي يبقى لديه، ويجري نفعه عليه، وما عداه فإن ملكيته له محدودة بحال الصحة وسلامة فكره؛ لأنه إذا مرض مرض الموت، فإنه يحجر عليه، فلا يتصرف فيه بصدقة ولا هبة.

ففي هذه الحالة يُمنع الإنسان من التصرف في ماله، الذي أتعب جسمه، وقضى عمره في جمعه؛ لأنه على وشك زوال ملكه عنه، وانتقاله إلى غيره من ورثته، وقد فرط في حال الصحة يوم أن كان ملكه عليه تاماً.

وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ

النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَا بَقِيَ مِنْهَا؟)، قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا).

وروى مسلم وأحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم: (يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِي مَالِي، إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَقْنَى، أَوْ لَبَسَ فَأَبْلَى، أَوْ أُعْطِيَ فَأَقْتَنَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ).

فالواجب على كل مسلم أن يعي هذه الحقيقة، وأن يضعها نصب عينيه، حتى يفوز بالآخرة برضا الله تعالى، وينجو من عقاب الله تعالى، ولقد أكد لنا الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة، وأن المال هو ما يدخره المسلم لنفسه يوم القيامة، فروى أحمد والبيهقي والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (كُلُّ أَمْرٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ، حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ، أَوْ قَالَ: (حَتَّى يُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ)).

ولكن للأسف الشديد يظن كثير من الناس أن المال هو ما يمتلكه الإنسان ويدخره في حياته، وأنه بهذه الطريقة العقيمة في الفكر يعتقد أنه يؤمن نفسه وحياة أولاده، ولكن هذا ظن خاطئ، وهم باطل، إن دل على شيء فإنما يدل على أننا لم نضع الأمور في نصابها المعتاد، ولم نفهم الأمور بالطريقة الصحيحة، فالإنسان منا لا يؤمن مستقبله الذي لا بد منه في الدار الآخرة، بأن يقدم من ماله ما يجده مدخراً مضاعفاً أضعافاً كثيرة، وهو أحوج ما يكون إليه، فمال العبد في الحقيقة هو ما قدمه لنفسه؛ ليكون ذخراً له يوم القيامة.

الحقيقة الثالثة: إن الشرع الحنيف حذرنا من البخل، وجعله من صفات المنافقين، فقال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ} * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [التوبة: 75 - 78].

ولقد ضرب الله تعالى أبلغ الأمثلة لحال الذين يكتزون الأموال ويبخلون بها، فهذا قارون قال الله تعالى في شأنه: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ

مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: 76، 77].

فلما كفر النعمة، ورفض الإحسان وأنكر، وقال كما قال المولى تعالى : {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي} [القصص: 78].

فكانت النتيجة أن حَسَفَ الله تعالى به الأرض، فقال تعالى : {فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضُ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ} [القصص: 81].

وقال تعالى : {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتْكُوىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ} [التوبة: 34، 35].
وقال تعالى : {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَيُؤَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ} [الليل: 8 - 10].

ولقد حذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً من البخل، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، قريب من النار، ولجاهل سخي أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل -).

فإياك أخي المسلم أن تكون من الذين يبخلون بأموالهم بالتصدق في سبيل الله تعالى، فغنى المال لا يغني عنك من عذاب الله تعالى شيئاً، فقال تعالى : {مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي * هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ} [الحاقة: 28، 29].

إخوة الإسلام:

لقد اهتم الدين الإسلامي اهتماماً بالغاً بالصدقة، وحثنا عليها في كثير من آيات القرآن الكريم، وفي كثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فتعالوا معي لتتعرف على موقف الشرع الحنيف من الصدقة.

أولاً: الندب إلى الصدقة قبل فوات الأوان:

فالله تعالى حثنا على الصدقة قبل فوات الأوان، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِي يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَّةَ وَلَا شَفَاعَةً وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: 254].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} * وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ} * وَلَن يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المنافقون: 9 - 11].

ثانياً: الإنفاق في سبيل الله تعالى من صفات المتقين:

قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران: 133 - 136].

قال الرازي: وإنما افتتح الله تعالى بذكر الإنفاق؛ لأنه طاعة شاقة، ولأنه كان في ذلك الوقت أشرف الطاعات؛ لأجل الحاجة إليه في مجاهدة العدو، ومواساة فقراء المسلمين.

وقال تعالى: {الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [البقرة: 1 - 3].

وقال تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: 35].

ثالثاً: مضاعفة الأجر للصدقة:

فالله تعالى يضاعف ثواب الصدقة إلى سبعمائة ضعف، فقال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ

سُنْبَلَةٌ مِّائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 261].
وقال تعالى: {يُمَحِّقُ اللَّهُ الرَّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ}
[البقرة: 276].

وروى البخاري ومسلم وغيرهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم
قال: (لَا يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، إِلَّا أَخَذَهَا اللَّهُ بِيَمِينِهِ، فَيَرِيهَا كَمَا
يُرِي أَحَدُكُمْ قُلُوبَهُ، أَوْ قُلُوبَهُ، حَتَّى تُكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ، أَوْ أَعْظَمَ-
الفلو: المهر الصغير إذا فطم، والقلوص: الشابة من الإبل.
وقال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ
كَرِيمٌ} [الحديد: 11].

هتاف موح مؤثر، والله تعالى يقول للعباد الفقراء المحاويج: {مَنْ ذَا
الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} [الحديد: 11]، ومجرد
تصور المسلم أنه هو الفقير الضئيل يقرض ربه، كفيل بأن يطير به إلى
البذل طيراناً.

إن الناس ليتسابقون عادة على إقراض الثري المليء، فكيف إذا كانوا
يقرضون الغني الحميد، ولا يتركهم الله تعالى إلى هذا الشعور وحده،
ولكن يعدهم على القرض الحسن الخالص له بالضعف في المقدار والأجر
الكريم بعد ذلك من عنده تعالى.

ثم يعرض لهم صفحة وضيئة من ذلك الأجر الكريم، في مشهد
طريف لطيف من مشاهد اليوم الذي يكون فيه الأجر الكريم، فقال تعالى
: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الحديد: 12].

وعلى العكس من ذلك تماماً حال المنافقين الذين بذلوا بالمال في
الدنيا، فقال تعالى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا
نَقْتَسِمِ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ
بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى
وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ
وَغَرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ

النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الحديد: 13 - 15].

رابعاً: جعل الله تعالى الصدقة تطهيراً للمال:

فقال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: 103، 104].

خامساً: الإبدال خير مما تصدق:

فإن الله تعالى وعد من تصدق بأن يبدله خيراً مما تصدق، فقال تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ: 39].

وروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُتْسِكًا تَلَفًا).

سادساً: القرب من الله تعالى ومن الجنة ومن الناس:

فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار... -).

سابعاً: الصدقة ترفع البلاء والأمراض عن صاحبها:

فروى البيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (دَاوُوا مَرَضَكُمْ بِالصَّدَقَةِ، وَحَصَّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ، وَأَعِدُّوا لِلْبَلَاءِ الدُّعَاءَ-
إخوة الإسلام:

لقد وضع الشرع الحنيف آداباً للصدقة، يتعين على المتصدق أن يلتزم بهذه الآداب، حتى تكون صدقته مقبولة، فتعالوا معي لنتعرف على هذه الآداب.

أولاً: إخلاص النية لله تعالى :

فالنية هي أساس قبول الأعمال عند الله تعالى، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ... -).

فإذا لم يكن المتصدق مخلصاً ببيتغي وجه الله تعالى بصدقته، فلا

ثواب له عند الله تعالى، روى الترمذي وابن حبان والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَوَّلُ النَّاسِ يُقْضَىٰ فِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ أُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِي سَبِيلِكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، إِنَّمَا أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ، فَأَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَقَرَأْتُ الْقُرْآنَ وَعَلِمْتُهُ فَيْكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، إِنَّمَا أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ عَالِمٌ وَفُلَانٌ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، فَأَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ إِلَى النَّارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَالِ فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ فَقَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ شَيْءٍ مُحِبٌّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهِ إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهِ لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، إِنَّمَا أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، فَأَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ).

ثم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تعالى تسعر بهم النار يوم القيامة).

فلما بلغ ذلك الخبر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، بكى بكاءً شديداً، وقال: صدق الله ورسوله، ثم تلا هذه الآية: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ} * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [هود: 15، 16].

وعلى العكس من ذلك فقد يدرك الإنسان الثواب العظيم بالإخلاص فقط، فروى الترمذي وأحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحْمَهُ، وَيَعْمَلُ لِلَّهِ تَعَالَى فِيهِ حَقَّهُ، قَالَ: فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، قَالَ: وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى عِلْمًا، وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا، قَالَ: فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ، عَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، قَالَ: فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، قَالَ: وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْطُبُ فِي مَالِهِ بغير علم، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ تَعَالَى، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحْمَهُ، وَلَا يَعْمَلُ لِلَّهِ تَعَالَى فِيهِ حَقَّهُ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، قَالَ: وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ تَعَالَى مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، قَالَ: فَهُوَ بَيْنَهُمَا، فَوَرُّهُمَا فِيهِ سَوَاءٌ).

ثانياً: أن لا يفسدها بالمن والأذى:

والمن: أن يذكرها ويتحدث عنها، أو يستخدمه بالعتاء، أو يتكبر عليه؛ لأجل إعطائه.

والأذى: أن يظهرها، أو يعيره بالفقر، أو ينتهره، أو يوبخه.

ولقد نهانا الله تعالى عن المن والأذى، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: 264].

ولأجل هذا: كان سلفنا الصالح حريصاً على عدم إفساد صدقته بالمن والأذى، فكان بعضهم ييسط كفه، كي يأخذ الفقير من كفه، وتكون يد الفقير هي العليا، ويد الذي يعطي الصدقة أسفل.

بل كان بعض السلف الصالح يضعها بين يدي الفقير، ويقوم عندها، ويسأله أن يتقبلها، حتى يكون في صورة السائلين.

قال الليث بن سعد: من أخذ مني صدقة أو هدية، فحقه عليّ أعظم من حقي عليه؛ لأنه قبل مني قرباني إلى الله تعالى.

وقد كان سفيان الثوري يشرح إذا رأى سائلاً على بابه، ويقول: مرحباً بمن جاء يغسل ذنوبي.

وقال الفضيل بن عياض: يحملون أزوادنا إلى الآخرة، بغير أجر، حتى يضعوها في الميزان بين يدي الله تعالى.

ثالثاً: الإسرار بأخراجها:

لقد حثنا الشرع الحنيف على إسرار الصدقة؛ لكونه أبعد عن الرياء والسمعة، وفي الإظهار إذلال للفقير، فقال تعالى: {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [البقرة: 271].

وروى البيهقي والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن صدقة السر، تطفى غضب الرب).

وقد ذكر بعض العلماء: أن الإخفاء في صدقة التطوع أفضل،

والإظهار في الزكاة أفضل.

ولقد كان السلف الصالح يبالغ في هذا الأدب، فكان بعضهم يوصل إلى يد الفقير على يد غيره، حيث لا يُعرف المعطي، وكان يستكتم الموصل لها، ويوصيه ألا يخبر عنه، كل ذلك توصلاً إلى رضا الرب، واحترازاً من الرياء والسمعة، فروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (سَعَةُ يُظْلَهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابُ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِئْنُهَا مَا تُنْفِقُ يَمِينَهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهُ خَالِيًا فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ).

رابعاً: أن تكون الصدقة من كسب طيب:

فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب، فعلى المتصدق أن ينتقي من ماله أفضله وأجوده، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [البقرة: 267].

وأما أحبه إليه: فاقول الله تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [آل عمران: 92].

فإن لم تكن الصدقة من جيد المال وأفضله، فهو من سوء الأدب مع الله تعالى، فإن الصدقة قبل أن تقع في يد الفقير، فإذا تقع عند الله تعالى بمركان، وقد ذم الله تعالى قوماً جعلوا لله تعالى ما يكرهون، فقال تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ} [النحل: 26].

فينبغي على المسلم أن يختار الأجود لنفسه، والذي هو مدخر لنفسه، ما يتصدق به لله تعالى، ولقد كان السلف الصالح يختارون أحب الأموال في إخراج صدقاتهم، فقد كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إذا اشتد حبه لشيء من ماله، قر به لله تعالى.

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لتتعرف على النتائج المترتبة على الصدقة ابتغاء مرضى الله تعالى.

أولاً: إطفاء الخطيئة: روى الترمذي وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ).
ثانياً: طهارة المال: قال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: 103، 104].

ثالثاً: الأمن والسرور: كتب الله تعالى للمتصدق الأمن في الدنيا والسرور في الآخرة، فقال تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 274].

رابعاً: إطفاء غضب الرب تعالى: روى البيهقي والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن صدقة السر، تطفي غضب الرب).
خامساً: يكون في ظل صدقته يوم القيامة: روى أحمد والبيهقي والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ، حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ، أَوْ قَالَ: حَتَّى يُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ).
سادساً: تيسير الأعمال: قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} [الليل: 5 - 7].

سابعاً: القرب من الجنة والبعد عن النار: روى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار... -).

* * *

الصيام

الصيام

أسباب نعيم القبر

الصيام

الحمد لله رب العالمين: الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فقال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 1 - 4].

سبحانه: خص شهر رمضان بالعفو والغفران، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا اجْتَنَبَتِ الْكَبَائِرُ).

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: فرض علينا الصيام كما فرضه على الأمم السابقة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة: 183 - 185].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: بين لنا ما أعطاه الله تعالى لأمته في هذا الشهر العظيم، فروى البيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أُعْطِيَتْ أُمَّتِي خَمْسَ خِصَالٍ فِي رَمَضَانَ، لَمْ تُعْطَهَا أُمَّةٌ قَبْلَهُمْ: أما الأولى: فإنه إذا كان أول ليلة من رمضان ينظر الله تعالى إليهم، ومن نظر إليه الله لم يعذبه أبداً، وأما الثانية: خُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وأما الثالثة: فإن الملائكة تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وأما الرابعة: فإن الله تعالى يُزَيِّنُ كُلَّ يَوْمٍ جَنَّتَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَوْشَكَ عِبَادِي الصَّالِحُونَ أَنْ يُلْقُوا عَنْهُمْ الْمُسُوْنَةَ وَالْأَذَى، وَيَصْبِرُوا إِلَيْكَ، وأما الخامسة: يُغْفَرُ لَهُمْ فِي آخِرِ لَيْلَةٍ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ قَالَ صلى الله عليه وسلم: (لَا، وَلَكِنَّ الْعَامِلَ إِنَّمَا يُؤَوِّقُ أَجْرَهُ إِذَا قَضَى عَمَلَهُ).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد : إخوة الإسلام :

ما زال الحديث موصولاً في أسباب نعيم القبر، وها نحن اليوم مع سبب آخر من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: الصيام، فأعبروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا اليوم:

الحقيقة الأولى: إن الله تعالى فضل شهر رمضان على بقية أشهر العام، وخصه بعدة خصائص لم ينلها شهر غيره، ومن هذه الخصائص ما يلي:

أولاً: أنزل الله تعالى فيه القرآن: فقال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} [البقرة: 185].

قال العلماء: إن القرآن قد نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى سماء الدنيا، في ليلة القدر من شهر رمضان، فجُعِلَ في بيت العزة، ثم نزل به جبريل عليه السلام مفزاً بعد ذلك، على حسب الأحداث والوقائع، فقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر: 1].

ولو لم يكن لشهر رمضان إلا هذه الفضيلة لكفته، فأنعم بالقرآن من كتاب، إنه دستور الأمة، ومنهجها القويم، وهو أعظم زاد لهم إلى الله تعالى، فقال تعالى: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الغنكبوت: 51].

وليس هذا فحسب، بل إن رمضان شهر نزول الكتب السماوية كلها: التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، فروى أحمد بسند حسن والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ لَيْسَتْ مَضِيَّةً مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْإِنْجِيلُ لثَلَاثَ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الزَّبُورُ لِثَمَانِ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ

رَمَضَانَ، وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ.

ثانياً: شهر تفتح فيه أبواب السماء، وتغلق فيه أبواب النيران: فروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ، فَتُحَّتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلِسَتْ الشَّيَاطِينُ).

والمراد بقوله صلى الله عليه وسلم: (فُتِّحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ - أي: كناية عن رضا الله تعالى عن أعمال العبد في هذا الشهر الكريم).

والمراد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ - أي: أن الله تعالى يصرف ويبعد الناس عن المعاصي في هذا الشهر الكريم).

والمراد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (وَسُلِسَتْ الشَّيَاطِينُ - أي: قيدت بالسلاسل).

ولقائل يقول: إذا كانت الشياطين في رمضان مسلسلة، فلماذا نرى بعض المعاصي ترتكب في رمضان؟ أقول: قال بعض العلماء: أن معنى ذلك: أن المعاصي في رمضان تكون قليلة عن بقية الشهور، وهذا شيء ملموس.

ثالثاً: شهر تفتح فيه أبواب الجنان: روى ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا كَانَتْ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ: صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ، وَمَرَدَةُ الْجَنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَنَادَى مُنَادٌ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وَلِلَّهِ عِتْقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ).

رابعاً: أنه شهر تكفير الذنوب والسيئات: ويكون ذلك بثلاثة أمور:

الأمر الأول: صيام نهاره: روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ).

أي: من صام هذا الشهر الكريم غير مستنقل الصيام، ولا مستطل أيامه، غفر له ما تقدم من ذنبه، نعمة عظيمة للعبد، فما الذي يرجوه العبد من ربه إلا غفران الذنوب؟ وصوم رمضان إيماناً واحتساباً سبباً في مغفرة الذنوب.

الأمر الثاني: قيام ليله: روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه

وسلم قال: (مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ).

والمراد بقيام رمضان: صلاة التراويح.

الأمر الثالث: قيام ليلة القدر: روى البخاري أن الرسول صلى الله عليه

وسلم قال: (مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ).

خامساً: رمضان فيه ليلة خير من ألف شهر: فقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ

الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ

الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ}

[القدر: 1 - 5].

سادساً: رمضان شهر النفحات: روى الطبراني أن الرسول صلى الله عليه

عليه وسلم قال: (إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٌ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ، لَعَلَّهُ أَنْ

يُصِيبَكُمْ نَفْحَةٌ مِنْهَا، فَلَا تَشْقُونَ بَعْدَهَا أَبَدًا).

سابعاً: رمضان شهر العتق من النار: فروى الترمذي وابن ماجه وأحمد

أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَ كُلِّ فِطْرِ عُتْقَاءٌ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ

لَيْلَةٍ).

ثامناً: رمضان شهر الصبر: فلقد سمى الرسول صلى الله عليه وسلم شهر

رمضان بشهر الصبر، فروى ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم

قال لأبي أمامة الباهلي: (صم شهر الصبر رمضان، صم شهر الصيام، وثلاثة

من كل شهر).

تاسعاً: مضاعفة الأجر: روى ابن خزيمة أن الرسول صلى الله عليه

وسلم قال: (أَيُّهَا النَّاسُ: قَدْ أَظْلَكُمُ شَهْرٌ عَظِيمٌ، شَهْرٌ مُّبَارَكٌ، شَهْرٌ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ

مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، جَعَلَ اللَّهُ صِيَامَهُ فَرِيضَةً، وَقِيَامَ لَيْلِهِ تَطَوُّعًا، مَنْ تَقَرَّبَ فِيهِ بِخَصْلَةٍ

مِنْ الْخَيْرِ كَانَ كَمَنْ أَدَّى فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ، وَمَنْ أَدَّى فِيهِ فَرِيضَةً كَانَ كَمَنْ أَدَّى

سَبْعِينَ فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ).

هذه الخصائص إن دلت على شيء فإنما تدل على أهمية هذا الشهر

العظيم لأمة الرسول صلى الله عليه وسلم، فالواجب علينا جميعاً أن ننتهز

هذا الشهر ونجتهد في العبادة فيه؛ لعلنا تصيبنا نفحة من نفحاته، فلا نشقى

بعدها أبداً.

الحقيقة الثانية: إن الناس ليسوا على درجة واحدة في استغلال هذا الشهر الكريم، رغم كل الخصائص التي ميزه الله تعالى بها عن بقية أشهر العام، ولكنهم يتنوعون إلى أنواع عديدة، وذلك على النحو التالي:

النوع الأول: من الناس من ينتظر هذا الشهر بفارغ الصبر، وتزداد فرصته من أجل أن يجتهد في العبادة، من صلاة، وصيام، وزكاة، وصدقة، إلى غير ذلك من أنواع العبادة، وهذا من خير أنواع الناس في رمضان.

هذا النوع من الناس الذي ينتظر رمضان بفارغ الصبر، من أجل أن يكثر فيه من الخير، يعملون كما كان الرسول يعمل في هذا الشهر الكريم، فقد كان صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة.

النوع الثاني: من الناس من يدخل عليه رمضان، ويخرج منه وهو ما كان عليه قبل رمضان، هذا النوع من الناس الذي لم يتأثر بصوم رمضان، قد فوت على نفسه غنيمة، أو فرصة لا تقدر بمال.

النوع الثالث: من الناس لا يعرف الله تعالى إلا في رمضان، فإذا جاء رمضان أخذوا يصلون ويركعون، فإذا انتهى رمضان، عادوا إلى ما كانوا عليه قبل رمضان، هذا النوع من الناس قال الله تعالى فيه: {الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} [محمد: 25].

هذا النوع من الناس يُشَبَّه نفسه بالرجل الذي يبني بيتاً، ثم بعد ذلك يقوم بهدمه، وأقول لهذا النوع من الناس: عليه أن يتوب إلى الله تعالى توبة نصوحاً، ويستغل هذا الشهر العظيم للرجوع إلى الله تعالى، والاستغفار والإقلاع عما هم فيه، وصدق الله تعالى إذ يقول: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} [طه: 82].

النوع الرابع: من الناس من يصوم عن الأكل والشرب والجماع فقط، ولكنه تجده يسمع المنكرات، والغيبة، والنميمة، والسخرية، ويقولون: إننا نسلي صيامنا.

هذا الصنف من الناس بهذا العمل قد جرحوا صيامهم، وفرضوا في الأجر الكثير، روى البخاري وأبو داود والترمذي أن الرسول صلى الله

عليه وسلم قال: (مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ).

وروى البيهقي والحاكم وابن خزيمة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَيْسَ الصَّيَّامُ مِنَ الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ فَقَطْ، إِنَّمَا الصَّيَّامُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ).

النوع الخامس: نوع من الناس جعل نهار رمضان كله نوم، ويقضي ليل رمضان في السهر أمام الفسق والفجور والمعاصي، الذي يقوم التلذذ بنشرها في هذا الشهر على وجه الخصوص.

هذا النوع من الناس لم يستغل نهار رمضان في الذكر والخير والصلاة، ولم ينزه ليله عن المحرمات.

النوع السادس: من الناس لا يعرف الله تعالى لا في رمضان، ولا في غير رمضان، وهذا هو شر الأنواع، وأخبثها، وأخطرها، فنراه لا يهتم بصلاة ولا بصوم، ويترك كل هذا عامداً متعمداً، مع أنه سليم الصحة والعافية، وبعد ذلك يدعي أنه من أهل الإسلام، والإسلام منه بريء.

فانظر أخي المسلم من أي الأنواع أنت؟ فإن كنت من النوع الأول، فاحمد الله تعالى على ذلك، وادع الله تعالى أن يثبتك على هذا، وإن كنت من الأنواع الأخرى فادع الله تعالى أن يرزقك الهداية، ويجعلك من النوع الأول.

الحقيقة الثالثة: إن الله تعالى شرف الصيام فأضافه إلى ذاته المقدسة دون غيره من العبادات، فروى البخاري أن الله تعالى يقول: (كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّيَّامَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصَّيَّامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرِفْثُ وَلَا يَصْحَبُ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ). فلو لم يكن للصيام فضيلة ومنفعة سوى هذه، لكفته شرفاً وتعظيماً.

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الصَّيَّامُ جُنَّةٌ، فَلَا يَرِفْثُ، وَلَا يَجْهَلُ، وَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَخُلُوفٌ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِ، الصَّيَّامِ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا).

وهنا سؤال يطرح نفسه: لماذا خص الله تعالى الصيام من بين سائر أعمال العبد، مع أن الأعمال كلها لله تعالى، وهو الذي يجزي عليها؟

قال النووي: اختلف العلماء في معناه، مع كون جميع الطاعات لله تعالى، فقيل: سبب إضافته إلى الله تعالى، أنه لم يُعَبَّد أحدٌ غير الله تعالى به، فلم يعظم الكفار في عصر من العصور معبوداً لهم بالصيام، وإن كانوا يعظمونه بصورة السجود، والصدقة، والذكر، وغيره.

وقيل: لأن الصيام بعيد من الرياء؛ لخفائه، بخلاف الصلاة، والحج، والغزو، والصدقة، وغيرها من العبادات الظاهرة.

وقيل: لأن الاستغناء عن الطعام والشراب من صفات الله تعالى، فتقرب الصائم بها يتعلق بهذه الصفة، وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شيء.

وقيل: أضيف إلى المولى تعالى إضافة تشريف، كقوله تعالى: {نَاقَةَ اللَّهِ} [الشمس: 13]، مع أن العالم كله لله تعالى.

والمُرَاد بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَأَنَا أَجْزِي بِهِ) أَنِّي أَنْفَرَدَ بِعِلْمٍ مَقْدَارِ ثَوَابِهِ وَتَضَعِيفِ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الْعِبَادَاتِ فَقَدْ إِطْلَعَ عَلَيْهَا بَعْضُ النَّاسِ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: مَعْنَاهُ أَنَّ الْأَعْمَالَ قَدْ كُثِفَتْ مَقَادِيرُ ثَوَابِهَا لِلنَّاسِ، وَأَنَّهَا تُضَاعَفُ مِنْ عَشْرَةٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ، إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، إِلَّا الصَّيَامَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُثِيبُ عَلَيْهِ بِغَيْرِ تَقْدِيرٍ، وَيَشْهَدُ لِهَذَا السِّيَاقِ الرَّوَايَةَ الْأُخْرَى يَعْني رَوَايَةَ الْمُوطَأِ، وَكَذَلِكَ رَوَايَةُ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ حَيْثُ قَالَ: (كُلُّ عَمَلٍ لِبْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، - فَالْ

الله - إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ-.

أَيُّ: أَجَازِي عَلَيْهِ جَزَاءً كَثِيرًا، مِنْ غَيْرِ تَعْيِينَ لِمَقْدَارِهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : {إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: 10].

الحقيقة الرابعة: إن الشخص الذي دخل عليه رمضان، ولم يكن رمضان سبباً في مغفرة ذنوبه، فلن يُغفر له أبداً بعد ذلك؛ لأن من حُرِم الخير في رمضان، حُرِم منه العام كله، ولقد أشار الرسول صلى الله عليه

وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى ابن حبان وغيره أن الرسول صلى الله عليه وسلم صعد المذبر، فلما رقي عتبة قال: (آمين)، ثم رقي عتبة أخرى، فقال: (آمين)، ثم رقي عتبة ثالثة، فقال: (آمين) ثم قال صلى الله عليه وسلم: (أتاني جبريل فقال: يا محمد من أدرك رمضان فلم يغفر له، فأبعده الله، قلت: آمين، قال: ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار، فأبعده الله، قلت: آمين، فقال: ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك، فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين).

فيا للحسرة ويا للخيبة على من أدرك رمضان ولم يغفر له، فهذا يندم في وقت لا ينفع فيه الندم، فقال تعالى: {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ} * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} * بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [الزمر: 56 - 59].

إخوة الإسلام:

إن الله تعالى فرض الصيام على أمة الرسول صلى الله عليه وسلم لحكم عالية، ومنافع جليلة، فتعالوا معي لتتعرف على المنافع التي تعود علينا من الصيام، فهناك منافع دنيوية، ومنافع دينية، ومنافع أخروية.

أولاً: الفوائد الدنيوية:

وتتمثل في الفوائد الصحية، فالصوم مفيد للبدن، مذبه للمعدة، مذهب لكثير من الأمراض النفسية والجسمية، ويصلح الجهاز الهضمي، والكلية، والكبد، وبعض الغدد المنتشرة في الجسم، ويقي الجسم من الأمراض الخطيرة، كارتفاع ضغط الدم، ويخفف من حدة التهاب المفاصل، ويذيب الشحومات التي هي خطر على القلب.

وقد جمع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الفوائد الدنيوية للصيام في الحديث رواه الطبراني في معجمه الأوسط: (اغْزُوا تَعْنَمُوا، وَصُومُوا تَصِحُّوا، وَسَافِرُوا تَسْتَغْنُوا).

وروى ابن ماجه والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم

قال: (لِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ، وَزَكَاةُ الْجَسَدِ الصَّوْمُ-).

ثانياً: الفوائد الدينية:

شرع الله تعالى الصوم ليرتقي في الإنسان الجزء الرباني السماوي على الجزء الأرضي الطيني، فالإنسان فينا مكون من جزأين: جزء رباني: وهو الروح، وجزء أرضي: وهو الجسد، فبالصوم يرتقي الجانب الروحي على الجانب الأرضي.

ومن هنا شرع الله تعالى الصيام، ليرقى الإنسان بنفسه وروحه، حتى يكون إنساناً حقاً، فلقد عاش الإنسان بعض الأحيان أقرب إلى الحيوان، وربما أقرب إلى الشيطان، ورمضان فرصة ليتطهر الإنسان، ويصعد إلى أفق أعلى، فالصوم فرصة لكل مسلم ليتقرب إلى الله تعالى.

ومن الفوائد الدينية أيضاً: أن الصوم يربي عند المسلم سلطان الإرادة، وقوة العزيمة، ومراقبة الله تعالى، فالصائم عندما يشتهي عليه العطش والجوع، والطعام بين يديه، والماء أمام عينيه، ويشتهي إلى زوجته، وهي حاضرة معه، فيعرض عن الأكل مع أنه جائع، ويعرض عن الماء مع أنه شديد العطش، ويعرض عن زوجته مع أنه مشتاق إليها، فيترك كل هذا خوفاً من الله تعالى، ومراقبة لله تعالى الذي يطالع على خفايا الأشياء، وبواطن الأمور.

والمسلم الذي تتربى عنده ملكة مراقبة الله تعالى لا يزني، ولا يسرق، ولا يغش الناس، ولا يخدعهم، ولا يأكل أموالهم بالباطل.

فالصائم يستحي أن يمنع الزكاة، الصائم يستحي أن يترك الصلاة، الصائم يستحي أن يأكل الربا، أو يهتك عرضاً، أو ينهب مالا، وذلك هي التقوى التي من أجلها شرع الله تعالى الصيام، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 183].

ومن الفوائد الدينية أيضاً: أن الله تعالى فرض الصيام؛ ليتعلم الإنسان الصبر، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الصوم نصف الصبر-).

بالصوم يتعلم الإنسان الأمانة، بالصوم يتعلم الإنسان الخشية من الله تعالى، فلا يخاف إلا الله تعالى، ولا يخشى إلا الله تعالى.

بالصوم يشعر الأصائم بأنه محتاج إلى الله تعالى، ويشعر أنه ذليل وضعيف أمام الله تعالى.

بالصوم يصفو الضمير، وينشط العقل، بالصوم يشعر الإنسان بالفقر والذل، فيسارع بالعتاء والسخاء، ويشارك الناس في الخير.

بالصوم يبتعد الإنسان عن الأنانية وحب الذات، بالصوم يقهر الإنسان الشيطان، بالصوم يبتعد الإنسان عن اللغو والرفث والفسوق.

أما الفوائد الأخروية: هي مغفرة الذنوب، والتجاوز من الله تعالى عن السيئات، روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ).

إخوة الإسلام:

إن الصيام ليس عبارة عن ترك الأكل والشرب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس فقط، فهذا صوم العوام، ولذلك يقول بعض السلف: أهون الصيام: ترك الشراب والطعام.

فتعالوا معي لتتعرف كيف يحقق الإنسان الصوم الكامل، أو الصوم الحقيقي، الذي يكون سبباً في مغفرة الذنوب، وينال الدخول إلى الجنة من باب الريان.

بالإضافة إلى ترك الأكل والشرب والجماع، لا بد من تحقيق الأمور الآتية:

الأمر الأول: صوم اللسان.

هذا العضو الصغير الخطير، لا بد أن يصوم ليس في رمضان فقط، بل في العام كله، فاستقامة الأعضاء كلها متوقفة عليه، فروى الترمذي وابن خزيمة وصحح الحديث الشيخ الألباني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أصبح ابن آدم: فإن الأعضاء تذكرُ اللسان، وتقول له: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا).

وروى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا يستقيم إيمان عبد، حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه، حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه).

ولقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن النجاة في المحافظة على اللسان، فروى الترمذي أن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال للرسول صلى الله عليه وسلم: ما النجاة؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك).

بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم بين لنا أن إسلام الفرد لا يكمل ولا يصح إلا إذا حافظ الإنسان على لسانه، وسلم المسلمون من لسانه، فروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم من سلم المسلم من لسانه ويده).

فالغيبة والنميمة يضران بالصوم، وينقصان من أجره، ولقد ذهب بعض العلماء ومنهم ابن حزم الظاهري: إلى أن الصوم يبطل بالغيبة والنميمة؛ لعموم قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (فلا يرفث، ولا يجهل).

الأمر الثاني: صوم العين:

ويكون بكف البصر وغيظه عن المحرمات، فقال تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ { [النور: 30، 31].

فغض البصر يورث القلب نوراً وإشراقاً، يظهر على وجه صاحبه، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمة تظهر في وجهه وجوارحه.

فلا يليق لإنسان صائم يطلق عيذه يمناً ويساراً على ما حرم الله تعالى، فهذا يتناقض مع الصوم، ولا يتفق معه البتة، فإذا صام الإنسان يجب أن تصوم عيناه.

وروي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (النظرة سهم من سهام إبليس، من تركها خوفاً من الله، آتاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه).

الأمر الثالث: صوم القلب:

القلب هو أشرف أعضاء البدن، وهو الذي قال عنه الرسول صلى

الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري: (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ).

لذلك كان النبي يدعو الله تعالى ويقول: (اللهم يا مثبت القلوب، ثبت قلوبنا على طاعتك).

فيجب أن يصوم القلب كذلك، وصومه يكون بترك الهوى، والتحاسد، والتباغض، ويكون كذلك بإيقاظه عن الغفلة.

الأمر الرابع: صوم الأذن:

فالأذن نعمة عظيمة من نعم الله تعالى على الإنسان، فعلى الإنسان أن يصون أذنه عن سماع كل ما هو محرم، فقال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: 36].

فالصائم الحق هو الذي يوظف سمعه في طاعة الله تعالى، يسمع به كلام الرحمن، بدلاً من أن يسخره في سماع كلام الشيطان، يسمع القرآن بدلاً من أن يسمع كلام الشيطان، ألا وهو الغناء.

ولقد سوى الله تعالى في الإثم بين سماع الحرام وأكل السحت، فقال تعالى: {سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَاوُنَ لِلْسُّحْتِ} [المائدة: 42].

الأمر الخامس: صوم البطن:

وصوم البطن يكون بالبعد عن أكل الحرام، فأبي لحم ذببت من حرام فالنار أولى به؛ لما رواه الطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (كل جسد نبت من سحت، فالنار أولى به).

فليحذر العاقل أن يتناول شيئاً من الحرام، أو ما فيه شبهة، فالصحابة كانوا يتركون تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام، فهذا سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ضرب أروع الأمثلة في تحري الأكل الحلال، فروى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ غُلَامٌ يُجْرُجُ لَهُ الْخَرَاجُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ، فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الْغُلَامُ: أَتَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكَهَّنتُ لِإِنْسَانٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَا أَحْسِنُ الْكِهَانَةَ، إِلَّا أَنِّي خَدَعْتُهُ، فَلَقِيَنِي

فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتُ مِنْهُ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ"

وفي رواية: أن أبا بكر قال: "لولا ما خرج إلي مع نفسي لأخرجتها، اللهم إني أعتذر إليك مما حملت العروق، وخالط الأمعاء"

الأمر السادس: صوم اليد والرجل:

فالعاقل هو الذي ينظر قبل أن يفعل الشيء، فلا يمد يديه ولا رجليه إلى شيء نهى الله تعالى عنه؛ ليكمل له صومه، فكما حفظ المسلم جوارحه عن العبث، وعن كل ما حرم الله تعالى، نال بذلك أعالي الدرجات، فروى البيهقي والحاكم وابن حبان وأحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَضْمِنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمِنَ لَكُمْ الْجَنَّةَ، أَصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا أَوْثَقْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَعُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ).

يقول ابن الجوزي: ينبغي لمن أصبح صائماً أن يقول للسانه: إنك اليوم صائم عن الكذب، والنميمة، وقول الزور، والباطل، والغيبة، ويقول لعيذه: إنكما اليوم صائمتان عن النظر إلى ما لا يحل لكما، وللأذنين: إنكما اليوم صائمتان عن الاستماع إلى ما يكره ربكما، وللابدين: إنكما اليوم صائمتان عن البطش فيما حرم الله تعالى عليكما، من الغش في البيع والشراء، والأخذ، والعطاء، واللبط: إنك اليوم صائمة عن المطعم، فانظري على ماذا تفطري؟ وتجنبي المطعم الخبيث الذي تدعين إليه، فإن الله تعالى طيب، ولا يقبل إلا الطيب، وللقدمين: إنكما اليوم صائمتان من السعي إلى ما يكتب عليكما من الوزر.

إخوة الإسلام:

إن للصيام فضائل عظيمة بينها لنا الرسول صلى الله عليه وسلم، فتعالوا معي لنتعرف على هذه الفضائل:

أولاً: الصوم من أفضل أنواع العبادات:

روى أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: أَنشَدَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوَةً، فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ لِي بِالشَّهَادَةِ،

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اللَّهُمَّ سَلِّمْهُمْ وَغَنِّهُمْ-، فَغَزَوْنَا، فَسَلِّمْنَا، ثُمَّ أَنْشَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوًا آخَرَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ لِي بِالشَّهَادَةِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اللَّهُمَّ سَلِّمْهُمْ وَغَنِّهُمْ-، فَغَزَوْنَا، فَسَلِّمْنَا وَغَنِّمْنَا، ثُمَّ أَنْشَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوًا ثَالِثًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَتَيْتُكَ مَرَّتَيْنِ تَدْعُو لِي بِالشَّهَادَةِ، فَقُلْتُ: (اللَّهُمَّ سَلِّمْهُمْ وَغَنِّمْهُمْ-، فَغَزَوْنَا فَسَلِّمْنَا وَغَنِّمْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فمَرِنِي بِعَمَلٍ أَدْخِلُ بِهِ الْجَنَّةَ

فقال صلى الله عليه وسلم: (عليك بالصيام، فإنه لا مثل له-.

ثانياً: الصوم كفارة للخطايا،

روى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (فَتَنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ، تُكْفَرُهَا الصَّلَاةُ، وَالصَّوْمُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ-.

ثالثاً: الصيام وقاية من النار،

فروى أحمد والبيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الصيام جنة، وحصين من النار-.

وروى البخاري ومسلم وغيرهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَاعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا-.

رابعاً: للصوم باب في الجنة يقال له الريان،

فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرِّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مَعَهُمْ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ، فَإِذَا دَخَلَ آخِرُهُمْ أُغْلِقَ، فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ-.

خامساً: الصوم يشفع لصاحبه يوم القيامة،

فروى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الصَّيَّامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصَّيَّامُ: أَيْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفَعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفَعْنِي فِيهِ، قَالَ:

فَيُشَفَّعَانِ-.

سادسا: رائحة فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك:

روى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ خُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ-).

سابعا: للصائم فرحتان:

روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ-).

فالفرحة الأولى: عندما يفطر، والفرحة الثانية: عند لقاء ربه، أي: عندما يرى في صحيفته الحسنات، وهذا الأجر العظيم، الذي لم يكن يتوقعه، فيفرح بقاء الله تعالى.

ثامنا: دعوة الصائم مستجابة:

روى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث لا يرد لهم دعوة: الصائم حتى يفطر، وإمام عادل، ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماوات، فيقول الرب: وعزتي لأنصرك بعد حين-).

* * *

الأمانة

الأمانة

أسباب نعيم القبر

الأمانة

الحمد لله رب العالمين: الذي نطق بوجدانيته جميع الكائنات،
فالسما دأماً وأبداً تقول: سبحان من رفعني بقوته، وأمسكني بقدرته، فهو
ركني وعمادي، والأرض دائماً وأبداً تقول: سبحان من وسع كل شيء
علماً، ومهدي تمهيداً، والبحار دائماً وأبداً تقول: سبحان من بمشيئته
أجراني، وأسأل عيون مائي لروادي، والعارف به دائماً وأبداً يقول:
سبحان من
داني عليه، وإليه مرجعي ومآبي، حتى العاصي يقول: سبحان من
اطلع علي في المعصية، فلما رأني سترني وغطاني، فلما تبث إليه قبلني
وهداني.

سبحانه: نهانا عن الخيانة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ
وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنفال: 27].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: جعل حفظ الأمانة من صفات المؤمنين، فقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون: 1 - 11].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: جعل أداء الأمانة طريقاً من الطرق الموصلة إلى الجنة، فروى أبو داود عن أبي الدرداء أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (خَمْسٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ إِيْمَانٍ، دَخَلَ الْجَنَّةَ: مَنْ حَافِظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ عَلَى وُضُوئِهِنَّ وَرُكُوعِهِنَّ وَسُجُودِهِنَّ وَمَوَاقِيْتِهِنَّ، وَصَامَ رَمَضَانَ، وَحَجَّ الْبَيْتِ إِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَأَعْطَى الزَّكَاةَ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ، وَآدَى الْأَمَانَةَ - قَالُوا: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ! وَمَا آدَاءُ الْأَمَانَةِ؟ قَالَ: " الْغُسْلُ مِنَ الْجَنَابَةِ " .

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع سبب من أسباب الذعيم في القبر، ألا وهو: الأمانة، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا.

الحقيقة الأولى: إن الأمانة عبء ثقيل، وحملٌ ضخم، ومسئولية كبيرة، فهي ليست بالسهولة كما يتصور كثير من الناس، فلقد عرضت الأمانة على مخلوقات كبيرة، فأبت أن تحملها، واختارت أن تكون طائفة مسخرة لله تعالى، تؤدي الدور المطلوب منها وفقط، وحملها الإنسان وهو يجهل صعوبتها.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: 72].

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة أيضاً، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله تعالى لآدم: يا آدم إني عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تقبها، فهل أنت حاملها بما فيها؟ فقال: وما فيها يا رب، قال المولى تعالى: إن حملتها أجرت، وإن ضيعتها عذبت، فاحتملها بما فيها، فلم يلبث في الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر، حتى أخرجه الشيطان منها).

وروى البزار عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطلع علينا رجل من أهل العالدية،

فقال: يا رسول الله: أخبرني بأشد شيء في هذا الدين وألينه، قال صلى الله عليه وسلم: (ألينه: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأشدّه يا أخا العالية: الأمانة، إنه لا دين لمن لا أمانة له، ولا صلاة له، ولا زكاة له- وهذا سؤال يطرح نفسه وهو: كيف أبت السموات والأرض والجبال؟ وهل كان هذا الإباء مثل إبليس؟

قال الرازي: لم يكن إباؤها كإباء إبليس في قوله تعالى: {إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} [الحجر: 31]، من وجهين: أحدهما: أن السجود هناك كان فرضاً، والأمانة هنا كانت عرضاً. ثانيهما: أن الإباء كان هناك استكباراً، والإباء هنا استصغاراً، استصغرت أنفسهن، بدليل قوله تعالى: {وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا} [الأحزاب: 72]. وكيف حملها الإنسان ولم تحملها هذه الأشياء؟ فيه جوابان: أحدهما: بسبب جهله بما فيها وعلمهن، ولهذا قال تعالى: {إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: 72].

ثانيهما: أن الأشياء نظرت إلى أنفسهن، فرأين ضعفهن، فامتنعن، والإنسان نظر جانب المكلف، وقال: المودع عالم قادر، لا يعرض الأمانة إلا على أهلها، وإذا أودع لا يتركها، بل يحفظها بعينه وعونه، فقبلها، وقال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5].

فهي إذن حمل ثقيل، ومسئولية كبيرة، تحتاج إلى بذل جهد، حتى تؤدي على الوجه الأكمل، كما أراد الله تعالى، وكما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم، وحتى يحقق الإنسان قول الله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} [المؤمنون: 8].

الحقيقة الثانية: إن الأمانة كانت خلقاً من أخلاق الأنبياء والمرسلين، دون فرق بين نبي ونبي، فهي لا تنفك عنهم لحظة واحدة، فمن المستحيل أن تجد نبياً لا يتصف بالأمانة.

ولقد خلّد الله تعالى ذكر أمانتهم في القرآن الكريم، فقال عن نوح عليه السلام: {كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} [الشعراء: 105 - 107].

وقال عن هود عليه السلام: {وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ} * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ

وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ} [الأعراف: 66 - 68].

وهذا نبي الله تعالى شعيب عليه السلام قال في شأنه: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسِلِينَ} * إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ} * إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ} [الشعراء: 176 - 178].

وقال الله تعالى في شأن لوط عليه السلام: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسِلِينَ} * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ} * إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ} [الشعراء: 160 - 162].

وقال الله تعالى في شأن صالح تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسِلِينَ} * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} * إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ} [الشعراء: 141 - 142].

وقال الله تعالى في شأن يوسف عليه السلام: {وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِسُ بِيهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [يوسف: 54، 55].

وقال الله تعالى في شأن موسى تعالى: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص: 26].

وقال الله تعالى في شأن جبريل عليه السلام: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: 193].

ولقد كان المشركون يقولون عن الرسول صلى الله عليه وسلم: إنه الصادق الأمين، روى الطبراني في الكبير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أما والله إني لأمين في السماء، وأمين في الأرض).

وقد اتصف أيضاً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمانة، وهناك من النماذج ما يدل على ذلك:

النموذج الأول: أبو بكر رضي الله عنه وهو على فراش الموت، قد استدعى عائشة رضي الله عنها فيقول لها: يا عائشة انظري هذه اللقحة

(الناقاة) التي كنا نشرب من لبنها، والجفنة التي كنا نصطبغ فيها، والقطيفة التي كنا نلبسها، فإذا كنا ننتفع بذلك حين كنا نلي أمر المسلمين، فإذا مت فإليه إلى عمر رضي الله عنه.

فلما مات أبو بكر رضي الله عنه أرسلت عائشة رضي الله عنها بهذه الأشياء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر رضي الله عنه: رحمك الله يا أبا بكر، لقد أتعبت من جاء بعدك.

النموذج الثاني: عمر بن الخطاب، فعن علي رضي الله عنه قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قتب يعدو، فقلت: يا أمير المؤمنين أين تذهب؟ قال: بعير نذ من إبل الصدقة أطلبه، فقلت: أذلت الخلفاء بعدك، فقال: يا أبا الحسن لا تلمني، فو الذي بعث محمداً بالنبوة، لو أن عناقاً أخذت بشاطئ الفرات، لأخذ بها عمر يوم القيامة.

النموذج الثالث: علي بن أبي طالب رضي الله عنه اتصف بالأمانة أيضاً، فكان في بيت مال المسلمين عقد جميل من اللؤلؤ، وذلك في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فعلمت به ابنته، فأرادت أن تتزين به في يوم عيد الأضحى، فأرسلت إلى خازن بيت المال تطلب منه أن يعيرها ذلك العقد؛ لتتزين به في العيد، ثم ترده، فأرسله إليها خازن بيت المال، بعد أن استوثق أنها سوف ترده، فلما لبسته وتزينت به، رآه أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فعرفه، فقال لها: من أين جاء إليك هذا العقد؟

فقالت: استعرت من خازن بيت المال؛ لأتزين به في العيد، ثم أردته. فأرسل علي رضي الله عنه إلى الخازن، فلما جاءه قال له: أتخون المسلمين يا بن رافع؟ فقال ابن رافع والدهشة تعلو وجهه: معاذ الله أن أخون المسلمين. ون المسـ لمين يا أمير المؤمنين.

فقال علي رضي الله عنه: كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد بغير إذني، وبغير رضا المسلمين؟ فقال ابن رافع: إنها ابتكت؟ وطلبت أن أعيرها هذا العقد، على أن ترده بعد ثلاث.

فقال له: رده من يومك، وإياك أن تعود لمثلها، فتتالك عقوبتي، ثم قال رضي الله عنه: ويل لابنتي لو كانت أخذت العقد على غير عارية مضمونة.

فلما بلغ هذا القول ابنته، قالت له: يا أمير المؤمنين أنا ابنتك، وبضعة منك، فمن أحق بلبسه مني؟

فقال لها علي رضي الله عنه: يا بنت أبي طالب لا تذهبي بنفسك عن الحق، أكل نساء المهاجرين والأنصار يتزين به في العيد بمثل هذا؟ فأخذه ابن رافع ورده إلى بيت المال.

ما هذا؟ إنها الأمانة المطلقة، التي لا تفرق بين رئيس ولا مرؤوس، فيا ليتنا نفتدي بهم جميعاً.

الحقيقة الثالثة: إن الشرع الحنيف جعل الأمانة أمراً مفروضاً على جميع المسلمين، دون تفرقة بين رجل وامرأة، ودون تفرقة بين متعلم وغير متعلم، فالكل سواء أمام هذا الأمر العظيم.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: 58].

وقال تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [البقرة: 283].

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة أيضاً، فروى أحمد والبيهقي وابن حبان أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمْ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا أُؤْتِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا أَرْوَاجَكُمْ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ).

وروى البيهقي وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَىٰ مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ).

وإذا نظرنا إلى الناس نجد أنهم ليسوا على درجة واحدة أمام هذا

الأمر الصادر من الله تعالى، ولكنهم انقسموا إلى ثلاثة أقسام، وذلك على النحو التالي:

القسم الأول: من ترك الأمانة ظاهراً وباطناً، بل وكفر بتلك الأمانة، وهم المشركون، وقد قال الله تعالى في حقهم: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ { [البقرة: 6، 7].

القسم الثاني: من تظاهر بحمل الأمانة، لكنه مبغض وكاره لها في الباطن، وهم المنافقون، وقد قال الله تعالى في شأنهم: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} * يُجَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ} * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ} * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ} * صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} [البقرة: 8 - 18].

القسم الثالث: من حمل الأمانة ظاهراً وباطناً، وهم المؤمنون، وقد قال الله تعالى في شأنهم: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا} * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ - جَزُوعًا} * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} * إِلَّا الْمَصْلِينَ} * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ} * لِلنَّسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ} * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ اللَّهِ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ} * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا يُؤْمِنُونَ} * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ} * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ} [المعارج: 19 - 35].

وقد جمع الله تعالى بين الأصناف الثلاثة في آية واحدة، وهي الآية

المذكورة عقب آية الأمانة، فقال تعالى: {لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب: 77].

الحقيقة الرابعة: إن الأمانة أول ما ترفع من قلوب العباد في الدنيا، وأنه لا يبقى منها في القلب إلا أثرها، ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى الطبراني في الكبير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْأَمَانَةُ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ الصَّلَاةَ، وَسَيَصِلُ أَقْوَامٌ لَا دِينَ لَهُمْ).

وفي رواية: (أول ما يرفع من الناس الأمانة، وآخر ما يبقى من دينهم الصلاة، ورب مُصلٍ لا خلاق له عند الله تعالى).

بل الأعجب من هذا كله، أن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل ضياع الأمانة علامة من علامات الساعة، فروى البخاري أن أعرابياً جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ، فَقَالَ: بَعْضُ الْقَوْمِ سَمِعَ، فَكَّرَهُ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ، قَالَ: (أَيَّنَ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟)، قَالَ: هَا أَنَا ذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ، فَاَنْتَظِرِ السَّاعَةَ)، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ، أَوْ قَالَ: مَا إِضْدَاعُهَا؟ قَالَ: (إِذَا تَوَسَّدَ الْأَمْرَ غَيْرُ أَهْلِهِ، فَاَنْتَظِرِ السَّاعَةَ).

وحكم الرسول صلى الله عليه وسلم على من ضيع الأمانة بالزفاق، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ).

وفي رواية لمسلم: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ، وَإِنْ صَامَ، وَصَلَّى، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ).

بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم نفى الإيمان مطلقاً على الرجل الذي لا يتصف بالأمانة، فروى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له).

فليحذر كل مسلم فينا من ضياع الأمانة الملقاة على عاتقه، فإن ذلك يعرضه لغضب المنتقم الجبار، ويخرجه من دائرة الإسلام إلى دائرة النفاق، والعياذ بالله.

الحقيقة الخامسة: ما هي الأمانة؟

إن الأمانة في نظر الشارع واسعة الدلالة، فهي ليست مقصورة على الودائع التي توضع عند الإنسان ليحافظ عليها ويصونها، ولكنها تشمل الدين كله.

فهي تشمل التكاليف التي يُكلف بها الإنسان، فالأمانة صفة للمؤمن، تجمع له جميع الأمور التي يؤديها، والمنهيات ليحذرها، فهي بهذا واسعة الدائرة، لا تقف عند حدود الودائع التي يؤتمن عليها الإنسان.

فهي رقابة العبد ربه تعالى في كل ما يأتي وما يترك، فأداء حقوق الله تعالى أمانة، ورعاية حقوق الناس أمانة، وذلك على النحو الذي فصله الحديث الكريم الذي رواه البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، قَالَ: فَسَمِعْتُ هَؤُلَاءِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَحْسِبُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ).

إخوة الإسلام:

إن الحصول على خلق الأمانة ليس بالسهولة كما يتصور كثير من الناس، بل الحصول عليها من الصعوبة بمكان، وعلى الرغم من الصعوبة على حصولها، إلا أن الشرع الحنيف وضع أموراً تعين الإنسان على التخلص بهذا الخلق الرفيع، فتعالوا معي لننتعرف على هذه الأشياء

التي تعين الإنسان على أن يتخلق بخلق الأمانة.

أولاً: التقوى.

والتقوى هي: أن يجعل العبد بينه وبين سخط الله تعالى وغضبه وعذابه، وقاية تحفظه وتمنعه.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هي العمل بالتنزيل، والخوف من الجليل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

فالتقي هو من يتحقق فيه قول الله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران: 133 - 136].

التقي هو من يتحقق فيه قول الله تعالى: {الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة: 1 - 5].

ولقد اهتم الشارع الحنيف بالتقوى اهتماماً بالغاً، فإذا ما فتحت كتاب الله تعالى لتقرأ، فلا تكاد تقرأ سورة من سور القرآن إلا وتجد فيها أمراً بالتقوى، أو حثاً للعمل بها، أو بياناً لجزاء المتقين، فهي متخللة في كل آياته، شائعة بين كلماته، كما أنها واردة في كل ما شرعه الله تعالى لنا.

ولقد أصبح كثير من الناس يفهمون التقوى فهماً ضيقاً، ويدسبونها مجرد ركعات تصلى، وأيام تصام، ورسوم ظاهرة تؤدي، وطقوس تنظم وتقام، وكذلك تراهم مع صلاتهم وصيامهم من الحرام يعيشون، وبالربا يتعاملون، وللسرقة والغش والخيانة يفعلون، ولحقوق الناس يغتالون، وبالكذب والنفاق والرياء وخراب الذمم يتعاملون، ومع ذلك يدسبون أنهم لمجرد صلاتهم أو صيامهم متقون ناجون، ألا فليعلم هذا الصنف من

الناس أنهم عن طريق النجاة حائدون، وعن سبيل الخير والفلاح ضالون، وفي شهواتهم وأهوائهم متورطون، وصدق الله تعالى إذ يقول: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَوَلَّوْا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوا} [الكهف: 103 - 106].

ليست التقوى كذلك أيها المسلم، بل التقوى عبادة ومعاملة، فالتقي يعبد الله تعالى عبادة صحيحة خالية من الرياء، بعيدة عن البدع والخرافات، لا دجل فيها، ولا شعوذة، ولا تضليل، ثم بعد ذلك يعامل الناس معاملة حسنة، ومعاملة مبذية على الذمة والأمانة، وسلامة الذية، وطهارة القلب، فلا يداهن، ولا يغش، ولا يخادع، ولا يمكر الناس.

ولقد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالتقوى في كل الأحوال والظروف والمناسبات، فقال في الحديث الذي رواه ابن ماجه: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن).

يعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال هذا الحديث أن التقوى تكون في الصلاة، وفي الصوم، وفي الزكاة، والحج، وتكون كذلك في البيع والشراء، وفي الأخذ والعطاء، وتطلب من الإنسان بالليل وبالنهار، في الصباح والمساء، في حالة الشدة والرخاء، وفي أي حالة وجد عليها الإنسان نفسه.

ولقد ضرب لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة في تقوى الله تعالى، فكان يصلي حتى تتورم قدماه، وكان على شدة قربيه من ربه، يخشاه ويخافه، فكان صلى الله عليه وسلم يقول: (أنا أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية).

ثانياً: الاتباع

والاتباع هو: أن يجعل كل مسلم فينا الرسول صلى الله عليه وسلم قدوته، مصداقاً لقول الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21].

والله تعالى فرض علينا اتباع سبيله، وما شرع من الدين القويم، اقرأ معي قول الله تعالى وهو يوضح هذه الحقيقة، فيقول: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

ويقول تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: 108].

فالله تعالى بين لنا أن له سبيلاً واحداً، سماه صراطاً؛ لأنه أقرب طريق إلى الحق والخير والسلام.

وروى أحمد وغيره أن الرسول صلى الله عليه وسلم خط خطاً، ثم قال: (هذا سبيل الله تعالـد ثم خط خطوطاً عن يمينه، وخطوطاً عن يساره، وقال: (هذه السبل المتفرقة، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه - ثم قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

فالواجب علينا جميعاً أن نتبع كل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع أقواله وأفعاله، والتأسي به في سائر أحواله، قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر: 7].

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (دعوني ما تركتكم عليه، فإنما أهلك من كان قبلكم: سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم).

وإن الاتباع لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون في كل مجالات الحياة، من عبادة، وشرعية، وأخلاق، وسياسة، فالاتباع في كل مجالات الحياة أمر محتـم علينا، وليس لنا فيه أي خيار، اقرأ معي قول الله تعالى وهو يوضح هذه الحقيقة، فيقول: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ

صَلَاةً مُبِينًا} [الأحزاب: 36].

ثالثاً: التوكل على الله تعالى :

فالتوكل على الله تعالى يعين الإنسان على التخلق بخلق الأمانة، فقال تعالى : {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: 3].

وقال تعالى :{وَاللَّهُ غِيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [هود: 123].

وها هو الحبيب صلى الله عليه وسلم يعلم أمته نعمة التوكل على الله تعالى، فروى أحمد وابن ماجه والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا).

بل ويأتيه رجل ومعه ناقة، فيقول له: يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال صلى الله عليه وسلم: (اعقلها وتوكل).

رابعاً: عدم إطاعة الكافرين والمنافقين:

فالله تعالى نهانا عن إطاعة الكافرين والمنافقين، وحذرنا منها؛ لأن طاعتها تجلب غضب الرب تعالى، لأنهم لا يأمرُونَ إلا بالشر، فقال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَتْلُو عَلَى كُفْرِكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران: 100، 101].

وقال تعالى :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُم عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ} * بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ} [آل عمران: 149، 150].

ولقد نهى الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم عن إطاعة الكافرين والمنافقين،

فقال تعالى :{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} * وَاتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا} [الأحزاب: 1 - 3].

ولقد حذر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى ومن اتباعه لهما، فقال تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [البقرة: 120].

وقال تعالى: {وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا فِئَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: 145].

وقال تعالى: {وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} [المائدة: 49].

خامساً: الرفقة الطيبة.

فالرجل على دين خليله، وإن الصاحب صاحب، فإما أن يأخذ بيدك إلى مرضاة الله تعالى، وإما أن يأخذ بيدك إلى غضب المنتقم الجبار.

فابحث عن العلماء العاملين، والدعاة المؤمنين، والزم غرسهم، فإنهم سيأخذون بيدك إلى مرضاة الله تعالى، فروى أحمد والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِطُ).

وفي رواية: (إلى من يخال).

وروى أبو داود والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ).

فعلى المسلم أن يحذر كل الحذر من الرفقة السيئة؛ لأنها تعين الإنسان على الخيانة، فيندم في وقت لا يدفع فيه الندم، ولقد حذرنا الشرع الحنيف من الرفقة السيئة، فقال تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: 27 - 29].

سادساً: طاعة الله تعالى :

والطاعة هي: فعل الأمور، وترك المنهيات.

أو بمعنى آخر: أن يحقق الإنسان منهج افعل ولا تفعل، قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر: 7].

وقال ﷺ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: 208].

قال ابن عباس رضي الله عنهم: "يعني الطاعة".

وروى البخاري ومسلم: أن أعرابياً جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله: دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان).

قال الأعرابي: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئاً أبداً ولا أنقص منه، فلما ولى، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلي نظر إلى هذا).

بل وأمرنا الله تعالى بالطاعة له ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فقال ﷺ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد: 33].

وقال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [التغابن: 16].

وعندما أمر الله تعالى المؤمنين بالتثبت عند لقاء العدو، أمرهم بالطاعة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: 45، 46].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: 59].

أمانة الأولاد

أمانة الأولاد

أسباب نعيم القبر

أمانة الأولاد

الحمد لله رب العالمين: خلق الإنسان من سلالة من طين، وجعله بقدرته نطفةً في قرار مكين، ثم خلق النطفة علقاً، فخلق العلقة مضغة، فخلق المضغة عظاماً، فكسا العظام باللحم والجلد المتين، وجعل وجهه إلى ظهر أمه، يتنفس ما بين الركبتين والقلب الدنون، وجعل شهوته إلى قلبها، فإذا انتهى شيئاً، وصل إليه بلا معين، فتبارك الله أحسن الخالقين.

سبحانه: أراد لعباده الخير والبر، وطلب من عباده إقامة منهج العدل والفضيلة، فقال تعالى: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} [البقرة: 138].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: بين لنا أن كل البشر يولدون على الفطرة السليمة، فقال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: 30].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: جعل صلاح الولد
مُنَـمَّـةً لِّأُمِّهِ
التي يندفع بها الإنسان بعد موته، فروى مسلم والبيهقي واللفظ له، أن
الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ
أَشْيَاءَ: مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ).

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم،
وعلى آله وصحابه أجمعين.

أما بعد : إخوة الاسلام :

إننا اليوم على موعد مع سبب من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: أمانة الأولاد، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا اليوم:

الحقيقة الأولى: إن من أعظم النعم التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان، هي نعمة الأولاد، فالأولاد منحة إلهية، وهبة ربانية، يختص الله تعالى بها من يشاء من عباده، ولو كان فقيراً، ويمنعها ممن يشاء ولو كان غنياً.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [الشورى: 49، 50].
ولقد جعل الشرع الحنيف الأولاد في الدنيا على درجات متفاوتة، وذلك على النحو التالي:

أولاً: جعل الله تعالى الأولاد تارة زينة الحياة الدنيا، فقال تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} [الكهف: 46].

ثانياً: جعل الله تعالى الأولاد نعمة عظيمة، تستحق شكر الواهب المنعم، فقال تعالى: {وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا} [الإسراء: 6].

ثالثاً: جعل الله تعالى الأولاد قرة الأعين؛ إذا كانوا سالكين مسلك المتقين، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: 74].

فالأولاد إن كانوا صالحين، كانوا من أجل نعم الله تعالى على الوالدين في الحياة، بل وبعد الممات، فإن ميزان الوالدين يثقل بعد موتهما، وذلك باستغفار ولدهما ودعائه لهما، فروى أحمد وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ الرَّجُلَ لَتَرْفَعُ دَرَجَتَهُ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَنَّى هَذَا؟ فَيَقَالُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ).

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ

أَنْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ.

رابعاً: جعل الله تعالى الأولاد فتنة وابتلاءً، وحذرنا الله تعالى منها، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ { [التغابن: 14، 15].

ولقائل يقول: كيف يكون الأولاد فتنة؟ أقول: إذا لم يلتزم الوالدان بمنهج الله تعالى مع الأولاد، فقدم الوالدان حبَّ الأولاد على حب الله تعالى، وحبَّ الرسول صلى الله عليه وسلم، وقدم حقَّ الأولاد على حق الله تعالى، وحق رسوله صلى الله عليه وسلم، فحينئذ يكون الأولاد فتنة من أعظم الفتن على الوالدين في الدنيا والآخرة.

فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المنافقون: 9].

وروى الحاكم والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ، مَحَبَّةٌ، مَحْزَنَةٌ).

ومعنى مَبْخَلَةٌ: أي قد يصيب الولد والديه بالبخل الشديد؛ لشدة حرصهما على توفير المال لولدهما، فيبتلى الوالدان بالبخل من أجل الولد.

ومعنى مَحَبَّةٌ: أي يبتلى الوالدان بالجبن، خوفاً على أن يتركا الولد. ومعنى مَحْزَنَةٌ: أي أن الوالدين يصيبان بالحزن والألم الشديد، إذا ابتلي الولد بما يؤلمهما ويحزنهما.

فكم من أبٍ عَقَّه أَوْلَادُهُ فَعَصَوْهُ، وأذاقوه مرارة الحرمان، وعلقم الصبر، حتى يئس من الحياة، وتمنى أنه لم يتزوج، ولم يُولد له، وتمنى لو أنه وضع جهد الرعاية والعناية في جرو، خير له من ولدٍ لصلبه.

ولا يغيب عن الجميع ما فعله الخضر في الغلام الذي قتله، واستنكر عليه سيدنا موسى عليه السلام هذا العمل، فقال تعالى: {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِرُكْبَةٍ بَغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكِرًا} [الكهف: 74].

فأراد الخضر أن يبين له حقيقة هذا الغلام، وأنه لا يستحق الحياة؛ لأنه سيكون فتنة لوالديه، وسيكون سبباً في كفرهما بالله تعالى، فقال تعالى: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} [الكهف: 80، 81].

الحقيقة الثانية: إن الشرع الحنيف حمل الأب والأم المسؤولية الكاملة عن الأولاد، فالأولاد أياً كان نوعهم، مسؤولية كبيرة، وأمانة عظيمة، سيُسأل العبد عنها يوم القيامة، هل فرط فيها، أم أداها كاملة، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: 6].

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة أيضاً، فروى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، قَالَ: فَسَمِعْتُ هَؤُلَاءِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأُحْسِبُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ).

وروى الترمذي وابن حبان أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله سائل كل ذي رعية فيما استرعاه، أقام أمر الله تعالى فيهم، أم أضاعه، حتى إن الرجل ليسأل عن أهل بيته).

ويجب أن يعلم الجميع أن أمانة الأولاد حملها ثقيل، وحسابها عسير يوم القيامة؛ لأنها تحمّل أمانة الفطرة الربانية النقية، فقال تعالى: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [الروم: 30].

فالواجب على كل مسلم أن يراعي هذه الأمانة، ويقوم بأدائها على أكمل وجه، ويصون هذه الفطرة السليمة، كما أمر الله تعالى، وكما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم.

الحقيقة الثالثة: إن التفريط في أمانة الأولاد يعرض الإنسان إلى العذاب الأليم يوم القيامة، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الزمر: 15].

قال الرازي في تفسير هذه الآية: لقد أكد الله تعالى في هذه الآية الخسران بعدة أمور، وهي ما يأتي:

الأمر الأول: التكرار، وذلك لأجل التأكيد.

الأمر الثاني: أن الله تعالى ذكر في أول هذه الكلمة حرف {أَلَا} وهو للتنبيه، وذكر التنبيه في هذا الموضع يدل على التعظيم، كأنه قيل إنه بلغ في العظمة إلى حيث لا تصل عقولكم إليها، فتنبهوا لها.

الأمر الثالث: أن كلمة: {هُوَ} في قوله: {هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} تفيد الحصر، كأنه قيل: كل خسران.

الأمر الرابع: وصفه بكونه {المُبِينُ} يدل على التهويل.

فهذا تحذير شديد، ووعد عظيم، بأن يخسر الإنسان نفسه وأهله وولده يوم القيامة، بأن يكونوا جميعاً من الهالكين في نار جهنم، المعذبين فيها.

فكم من أبٍ فرط في هذه الأمانة، وساقته عواطف الأولاد والزوجة بعيداً عن مسلك الأبرار، فألحوا عليه بالانحراف، وزينوا له جذب المال من الحرام، والإنفاق فيما حرم الله تعالى، وقعدوا به عن القيام بواجب الدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المذکر، فأصبح الأب يتأثر ولا يؤثر، ويُقَاد ولا يقود، ويأمر فيُعصى، في حين كان واجبه أن يكون في بيته قائداً لا مقوداً، وسيّداً لا مسوداً، وأمرأ لا مأموراً، قال الله تعالى: {الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ} [النساء: 34].

وروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ).

فكيف يكون دور الأب في بيته تنفيذ الأوامر، وإشباع الشهوات، وتحقيق المطالب؟ وكثير من الآباء يعتذر عندما يُنكر عليهم تصرف

معين، كأن يُنكَرَ عليهم شراء شيءٍ حرمة الله تعالى، أو أخذ أولادهم وأهلهم إلى مكان محرم، فيقول الأب معتذراً: ماذا أفعل؟ الأولاد يُريدون، وأم الأولاد تريد، وكأنه لا سلطان له، ولا كيان، ولا إرادة، وهذا التصرف يعتبر خيانة لأمانة الأولاد، وينطبق عليه قول الله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُبِينُ} [الزمر: 15].

وعلى العكس من ذلك: نجد أن الله تعالى مدح الآباء الذين قاموا بهذه المهمة على الوجه الأكمل، وأدوا الأمانة بالصورة التي ترضي الله تعالى، وترضي الرسول صلى الله عليه وسلم، فرفع الله تعالى درجاتهم في الجنة، وألحق بهم ذريتهم، وجمعهم في منزلة عظيمة، ودرجة عالية، ونعيم مقيم، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُلْفًا لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} [الطور: 21 - 28].

فإياك أخي المسلم أن تكون من الذين فرضوا في هذه المسؤولية الموكلة إليهم، وخانوا هذه الأمانة وضيعوها، فإن ذلك يعرضك لغضب المنتقم الجبار، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ما من عبدٍ يسترعيه الله رعيّة، يموت يوم يموت وهو غاشٍ لرعيّته، إلا حَرَّمَ الله تعالى عليه الجنّة).

إخوة الإسلام:

إن المحافظة على أمانة الأولاد ليس بالأمر السهل أو الهين، بل من الصعوبة بمكان؛ لأنه ما من أب إلا وسيتعرض لصعوبات كثيرة، فلو لم يكن أهلاً لتحمل هذه الأمانة، فإنه سيضيعها، وبالتالي يكون خائناً لهذه الأمانة العظيمة، ولقد وضع الشرع الحذيف ضوابط متعددة للمحافظة على أمانة الأولاد، فتعالوا معي لتتعرف على هذه الضوابط، التي لو

الترحم بها الشخص، يكون أميناً على أولاده:

الضابط الأول: اتباع منهج الله تعالى ومنهج الرسول صلى الله عليه وسلم في التربية:

فتربية الأولاد يجب أن تكون على ضوء ما ورد في كتاب الله تعالى، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، لا على ضوء ما ورد في كتب علم النفس والفلسفة، فقال تعالى: {مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: 38].

وقال تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: 14].

فالذي خلقنا وخلق أولادنا هو الله تعالى، فنشرعيه خير تشريع، وهدى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم خير هدى، فجدير بنا إذاً أن نتلمس خطأ الرسول صلى الله عليه وسلم، ونتلمس أوامره وآدابه، ونطبقها مع أبنائنا، حتى يسلم لنا أبنائنا، ونؤدي الأمانة على الوجه الأكمل، الذي يرضى الله تعالى، ويرضى الرسول صلى الله عليه وسلم.

والله تعالى فرض علينا اتباع سبيله، وما شرع من الدين القويم، اقرأ معي قول الله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

فالواجب علينا جميعاً أن نتبع كل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع أقواله وأفعاله، والتأسي به في سائر أحواله، قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر: 7].

وإن اتباع منهج الله تعالى ومنهج رسوله صلى الله عليه وسلم في تربية الأولاد أمر محتتم علينا، وليس لنا فيه أي خيار، اقرأ معي قول الله تعالى وهو يوضح هذا، فيقول: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} [الأحزاب: 36].

والله ﷻ حذرنا من اتباع الهوى، ورتب العقاب الشديد على ذلك، فقال: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: 115].

وقال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 63].

واقرا معي قول الله تعالى: {وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا} [الطلاق: 8 - 11].

وبالفعل لقد خالف الآباء الآن أمر ربهم، ولم يلتزموا بمنهج الله تعالى ولا بمنهج الرسول صلى الله عليه وسلم، فأصابنا ما نحن فيه الآن، وأصبحنا نشكو من الشكوى من الانفلات الأخلاقي من الأبناء.

فالواجب على كل الآباء إذا أرادوا أن يخرجوا من هذه الدوامة، الإعتصام بكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وإلا فإن الأمر سيزداد شدة على شدة، ومرارة على مرارة، وذبح قد لمسنا هذا بأيدينا، فماذا نريد بعد هذا؟ وإلى متى هذا التيه في الظلمات، والقرآن بين أيدينا، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم بين أيدينا، وفيهما النجاة، والضمان من الهلاك والخسران، قال تعالى: {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} [طه: 123 - 127].

وروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما).

الضابط الثاني: التضرع إلى الله تعالى بالدعاء لصالح الذرية:

إن أمر هداية البشر جميعاً موكل إلى الله تعالى، فقال تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [السجدة: 13].

وقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [يونس: 100].

وقال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص: 56].

فالصالح والهدى في الأصل من الله تعالى، فهذا سيدنا يوسف عليه السلام تربى في بيت الملك من أهل الكفر، ثم أخذ وألقي به في السجن، مع طائفة من المجرمين الخمارين والسارقين واللصوص، ومع ذلك كله حفظه الله تعالى.

وهذا الغلام صاحب قصة أصحاب الأخدود كان أبواه كافرين، ولم يذكر عنهما الإيمان، وأرسل كي يتعلم السحر، فمن الذي هداه إلى الراهب كي يتعلم منه الإيمان، ويكون من أمره ما كان؟ إنه الله تعالى.

وما دام الأمر كذلك: فيجب علينا جميعاً أن نتجه إلى الله تعالى، ونسأله بإخلاص إصلاح الذرية، فهذا هو حال الأنبياء، فقد سألوا الله تعالى الهداية لأبنائهم، فهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام قال الله تعالى في شأنه: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ} [الصافات: 100].

وقال تعالى في شأن إسماعيل عليه السلام: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: 127، 128].

وهذا سيدنا زكريا عليه السلام يقول الله تعالى في شأنه: {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا} * يَرْثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} [مريم: 5، 6].

وقال تعالى: {هَئِذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران: 38].

وكذلك حال عباد الرحمن، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ

أَزْوَاجَنَا وَذُرِّيَّاتَنَا فُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: 74].

وهذا ما فعله يعقوب عليه السلام مع أبنائه، فقال تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ} * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [يوسف: 97، 98].

وذكر الله تعالى حال الرجل الذي بلغ أشده، وبلغ أربعين سنة، فقال: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [الأحقاف: 15].

فجدير بنا أن نتوجه إلى الله تعالى بالدعاء، ونبتهل إليه أن يصلح لنا أولادنا، فهذا شأن أهل الإيمان، فهم دائماً يطلبون من الله ﷻ أن يصلح لهم النية والذرية.

ولكن للأسف الشديد نسينا هذا الأمر، وأصبحنا ندعو على أنفسنا وأولادنا، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهانا عن الدعاء على النفس وعلى الأولاد، فروى مسلم وأبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى خَدَمِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُؤَافِقُوا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى سَاعَةً نِيلَ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ).

وروى مسلم والبيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ).

وروى الترمذي وأبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ).

الضابط الثالث: تعليم الأبناء أمور الدين.

فالواجب على الآباء تعليم الأبناء أمور الدين، لأن هذا الأمر واجب على الآباء، وأمور الدين كثيرة، وهي على النحو التالي:

أولاً: الإيمان بالله تعالى: فيجب تعليم الأولاد الإيمان بالله تعالى، فقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ

عَظِيمٌ} [لقمان: 13].

ثانياً: العقيدة الصحيحة: فلقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تربية أبناء المسلمين على العقيدة الصحيحة، فروى أحمد والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنه: (يَا غُلَامُ: إِنِّي أَعَلَّمْتُ كَلِمَاتٍ، أَحْفَظُ اللَّهُ يَحْفَظُكَ، أَحْفَظُ اللَّهَ تَجِدْهُ مُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ شَيْءٌ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ شَيْءٌ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ-).

ثالثاً: الخوف من الله تعالى : ومن الأمور التي يجب تعليمها للأبناء: الخوف من الله تعالى، وهذا ما حدث من لقمان عليه السلام لابنه، فقال تعالى: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 16].

وفي هذا الشأن يقول المولى تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7].

رابعاً: الأمر بالصلاة: وهذا ما حدث من لقمان عليه السلام مع ابنه، فقال تعالى: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ} [لقمان: 17].

ولقد أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم الآباء بتربية الأبناء على أداء الصلاة، بل أمر بالضرب إذا قصر الأولاد في هذه الفريضة، فروى أبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ-). وقال المولى تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [طه: 132].

واسمع إلى منهج سيدنا إسماعيل عليه السلام في التربية الإيمانية لأهل بيته، فيقول تعالى: {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ

وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا، وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} [مريم: 54، 55].

خامساً: التعويد على الصيام: فروى البخاري عَنْ الرُّبَيْعِ بْنِ مَرْثَدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَاةَ عَاشُورَاءَ إِلَى قُرَى الْأَنْصَارِ: (مَنْ أَصْبَحَ مُفْطَرًا فَلَيْسَ بِقِيَّةٍ يَوْمَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ صَائِمًا فَلَيْسَ بِمُفْطَرٍ). قَالَتْ: فَكُنَّا نَصُومُهُ بَعْدَ، وَنُصَوِّمُ صِبْيَانَنَا، وَنَجْعَلُ لَهُمُ اللَّعْبَةَ مِنَ الْعِهْنِ، فَإِذَا بَكَى أَحَدُهُمْ عَلَى الطَّعَامِ أُعْطِينَاهُ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ عِنْدَ الْإِفْطَارِ.

سادساً: مراقبة الله تعالى: وتأمل معي حين أراد الإمام الشافعي (رحمه الله) أن يعلم تلاميذه كيفية مراقبة الله تعالى، فأمر أن يحضر كل تلميذ من تلاميذه دجاجة حية، ثم يقوم بذبحها شريطة أن يكون ذلك في مكان لا يراه فيه أحد.

وفي اليوم التالي جاء كل تلميذ وقد ذبح كل واحد منهم دجاجته، إلا واحداً، فقد أتى بها حية لم يذبحها، فسأله الشيخ: لماذا لم تذبح الدجاجة؟ قال: لأنني لم أستطع الوفاء بالشرط، قال له: كيف ذلك؟ قال: لأنني حيثما اتجهت، وحيثما ارتحلت، وجدت أن الله تعالى مطلع علي ويراني، وفي هذا يقول المولى تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7].

سابعاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: قال تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ} [لقمان: 17].

ثامناً: الصبر: فقال تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [لقمان: 17].

تاسعاً: مكارم الأخلاق: فكان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً على تربيته على مكارم الآداب، وحميد الأخلاق والصفات، فروى البخاري ومسلم عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: كنت غلاماً في حجر

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت يدي تطيش في الصحيفة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ بِمَا يَلِيكَ).

فما زال تلك طعمتي بعد.

وروى أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال: دعنتني أُمِّي يوماً ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في بيتنا، فقالت: هَا تَعَالِ أَعْطِيكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَمَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْطِيَهُ؟). قالت: أعطيه تمرًا، فقال لها رسول

الله صلى الله عليه وسلم: (أَمَّا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تُعْطِيَهُ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكَ كِذْبَةٌ).

سابعاً: النهي عن الصفات الذميمة: قال تعالى: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} * وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ [لقمان: 18، 19].

ثامناً: حب الرسول وآل بيته وتلاوة القرآن الكريم: لما روى الطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم، وحب آل بيته، وتلاوة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل عرش الله، يوم لا ظل إلا ظله، مع أنبيائه وأصفیائه).

* * *

أمانة الزوج

أمانة الزوج

أسباب نعيم القبر

أمانة الزوج

الحمد لله رب العالمين: المتوحد بإبداع المصنوعات، المتفرد باختراع المخلوقات، المخصوص بقدَم الأسماء والصفات، المنزه عن التحيز والسكون والحركات، القريب ممن دعاه لا بقرب المسافات، المجيب لمن ناجاه بإخلاص الدعوات.

سبحانه: بين مدى ارتباط كل من الزوجين بالآخر، وما ينبغي أن تكون العلاقة بينهما، فجعل الزوج لباساً لزوجته، كما جعل الزوجة لباساً لزوجها، فقال تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ} [البقرة: ١٨٧].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: جعل الرجل هو الأصل في الحياة الزوجية، والمرأة هي الفرع، وجعل حق الزوج على زوجته أوكد من حق الزوجة على زوجها، فقال تعالى: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: ٢٢٨].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: جعل أفضل متاع في الدنيا، المرأة الصالحة، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع سبب من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: أمانة الزوج، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتى في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على

بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا:

الحقيقة الأولى: إن من أكبر النعم التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان هي: نعمة الزواج، فالزواج آية من آيات الله تعالى توجب التفكير والشكر.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم: 21].

وقال تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} [النحل: ٧٢].

فالرجل منا لا يستطيع أن يعيش في هذه الدنيا بدون زوجة، وكذلك المرأة لا تستطيع أن تعيش في الدنيا بدون زوج، وهذه حقيقة لا ينكرها إلا شاذ، والعياذ بالله.

ولقد جعل الله تعالى الزواج من سنن الأنبياء والمرسلين، فقال: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [الرعد: ٣٨].

وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا، كَانَهُمْ تَقَالَوْهَا، فَقَالُوا: وَإَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَصْدَلِي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا.

فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: (أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَخْشَاكُمْ لَهْ وَآتَقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأَصَلِّي وَأَرْفُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي).

وهذا سيدنا آدم عليه السلام عندما خلقه الله تعالى وتركه في الجنة وحيداً، استوحش الجنة؛ لأنه يعيش بدون زوجة، فخلق الله تعالى له حواء من ضلعه الأيسر، وهو نائم.

جاء في تفسير القرطبي: عن عبد الله بن مسعود وعبد الله ابن عباس رضي الله عنهم أنهما قالوا: لما أسكن الله تعالى آدم الجنة، مشي فيها مستوحشاً، فلما نام، خلقت حواء من ضلعه من شقه الأيسر؛ ليسكن إليها، ويأنس بها، فلما انتبه رآها، فقال: من أنت؟ قالت: امرأة، خلقت من ضلعك؛ لتسكن إليّ، وأسكن إليك، وهذا معنى قول الله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف: 189].

وهذه النعمة لم تكن مقصورة على الإنسان فحسب، بل هي موجودة في كل المخلوقات، فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} [يسن: ٣٦]. وقال تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذاريات: ٤٩]. ومن ثم يمكن القول: إنه لا يوجد في الإسلام ما يسمى بالرهبانية، فالدين الإسلامي ليس فيه انعزال عن الحياة، وليس فيه انصراف عن المرأة.

الحقيقة الثانية: لقد وضع الدين الإسلامي عدة معايير عند إنشاء الحياة الزوجية، وألزم الجميع بها، وهذه المعايير ما يلي:

المعيار الأول: الدين:

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذا المعيار، فقال: {وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [النور: ٣٢].

ولقد عدد الرسول صلى الله عليه وسلم الأسباب التي تتكح المرأة لأجلها، ثم أوصى بذات الدين، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ).

ومع كثرة ما في هذه الدنيا من متاع وأنس، خص الرسول صلى الله عليه وسلم

بين متاعها وأنسها شيئاً واحداً، هو المرأة الصالحة، فروى ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَا اسْتَفَادَ الْمُؤْمِنُ بَعْدَ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، خَيْراً لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ، إِنَّ أَمْرَهَا أَطَاعَتُهُ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتَهُ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبْرَتَهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحْتُهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ).

وعلى الرغم من كثرة الأمور التي يكثرها المرء استعداداً لكل أمر مهم، أو حدث جلل، أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بادخار المرأة الصالحة، للعسر واليسر، فروى أبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((أَلَا أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُ الْمَرْءُ؟ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتَهُ، وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ)).

وهذا المعيار كما ينطبق على المرأة، ينطبق أيضاً على الرجل، فعلى ولي المرأة أن يختار لها رجلاً ذا دين، روى الترمذي وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: ((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ، فَرَوْجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ، وَفَسَادٌ عَرِضٌ)).

المعيار الثاني: أن تكون المرأة ولوداً ودوداً:

ويعرف ذلك من أهل بيتها، وإذا تبين أن المرأة لا تلد بزواج سابق ونحوه، فإنه لا يتزوجها إلا من هو مثلهما، روى أبو داود والذسائي عن معقل بن يسار قال: جاء رجل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قال: إِنِّي أَصَبْتُ امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ وَجَمَالٍ، وَإِنَّهَا لَا تَلِدُ، أَفَأَتَزَوَّجُهَا؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا)، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ، فَهَاهُ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّلَاثَةَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ).

وروى البيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (خَيْرُ نِسَائِكُمْ: الْوُدُودُ، الْوُلُودُ، الْمُوَاتِيَةُ، الْمُوَاسِيَةُ، إِذَا اتَّفَقَيْنِ اللَّهُ، وَشَرُّ نِسَائِكُمْ: الْمُتَبَرِّجَاتُ، الْمُتَخَيَّلَاتُ، وَهُنَّ الْمُنَافِقَاتُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْهُنَّ، إِلَّا مِثْلُ الْغُرَابِ الْأَعْصَمِ).

المعيار الثالث: الجمال:

فالجمال وحسن المظهر أمر فطر الله تعالى النفوس على الرغبة فيه، وهي رغبة شريفة لا يلام عليها الإنسان، وجاءت أصول الشرع الحذيف

تؤيد هذا المعيار، فالله تعالى جميل يحب الجمال، ولم تشرع رؤية الرجل لمخطوبته إلا والتأكد من الجمال من أهم مقاصدها، روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لرجل تزوج امرأة من الأنصار: (هَلْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا؟ فَإِنَّ فِي عَيُونِ الْأَنْصَارِ شَيْئًا).

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (تُنَكِّحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْعَ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِحِمْلِهَا، وَلِدِينِهَا، فَظَفَرُ بَذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ). لكن ينبغي التنبيه على أمر مهم، وهو: أن الجمال أمر نسبي، لا تترك النساء بسببه، وتختلف فيه وجهات النظر اختلافاً كثيراً.

المعيار الرابع: أن تكون المرأة بكرًا:

والبكارة في المرأة إذا كان الشاب بكرًا، روى البخاري أن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: تزوجت امرأة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فلقيت الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: (يا جابر: تزوجت؟)، قلت: نعم، قال صلى الله عليه وسلم: (بكر أم ثيب؟)، قلت: ثيب، قال: (فهلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك).

وروى ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (عليكم بالأبكار؛ فإنهن أعذب أفواهًا، وأنتق أرحامًا، وأرضى باليسير).

المعيار الخامس: اليسر وقلة المؤنة:

فالرسول صلى الله عليه وسلم حدثنا جميعاً على عدم المغالاة في المهور، فروى أبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (خير النكاح أيسره).

وروى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ مِنْ يُمْنِ الْمَرْأَةِ: تَيْسِيرُ خِطْبَتِهَا، وَتَيْسِيرُ صَدَاقِهَا، وَتَيْسِيرُ رَحِمِهَا).

فالواجب على كل المسلمين أن يلتزموا بهذه المعايير عند إنشاء الحياة الزوجية، حتى يكون الزواج منتجاً لآثاره الشرعية.

الحقيقة الثالثة: لقد جعل الشرع الحنيف للزوج مكانة عظيمة، وجعل حقه مقدماً على حق الوالدين، فحق الزوج على زوجته مقدم على حق الأب والأم، ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة،

فروى البيهقي والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَنَا فُلَانَةُ بَذْتُ فُلَانًا، قَالَ: (قَدْ عَرَفْتُكَ، فَمَا حَاجُكَ؟ - قَالَتْ: حَاجَتِي إِلَى ابْنِ عَمِّي فُلَانٍ الْعَابِدِ، قَالَ: (قَدْ عَرَفْتُهُ، - قَالَتْ: يَخْطُبُنِي، فَأَخْبِرْنِي مَا حَقُّ الزَّوْجِ عَلَى الزَّوْجَةِ؟ فَإِنْ كَانَ شَيْئًا أُطِيقُهُ تَزَوَّجْتُه، وَإِنْ لَمْ أُطِيقْ لَا أَتَزَوَّجُ، قَالَ: (مِنْ حَقِّ الزَّوْجِ عَلَى الزَّوْجَةِ أَنْ لَوْ سَأَلَ مَنْخِرَاهُ دَمًا وَوَيْحًا وَصَدِيدًا، فَلَحَسَتْهُ بِلِسَانِهَا، مَا أَدَّتْ حَقَّهُ، لَوْ كَانَ يَنْبَغِي لِبَشَرٍ - أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ - لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لَزَوْجِهَا إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا، لِمَا فَضَّلَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا، - قَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَتَزَوَّجُ مَا بَقِيَتْ فِي الدُّنْيَا.

وقالت عائشة رضي الله عنها: " يا معشر النساء: لو تعلمن بحق أزواجكن عليكن، لجعلت المرأة منكن تمشح الغبار عن قدمي زوجها بخد وجهها ".

ولنا في نساء النبي صلى الله عليه وسلم القدوة الطيبة، فقد قدمن طاعة الزوج على طاعة أبيها، فجاء في البداية والنهاية لابن كثير: لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يريد غزو مكة، فكلمه أن يزيده في هدنة الحديبية، فلم يُقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام، فدخل على ابنته أم حبيبة رضي الله عنها، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي صلى الله عليه وسلم طوته دونه.

فقال: يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت امرؤ نجس مشرك، فلم أحب أن تجلس على فراشه، فقال: يا بنية: لقد أصابك بعدي شر.

فالواجب على كل زوجة أن تعلم هذه المكانة التي جعلها الشرع الحنيف للزوج، وأن تعمل قدر طاقتها للمحافظة على هذه المكانة، إرضاء لله تعالى، وعليها أن تعلم في قرارة نفسها أنها مهما فعلت، فلن تستطيع أن توفي حق زوجها، فروى ابن حبان والبخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (حق الزوج على زوجته: لو كانت به قرحة، فلحستها، أو انشتر منخراه صديدًا أو دمًا، ثم ابتلعت، ما أدت حقه).

الحقيقة الرابعة: إن الزوجة لن تدخل الجنة إلا إذا أطاعت زوجها، كما أمر الله تعالى، وكما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك رضي عنها زوجها.

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى ابن ماجه والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَيُّ امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا رَاضٍ عَنْهَا، دَخَلَتْ الْجَنَّةَ).

وروى أحمد والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ).

وروى النسائي وصحح الحديث الشيخ الألباني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِنِسَائِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ الْوُدُودُ الْوُلُودُ الْعَوُودُ عَلَى زَوْجِهَا، الَّتِي إِذَا أَذَتْ أَوْ أُوذِيَتْ جَاءَتْ حَتَّى تَأْخُذَ بِيَدِ زَوْجِهَا، ثُمَّ تَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَذُوقُ غَمَضاً حَتَّى تَرْضَى).

والعُودُ: هي التي تعود على زوجها بالنفع.

فالزوج هو جنة الزوجة ونارها، فروى أحمد عن الحُصَيْنِ بْنِ مِخْصَدٍ رضي الله عنه أَنَّ عَمَّةً لَهُ أَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَاجَةٍ، فَفَرَّغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَذَاتُ زَوْجٍ أَنْتِ؟) قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: (كَيْفَ أَنْتِ لَهُ؟) قَالَتْ: مَا أَلُوهُ - أَي: لَا أَقْصِرُ فِي طَاعَتِهِ وَخِدْمَتِهِ - إِلَّا مَا عَجَزْتُ عَنْهُ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَأَنْظُرِي أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ، فَإِنَّهَا هُوَ جَنَّتُكَ وَنَارُكِ؟).

فزوج المرأة ستر لها في هذه الدنيا، فروى الطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لِلْمَرْأَةِ سِتْرَانِ - قِيلَ: مَا هُمَا؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الزَّوْجُ وَالْقَبْرُ)).

فالأوجب على الزوجة أن تعمل جاهاً لإرضاء زوجها، حتى تفوز بجنة ربها.

إخوة الإسلام:

لقد وضع الشرع الحنيف حقوقاً متعددة للزوج على زوجته، وأمر

الزوجة بالمحافظ على هذه الحقوق، وأدائها على الوجه الأكمل الذي يرضي الله تعالى، ويرضى الرسول صلى الله عليه وسلم، فتعالوا معي لنتعرف على هذه الحقوق، والتي لو التزمت بها الزوجة، تكون أمانة على زوجها.

الحق الأول: وجوب الطاعة:

إن طاعة الزوجة لزوجها هي أساس قوة الحياة الزوجية واستمرارها، ولقد أوجب الإسلام على المرأة طاعة زوجها في غير معصية، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذا الواجب، فقال: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا} [النساء: ٣٤].

ففي هذه الآية جعل الله تعالى الرجل قواماً على المرأة بالأمر والتوجيه والرعاية، بما خص الله تعالى به الرجل من خصائص جسمية وعقلية، وبما أوجب عليه من واجبات مالية، وطالما أن الرجل قائماً على أمر المرأة، لزم المرأة أن تطيع الرجل.

قال ابن تيمية: على المرأة وجوب طاعتها لزوجها مطلقاً، فإن المرأة إذا تزوجت كان زوجها أملك بها من أبيها، وطاعة زوجها عليها أوجب.

ولقد أشارت السنة النبوية إلى هذا الواجب أيضاً، فروى أحمد والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ).

وروى أبو داود والبيهقي والترمذي عن قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ الْحَبِيرَةَ، فَرَأَيْتُهَا يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانَ لَهُمْ، فَقُلْتُ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَقُّ أَنْ يُسَجَّدَ لَهُ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فَقُلْتُ: إِنِّي أَنْبِئُ الْحَيْرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانَ لَهُمْ، فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَرَأَيْتَ لَوْ مَرَرْتَ بِقَبْرِي أَكُنْتَ تَسْجُدُ لَهُ، قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَلَا تَفْعَلُوا، لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ، لِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَقِّ).

وإذا نظرنا إلى الواقع الذي نعيش فيه الآن، نجد أن هناك إهمالاً إلى حد بعيد من بعض الزوجات في هذا الواجب، فنجد الزوجة تهمل أوامر زوجها، بل لا أبالغ إذا قلت: أن هناك من الزوجات من يضربن بأوامر أزواجهن عرض الحائط، مع أن هذا كله مخالف لشرع الله تعالى.

فالواجب على الزوجة أن تفهم أن طاعة الزوج هي أمر شرعي محض، وهي طاعة لله تعالى أولاً، وعليها أن تعلم أن طاعتها لزوجها، من طاعة الله تعالى.

وهناك من الزوجات من يقدمن طاعة الأم على طاعة الزوج، فتفسد الحياة الزوجية بسبب ذلك، ولقد حذر الشرع الحذيف المرأة التي تؤذي زوجها بعصيانه وعدم طاعته، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثَةٌ لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ آذَانَهُمْ: الْعَبْدُ الْأَبْقَى حَتَّى يَرْجِعَ، وَامْرَأَةٌ بَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَلَيْهَا سَاخِطٌ، وَإِمَامٌ قَوْمٌ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ).

والمرأة التي تؤذي زوجها، ولا تطيع له أوامره، دعت عليها الحور العين، فروى أحمد والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تُؤْذِي امْرَأَةً زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا، إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ: لَا تُؤْذِيهِ، قَاتَلَكِ اللَّهُ، فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ، يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكَ إِلَيْنَا).

الحق الثاني: عدم خروجها من بيته إلا بإذنه:

وهذا الحق واجب على الزوجة لزوجها، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الحق، فقال تعالى: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [الأحزاب: 33].

ففي الآية دلالة على أن النساء مأمورات بلزوم البيت، منهيات عن الخروج.

يقول القرطبي في تفسير هذه الآية: معنى هذه الآية: الأمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنساء النبي صلى الله عليه وسلم، فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى.

وقال الشافعية والحنابلة: ليس لها الخروج لعيادة أبيها المريض، إلا بإذن الزوج، وله منعها من ذلك؛ لأن طاعة الزوج واجبة، فلا يجوز ترك الواجب بما ليس بواجب، فروى الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً خرج، وأمر امرأته ألا تخرج من بيتها، وكان أبوها في أسفل الدار، وكانت في أعلاها، فمرض أبوها، فأرسلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذكرت له ذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: (أطيعي زوجك-)، فمات أبوها، فأرسلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (أطيعي زوجك-)، فأرسل إليها النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله غفر لأبيها؛ بطاعتها لزوجها-).

والإسلام حينما جعل بيت المرأة قراراً لها، وحذرها من الخروج منه، فإنه أباح لها الخروج عند الحاجة أو الضرورة، ومن ذلك الخروج لحضور صلاة الجماعة في المسجد، وكذا الخروج إلى مصلى العيد أو الجهاد أو ما إليه ضرورة.

كما أن الإسلام خاطب الرجل وقال له: نعم أنت لك الحق في منعها، ولكن استخدم هذا الحق بأسلوب سليم، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا اسْتَأْذَنْتِ امْرَأَةً أَحَدَكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَلَا يَمْنَعُهَا-). فيفهم من الحديث: أنها إذا أرادت الخروج لابد أن تستأذن، كما يفهم منه: أن للزوج منع زوجته من الخروج، إلا ما استثنى شرعاً.

ومن هنا يمكن القول: إن خروج الزوجة من بيت زوجها بغير إذنه، هو عصيان لله تعالى، قبل أن يكون عصياناً للزوج، فروى الديلمي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أيها امرأة خرجت من بيت زوجها بغير إذنه، لعنها كل شيء طلعت عليه الشمس والقمر، إلا أن يرضى عنها زوجها-).

الحق الثالث: ألا تأذن لأحد بدخول بيته إلا بإذنه:
إن من حق الزوج على زوجته ألا تُدْخِلَ بيته أحداً بغير إذنه، ولقد

أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذا الواجب، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تَأْذُنُ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ).

وقد تكون هذه النقطة هي السبب الرئيسي للعديد من المشكلات الأسرية، فقد يكون الزوج يغار من شخص معين على زوجته، أو يعلم سوء خلق شخص معين، ولا يَأْتَمَنُهُ على دخول بيته، أو على خلاف مع شخص معين، ثم يفاجأ بأن هذا الشخص دخل بيته، ويجعل الزوجة محل اتهام وشك، فالزوج هو قائد هذا البيت، وله الحق في تحديد من يدخل هذا البيت ومن لا يدخله.

فعلى الزوجة أن تلتزم بهذا الحق، ولا تدخل أحدًا بيت الزوجية إلا إذا أذن لها الزوج، ويكون في مأمن من الخلوة.

الحق الرابع: أن تصون نفسها عن غيره:

على المرأة أن تصون نفسها عن غير زوجها، فتحافظ على فراش زوجها، ولا تتساهل في خلوة أي أجنبي بها، ولا سيما أقارب الزوج، وأقاربها الذين ليسوا بمحارم، وحقيقةً هذه النقطة من النقاط المهمة، والتي يجب أن تنتبه إليها المرأة، الزوج غير موجود بالمنزل، والمرأة وحدها بالمنزل، أو معها أطفال غير مميزين، يأتي قريب لها، أو قريب لزوجها، أو حتى أخو زوجها، فيدخل ويجلس ينتظر الزوج، موقف ربما يحدث كثيراً، ونحن نعتبره موقف عادي، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم حذر من الخلوة بالمرأة بصفة عامة، وحذر من الأقارب غير المحارم بصفة خاصة، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِيَّاكُمْ وَالِدُخُولَ عَلَى النِّسَاءِ - فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَفَرَأَيْتَ الْحَمُو؟ قَالَ صلى الله عليه وسلم: (الْحَمُو الْمَوْتُ).

والحمو هو قريب الزوج أخوه، أو ابن عمه.

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يَحِلُّونَ رَجُلٌ بِمَرْأَةٍ، إِلَّا مَعَ ذِي مُحَرَّمٍ).

ولتحذر المرأة من خيانة زوجها، فهي مؤتمنة على كل أموره،

ولتتذكر أن الله تعالى امتدح الحافظات فقال تعالى: {فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ} [النساء: 34].

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: ((اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَحَدْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوْنَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ، فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ - إِيَّاهُ الْإِسْلَامَ:

ومن الحقوق الواجبة على الزوجة لزوجها: تمكين الزوج من الاستمتاع بها: فمن حق الزوج على زوجته تمكينه من الاستمتاع، إذا استوفى عقد النكاح شروطه ووقع صحيحاً، فإذا تزوج امرأة وكانت أهلاً للجماع، وجب تسليم نفسها إليه بالعقد إذا طلب، روى الترمذي وصح الحديث الشيخ الألباني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا الرَّجُلُ دَعَا زَوْجَتَهُ لِحَاجَّتِهِ، فَلْتَأْتِيهِ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنَوُّرِ -

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِذَا الرَّجُلُ دَعَا زَوْجَتَهُ لِحَاجَّتِهِ - أَيُّ: الْمُخْتَصَّةِ بِهِ، كِنَايَةً عَنِ الْجَمَاعِ.

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَلْتَأْتِيهِ - أَيُّ: لِتُجِبَ دَعْوَتُهُ.

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنَوُّرِ - أَيُّ: وَإِنْ كَانَتْ تَخْبِزُ عَلَى التَّنَوُّرِ، مَعَ أَنَّ شِدْعُ شَاغِلٍ، لَا يُتَفَرَّغُ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ إِلَّا بَعْدَ انْقِضَائِهِ، فَقَدْ رَضِيَ بِإِتْلَافِ مَالِ نَفْسِهِ، وَتَلَفِ الْمَالِ أَسْهَلُ مِنْ وَقُوعِ الزَّوْجِ فِي الزَّنا.

فالواجب على المرأة ألا تتعلل بانشغالها في واجباتها المنزلية؛ لتقصر في حق زوجها.

وإذا امتنعت الزوجة من إجابة زوجها في الجماع، وقعت في المحذور، وارتكبت كبيرة، إلا أن تكون معذورة بعذر شرعي: كالحيض، وصوم الفرض، والمرض وما شابه ذلك، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ، فَلَمْ تَأْتِهِ، فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا، لَعَنَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ -

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول صلى الله

عليه وسلم قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ: مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهَا، فَتَأْتِيهِ عَلَيْهِ، إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا، حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا).

فعصيان الزوج في هذه الحالة من أكبر المعاصي، والواجب على الزوجة أن تفهم هذا الأمر تماماً، حتى لا تعرض نفسها لغضب الله تعالى.

الحق السادس: ألا تصوم صيام تطوع وزوجها موجود إلا بعد أن تستأذنه:

و هذا حق واجب أيضاً، أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ).

والعلة في ذلك: أن صيام التطوع بغير إذنه، قد يضيع عليه كمال الاستمتاع، حتى لو كان ذلك تطوعاً بعبادة، والحديث دليل على أن حق الزوج أكد على المرأة من التطوع بالخير، فحقه واجب، والواجب مقدم على التطوع.

الحق السابع: أن تحفظ ماله ولا تفرط فيه:

فلا يجوز للزوجة أن تضيع مال زوجها الذي تعب في تحصيله وتحمل المشاق في جلبه وكسبه، سواءً كان ذلك ذقوداً، أو طعاماً، أو ملابس، أو أثاثاً، أو غير ذلك، فليس لها أن تبذر إذا أنفقت منه؛ لأنه قد انتمنها على ذلك، وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ).

وكذلك لا يجوز للمرأة أن تتصدق من مال زوجها إلا بإذنه، فروى الترمذي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لَا تُنْفِقُ امْرَأَةٌ شَيْئاً مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا، إِلَّا بِإِذْنِ زَوْجِهَا، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَلَا الطَّعَامُ؟ قَالَ: (ذَلِكَ أَفْضَلُ أَمْوَالِنَا).

وعليه فقد أجمع العلماء على أن المرأة لا يجوز لها أن تخرج شيئاً من بيت زوجها، إلا بإذنه، فإن فعلت فهي مأزورة غير مأجورة، غير أن المتصدق به إذا كان يسيراً من عادة الزوج أن يسمح بمثله، فللزوجة

التصدق به، ولو لم يأذن الزوج.

وإذا بذرت الزوجة في مال زوجها، فإن هذا خيانة، والخيانة من صفات المنافقين، وليس لها الحق في أن تتصرف بشيء من ماله دون إذنه ورضاه.

أما إذا كان الزوج حريصاً على المال حرصاً شديداً، بحيث لا يوفر لها حتى النفقة على نفسها وأولادها، فيجوز لها حينئذ أن تأخذ ما يكفيها ويكفي أولادها بقدر الحاجة، فروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: **أَنَّ هَذَذَ بَذَتْ عُنْبَةً قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا سُدْفَيَانَ رَجُلٌ شَدِيحٌ، وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي، إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكَ بِالْمَعْرُوفِ).**

الحق الثامن: التأديب:

للزوج تأديب زوجته عند عصيانها أمره بالمعروف لا بالمعصية؛

لأن

الله تعالى يقول: **{وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً}** [النساء: ٣٤].

وقد ذكر الحنفية أربعة مواضع يجوز فيها للزوج تأديب زوجته بالضرب، منها: ترك الزينة، إذا أراد الزينة، ومنها: ترك الإجابة إذا دعاها إلى الفراش وهي طاهرة، ومنها: ترك الصلاة، ومنها: الخروج من البيت بغير إذنه.

وإذا أجاز الشرع للزوج أن يضرب زوجته، فإن الشرع وضع ضوابط لهذا الضرب، فينبغي أن يكون الضرب لا يسيل دماً، ولا يكسر عظم،

كأن يضربها بالسواك مثلاً، المهم أن تشعر بخطئها، روى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: **(عَلَامٌ يَجْلِدُ أَحَدَكُمْ أَمْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ، وَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ).**

ولا يكون الضرب في الوجه، روى أبو داود أن الرسول صلى الله

عليه وسلم قال: (وَلَا تَضْرِبِ الْوُجْهَ، وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ-).
بعض الرجال يلجأ للضرب أولاً، وهذا خطأ، والبعض يضرب ضرباً شديداً يترك أثراً، وهذا خطأ.

الحق التاسع: الاعتراف بفضل الزوج عليها وعدم إنكار معروفه:
فالواجب على الزوجة أن لا تنكر ما قدمه لها، وأسداه إليها من معروف، فإن كثيراً من النساء تجحد فضل زوجها عليها، وخاصة عندما تغضب، وذلك من أسباب دخولها النار، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ-، قِيلَ: أَيْكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ-).

الحق العاشر: أن تتزين لزوجها:
فالواجب على الزوجة أن تتزين لزوجها، وأن تبدو له في كل يوم كأنها عروس في ليلة زفافها، وقد عُرِفَتْ أنواع من الزينة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، كالكل، والحناء، والعطر، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (عَلَيْكُمْ بِالْإِثْمِدِ؛ فَإِنَّهُ يَجْلُو الْبَصَرَ-، وَيُنْبِتُ الشَّعْرَ-).

وكانت النساء تتزين بالحلي، وترتدي الثياب المصبوغة بالعصفر (وهو لون أحمر).

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه رضوان الله عليهم ألا يدخل أحدهم على زوجته فجأة عند عودته من السفر؛ حتى تنهض وتزين له، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى أن يَطْرُقَ الرجل أهله ليلاً.

ولا ينبغي للزوجة أن تظهر أمامه بمظهر ينفر منه، كأن تلبس ملابس سيئة المنظر، أو تقترب منه وبها روائح غير مناسبة من آثار الطبخ وغيره، فإن ذلك من شأنه أن يكره الزوج فيها، ويُفَرِّه منها، وقد يعقبه بغض شديد لها، لاسيما إذا داومت على ذلك المظهر السيئ.

وكثير من النساء لا تعتني بمظهرها أمام زوجها، لا في ملابسها ولا في نظافتها، وتعكس ذلك إذا خرجت في زيارة خارج المنزل، فتراها تعتني بنفسها وتلبس أجمل ثيابها وتتعطر، وهذا الفعل يعتبر من أسوأ الأفعال وأشنع الصفات التي تصدر من الزوجة مع زوجها، روى الحاكم أن

الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَيُّ امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ، ثُمَّ مَرَّتْ عَلَى الْقَوْمِ لِيَجِدُوا رِيحَهَا، فَهِيَ زَانِيَةٌ-).

الحق الحادي عشر: أن تواسيه:

فعلى الزوجة أن تواسي زوجها عند الحاجة، وتعمل على فعل ما يُدْخِلُ عليه البهجة والسرور، وتزيل عنه الهمَّ والغمَّ والتعب، وتهده في حال الغضب بالأساليب المناسبة، والرجل في حاجة إلى مواساة امرأته وتسكينها إياه في حالات الغضب، أو نزول حوادث محزنة، كموت ولد، أو فقد مال، أو ما أشبه ذلك، ولقد ضربت أم سليم زوج أبي طلحة رضوان الله عليهم أفضل مثال في هذا، فروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: اشْتَكَى ابْنُ لَأْبِي طَلْحَةَ، قَالَ: فَمَاتَ وَأَبُو طَلْحَةَ خَارِجٌ، فَلَمَّا رَأَتْ امْرَأَتَهُ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ، هَيَّأَتْ شَيْئًا وَنَحْنَتْهُ فِي جَانِبِ الْبَيْتِ، فَلَمَّا جَاءَ أَبُو طَلْحَةَ، قَالَ: كَيْفَ الْغُلَامُ؟ قَالَتْ: قَدْ هَدَأَتْ نَفْسُهُ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ اسْتَرَاخَ، وَظَنَّ أَبُو طَلْحَةَ أَنَّهَا صَادِقَةٌ، قَالَ: فَبَاتَ فَلَمَّا أَصْبَحَ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَعْلَمَتْهُ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ، فَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ أَخْبَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا كَانَ مِنْهُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَعَلَّ اللهُ أَنْ يُبَارِكَ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا-).

قَالَ سُفْيَانُ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَرَأَيْتُ لَهُمَا تِسْعَةَ أَوْلَادٍ، كُلُّهُمْ قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ.

الحق الثاني عشر: أن تقوم بالخدمة في بيته:

لا خلاف بين الفقهاء في أنَّ الزَّوْجَةَ يجوز لها أن تخدم زوجها في البيت، سواء أكانت ممَّن تخدم نفسها أو ممَّن لا تخدم نفسها، إلا أنَّهم اختلفوا في وجوب هذه الخدمة.

فذهب الجمهور: الشافعية والحنابلة وبعض المالكية إلى أنّ خدمة الزوج لا تجب عليها، لكن الأولى لها فعل ما جرت العادة به.

وذهب الحنفية إلى وجوب خدمة المرأة لزوجها، فقد ورد في مصنف ابن أبي شيبة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قسم الأعمال بين علي وفاطمة رضوان الله عليهما، فجعل عمل الداخل على فاطمة، وعمل الخارج على علي.

وعليه فقد ذهب جمهور المالكية إلى أنّ على المرأة خدمة زوجها في الأعمال الباطنة، التي جرت العادة بقيام الزوجة بمثلها، ولأنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يأمر نساءه بخدمته، فروى أبو داود وغيره أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقول: (يا عائشة أطعينا، يا عائشة هلمّي المدية واشحذيا بحجر).

أما عن والدي الزوج: فالزوجة ليست ملزمة شرعاً بخدمة والدي زوجها، ولكنه بر وإحسان، يحسن ألا تتركه، وفيه من الألفة ونشر المودة بين الأسرة ما لا يخفى.

وعلى المرأة أن تصبر على ما قد تعاذيه من تعب ومشقة، ولتجعل من فاطمة بنت رسول الله نموذجاً يحتذى به، فروى البخاري ومسلم عن علي أنّ فاطمة أتت النبي صلى الله عليه وسلم تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرّحى، وبلغها أنّه جاءه رقيق فلم تصادفه، فذكرت ذلك لعائشة، فلمّا جاء أخبرته عائشة، قال: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم، فقال: على مكانكما، فجاء فقعد بيني وبينها، حتّى وجدت برد قدميه على بطني، فقال: (ألا أدلكما على خير مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما أو أويتما إلى فراشكما، فسبحا ثلاثاً وثلاثين، وأحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبراً أربعاً وثلاثين، فهو خير لكم من خادم).

فخدمة الزوجة في بيت زوجها أمر لا ريب فيه، ولا يصح التفريق بين شريفة ودنيئة، وفقيرة وغنية، فهذه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، أشرف نساء العالمين، كانت تخدم زوجها، وجاءت الرسول صلى الله عليه وسلم تشكو إليه الخدمة، فلم يقبل شكايته.

الحق الثالث عشر: ألا تسأل الزوجة الطلاق بدون سبب شرعي:

فالواجب على الزوجة ألا تطلب طلاقها من زوجها بلا سبب شرعي، فبعض النساء تسارع بطلب الطلاق من زوجها، ربما على سبيل التهديد، وربما على سبيل الدلال، وهذا أمر من أخطر الأمور، وربما يصل الحد بالرجل إلى عدم التحمل، فيتم الطلاق ويخرب البيت، ولقد حذر الرسول صلى الله عليه وسلم الزوجة أن تطلب طلاقها من غير سبب شرعي، فروى أبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَيُّ امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقًا فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ، فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ).

* * *

أمانة الزوجة

أمانة الزوجة

أسباب نعيم القبر

أمانة الزوجة

الحمد لله رب العالمين: المتوحد بإبداع المصنوعات، المتفرد باختراع المخلوقات، المخصوص بقدَم الأسماء والصفات، المنزه عن التحيز والسكون والحركات، القريب ممن دعاه لا بقرب المسافات، المجيب لمن ناجاه بإخلاص الدعوات.

سبحانه: بين مدى ارتباط كل من الزوجين بالآخر، وما ينبغي أن تكون العلاقة بينهما، فجعل الزوج لباساً لزوجته، كما جعل الزوجة لباساً لزوجها، فقال تعالى: {أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ} [البقرة: ١٨٧].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: جعل الدين أساس الاختيار في الزواج، فقال تعالى: {وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [النور: ٣٢].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: جعل أفضل متاع في الدنيا المرأة الصالحة، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع سبب من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: أمانة الزوجة، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا.

الحقيقة الأولى: إن من أكبر النعم التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان هي: نعمة الزواج، فالزواج آية من آيات الله تعالى توجب التفكير والشكر.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم: 21].

وقال تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} [النحل: ٧٢].

فالرجل منا لا يستطيع أن يعيش في هذه الدنيا بدون زوجة، وكذلك المرأة لا تستطيع أن تعيش في الدنيا بدون زوج، وهذه حقيقة لا ينكرها إلا شاذ، والعياذ بالله.

ولقد جعل الله تعالى الزواج من سنن الأنبياء والمرسلين، فقال: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [الرعد: ٣٨].

وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا، كَانَتْهُمْ تَقَالُوهَا، فَقَالُوا: وَآيَنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَصْدَلِي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا.

فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: (أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَخْشَاكُمْ لَهْ وَاتَّقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأَصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي).

وهذا سيدنا آدم عليه السلام عندما خلقه الله تعالى وتركه في الجنة وحيداً، استوحش الجنة؛ لأنه يعيش بدون زوجة، فخلق الله تعالى له حواء من ضلعه الأيسر، وهو نائم.

جاء في تفسير القرطبي: عن عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس

رضوان الله عليهم أنهما قالوا: لما أسكن الله تعالى آدم الجنة، مشي فيها مستوحشاً، فلما نام، خلقت حواء من ضلعه من شقه الأيسر؛ ليسكن إليها، ويأنس بها، فلما انتبه رآها، فقال: من أنت؟ قالت: امرأة، خلقت من ضلعك؛ لتسكن إليّ، وأسكن إليك، وهذا معنى قول الله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [الأعراف: 189].

وهذه النعمة لم تكن مقصورة على الإنسان فحسب، بل هي موجودة في كل المخلوقات، فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} [يسن: ٣٦].

وقال تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذاريات: ٤٩]. ومن ثم يمكن القول: إنه لا يوجد في الإسلام ما يسمى بالرهبانية، فالدين الإسلامي ليس فيه انعزال عن الدنيا، وليس فيه انصراف عن المرأة.

الحقيقة الثانية: إن الشرع الحنيف جعل الزوجة أمانةً ملاقة على عاتق الرجل، وإن الرجل سيسأل يوم القيامة عن هذه الأمانة، هل فرط فيها، أم أداها على الوجه الأكمل؟.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦].

وروى مسلم وأبو داود والبيهقي وغيرهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ ...).

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَّةٌ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ).

قال: فَسَدِمْتُ هَؤُلَاءِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَحْسِبُ

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ).

وروى الترمذي وابن حبان أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله سائل كل ذي رعية فيما استرعاه، أقام أمر الله تعالى فيهم، أم أضاعه، حتى إن الرجل ليسأل عن أهل بيته).

فالواجب على كل مسلم رزقه الله تعالى بالزوجة، أن يصونها، ويحافظ عليها، ويؤدي الحقوق الواجبة عليه لها، امتثالاً لأوامر الشرع الحنيف، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (اسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، إِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْرًا).

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ أَحَقَّ الشَّرْطِ أَنْ يُوفَى بِهِ، مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ).

الحقيقة الثالثة: إن الله تعالى جعل الرجل هو الأصل في الحياة الزوجية، والمرأة هي الفرع، وجعل حق الزوج على زوجته أوكد من حق الزوجة على زوجها.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: ٢٢٨].

ومن أجل هذا جعل الله تعالى القوامه للرجل على زوجته، فقال تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَحَافُونَ نَشُورَهُنَّ فِعْظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا} [النساء: ٣٤].

هذه القوامه يجب أن نفهم فهماً صحيحاً، فهي لا تعني الاستعلاء، ولا الإرهاب، وإنما تعني المسؤولية، مسؤولية الراعي نحو رعيته، لما رواه البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (..... وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ -).

وإذا كان الشرع الحنيف جعل المرأة عند الرجل كالأسيرة، إلا أنه لا يجوز للزوج أن يستغل هذا، وإنما ينبغي أن يكون ممتثلاً لأوامر الشرع الحنيف، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ).

عوان تعنى: أسدرى، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر بالإحسان في معاملة الأسير وهو عدو، وقال تعالى: {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [الإنسان: ٨].

فكيف إذا كان الأسير حبيباً؟ فكيف إذا كان الأسير أمّاً لأولادك؟ فكيف إذا كان الأسير يعفك عن الحرام؟ فكيف إذا كان الأسير لباساً لك، وأنت لباس له، فمما لا شك فيه أنه تكون الأولى بالإحسان، فروى الترمذي والبيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي).

ولأجل هذا قال العلماء: إن المرأة هي الطرف الأضعف في الحياة الزوجية.

إخوة الإسلام:

لقد وضع الشرع الحنيف حقوقاً متعددة للمحافظة على أمانة الزوجة، فتعالوا معي لتتعرف على هذه الحقوق، التي لو التزم بها الشخص، يكون أميناً على زوجته.

الحق الأول: المهر:

والمهر هو: المال الذي تستحقه الزوجة على زوجها بالعقد عليها والدخول بها، أو بالموت، أو بالخلوة الحقيقية، ولقد جعله الشرع الحنيف حقاً واجباً على الزوج لزوجته، فقال تعالى: {وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً} [النساء: ٤].

ويجب أن يعلم الجميع أن المهر حق الزوجة، وليس حق أبيها، وليس لأقرب الناس إليها أن يأخذ منه شيئاً، إلا في حالة الرضا والاختيار، فقال تعالى: {فَإِنْ طِئِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا} [النساء: ٤].

هذا المهر يُطَيَّب نفس المرأة، ويُرضيها بقوامه الرجل عليها.

ولم يجعل الإسلام حداً لأقل المهر، ولا حداً لأكثره، بل وكل ذلك للعرف الشائع بين الناس، إذ يختلف الناس في الغنى والفقر، ولكل جهة عاداتها وتقاليدها.

وإن تم الطلاق قبل الدخول فلها نصف المهر، كما حكم بذلك أحكم الحاكمين، فقال تعالى: {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة: ٢٣٧].

ولقد حذر الشرع الحنيف من عاقبة هضم حق المرأة في المهر، فقال تعالى: {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة: ٢٣٧].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضِلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء: ١٩].

وعلى الرغم من تحذير الشرع الحنيف من هضم حق المرأة في هذا الواجب، إلا أننا نرى للأسف الشديد كثيراً ممن سول لهم الشيطان التفريط في الحقوق الواجبة عليه تجاه زوجته، فيرفض أن يعطي المرأة حقها في هذا الواجب، أو يعطي وليها هذا الحق لو ماتت الزوجة، وهذا واضح كل الوضوح في الواقع الذي نعيش فيه.

فعندما يتم الدخول الحقيقي بين الزوج وزوجته، وبعد مرور فترة، أياً كانت مدتها، قد لا يكتب الله تعالى النجاح للحياة الزوجية، ويتم الطلاق بين الطرفين، فيقوم الزوج بعدم الوفاء بهذا الحق الواجب عليه لزوجته، ويقوم بحيل زينها له الشيطان، فيقوم بتبديل أعيان جهاز الزوجية بما هو أردأ، والذي هو بمثابة مهر الزوجة، أو يقوم بحيلة أخرى وهي النقصان منه، أو يرفض أن يسلم أعيان الجهاز كلية، بحجة أنه ليس له ذنب في

الطلاق، أو هي التي ترفض العيش معه، و هي التي طلبت الطلاق، وبالتالي لا تستحق المهر، ويقول كما يقول الناس: أنا أكلت إيه علشان أشرب عليه ماء!!.

فهذا كله مخالف لشرع الله تعالى، وخيانة لهذه الأمانة الملقاة على عاتق الرجال، ويتحقق فيه ما قاله المولى تعالى: {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: ٢٢٩].

وروى الطبراني في الأوسط أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أيما رجل تزوج امرأة بما قلّ من المهر أو كثر، ليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها، خدعها، فمات ولم يؤد إليها حقها، لقي الله يوم القيامة وهو زان).

الحق الثاني: النفقة:

والمقصود بالنفقة: توفير كل ما تحتاج إليه الزوجة من طعام ومسكن وكسوة، حتى وإن كانت غنية، ولقد أشار المولى تعالى إلى وجوب نفقة الزوجة على زوجها، فقال تعالى: {أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٌ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَمْرُهُمَا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتَرْضَعُ لَهُ أُخْرَى لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} [الطلاق: ٦ - ٧].

ولقد أوجب الشرع النفقة على الزوج للزوجة بثلاثة أشياء: العقد، والحبس، والتمكين، فإذا اختل شيء من هذه الأشياء، فلا تجب النفقة.

وعلى الرغم من وجوب النفقة على الزوج لزوجته إلا أنه يؤجر على هذا الواجب، روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (دينارٌ أنفقته في سبيل الله، ودينارٌ أنفقته في رقة، ودينارٌ تصدقت به على مسكين، ودينارٌ أنفقته على أهلِكَ، أعظمها أجراً: الذي أنفقته على أهلِكَ).

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أنفق المسلم نفقة على أهله، وهو يحسبها، كانت له صدقة).

فففتك على أهل بيتك، من أولاد وزوجة، إن صحت النية، فهي صدقة لك عند الله تعالى.

أما لو امتنع الزوج على الإنفاق على زوجته، فيكون خائناً للأمانة الملقاة على عاتقه، وأجاز الشرع للزوجة في هذه الحالة أن تأخذ من مال زوجها دون علمه، ولكن بشرط على قدر الضرورة، فروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: أَنَّ هِنْدَ بِنْتَ عُتْبَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي، إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكَ بِالْمَعْرُوفِ).

الحق الثالث: العون على طاعة الله تعالى :

فالواجب على الزوج أن يعين زوجته على طاعة الله تعالى، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذا الحق، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحریم: ٦].

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (...وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٌ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ... -

ولقد أمر المولى تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم بالقيام بهذا الواجب مع زوجاته، فقال تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [طه: ١٣٢].

ولقد أثنى الرسول صلى الله عليه وسلم على من قام بهذا الواجب مع زوجته، فروى أبو داود والنسائي وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّى وَانْقَضَ أَمْرُهُ، فَإِنْ أَبَتْ، نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ ... -

ولقد مدح الله تعالى سيدنا إسماعيل عليه السلام عندما قام بهذا الواجب مع أهل بيته، فقال تعالى: {وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا}

[مريم: ٥٤ - ٥٥].

أما إذا لم يقم الزوج بهذا الواجب فيكون خادناً للأمانة، وستتعلق الزوجة برقبته يوم القيامة، وتتهمه بالتقصير في حقها، فقال تعالى: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لَكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: ٣٤ - ٣٧].

ويجب أن يعلم الجميع أن سر الضنك الذي تحياه الآن كثير من البيوت المسلمة، هو البعد عن طاعة الله تعالى، فقال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} [طه: ١٢٤ - ١٢٧].

فكثير من بيوتنا لا تسمع فيها القرآن، كثير من بيوتنا لا تسمع فيها إلا مزمар الشيطان (الغناء)، وكثير من بيوتنا تعكف الأوقات الطويلة على مشاهدة الأفلام والمسلسلات في القنوات التي تعمل طول النهار والليل، والهدف من هذا كله: هدم كيان الأسرة بالكامل.

تجد الرجل يقيم الدنيا ولا يقعدها إن تأخرت زوجته في إعداد الطعام، ولا يفكر أن يسأل زوجته: هل صلت فرض الله تعالى أم لا؟ ترى كثيراً من الأزواج لا يفكر البتة أن يأمر زوجته بالحجاب الشرعي، وإنما تراه فخوراً سعيداً إذا خرجت معه امرأته بثياب متبرجة عارية.

وكل هذا يعتبر من خيانة حقوق الزوجة، ويعرض الزوج للعذاب يوم القيامة، فروى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ثَلَاثَةٌ قَدْ حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى الْجَنَّةَ عَلَيْهِمْ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَالْعَاقُ، وَالِدَّيُّوثُ الَّذِي يُقْرِئُ أَهْلَهُ الْخَبَثَ).

الحق الرابع: حسن الخلق:

ولا أعني بذلك أن الرجل لا يشتم زوجته ولا يحقرها، فهذا أمر مفروغ منه أصلاً، ولا يصح بحال من الأحوال، إذ إنك مطالب به مع

الغريب، فالمؤمن يجب أن يكون لسانه نظيفاً، لا يتكلم بالكلمات القبيحة، ولا يسب ولا يُقَبِّح، روى البيهقي وأبو يعلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِاللَّعَّانِ، وَلَا الطَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ).

وإذا كنت حريصاً على أن تحترم الناس، وأن يحترمك الناس، فكيف بامرأة تشاركك الفراش؟! فكيف لا يكون هناك مثل هذا الأدب والاحترام المتبادل بينكما!.

فالواجب على الزوج لزوجته أن يكون حسن الخلق مع زوجته، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذا الواجب، فقال: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء: ١٩].

وقال تعالى: {الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} [البقرة: ٢٢٩].

وروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيْمَانًا، أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرَكُمْ خَيْرَكُمْ لِنِسَائِهِمْ).

والمراد بحسن الخلق هنا: هو تحمل الأذى من الزوجة.

وحسن الخلق من الإمساك بالمعروف، فالواجب على الزوج أن يكون رفيقاً رفيقاً مع زوجته، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (اسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، إِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْرًا).

وفي هذا إشارة إلى أن في خلق المرأة عوجاً طبيعياً، وأن محاولة إصلاحه غير ممكنة، وإنه كالضلع المتقوس الذي لا يقبل التقويم، ومع ذلك فلا بد من مصاحبتها على ما هي عليه، وذلك لا يمنع من تأديبها وإرشادها إلى الصواب، إذا اعوجت في أمر من الأمور.

ومن حسن الخلق: إلقاء السلام كلما دخلت عليها، قال تعالى: {فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [النور: ٦١].

وروى أحمد والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (يَا بُنَيَّ:

إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ، فَسَلِّمْ، يَكُنْ بَرَكََةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ-

وهناك نماذج من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن حياة سلفنا الصالح نتعلم منها حسن الخلق مع الزوجة.

النموذج الأول: نزول الرسول صلى الله عليه وسلم على مشورة نسائه، وهذا ما حدث في صلح الحديبية مع زوجته السيدة أم سلمة، فروى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فقللت: ألسنت نبي الله حقاً؟ قال صلى الله عليه وسلم: (بلى-)، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

قال صلى الله عليه وسلم: (بلى-)، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال صلى الله عليه وسلم: (إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري-)، قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال صلى الله عليه وسلم: (بلى)، فأخبرتكم أنا نأتيه العام؟ قال: قلت: لا، قال صلى الله عليه وسلم: (فإنك آتيه ومطوف به-).

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً، قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل إنه لرسول

الله صلى الله عليه وسلم وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق؟ قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، فأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به.

قال الزهري: قال عمر رضي الله عنه: فعملت لذلك أعمالاً، قال: فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (قوموا فأنحروا، ثم احلقوا-).

قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يبق منهم أحد، دخل على أم سلمة رضي الله عنها فذكر لها ما لقي من الناس،

فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله: أتحب ذلك، اخرج لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم، حتى فعل ذلك نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل غماً.

النموذج الثاني: كانت أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم تراجعنه الكلام، وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل، وهو يصبر عليهن، فروى مسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: تَغَضَّبْتُ يَوْمًا عَلَى أَمْرٍ آتِي، فَإِذَا هِيَ تُرَاجِعُنِي، فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي، فَقَالَتْ: مَا تُنْكِرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ، فَوَ اللَّهِ إِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيُرَاجِعُنَّهُ، وَتَهْجُرُهُ إِحْدَاهُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ، فَأَنْطَلَقْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَقُلْتُ أَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَقُلْتُ: أَتَهْجُرُهُ إِحْدَاكُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قُلْتُ: قَدْ خَابَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْكُمْ وَخَسِرَ، أَقْتَأَمُنَّ إِحْدَاكُنَّ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا، لِيُغْضِبَ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هِيَ قَدْ هَلَكَتْ، لَا تُرَاجِعِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا تَسْأَلِيهِ شَيْئًا، وَسَأَلَنِي مَا بَدَأَ لَكَ.

النموذج الثالث: وقع خلاف بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين السيدة عائشة رضي الله عنها، واستدعى النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه ليحكم بينه وبين السيدة عائشة رضي الله عنها.

روى أحمد وابن حبان عن معمر عن الزهري عن يحيى بن سعيد بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم استعذر أبا بكر رضي الله عنه من عائشة رضي الله عنها، ولم يخش النبي صلى الله عليه وسلم أن ينالها أبو بكر رضي الله عنه بالذي نالها، قال: فرفع أبو بكر رضي الله عنه بيده، فاطم في صدر عائشة رضي الله عنها، فوجد من ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، وقال لأبي بكر رضي الله عنه: (ما أنا بِمُسْتَعْذِرِكَ منها بعد هذا أبداً).

وفي رواية عبد الرزاق: أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا أبا بكر رضي الله عنه، فاستعذره من عائشة رضي الله عنها، فبيضا هما عنده،

قالت: إنك لتقول: إنك نبي!، فقام إليها أبو بكر رضي الله عنه، فضرب خدَّها، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (مه يا أبا بكر، ما لهذا دعوناك).

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها: (إني لأعرف غَضَبَكِ مِنْ رِضَاكِ - قالت: وكيف تعرفه؟ قال صلى الله عليه وسلم: (إذا رضيت، قلت: لا وإله محمد، وإذا غضبت قلت: لا وإله إبراهيم - قالت: صدقت: إنما أهرج اسمك).

النموذج الرابع: تحمل الرسول صلى الله عليه وسلم الأذى من بعض نسائه، فروى البخاري وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، قَالَ: أَظْنُهَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَأَرْسَلْتُ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ خَادِمٍ لَهَا بِقَصْعَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، قَالَ: فَضَرَبْتُ الْأُخْرَى بِيَدِ الْخَادِمِ، فَكَسِرَتْ الْقَصْعَةَ نِصْفَيْنِ، قَالَ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (غَارَتْ أُمُكُمْ)، قَالَ: وَأَخَذَ الْكَسْرَتَيْنِ فَضَمَّ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَى، فَجَعَلَ فِيهَا الطَّعَامَ، ثُمَّ قَالَ: (كُلُوا - فَأَكَلُوا، وَحَبَسَ الرَّسُولُ وَالْقَصْعَةَ حَتَّى فَرَّغُوا، فَدَفَعَ الْقَصْعَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى الرَّسُولِ، وَحَبَسَ الْمَكْسُورَةَ فِي بَيْتِهِ).

إخوة الإسلام:

ومن الحقوق الواجبة على الزوج لزوجته: أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزاح:

فهي التي تطيب قلوب الذساء، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح مع نسائه، وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق، حتى أنه صلى الله عليه وسلم كان يسابق عائشة في العدو فسبقته يوماً وسبقها في بعض الأيام فقال لها: (هذه بتلك).

وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتُرْنِي بِرِدَائِهِ، وَأَذَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَبْشَةِ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ، حَتَّى أَكُونَ أَنَا الَّذِي أَسْأَمُ، فَاقْدُرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ الْحَرِيصَةِ عَلَى اللَّهِ.

فعلى الرغم من كل مسئوليات رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وأعـبـاءُ تأسـيـسِ الدوـلـةِ الإـسـلامـيـةِ وغيـرِ ذلـك، إلـا أن لـديـه وُقـدًا يـقـضـيـه مع عائـشـة رضـى الله عنـها في تسليـتـها.

بل وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك باب من أبواب التفاضل بين المسلمين، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي).

الحق السابع: حفظ السر:

فالواجب على الزوج أن يحافظ على سر زوجته، وأن لا يفشي سرها، وأن لا يذكر عيباً فيها، إذ هو الأمين عليها، والمطالب برعايتها، وإن أعظم المنكرات نشر ما يدور بين الرجل وزوجته، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الرَّجُلُ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا).

ويروى أن رجلاً كان يريد طلاق زوجته، فسأله بعض الناس: لماذا تريد طلاقها؟ فقال الرجل: إن العاقل لا يهتك ستر بيته، فلما طلقها، وتزوجت، قالوا له: لماذا طلقته؟ قال: مالي ولا امرأة غيري.

الحق الثامن: مساعدة الزوجة في أعمال البيت:

فكان من هدي الرسول صلى الله عليه وسلم مساعدة نسائه في أعمال البيت، فروى البخاري أن عائشة رضي الله عنها سئلت: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في أهله؟ قالت: كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة.

الحق التاسع: عدم طرد الزوج زوجته من منزل الزوجية:

فمهما حدث من خصام أو نزاع بين الرجل وزوجته، فلا يحق للزوج أن يطرد الزوجة من بيت الزوجية. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا تَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} [الطلاق: ١].

فَإِذَا كَانَ النِّشْوَزُ مِنَ الْمَرْأَةِ فَقَطُّ، وَلَمْ يَخْطِئِ الرَّجُلُ فِي شَيْءٍ، فَلَهُ أَنْ

يؤدبها وأن يحملها على الطاعة قهراً، ولكن بالتدريج، فيبدأ بالوعظ أولاً، فإن لم يفلح الوعظ ولا لها ظهره في المضجع، والهجر في المضجع له أصول، بعض الناس حينما يهجر زوجته في المضجع يترك الكلام معها فلا يكلمها، وهذا خطأ، فعليه أن يكلمها، فإذا جاء وقت النوم هجرها في المضجع، فإذا استمر ذلك ثلاث ليال دون جدوى، فله أن يلجأ إلى الوسيلة الأخيرة للتأديب وهي الضرب، فقال تعالى: {الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي خِفَافُونَ نُشُوزُهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا} [النساء: ٣٤].

وإذا أجاز الشرع للزوج أن يضرب زوجته، فإن الشرع وضع ضوابط لهذا الضرب، فينبغي أن يكون الضرب لا يسيل دماً، ولا يكسر عظماً، كأن يضربها بالسواك مثلاً، المهم أن تشعر بخطئها، روى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (عَلَامٌ يَجْلِدُ أَحَدُكُمْ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ، وَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ).

ولا يكون الضرب في الوجه، روى أبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (وَلَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ). بعض الرجال يلجأ للضرب أولاً وهذا خطأ، والبعض يضرب ضرباً شديداً، يترك أثراً، وهذا خطأ.

بعض النساء عند وجود خلاف تترك بيت الزوج، وتذهب إلى بيت أبيها، وهذا خطأ، المرأة لا تترك بيت زوجها تحت أي سبب من الأسباب، حتى إذا طلقها الزوج طلاقاً رجعيّاً تقضي عدة الطلاق في بيت زوجها، لعل ذلك يعيد المياه إلى مجاريها، فإذا كانت المطلقة لا تترك بيت الزوج فكيف بغير المطلقة؟ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} [الطلاق: ١].

* * *

أمانة المال

أمانة المال

أسباب نعيم القبر

أمانة المال

الحمد لله رب العالمين: على نعمه التي لا تعد، وعلى إحسانه الذي لا يحد، صاحب الفضل العظيم على كل أحد، فقال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل: 18].

سيحانه: أشهد له بالوحدانية، وأقر له بالربوبية، فلا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه، جلّ في علاه، فقال تعالى: {ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: ٦٢].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: نهانا عن أكل المال عن طريق الباطل، ورتب العقاب الشديد على ذلك، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسُوفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [النساء: ٢٩، ٣٠].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: بين لنا أن المسلم إذا أخذ المال من حله، بارك الله تعالى له فيه، وإذا أخذه من غير حله، لم يبارك الله تعالى له فيه، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِطَيْبِ نَفْسٍ، بُوْرِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ، لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى).

الإشراف: التطلع للشيء، وحديث النفس وتوقعه.

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته أجمعين، الذين كانوا يتركون تسعة أعشار الحلال، مخافة الوقوع في الحرام.

أما بعد: إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع سبب من أسباب الذعيم في القبر، ألا وهو: أمانة المال، فأعبروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن

يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا:

الحقيقة الأولى: إن المال نعمة من الله تعالى، فهو الذي يعطيه لمن يشاء، ويمنعه من يشاء، فالخير كله بيده، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: 26، 27].

وإذا كان الأمر كذلك، فإن المال في الدنيا ليس على درجة واحدة، بل على درجات متفاوتة، وذلك على النحو التالي:

أولاً: جعل الله تعالى المال تارة زينة الحياة الدنيا: فقال تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} [الكهف: ٤٦].

ثانياً: جعل الله تعالى المال نعمة عظيمة: تستحق شكر الواهب المنعم، فقال تعالى: {ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا} [الإسراء: ٦].

ثالثاً: جعل الله تعالى المال شهوة قد حبيت إلى النفوس: فقال تعالى: {رُزِقَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ} [آل عمران: ١٤].

رابعاً: جعل الله تعالى المال فتنه: فقال تعالى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التغابن: ١٥].

وروي الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي: الْمَالُ-).

ولقائل يقول: كيف يكون المال فتنة، وهو في الأصل نعمة من الله تعالى ؟ أقول: إذا لم يلتزم الإنسان بمنهج الله تعالى في المال، فقدم حبّ المال على

حب الله تعالى وحبّ الرسول صلى الله عليه وسلم، وقدم حقّ المال على حق الله تعالى وحق رسوله صلى الله عليه وسلم، فحينئذ يكون المال فتنة من أعظم الفتن على الإنسان في الدنيا والآخرة.

فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المنافقون: ٩].

خامساً: جعل الله تعالى المال نقمةً على ماله: وذلك حينما يأخذه من غير حله، ويصرفه في غير حله، ويظهر هذا جلياً عندما يقف العبد بين يدي الله تعالى يوم القيامة، ويُعطى كتابه بشماله، فيندم على صنيعه في الدنيا، وأنى يُجدي الندم، فقال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهُ} [الحاقة: 25 - ٢٨].

ولا يظن أحد أن الغنى دليل على رضا الله تعالى، ولا يظن أحد أن الفقر دليل على سخط المولى تعالى، فالله تعالى لا يغني أحداً لأنه راض عنه، ولا يُفقر شخصاً لأنه غضبان عليه، فقال تعالى: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ٥٥].

وقال تعالى في شأن قارون: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَآنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: ٧٩ - ٨٣].

وروى أحمد والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ، فَقَدْ أَحَبَّهُ).

الحقيقة الثانية: إن المال الذي في أيدي الإنسان ليس ملكه، وإنما المال مال الله تعالى، وإنما جعل الله تعالى الإنسان مستخلف فيه، أي: نائب عن الله تعالى في تملكه، وفي الاستمتاع به، وفي الإنفاق منه، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ} [الحديد: 7].
فالمال أمانة في أيدي الإنسان، وإن الله تعالى سيسأله يوم القيامة عن هذه الأمانة، هل أداها على الوجه الأكمل، أم فرط فيها؟ فقال تعالى: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [الأعراف: 6].

وروى الترمذي والبخاري والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى، حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيهَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيهَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَا عَمِلَ بِهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيهَا أَنْفَقَهُ).

فالإنسان ليس حر التصرف في المال المستخلف فيه، يفعل فيه ما يشاء، إنما هو مقيد بتوجيهات المالك الأصلي للمال، وهو الله تعالى.
فالواجب على كل مسلم أن يحافظ على هذه الأمانة ويصونها، ولا يفرط فيها، حتى لا يعرض نفسه لغضب المنتقم الجبار.

الحقيقة الثالثة: إن الله تعالى فرض فرائض وأوجب الحفاظ عليها، وحد حدوداً ونهى عن تجاوزها، فقال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} [النساء: ١٣، ١٤].

فالحلال ما أحلَّ الله تعالى في كتابه، والحرام ما حرمَّ الله تعالى في كتابه، وليس لأحدٍ أيّاً كان أن يُحِلَّ شيئاً أو يُحرِّم شيئاً من تلقاء نفسه،

وعلى حسب هواه، بل لم يجعل الله تعالى ذلك لخير خلقه، وأعظمهم منزلةً عنده، محمد صلى الله عليه وسلم، حيث قال له مُعَاتِبًا: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التحریم: 1].

وفي نفس الوقت حذرنا المولى تعالى من التقول في الأمور التي شرعها بغير ما أنزل، فقال تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} *مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [النحل: 116، 117].

فلو اجتمع أهل السماوات والأرض على أن يُحِلُّوا شيئاً حرَّمه الله تعالى لم يُحِلُّ أبداً، ولو اجتمعوا على أن يحرموا شيئاً أحله الله تعالى، لم يحرم أبداً؛ لأنَّ حكم الله تعالى لا يتبدل ولا يتغير.

وقد بيّن الله تعالى أنَّ مطاوعة الذين يُحَلِّلُون ما حرَّم الله تعالى، ويحرّمون ما أحلَّ الله تعالى، تدخل في باب الإشراف بالله تعالى؛ حيث قال في أهل الكتاب: {اتَّخِذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُءُوبَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: 31].

وعندما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية الكريمة على عدي بن حاتم، وكان امرئاً تنصّر في الجاهلية؛ قال له: يا رسول الله، إنهم لم يعبدوهم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أليسوا قد أحلوا لهم ما حرّم الله تعالى، وحرّموا عليهم ما أحلَّ الله تعالى، فأطاعوهم، قال له: بلى، فقال صلى الله عليه وسلم: (ذلك عبادتهم لهم).

وإن أهم مجال نظمه الشرع الحنيف هو: مجال المعاملات المالية، فلا يجوز لأي شخص مهما كان، أن يُحل أو يحرم في المعاملات المالية تلقاء نفسه، فإن ذلك يعرض صاحبه لغضب المنتقم الجبار.

ولقد جاء الإسلام بأحكام كثيرة تنظم المال، ومن أهم هذه الأحكام حكمان أساسيان: حكم يتعلق بجانب الأوامر، وحكم يتعلق بجانب النواهي.

أما الحكم الذي يتعلق بجانب الأوامر هو: الزكاة، فهذا في قمة

الأوامر الإسلامية في المال، فالزكاة ركن من أركان الإسلام، وهي الدعامة الثالثة بعد الشهادتين وبعد إقامة الصلاة، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ).

وأما الحكم الذي يتعلق بجانب النواهي والمحرمات: هو تحريم كسب المال بالباطل، أيًا كان هذا الباطل، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [النساء: ٢٩، ٣٠].

إخوة الإسلام:

إن المال مطلوب لكل إنسان، محبوب لجميع الناس، يقضون به مصالحهم، ويسيروا به أمورهم، ويصرفونه في شؤونهم، فالإنسان مفطور على حب المال، وهذه حقيقة لا ينكرها أحد.

ولكن هل يترك الله تعالى عباده يطلبون المال ويجمعونه من كل سبيل؟ هل يجعل الله تعالى المال كالكلأ المباح لكل الناس؟.

إن الله تعالى لم يترك المال كالكلأ المباح لكل الناس، ولكن وضع ضوابط متعددة لكسب المال، فتعالوا معي لننتعرف على هذه الضوابط، والتي لو التزم بها الإنسان يكون محافظاً على أمانة المال، وإذا لم يلتزم بها، فيكون خائناً لها.

الضابط الأول: طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فالشرع الحنيف ألزم كل مسلم بطاعة الله تعالى وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في كل مجالات الحياة، من عبادة، وشرعية، وأخلاق، وسياسة، فطاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في كل مجالات الحياة أمر محتتم علينا، وليس لنا فيه أي خيار.

وهذه الضابط يرد على من يزعم أن له مطلق الحرية في جمع المال، فيفعل في سبيل جمعه ما يشاء، أو كما يروق له، ولكن الأمر ليس كذلك،

فالمسلم فينا لا يكمل إيمانه ولا يصح، إلا إذا التزم بمنهج الله تعالى ومنهج الرسول صلى الله عليه وسلم في كسب ماله، فقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا} [الأحزاب: 36].

وقال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور: 51].

وروى البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير، أن عبد الله بن الزبير رضوان الله عليهم حدثه: أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير بن العوام رضي الله عنه عند الرسول صلى الله عليه وسلم في شراج الحرة (مسائل الماء، والحررة هي الأرض الملوسة التي بها حجارة سوداء) التي كانوا يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سَرَّحَ الماءَ يَمُرُّ، فأبى عليهم، فاختصموا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير: (اسق يا زبير، ثم أرسل إلى جارك-، فغضب الأنصاري، فقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمك!، قتلون وجه الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال: (يا زبير اسق، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر-، (وجمعه جدر، والمراد به بالجدر أصل الحائط).

فقال الزبير رضي الله عنه: والله إنني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 65].

ولقد جعل الشارع الحذيف الطاعة من مقتضيات الإيمان الكامل، فإيماننا لا يكمل، بل لا يصح إلا إذا حققنا منهج الطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، في كل مجالات الحياة، وعلى وجه التحديد مجال المعاملات المالية، فقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 64، 65].

فالواجب على كل مسلم أن يلتزم بمنهج الله تعالى ومنهج الرسول

صلى الله عليه وسلم في كسب المال، ويحقق في ماله منهج السمع والطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، حتى يكون من الذين قال الله تعالى فيهم: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور: 51].

الضابط الثاني: التقوى.

لقد جعل الشرع الحنيف التقوى من أهم ضوابط كسب المال، فقال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: ٢، ٣].

لقد أصبح كثير من الناس يفهمون التقوى فهماً ضيقاً، ويدسبونها مجرد ركعات تصلى، وأيام تصام، ورسوم ظاهرة تؤدي، وطقوس تنظم وتقام، وكذلك تراهم مع صلاتهم وصيامهم من الحرام يعيشون، وبالربا يتعاملون، وللاسرة والغش والخيانة يفعلون، ولحقوق الناس يغتالون، وبالكذب والنفاق والرياء وخراب الذمم يتعاملون، ومع ذلك يدسبون أنفسهم لمجرد صلاتهم أو صيامهم متقون ناجون.

ألا فليعلم هذا الصنف من الناس أنهم عن طريق النجاة حائدون، وعن سبيل الخير والفلاح ضالون، وفي شهواتهم وأهوائهم متورطون، وصدق الله تعالى إذ يقول: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا} [الكهف: ١٠٣ - ١٠٦].

ليست التقوى كذلك أيها المسلم، بل التقوى عبادة ومعاملة، فالتقي يعبد الله تعالى عبادة صحيحة خالية من الرياء، بعيدة عن البدع والخرافات، لا دجل فيها، ولا شعوذة ولا تضليل، ثم بعد ذلك يعامل الناس معاملة حسنة، ومعاملة مبذية على الذمة والأمانة، وسلامة الذية، وطهارة القلب، فلا يداهن، ولا يغش، ولا يخادع، ولا يمكر الناس.

ولقد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالتقوى في كل الأحوال والظروف والمناسبات، فقال في الحديث الذي رواه ابن ماجه: (اتق الله

حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن-

الضابط الثالث: مراقبة الله تعالى :

فالشرع الحنيف جعل مراقبة الله تعالى أمراً مفروضاً على كل مسلم ومسلمة، فالكل سواء أمام هذا الواجب، وهذه الحقيقة ترد على من يتحايلون على شرع الله تعالى، ويقومون بأعمال مشبوهة شرعاً من أجل كسب المال، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك-).

فالواجب على كل مسلم أن يراقب المولى تعالى في السر والعلانية؛ لأن مراقبة الله تعالى تمنع الإنسان أن يخالف أمره، أو أن يشذ عن الحق، ولقد حثنا القرآن على مراقبة الله تعالى، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1].

وقال تعالى: {يَا بَنِي إِدْرِيسَ إِنَّكَ مُثْقَلٌ حَبِيبٌ مِنْ خَرَدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 16].

ولقد حقق سيدنا يوسف عليه السلام مراقبة الله تعالى على أكمل وجه، فكانت سبباً في نجاته من الوقوع في المعصية، اقرأ معي قول الله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: 22 - 24].

ولقد طبق سلفنا الصالح مراقبة الله تعالى كما أمر الشرع الحنيف، فكانت لهم حرزاً من الوقوع في المعصية، فعاشوا في الدنيا سعداء، وماتوا كراماء، وأورثهم ربهم جنة عرضها السموات والأرض، يقول عبد الله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة، فعرسنا ببعض الطريق (نزلنا للراحة) فانحدر علينا راعٍ من الجبل، فقال

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا راعي الغنم بعنا شاة من هذا الغنم، فقال: إني مملوك، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قل لسيدك: أكلها الذئب، فقال العبد: فأين الله؟

فبكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأخذ يقول: فأين الله تعالى؟ ثم غدا إلى سيد الراعي، فاشتراه من مولاه، وأعتقه، وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

وأراد الإمام الشافعي (رحمه الله) أن يعلم تلاميذه كيفية مراقبة الله تعالى، فأمر كل تلميذ من تلاميذه أن يحضر كل تلميذ دجاجة، ثم يقوم بذبحها شريطة أن يكون ذلك في مكان لا يراه فيه أحد.

وفي اليوم التالي جاء كل تلميذ وقد ذبح كل واحد منهم دجاجة، إلا واحداً، فقد أتى بها حية لم يذبحها، فسأله الشيخ: لما لم تذبح الدجاجة؟ قال: لأنني لم أستطع الوفاء بالشرط، قال له: كيف ذلك؟ قال: لأنني حينما ارتحلت، وحيثما اتجهت، وجدت أن الله تعالى مطلع عليّ ويراني.

ثم قرأ قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7].

واسمع معي إلى ما أعده الله تعالى لمن حقق مراقبته في السر والعلانية، فقال تعالى: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق: ٣١ - ٣٥].

فالأوجب على كل مسلم يريد أن يجعل لنفسه حرزاً من المعصية، أن يراقب الله تعالى في السر والعلانية، ويكون في معية الله تعالى؛ لأن الله تعالى جعل علينا شهوداً يشهدون على كل أفعالنا، ويراقبون كل تحركاتنا، وذلك على النحو التالي:

الشاهد الأول: الأرض: فهذه الأرض التي نعيش عليها، ونأكل من خيراتها، وننام عليها، ونطبع المولى تعالى عليها، ومنا من يعصي الله

تعالى عليها، ستشهد لنا أو علينا يوم القيامة، فقال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيرَوُاْ أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: ١ - ٨].

الشاهد الثاني: الملائكة: فالملائكة الذين يكتبون علينا أعمالنا، ويسجلون علينا سيئاتنا وحسناتنا، يشهدون لنا أو علينا يوم القيامة، فقال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار: ١٠ - ١٢].
وقال تعالى: {أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: ٨٠].

الشاهد الثالث: الجوارح: فالجوارح التي هي من نعم الله تعالى علينا، ستشهد على صاحبها يوم القيامة، فقال تعالى: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يس: ٦٥].

وقال تعالى: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْوْنَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَإِنْ يَصِيرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ} [فصلت: ١٩ - ٢٤].

الضابط الرابع: اتباع منهج الله تعالى ومنهج الرسول صلى الله عليه وسلم:

إن الله تعالى قد فرض علينا اتباع منهجه، ليس في مجال كسب المال فحسب، بل في كل مجالات الحياة، فقال تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

وبين الله تعالى النتيجة المترتبة على اتباع منهجه، فقال تعالى: {فَمَنْ

اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى { [طه: 123].

وإن المسلمين اليوم، بل العالم كله يعاني من أزمة مالية طاحنة؛ لأن الجميع لم يتبع منهج الله تعالى ومنهج الرسول صلى الله عليه وسلم في السياسة المالية.

فالواجب على كل مسلم أن يلتزم بالمنهج الرباني في كسب المال، ولا يذحرف عنه، فإن الانحراف عنه يعرّض الإنسان لغضب المنتقم الجبار، والعقاب الشديد، فقال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 63].

وقال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} [طه: 124 - 127].

الضابط الخامس: الصدق

فالواجب على كل مسلم أن يلتزم بالصدق في كسب المال، فالرسول صلى الله عليه وسلم أمرنا بالصدق في كل مجالات الحياة، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا).

وحذرنا النبي صلى الله عليه وسلم من الكذب في كسب المال، فروى أحمد والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن التجار هم الفجار، قيل: يا رسول الله: أليس الله قد أحل البيع؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: بلى، ولكنهم يحلفون فيأثمون، ويحدثون فيكذبون).

وروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (يا معشر - التجار، فرفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال لهم: (إن التجار يبعثون يوم القيامة فجاراً، إلا من اتقى الله وصدق).

وإن الإنسان إذا حقق الصدق في المعاملات المالية، بارك الله تعالى له في معاملاته، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم

قال: (الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا، بُورِكَ لُهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا، مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا).

الضابط السادس: التوكل على الله تعالى :

إن الله تعالى أمرنا بالتوكل عليه وحده، فقال تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [إبراهيم: 11].

ولقد بين لنا الله تعالى النتيجة المترتبة على الصدق في التوكل عليه، فقال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا [الطلاق: 3].

ولقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً النتيجة المترتبة على الصدق في التوكل، فروى ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا خصاصاً، وتروح بطاناً).

الضابط السابع: أن يكون كسب المال من طريق مباح:

فالمسلم فينا لا بد أن يبحث على طريق مباح لكسب منه المال، وذلك كالبيع، والشراء، والسلم، والمضاربة، والشركة، والإجارة، إلى غير ذلك من الطرق المباحة لكسب المال.

أما أن يهجر الإنسان منا الطرق المباحة لكسب المال، ويعتمد على طرق غير مشروعة، فهذا مخالف لأمر الله تعالى، وذلك كطلب المال عن طريق المسألة، فالرسول صلى الله عليه وسلم حرم المسألة، فروى البخاري والبيهقي واللفظ له، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ الْجَبَلَ، فَيَجِيءَ بِحُزْمَةٍ مِنْ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا فَيَسْتَغْنِيَ بِهَا، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ).

ولقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم خطورة المسألة يوم القيامة، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُرْعَةٌ لَحْم).

وروى أحمد وأبو داود عن أنس بن مالك: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَمَا فِي بَيْتِكَ

شَيْءٌ؟»، قَالَ: بَلَى حَلَسْتُ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ، وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنْ الْمَاءِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اِئْتِنِي بِهِمَا)، فَأَتَاهُ بِهِمَا، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: (مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟)، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذَهُمَا بِدِرْهَمٍ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ؟ - مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذَهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ، فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ، وَأَخَذَ الدَّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: (اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا، فَأَنْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قُدُومًا، فَأْتِنِي بِهِ)، فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَوْدًا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: (اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ، وَلَا أَرَيْنَكَ خَمْسَةَ عَشَرَ - يَوْمًا - فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمٍ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا تَوْبًا، وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَحِيَّاءَ الْمَسْأَلَةَ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِي غَرَمٍ مُفْطِعٍ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ -).

واسمع معي إلى هذا النموذج من حياة سلفنا الصالح، الذين كانوا يتحرون كسب المال من طريق مباح، روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غُلَامٌ يُخْرِجُ لَهُ الْخَرَاجَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ، فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ الْغُلَامُ: أَتَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُذْتُ تَكْهَنْتُ لِلْإِنْسَانِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَا أَحْسَنُ الْكِهَانَةَ، إِلَّا أَذَى خَدَعْتُهُ، فَلَقِينِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتَ مِنْهُ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدَهُ، فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ.

وروي أن عمر بن عبد العزيز حمل إليه مسك من الغنائم، فقبض على أنفه، وقال: إنما يُنتَفَعُ من هذا، وإنني أكره أن أجد ريحه دون المسلمين.

الضابط الثامن: أن يكون كسب المال عن طريق الرضا:

فلا يجوز أخذ مال الغير بدون رضاه، وإلا كان سحتاً، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [النساء: ٢٩، ٣٠].

وروى البيهقي وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّمَا الْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ-
إخوة الإسلام:

لقد وضع الشرع الحنيف ضوابط لإنفاق المال، فتعالوا معي لننتعرف على هذه الضوابط.

الضابط الأول: النهي عن الإسراف:

فالإسلام حرم الإسراف في المال، ولقد عد الله تعالى عدم الإسراف في المال من صفات عباد الرحمن، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: ٦٧].

الضابط الثاني: النهي عن التبذير:

فالله تعالى قد نهى عن التبذير، وجعل المبذر قرين الشيطان، فقال تعالى: {وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

الضابط الثالث: الإنفاق في حقه:

فالواجب على المسلم أن ينفق المال في حقه، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَكَةٍ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا-.

الضابط الرابع: أن يصل فيه رحمه. ويتقي فيه ربه تعالى :

روى الترمذي وأحمد والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا، وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا، فَهُوَ صَادِقُ النَّيِّ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا، لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بَنِيَّتِهِ، فَأَجَّرُهُمَا سَوَاءً، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا، وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ،

وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فَلَانٍ، فَهُوَ بِنَيْتِهِ، فَوَزَّرَهُمَا سَوَاءً.

الضابط الخامس: أن يؤدي الحق الواجب فيه.

ومال الإنسان يجب فيه ما يأتي:

1 - الزكاة، فالله تعالى وإن اقتضت حكمته أن يكون هناك أغنياء وفقراء، إلا أنه لم يترك الفقراء خياراً مهملين، ولكن فرض لهم حقاً معلوماً يصرف لهم كل عام من أموال الأغنياء، وذلك عن طريق الزكاة، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [المعارج: 24، 25].

2 - النذور: فقال تعالى: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا} [الإنسان: ٧ - ١٠].

3 - الكفارات، وذلك: ككفارة اليمين، فقال تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [المائدة: ٨٩].

وكفارة الظهار، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَّسَعَ دَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَّسَعَ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المجادلة: ٣، ٤].

وكفارة القتل الخطأ، فقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ

مُتَتَابِعِينَ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: ٩٢].

الضابط السادس: أن يؤدي التطوع:

وذلك مثل الصدقة، فالله تعالى قد حدثنا عليها قبل فوات الأوان، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةً وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: 254].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} * وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ} * وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المنافقون: 9 - 11].

وجعل الإنفاق في سبيله من صفات المتقين، فقال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُبْصِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} * أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران: 133 - 136].

فمال العبد الحقيقي الذي يمتلكه، هو ما قدمه لنفسه؛ ليكون ذخراً له بعد موته، وليس ماله ما جمعه، فافتسمه الورثة بعد مماته، فروى البخاري وأحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟)، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالٌ وَارِثُهُ مَا أَخَّرَ).

وفي رواية البيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟)، قَالُوا: مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالٍ وَارِثِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اعْلَمُوا أَنَّ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَمَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ، مَالُكَ مَا قَدَّمْتَ، وَمَالٌ وَارِثُكَ مَا أَخَّرْتَ).

ومعناه: أن ما ينفقه الإنسان من ماله حال حياته في وجوه البر

والإحسان، من صدقات، وإقامة المشاريع الخيرية، والأوقاف النافعة، وكفالة اليتيم، وإطعام الجائعين، وإعانة المعسرين، كل هذا يقدمه أمامه، ويجد ثوابه مدخراً عند الله تعالى، ومضاعفاً أضعافاً كثيرة، فهو ماله الحقيقي الذي يبقى لديه، ويجري نفعه عليه، وما عداه فإن ملكيته له محدودة بحال الصحة وسلامة فكره؛ لأنه إذا مرض مرض الموت، فإنه يحجر عليه، فلا يتصرف فيه بصدقة ولا هبة.

ففي هذه الحالة يُمنع الإنسان من التصرف في ماله، الذي أتعب جسمه، وقضى عمره في جمعه؛ لأنه على وشك زوال ملكه عنه، وانتقاله إلى غيره من ورثته، وقد فرط في حال الصحة يوم أن كان ملكه عليه تاماً.

وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أَنَّهَا دَبَّوْا شِدَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَا بَقِيَ مِنْهَا؟)، قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا).

وروى مسلم وأحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم: (يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِي مَالِي، إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفْنَى، أَوْ لَبَسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَأَفْتَنَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكٌ لِلنَّاسِ).

فالواجب على كل مسلم أن يعي هذه الحقيقة، وأن يضعها نصب عينيه، حتى يفوز بالآخرة برضا الله تعالى، وينجو من عقاب الله تعالى، ولقد أكد لنا الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة، وأن المال هو ما يدخره المسلم لنفسه يوم القيامة، فروى أحمد والبيهقي والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (كُلُّ أَمْرٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ، حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ، أَوْ قَالَ: (حَتَّى يُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ)).

* * *

أمانة العلم

أمانة العلم

أسباب نعيم القبر

أمانة العلم

الحمد لله رب العالمين: الذي نطق بوحدايته جميع الكائنات، فالسما دائماً وأبداً تقول: سبحان من رفعني بقوته، وأمسكني بقدرته، فهو ركني وعمادي، والأرض دائماً وأبداً تقول: سبحان من وسع كل شيء علماً، ومهدني تمهيداً، والبحار دائماً وأبداً تقول: سبحان من بمشيئته أجزاني، وأسأل عيون مائي لروادي، والعارف به دائماً وأبداً يقول: سبحان من دلني عليه، وإليه مرجعي ومآبي، حتى العاصي يقول: سبحان من اطلع علي في المعصية، فلما رأي سترني وغطاني، فلما تبت إليه قبلني وهداني.

سبحانه: امتن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بنعمة العلم، فقال تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء: 113].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: جعل العلم سبباً في الخشية منه ﷺ، فقال تعالى: {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَجِرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وِزْرُيْدُهُمْ خُشوعاً} [الإسراء: 107 - 109].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: جعل العلم من الأمور التي ينتفع بها الإنسان بعد موته، فروى مسلم والبيهقي واللفظ له، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع سبب من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: أمانة العلم، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن

يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا.

الحقيقة الأولى: إن الاهتمام بقضية العلم لم يبدأ في أول لحظة من لحظات نزول القرآن الكريم فحسب، بل إن الاهتمام بقضية العلم بدأ منذ أن خلق الله تعالى سيدنا آدم عليه السلام.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة: 30 - 33].

ولذا فليس بعجب أن تكون أول آية نزلت من كتاب الله تعالى تشير إلى العلم، والاهتمام به، فقال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: 1 - 5].

ومن أجل هذا: أمر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يطلب الزيادة من العلم، فقال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: 114].

قال القرطبي: فلو كان شيء أشرف من العلم، لأمر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يسأله المزيد منه، كما أمر أن يستزيده من العلم.

ومن ثم يمكن القول: بأن العلم أفضل شيء في الدنيا؛ لأنه طريق المعرفة إلى الله تعالى، وإلى الوصول إلى رضوانه، والفوز بقربه،

ومجاورته في الآخرة، فروى أبو نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما عبد الله بشيء أفضل من فقهه في دين-).

قال أبو هريرة رضي الله عنه: لأن أنفقه ساعة، أحب إليّ من أن أحيي ليلة أصليها حتى أصبح، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء دعامه، ودعامه الدين الفقه.

فالواجب على الأمة الإسلامية إذا أرادت أن تتبوأ مكانتها الطبيعية بين الأمم، وإذا أرادت أن تكون لها الريادة على سائر الأمم، فعليها أن تهتم بالعلم؛ لأنها بدون العلم لا تساوي شيئاً.

فمكانة الأمة مرهونة بالعلم، فبالعلم فُضِّل آدم عليه السلام على الملائكة، وبالعلم أمرت الملائكة بالسجود لأدم عليه السلام، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ {البقرة: 32 - 34}.

الحقيقة الثانية: إن الله تعالى رفع قدر العلم وأهله، وبين ذلك في قرآنه، وعلى لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك على النحو التالي:

أولاً: استشهدهم الله تعالى، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة: فقال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {آل عمران: 18}.

قال القرطبي: هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء، لقرنهم الله تعالى باسمه واسم ملائكته، كما قرن العلماء.

ثانياً: أمر الله تعالى بطاعة العلماء:

وذلك لبيان قدرهم، وعلو منزلتهم، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: 59].

قال الرازي: والمراد من أولي الأمر: العلماء في أصح الأقوال؛ لأن الملوك يجب عليهم طاعة العلماء، ولا ينعكس.

ثالثاً: الرفعة:

فإن الله تعالى رفع درجات أهل العلم والإيمان خاصة، فقال تعالى

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11].

رابعاً: العلماء ورثة الأنبياء:

فروى أبو داود والترمذي وغيرهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (...وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ، أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ-).

فالعلماء ورثوا عن نوح عليه السلام صبره على دعوته، وتحمله الإيذاء في سبيل الله تعالى، من غير ضجر، ولا ملل، ولا قنوط، ولا يأس.

العلماء ورثوا عن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام شجاعته وصموده أمام عدوان الباطل، ورثوا عنه التضحية بالروح والجسد، في سبيل أن تكون كلمة الله تعالى هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

العلماء ورثوا عن موسى عليه السلام أمانته وعفته، ورثوا عنه جهاده في سبيل أن يخرج الناس من ظلم الحكام إلى عدل الرحمن، ومن عبادة الطواغيت إلى عبادة رب الأرض والسماء.

العلماء ورثوا عن عيسى عليه السلام زهده ورحمته، ورثوا عنه سمو النفس، ورفعة الروح، وحبه لجميع الخلق.

العلماء ورثوا عن الرسول عليه السلام صبره وحلمه، ورثوا عنه جهاده ونضاله، ورثوا عنه الفضائل الحميدة، والأخلاق الكريمة، فصاروا بذلك أئمة الهدى، ومصابيح الدجى.

خامساً: العلم طريق إلى الجنة:

فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ-).

سادساً: الاستغفار للعلم:

فأهل السموات السبع والأرضين السبع يستغفرون لطالب العلم، فروى أبو داود والترمذي وابن ماجه والبيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (...وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحَيَاتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ-).

سابعاً: العالم أفضل من العابد:

وذلك لتشجيع الناس على العلم، فروى أبو داود والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ-).

ثامناً: عدم قطع عمل العالم بموته:

فروى مسلم والبيهقي واللفظ له، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ أَشْيَاءَ: مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ-).

تاسعاً: الخيرية:

فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا، يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ-).

الحقيقة الثالثة: إن العلم أمانة ألقاها الله تعالى على عاتق العلماء، ومن ثم فيجب على كل صاحب علم أن يصون هذه الأمانة، ويحافظ عليها، ويؤديها على الوجه الأكمل، الذي يرضي الله تعالى، ويرضي الرسول صلى الله عليه وسلم.

فما من صاحب علم إلا وسيسأل يوم القيامة عن هذه الأمانة، التي وكل بحفظها وصيانتها، هل أداها على الوجه الأكمل، أم قصر في حفظها؟.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [الأعراف: 6].

وقال تعالى: {فَوَرَبَّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الحجر: 92، 93].

وأشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة أيضاً، فروى الترمذي والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا تَزُولُ قَدِمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيْمَا أَفْتَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيْمَا أَبْلَاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيْمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟).

فالواجب على كل صاحب علم أن يعد للسؤال جواباً من الآن، هل صان أمانة العلم، وحافظ عليها، أم ضيعها؟ حتى لا يكون عرضة لعذاب الله تعالى يوم القيامة.

إخوة الإسلام:

إن المحافظة على أمانة العلم ليس بالأمر السهل أو الهين، بل من الصعوبة بمكان؛ لأنه ما من صاحب علم إلا وسيتعرض لصعوبات كثيرة، فلو لم يكن أهلاً لتحمل هذه الأمانة، فإنه سيضيعها، وبالتالي يكون خائناً لهذه الأمانة العظيمة.

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة، والقُدوة الطيبة، فقلد تعرض لمحن كثيرة، وشدائد متنوعة، في أداء الأمانة، فلقد اتهمه قومه بالسحر والجنون، فقال تعالى: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ * اتَّوَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ * وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: 52 - 55].

إلا أنه لم يبال بهذا كله، وأدى الأمانة على الوجه الأكمل.

ولقد وضع الشرع الحنيف ضوابط متعددة للمحافظة على أمانة العلم، فتعالوا معي لتتعرف على هذه الضوابط، التي لو التزم بها العالم، يكون أميناً على العلم.

الضابط الأول: الإخلاص:

والإخلاص في العلم معناه: أن يبتغي العالم بعلمه وجه الله تعالى،

فلا يقصد بالعلم التوصل إلى غرض دنيوي، كتحصيل مال، أو جاه، أو شهرة، أو سمعة، أو تميزاً عن الأفراد.

فالواجب على العالم حتى يكون أميداً على العلم، أن يبتغي بعلمه وجه الله تعالى؛ لأن الله تعالى أوجب على الجميع ضرورة الإخلاص له وحده، فقال تعالى: {وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة: 5].

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل أمر الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم بضرورة الإخلاص له، فقال صلى الله عليه وسلم: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِثْلُ بَرِيءٍ عَلَى أَخٍ ظَاهِرٍ} [البقرة: 239].
 أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ { [الزمر: 1 - 3].

وقال تعالى: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي} [الزمر: 11 - 14]

بل جعل الله تعالى الإخلاص شرطاً في قبول الأعمال، فقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: 110].

أما لو ابتغى العالم بعلمه غير وجه الله تعالى، بأن ابتغى بعلمه الشهرة، أو السمعة، أو الجاه، فإن ذلك يكون خيانة لأمانة العلم، ويتعرض لغضب المنتقم الجبار، فلقد بين لنا الشرع عقوبة عدم إخلاص العالم في علمه، وذلك على النحو التالي:

أولاً: عدم قبول العمل وإحباطه مطلقاً: فقال تعالى: {وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا} [الفرقان: 23].

أي: أنه تعالى أحبط أعمالهم من أجل الرياء، حتى صارت بمنزلة الهباء.

ثانياً: الفضيحة في الدنيا: روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ سَمِعَ، سَمِعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي، يُرَائِي اللَّهُ بِهِ).

ثالثاً: الفضيحة في الآخرة: روى الترمذي وابن حبان أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك في عمله لله أحداً، فليطلب ثوابه من عنده، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك).

رابعاً: المرائي أول من تسعر به النار يوم القيامة: روى مسلم والذسائي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرَى، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ؛ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ؛ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ).

ولقد حذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من الرياء في العلم، فروى ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تَعْلَمُوا الْعِلْمَ لِيُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءُ، وَلَا لِيَتَارُوا بِهِ السُّفَهَاءُ، وَلَا تَحْيَرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ).

وروى أحمد وأبو داود وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَىٰ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - يَعْنِي: رِيحَهَا).

الضابط الثاني: العمل بالعلم:

فالعالم قبل أن يأمر الناس ويعلمهم، عليه أن يعلم نفسه، ويعمل بما يقوله، فليس من المعقول أن يعلم العالم الناس الخير ولا يعمل به، فمن

الأمانة على العالم أن يعلم نفسه أولاً، قبل أن يعلم غيره، ويعمل بعلمه قبل أن يأمر الناس بالعمل.

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة، فكان صلى الله عليه وسلم يعمل بما علم، فروى أحمد عن قَتَادَةَ، عَنْ زُرَّارَةَ، عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقُلْتُ: أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: " كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ ".

أما لو خلف هذا الأمر، فيكون خائناً لأمانة العلم؛ لأنه من العار والعيب على العالم أن يخالف فعله قوله، وما أكثر هذا النوع من العلماء في هذه الأيام.

فكم من عالم أمر غيره بصلة الأرحام، وهو يقطع أرحامه، وكم من عالم يأمر الناس بحسن الجوار، وهو يسيء إلى جيرانه، وكم من عالم ينهى الناس عن التدخين، ويبين لهم آثاره السلبية على الفرد والجماعة، وهو يقوم بالتدخين، بل لا يستحي من الله تعالى، ويحمل عبية السجائر في جيبه، وهو واقف بين يدي الله تعالى في الصلاة.

وكم من عالم يأمر غيره بالإحسان إلى الزوجة، وهو يسيء معاملة زوجته، وكم من عالم يأمر غيره ببر الوالدين، وهو يعق والديه، وكم من عالم ينهى الناس عن التعامل بالربا، وهو يتعامل بها، وكم من عالم ينهى الناس عن أكل أموال الناس بالباطل، وهو يعتدي على أموال الناس، وكم من عالم ينهى غيره عن أكل الحرام، وهو يأكل سحتاً والعياذ بالله، وكم من عالم يأمر الناس بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها، وهو لا يحافظ عليها.

وكم من عالم يأمر الناس بالنهي عن المنكر، وهو لا يقوم بهذا الواجب العظيم، فيرى المنكر أمامه، ولا يُحرِّك ساكناً، وكم من عالم يأمر الناس بالتواضع، وهو يتكبر عليهم، وكم من عالم يأمر الناس أن يتخلقوا بخلق العفو، وهو لا يعفو عن ظلمه، بل يريد الانتقام ممن ظلمه.

فمن فعل هذا كله، وخالف فعله قوله، فإنه يكون خائناً لأمانة العلم، والعياذ بالله.

ولقد ذم الله تعالى هذا الصنف من العلماء، فقال تعالى: {اتَّأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: 44].
وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: 2، 3].

ولقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم العقاب الذي أُعد لمن خالف فعله قوله، فروى مسلم وأحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ).

الضابط الثالث: التواضع بالعلم:

والتواضع بالعلم معناه: انكسار القلب، وخفض الجناح والرحمة للخلق.
وسئل الفضيل بن عياض عن التواضع، فقال: يخضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله، ولو سمعه من صبي قبله، ولو سمعه من أجهل الناس قبله.
انطلاقاً من قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه ابن ماجه وغيره: (الحكمة ضالة المؤمن، أتي وجدها فهو أحق بها).
ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (خذ الحكمة من أي وعاء خرجت، ولا يضررك من أي وعاء خرجت).

ولقد أوجب الله تعالى علينا التواضع، وأمرنا به في قرآنه فقال تعالى: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} [لقمان: 18، 19].

وقال تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} [الإسراء: 37، 38].

ولم يكتف الأمر عند هذا الحد بل نجد أن الله تعالى أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالتواضع، فقال تعالى: {وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}

[الشعراء: 215].

ولقد طبق الرسول صلى الله عليه وسلم التواضع بالعلم، فروى البخاري ومسلم عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي: (إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: {لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} [البينة: 1].

وقال الفضيل بن عياض: إن الله تعالى يحب العالم المتواضع، ويبغض العالم الجبار، ومن تواضع لله، ورثه الحكمة.

فالواجب على العالم أن يتواضع بعلمه، ولا يتكبر به، فالتكبر بالعلم خيانة له، ويعرض صاحبه لغضب المنتقم الجبار، والعذاب الأليم، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)، فقال رجل: يا رسول الله، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً، فقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق - دفعه ورده - وغمض - احتقار - الناس).

الضابط الرابع: عدم كتمان العلم:

فالواجب على العالم أن يبين للناس العلم الذي يعلمه، فالله تعالى قد أخذ العهد والميثاق على أهل الكتاب أن يبينوا العلم للناس، ولا يكتُمونه، فقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [آل عمران: 187].

قال القرطبي: هذا متصل بذكر اليهود، فإنهم أمروا بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبيان أمره، فكتُموا نعته، فالآية توبيخ لهم، ثم مع ذلك هو خبر عام لهم ولغيرهم.

قال الحسن وقتادة: هي في كل من أوتي علم شيء من الكتاب، فمن علم شيئاً فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم، فإنه هلكة.

وأمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بتبليغ العلم، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ).

وروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ

مِنَ النَّارِ-.

وروى أبو داود والترمذي وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (نَصَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ، حَتَّى يُبْلَغَهُ، فَرُبَّ حَامِلٍ فِيهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِيهِ لَيْسَ بِفَقِيهِ-).

ولقد نهانا الله تعالى عن كتمان العلم، فقال تعالى: {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: 2].

فإذا كتم العالم العلم يكون خائناً لأمانة العلم، ويستحق عقاب الله تعالى، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: 159، 160].

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة: 174].

فروى الترمذي وأحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ، أَلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ-).

الضابط الخامس: الموضوعية في الفتوى،

ومعنى هذا: أن الفتوى لا تخضع لهوى، أو لتحقيق أغراض شخصية، فينبغي أن تكون الفتوى لله تعالى، ومن هنا فإنه يجب على كل عالم يتصدى للفتوى، أن يلتزم بالموضوعية في فتواه، ولا يخضع الفتوى للهوى، أو لتحقيق غرض معين، فلقد حذرنا الله تعالى من اتباع الهوى، فقال تعالى: {وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون: 71].

فمن أخضع الفتوى لهوى في نفسه، أو لتحقيق غرض معين هو يريده، فقد خان أمانة العلم.

ولقد قام عدد كبير ممن ينتسبون إلى العلم في هذه الأيام بإخضاع الفتوى للهوى، أو لتحقيق عرض معين في نفسه.

فكم من عالم أحل فوائد البنوك والتعامل بالربا؛ لهوى معين، أو

إرضاء للسلطة الحاكمة، وكم من عالم حرّم الختان؛ إرضاء للسلطة، وكم من عالم حرّم الزواج إلا بعد بلوغ سن معينة؛ إرضاء للسلطة، وكم من عالم حرّم النقاب؛ إرضاء للسلطة.

وكم من عالم حرم التلفاز في بداية الأمر، ثم بعد ما انتشرت الفضائيات وبدأ الظهور فيها، أحل التلفاز؛ لأنه بدأ الظهور فيه، فأين الموضوعية في هذا؟

وكم من علماء حرموا التصاوير، وعندما قاموا بالترشيح للمجالس النيابية، أباحوها.

وكم من علماء أفتوا بأن صوت المرأة عورة، وأن شهادتها على النصف من شهادة الرجل، ولا ينبغي لها العمل في مجال السياسة، وعندما تقدموا للترشيح للمجالس النيابية، أباحوا للمرأة أن تترشح معهم، بل ووضعوها في قائمتهم، فأين الموضوعية في فتواهم؟

الضابط السادس: ألا يخاف إلا من الله تعالى .

فالواجب على كل عالم ألا يخاف من أحد إلا من الله تعالى، فلا يخاف من ذي سلطان، أو من صاحب جاه، أو من صاحب سطوة.

فقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: 44].

ولقد مدح الله تعالى عباده الذين لا يخافون في الله عِلا لومة لائم، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: 54].

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة، والقذوة الطيبة، فكم

يخشى إلا الله تعالى، فروي أن قريشاً ذهبت في زفر منها إلى أبي طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم؛ يشكون له الرسول صلى الله عليه

وسلم، فقالوا: يا أبا طالب: إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آبائنا، فلما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه؛ فنكفيكه!

فقال لهم أبو طالب قولاً وفاقاً، وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه.

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه، يظهر دين الله تعالى، ويدعو إليه، ثم شري الأمر بينه وبينهم حتى تباعدوا وتضاغنوا، وأكثرت قریش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتذاثروا فيه، وحض بعضهم بعضاً عليه.

ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب: إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استتهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنا؛ وإنا والله لا نصبر على هذا، من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله، وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا عنه.

فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم، ولا خذلانهم، فبعث أبو طالب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا بن أخي: إن قومك قد جاؤوني، فقالوا لي: كذا وكذا (الذي كانوا قالوا له) فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعومه فيه بداء، وأنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته، والقيام معه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا عم: والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته).

ولقد حدث للإمام أحمد بن حنبل موقف صعب للغاية، ولكنه تمسك بقوله، ولم يخف إلا من الله تعالى، وذلك في قضية خلق القرآن الكريم.

فلقد تكلم المعتزلة وغيرهم في قضية خلق القرآن، إلا أن الإمام أحمد بن حنبل ظل متمسكاً بأن القرآن قديم، قدم الله تعالى، وحبس وضرب وعذب، حتى كاد أن يموت، ورغم كل هذا ظل ثابتاً على الحق، حتى انتصر على كل من قالوا بخلق القرآن الكريم.

الضابط السابع: أن يصون العلم كما صانه علماء السلف:

فمن الأمانة الملقاة على عاتق العالم أن يصون العلم، كما صانه سلفنا الصالح، فيقوم له بما جعله الله تعالى له من العزة والشرف، فلا يندسه بالأطماع، ولا يذله بذهابه ومشيه إلى غير أهله من أبناء الدنيا، من غير ضرورة أو حاجة أكيدة، ولا إلى من يتعلمه منه منهم، وإن عظم شأنه وكبر قدره وسلطانه.

قال الزهري: هو أن بالعلم أن يحمله العالم إلى بيت المتعلم.
وقال مالك بن أنس للمهدي وقد استدعاه لولديه يعلمهما: العلم أولى أن يوقر ويؤتى.

وفي رواية: العلم يزار ولا يزور، ويؤتى ولا يأتي.

وفي رواية: أدركت أهل العلم يؤتون ولا يأتون.

ويروى عنه أيضاً أنه قال: دخلت على هارون الرشيد، فقال: يا أبا عبد الله: ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ، قال: فقلت: أعزك الله تعالى إن هذا العلم منكم خرج، فإن أنتم أعزرتموه عز، وإن أذللتموه ذل، والعلم يؤتى ولا يأتي، فقال: صدقت، اخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا من سمع الناس.

* * *

العدل

العدل

أسباب نعيم القبر

العدل

الحمد لله رب العالمين: الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة، وجعلنا والله الحمد خير أمة أخرجت للناس، فقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: 110].

سبحانه: أراد لعباده الخير والبر، وطلب من عباده إقامة منهج العدل والفضيلة، فقال تعالى: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} [البقرة: 138].

وقال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوفُونَ} [المائدة: 50].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: أمرنا بالعدل، ونهانا عن الظلم، فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: 90].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: بين لنا أن من اتصف بالعدل في الدنيا، سيجلس يوم القيامة على منبر من نور عن يمين الله تعالى، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ تَعَالَىٰ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ، وَأَهْلِيهِمْ، وَمَا وَلَوْ أ-).

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابه أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع سبب من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: العدل، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا:

الحقيقة الأولى: إن الله تعالى جعل العدل صفة من صفاته المقدسة، فقال تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: 49].

وقال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء: 47].

فقال تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ} [التين: 8].

وقال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: 7، 8].

فلو لم يكن العدل صفة من صفات الله تعالى، لاختل نظام الكون كله؛ لأن الله تعالى لما خلق السموات والأرض خلقهما بالعدل، وأقام الدنيا كلها على أساس واحد، ألا وهو: العدل، فقال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [ص: 27].

وروى أحمد والبيهقي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَبْعَثُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فَيَخْرِصُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُودَ، قَالَ: فَجَمَعُوا لَهُ حُلِيًّا مِنْ حُلَى نِسَائِهِمْ، فَقَالُوا: هَذَا لَكَ، وَخَفَّفَ عَنَّا، وَتَجَاوَزَ فِي الْقَسَمِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَمِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَمَا ذَلِكَ بِدَامِلِي عَلَى أَنْ أُحِيفَ عَلَيْكُمْ، فَأَمَّا الَّذِي عَرَضْتُمْ مِنَ الرِّشْوَةِ، فَإِنَّهَا سُحْتُ، وَإِنَّا لَا نَأْكُلُهَا، قَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ.

فإذا لم يتصف الله تعالى بالعدل المطلق، وقع الخلل في الكون كله، ولذلك يقال: العدل أساس الملك.

وكان العدل صفة أصيلة من صفات الأنبياء أيضاً، فقال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ

قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحديد: 25].

فما من نبي إلا وقد أمره الله تعالى بالعدل، فهذا سيدنا داود عليه

السلام ق

الله تعالى في شأنه: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَلِي نَعَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى زَعَاكِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَّآبٍ * يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [ص: 21 - 27].

وقال تعالى في شأن الرسول صلى الله عليه وسلم: {فَلِذَلِكَ فَادُعْ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [الشورى: 15].

ولقد اتصف سيدنا يوسف عليه السلام بالعدل، فقال تعالى: {قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ} [يوسف: 78، 79].

الحقيقة الثانية: إن الله تعالى جعل العدل أمراً مفروضاً على كل المسلمين، دون تفرقة بين مسلم ومسلم، ولا بين ذكر وأُنثى، ولا بين متعلم وغير متعلم، فالكل سواء أمام فريضة العدل، ولا يوجد عذر البتة لأي إنسان مهما كان في ترك العدل.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ

نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: 58].

وقال تعالى: {وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الأنعام: 152].

وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: 90].

بل الأعجب من هذا كله: أن العدل مطلوب مع الأعداء أيضاً، فقال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة: 8].

وقال تعالى: {وَأَن اخْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ} [المائدة: 49].

ولقد طبق الرسول صلى الله عليه وسلم العدل مع أعداء الله تعالى، فحينما انتصر المسلمون في غزوة بدر، فقتلوا من قتلوا، وأسرُوا من أسروا، وكان من بين الأسرى عم الرسول صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمر بالأسرى فشدوا وثاقهم، حتى يأتي أهلهم بالفداء، وبينما الرسول صلى الله عليه وسلم قائم في خيمته ليلاً يصلي، إذ بعمر بن الخطاب رضي الله عنه يدخل عليه، فيجده يبكي، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما يبكيك يا رسول الله، وقد نصرك الله تعالى على أعدائك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (يا عمر: أبكاني أنين عمي العباس في جوف الليل؛ لثقل القيد على قدميه).

فخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرخى قيد العباس رضي الله عنه، فسكت أنينُه، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (يا عمر: ماذا فعلت؟)، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله أرخيت قيده، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن من العدل أن تفعل ذلك بجميع الأسرى)، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأرخى قيودهم جميعاً.

فالواجب على كل مسلم يريد الفوز برضا الله تعالى عنه في الدنيا

والآخرة، أن يحقق العدل في كل مجالات الحياة؛ لأن ما من شخص إلا وهو سبب سأل يوم القيامة عما استرعاه الله تعالى، فقال تعالى: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [الأعراف: 6].

روى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، قَالَ: وَحَدَّثْتُ أَنَّ قَدْ قَالَ: (وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ).

الحقيقة الثالثة: إن الله تعالى حرر دستور العدل من كل شائبة تتعلق به، فالله تعالى يريد من العدل أن يكون عدلاً مطلقاً، عدلاً لا يخضع لتهديد، ولا يتأثر بأهواء النفس، ولا بأحوال الرضا والغضب، ولا بالفقر ولا بالغنى، ولا بالقرابة ولا البعد، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا} [النساء: 135].

وفي نفس الوقت ينهى الله تعالى المؤمنين ألا يدفعهم كرههم لبعض الناس إلى التخلي عن العدل، مهما عظمت أسباب الكراهية، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا} [المائدة: 8].

ولم يكتف الأمر عند هذا الحد، بل بين الله تعالى أن العدل ليس مطلوباً من أجل إيصال الحقوق إلى أصحابها فحسب؛ بل لأنه أقرب إلى رضوان الله تعالى، فقال ﷺ: {اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: 8].

فإقامة العدل يجب أن تكون حسبة لله تعالى، وتجرداً من كل ميل، ومن كل مصلحة، ومن كل اعتبار، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ} [النساء: 135].

وقال تعالى في حق إقامة الشهادة: {وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن

كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} [الطلاق: 2].
وفي النهاية يهدد الله تعالى من انحرف عن هذا التوجيه الإلهي،
فيقول: {وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء: 135].
ولقائل يقول: لماذا أمرنا الله تعالى بالعدل؟ أقول: أمرنا الله تعالى
بالعدل لعدة أسباب:

السبب الأول: لأن الحياة لن تستقيم، ولن يكون لها أي طعم، إلا إذا
تحقق العدل التام في كل مجالات الحياة، فالعدل أساس عمارة الكون كله.
السبب الثاني: العدل يدعو إلى الألفة والمودة بين البشر، ويبعث على
الطاعة، وتُعمّر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكبر معه النسل، ويأمن به
السلطان.

السبب الثالث: إن الإنسان في ظل العدل يعيش آمناً في سره، مطمئناً
على أهله وأولاده، عابداً ربه تعالى في هدوء نفس وراحة بال، مؤدياً
شعائر دينه بحرية تامة، يعطي ما عليه كاملاً، ويأخذ ما له وفيأً، وبالتالي
يعيش الجميع في سعادة حقيقية لا تدانيها سعادة.

السبب الرابع: العدل يجعل الإنسان يشعر بالانتماء الحقيقي لمجتمعه
الذي يعيش فيه، وفي ظل هذا الانتماء يعيش المجتمع متيناً متماسكاً،
شديداً على الأعداء، عصياً على المتربصين، لا يستطيع النيل منه
بسهولة.

ومن هنا يجب على كل مسلم أن يحذر الظلم في أي مجال من
مجالات الحياة؛ لأن عاقبته وخيمة، قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي
غَمْرِكَ الْمَوْتَ وَالْمَلَائِكَةَ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ
الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأنعام:
93].

وقال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ
تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ
هَوَاءٌ} [إبراهيم: 42، 43].

الحقيقة الرابعة: ما هو العدل؟ العدل هو: إعطاء كل ذي حق حقه، من

غير تفرقة بين شخص وشخص، ومحاسبة المسيء أو المقصر على قدر إساءته وتقصيره، من غير إعنات أو محاباة.

فالعدل عبارة عن معادلة مكونة من شطرين: الشطر الأول: إعطاء كل ذي حق حقه، الشطر الثاني: محاسبة المقصر على تقصيره.

قال تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا * ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلًا} [الكهف: 86 - 89].

إخوة الإسلام:

لقد جعل الشرع الحنيف العدل متعدد المجالات، فتعالوا معي لننتعرف على هذه المجالات:

أولاً: العدل بين الرعية،

إن الإسلام اهتم اهتماماً بالغاً بضرورة تطبيق العدل بين الرعية، ودعا الحاكم أو الإمام أو رئيس الدولة أن يلتزم بالعدل التام بين الناس، وألا يظلم أحداً منهم.

فالإمام العادل هو زمام الأمور، ونظام الحقوق، وقوام الحدود، والقطب الذي عليه مدار الدنيا، وهو حمى الله تعالى في بلاده، وظله الممدود على عباده.

واسمع معي إلى هذا التوجيه الإلهي لسيدنا داود عليه السلام حينما

أمره المولى تعالى بإقامة العدل، فقال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص: 26].

قال ابن كثير: هذه وصية من الله تعالى لولاءة الأمور، أن يحكموا بين الناس بالحق المنزّل من عنده تعالى، ولا يعدلوا عنه؛ فيضلوا عن سبيله، وقد توعد من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد،

والعذاب الشديد.

واسمع إلى ما قاله المولى تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [الشورى: 15].

ولقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الإمام إذا طبق العدل، كما أمر الله تعالى، فإنه يكون في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِئَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينَهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ-).

وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الإمام العادل لا تُرد دعوته، فروى أحمد والبيهقي والترمذي وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْغَنَامِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزِّي لِأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ-).

وفي نفس الوقت حذر الرسول صلى الله عليه وسلم الإمام من الظلم، وبين عاقبته الوخيمة، فروى أبو نعيم وأبو يعلى والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أشد الناس يوم القيامة عذاباً، إمام جائر-).

وروى النسائي والبيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أربعة ييغضهم الله تعالى: البياح الحلاف، والفقر المختال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر-).

ولقد ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم أروع الأمثلة في تطبيق العدل المطلق بين الرعية، وهناك نماذج من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن حياة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم على تطبيق العدل بين الرعية، وهي ما

يأتي:

النموذج الأول: روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعدل صفوف المسلمين في بدر، وفي يده قدح يعدل به الصفوف، فمر بسواد بن غزية، وهو ناتئ في الصف، فطعنه بالقدح، وقال: (استويا سواد-)، فقال يا رسول الله: أوجعتني، وقد بعثك الله تعالى بالحق، فأقطني، أي: دعني أقصص منك.

فكشف الرسول صلى الله عليه وسلم عن بطنه، وقال: (استقد يا سواد-)، فعانقه سواد، وقبّل بطنه، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما حملك على هذا يا سواد؟-)، قال سواد: يا رسول الله، حضر ما ترى، فلم أمان القتل، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له الرسول صلى الله عليه وسلم بخير.

النموذج الثاني: روى الطبراني في معجميه الكبير والأوسط عن الفضل بن عباس، قال: جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرّجتُ إليه، فوجدته موعوگًا قد عصب رأسه، فقال: (خذ بيدي يا فضل-)، فأخذتُ بيده، حتّى انتهى إلى المنبر، فجلس عليه، ثم قال: (صبح في الناس-)، فصاحتُ في الناس، فاجتمع إليه ناسٌ، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: (أيها الناس، ألا إنّه قد دنا مني حقوقٌ من بين أظهركم، فمن كنتُ جلدتُ له ظهره فهذا ظهري فليستقد منه، ألا ومن كنتُ شتمتُ له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه، ألا لا يقولن رجلٌ إنّي أخشى الشّحناء من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألا وإنّ الشّحناء ليست من طبيعتي ولا من شأني، ألا وإنّ أحبكم إليّ من أخذ حقًا إن كان له، أو حللني فليقت الله تعالى وأنا طيب النفس، ألا وإنّي لا أرى ذلك مُغنيًا عني، حتّى أقوم فيكم مرارًا-).

ثمّ نزل فصلّى الظهر، ثمّ عاد إلى المنبر فعاد لمقالته في الشّحناء وغيرها، ثمّ قال: (أيها الناس: من كان عنده شيءٌ فليرده ولا يقول فضوح الدنيا، وإنّ فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة-).

فقام إليه رجلٌ فقال: يا رسول الله، إن لي عندك ثلاثة دراهم، قال: (أما أنا لا نكذب قائلًا، ولا نستحلّفه، فبم صارت لك عندي؟-)، قال: تذكر يوم مرّ

بِكَ مُسْكِينٌ، فَأَمَرْتَنِي أَنْ أَدْفَعَهَا إِلَيْهِ، فَقَالَ: (ادْفَعْهَا إِلَيْهِ يَا فَضْلُ، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: عِنْدِي ثَلَاثَةُ دَرَاهِمٍ كُنْتُ غَلَّتْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: (وَلَمْ غَلَّتْهَا؟، قَالَ: كُنْتُ إِلَيْهَا مُحْتَاجًا، قَالَ: (خُذْهَا يَا فَضْلُ، ثُمَّ قَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ خَشِيَ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا فَلْيَقُمْ أَدْعُو لَهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَكَذَّابٌ، وَإِنِّي لَمُذَافِقٌ، وَإِنِّي لَذُؤُومٌ، قَالَ: (اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ صِدْقًا، وَإِيمَانًا، وَأَذْهَبْ عَنْهُ النَّوْمَ إِذَا أَرَادَ، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَكَذَّابٌ، وَإِنِّي لَمُذَافِقٌ، وَمَا شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أَتَيْتُهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا هَذَا، فَضَحْتَ نَفْسَكَ، فَقَالَ: (مَهْ يَا ابْنَ الْخَطَابِ، فَضُوحُ الدُّنْيَا أَيْسَرُ مِنْ فَضُوحِ الْآخِرَةِ، ثُمَّ قَالَ: (اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ صِدْقًا، وَإِيمَانًا، وَصَيِّرْ أَمْرَهُ إِلَى خَيْرٍ، فَكَلَّمَهُمْ عُمَرُ بِكَلِمَةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (عُمَرُ مَعِيَ وَأَنَا مَعَهُ، وَالْحَقُّ بَعْدِي مَعَ عُمَرَ حَيْثُ كَانَ).

النموذج الثالث: روى البخاري ومسلم عن عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّتْهُمْ الْمَرْأَةُ الْمَخْزُومِيَّةُ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ رَسُولَ

اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حَبِ بُرَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: (أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟، ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِيمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا).

النموذج الرابع: روي أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاءه ذات مرة فتى من مصر مكروب، وهو يقول: يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بك، ويقول له: إن محمد بن عمرو بن العاص قد أوجعه ضرباً؛ لأنه سابقه، فسبقه، فعلا ظهره بالسوط، وهو يقول: خذها وأنا ابن الأكرمين.

وأرسل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدعو عمرو بن العاص رضي الله عنه وابنه محمداً، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: فوالله إنا لجلوس عند عمر رضي الله عنه، وإذ عمرو بن العاص

يقبل في إزار ورداء، فجعل عمر رضي الله عنه يلتفت باحثاً عن ابنه محمد، فإذا هو خلف أبيه، فقال: أين المصري؟ فقال: ها أنا ذا يا أمير المؤمنين، فقال عمر رضي الله عنه: خذ الدرة واضرب بها ابن الأكرمين، يقول أنس: فضربه حتى أثخنه، وذحن نشتهي أن يضربه، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع، من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين.

ثم قال عمر بن الخطاب: أجلها على صلعة عمرو، فو الله ما ضربك إلا بفضل سلطانه، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، قد استوفيت، واشتفيت، وضربت من ضربني، فقال عمر بن الخطاب: أما والله لو ضربته، ما حلنا بينك وبينه، حتى تكون أنت الذي تدعه.

ثم التفت إلى عمرو بن العاص، وقال: يا عمرو متى تعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ والتفت إلى المصري، وقال له: انصرف راشداً، فإن رابك، فاكتب إلي.

هذا هو العدل مع الرعية، فهذا عمرو بن العاص صحابي من شيوخ الصحابة، وحاكم إقليم من أكبر أقاليم الفتح الإسلامي، ولا ينجو ولده من العقوبة، بل كادت العقوبة تدرك عمرو بن العاص نفسه، لولا عفو صاحب الحق.

وبهذا العدل المطلق بين الرعية استطاع المسلمون الأوائل أن يقهروا أعظم قوتين في الأرض آنذاك، قوة الفرس وقوة الروم.

النموذج الخامس: روي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه افتقد درعاً له، ثم ما لبث أن وجدها عند رجل من أهل الذمة يبيعها في السوق، فلم

علي رضي الله عنه عرفها، وقال: هذه درعي سقطت عن جمل لي، في ليلة كذا، فقال الذمي: بل هي درعي، وفي يدي يا أمير المؤمنين.

فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنما هي درعي لم أبعها، ولم أهبها لأحد، فقال الذمي: بيني وبينك القضاء، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنصفت، فهلم إليه.

فذهبا إلى شريح القاضي، فقال له: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: لقد وجدتُ درعي هذه مع هذا الرجل، وقد سقطت مني في ليلة كذا، أو في مكان كذا، وهي لم تصل إليه لا ببيع ولا هبة، فقال شريح: وماذا تقول أيها الرجل؟ قال الرجل: الدرع درعي، وهي في يدي، ولا أتهم أمير المؤمنين بالكذب، فقال شريح لعلي رضي الله عنه: لكن لا بد من شاهدين، فدعا قذيراً مولاه، والحسن ابنه، وشهدا بأنها درعه، فقال شريح: أما شهادة مولاك فقد أجزناها، وأما شهادة ابنك لك فلا نجيزها، فقال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: يا سبحان الله! رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته، أما سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة).

فقال شريح: اللهم نعم، غير أنني لا أجزى شهادة الولد لوالده، عند ذلك التفت علي رضي الله عنه إلى الذمي، وقال: خذها، فليس عندي شاهد غيرهما.

فقال الذمي: ولكنني أشهد بأن الدرع لك يا أمير المؤمنين، ثم قال: يا الله!! أمير المؤمنين يقاضيني أمام قاضيه، وقاضيه يقضي لي عليه، أشهد أن هذا الدين يأمر بالحق، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

* * *

العدل بين الأولاد

العدل بين الأولاد

أسباب نعيم القبر

العدل بين الأولاد

الحمد لله رب العالمين: خلق الإنسان من سلالة من طين، وجعله بقدرته نطفةً في قرار مكين، ثم خلق النطفة علقة، فخلق العلقة مضغة، فخلق المضغة عظاماً، فكسا العظام باللحم والجلد المتين، وجعل وجهه إلى ظهر أمه، يتنفس ما بين الركبتين والقلب الدنون، وجعل شهوته إلى قلبها، فإذا انتهى شيئاً، وصل إليه بلا معين، فتبارك الله أحسن الخالقين.

سبحانه: جعل الدنيا دارَ متاعٍ قليل، وجعل الآخرة دارَ القرار، فقال تعالى: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} [غافر: 39].

وقال تعالى: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا هُوءٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهيَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [العنكبوت: 64].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: أمرنا بالعدل المطلق، فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: 90].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: بين لنا أن من اتصف بالعدل في الدنيا، سيجلس يوم القيامة على منبر من نور عن يمين الله تعالى، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ تَعَالَى، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ، وَأَهْلِيهِمْ، وَمَا وَلُّوا).

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع سبب من أسباب الذعيم في القبر، ألا وهو: العدل بين الأولاد، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر

عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا:

الحقيقة الأولى: إن الله تعالى الذي يعطى الذرية لمن يشاء من عباده الذكور فقط، كما يعطى الذرية لمن يشاء من عباده الإناث فقط، وقد يخلط بين النوعين، وقد يمنع الإنجاب على الإطلاق، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيًّا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [الشورى: 49، 50].

ولقد جعل الأولاد تارة زينة الحياة الدنيا، فقال تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} [الكهف: 46].

وكما جعلهم تارة أخرى نعمة عظيمة تستحق شكر الواهب المنعم، فقال تعالى: {وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا} [الإسراء: 6].

وجعلهم تارة أخرى قرّة أعين؛ إذا كانوا سالكين مسلك المتقين، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: 74].

وكما جعلهم تارة أخرى فتنة وابتلاء، وحذرنا منها، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التغابن: 14].

ولا يغيب عن الجميع ما فعله الخضر في الغلام الذي قتله، واستنكر عليه سيدنا موسى عليه السلام هذا العمل، فقال تعالى: {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا} [الكهف: 74].

فأراد الخضر أن يبين له حقيقة هذا الغلام، وأنه لا يستحق الحياة؛ لأنه سيكون فتنة لو ألبس، وسيكون سبباً في كفرهم بالله تعالى، فقال تعالى: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَرَدَدْنَا أَنْ

يُبدِّلُهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} [الكهف: 80، 81].

الحقيقة الثانية: إن الشرع الحنيف حمل الأب والأم المسؤولية الكاملة عن الأولاد، فالأولاد أيا كان نوعهم مسؤولية كبيرة، وأمانة عظيمة، سَيُسْأَلُ العبدُ عنها يوم القيامة، هل فرط فيها، أم أداها كاملة، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: 6].

وأشار الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً إلى هذه الحقيقة، فروى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْحَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، قَالَ: فَسَمِعْتُ هَؤُلَاءِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَحْسِبُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ).

وروى الترمذي وابن حبان أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله سائل كل ذي رعية فيما استرعاه، أقام أمر الله تعالى فيهم، أم أضاعه، حتى إن الرجل ليسأل عن أهل بيته).

فالواجب على كل مسلم أن يراعي هذه الأمانة، ويقوم بأدائها على أكمل وجه، وإن التقريط في هذه الأمانة يعرض الإنسان إلى العذاب الأليم يوم القيامة، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ما من عبد يسترعيه الله رعيةً، يموت يوم يموت وهو غاشٍ لرعيته، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الْجَنَّةَ).

فإياك أخي المسلم أن تكون من الذين فرضوا في هذه المسؤولية الموكلة إليهم، وخانوا هذه الأمانة وضيعوها، فإن ذلك يعرضك لغضب المنتقم الجبار.

الحقيقة الثالثة: إن الشرع الحنيف ألزم كل مسلم بطاعة الله تعالى

وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في كل مجالات الحياة، من عبادة، وشرعية، وأخلاق، وسياسة، فطاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في كل مجالات الحياة أمر محتّم علينا، وليس لنا فيه أي خيار. وهذه الحقيقة ترد على من يزعم أن له مطلق الحرية في ماله وأولاده، فيفعل فيهما ما يشاء، أو كما يروق له، ولكن الأمر ليس كذلك، فالمسلم فينا لا يكمل إيمانه ولا يصح، إلا إذا التزم بمنهج الله تعالى ومنهج الرسول صلى الله عليه وسلم في ماله وأولاده.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا} [الأحزاب: 36].

وقال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور: 51].

وروى البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير، أن عبد الله بن الزبير رضوان الله عليهم حدثه: أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير بن العوام رضي الله عنه عند الرسول صلى الله عليه وسلم في شراج الحرة (مسائل الماء، والحرّة هي الأرض الملسة التي بها حجارة سوداء) التي كانوا يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سَرَّحَ الماءَ يَمُرُّ، فأبى عليهم، فاختصموا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير: (اسق يا زبير، ثم أرسل إلى جارك، فغضب الأنصاري، فقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمك!، فقتلوا وجـ

الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال: (يا زبير اسق، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر،) (وجمعه جُدر، والمراد به بالجدر أصل الحائط).

فقال الزبير رضي الله عنه: والله إنني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 65].

فلقد جعل الشارع الحذيف الطاعة من مقتضيات الإيمان الكامل،

فإيماننا لا يكمل بل لا يصح إلا إذا حققنا منهج الطاعة لله تعالى ولرَسُوله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 64، 65].

فالواجب على كل أب أن يلتزم بمنهج الله تعالى ومنهج الرسول صلى الله عليه وسلم، في معاملته لأولاده، ويحقق فيهم منهج السمع والطاعة.

الحقيقة الرابعة: إن الشرع الحنيف جعل مراقبة الله تعالى أمراً مفروضاً على كل مسلم ومسلمة، فالكل سواء أمام هذا الواجب، وهذه الحقيقة ترد على الآباء الذين يتحايلون على شرع الله تعالى، ويقومون بأعمال مشبوهة شرعاً، من أجل إعطاء أحد أبنائه عطية دون غيره، فيعطي الأب أحد أبنائه عطية في صورة بيع، وهي ليست بيعاً في الحقيقة، وذلك كالهبة المستترة.

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: ((اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)).

فالواجب على كل مسلم أن يراقب المولى تعالى في السر والعلانية؛ لأن مراقبة الله تعالى تمنع الإنسان أن يخالف أمره، أو أن يشذ عن الحق، ولقد حثنا القرآن على مراقبة الله تعالى، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1].

وقال تعالى: {يَا بَنِي إِدْمَانَ إِنَّكَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 16].
ولقد حقق سيدنا يوسف عليه السلام مراقبة الله تعالى على أكمل

وجه، فكانت سبباً في نجاته من الوقع في المعصية، اقرأ معي قول الله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف: 22 - 24].

ولقد طبق سلفنا الصالح مراقبة الله تعالى كما أمر الشرع الحنيف، فكانت لهم حرزاً من الوقع في المعصية، فعاشوا في الدنيا سعداء، وماتوا كرماء، وأورثهم ربهم جنة عرضها السموات والأرض، يقول عبد الله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة، فعرسنا ببعض الطريق - نزلنا للراحة - فأنحدر علينا راع من الجبل، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا راعي الغنم بعنا شاة من هذا الغنم، فقال: إني مملوك، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قل لسيديك أكلها الذئب، فقال العبد: فأين الله؟

فبكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأخذ يقول: فأين الله تعالى؟ ثم غدا إلى سيد الراعي، فاشتراه من مولاه، وأعتقه، وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

وأراد أحد سلفنا الصالح أن يعلم تلاميذه كيفية مراقبة الله تعالى، فأمر كل تلميذ من تلاميذه أن يحضر دجاجة، ثم يقوم بذبحها شريطة أن يكون ذلك في مكان لا يراه فيه أحد.

وفي اليوم التالي جاء كل تلميذ وقد ذبح كل واحد منهم دجاجته، إلا واحداً، فقد أتى بها حية لم يذبحها، فسأله الشيخ: لما لم تذبح الدجاجة؟ قال: لأنني لم أستطع الوفاء بالشرط، قال له: كيف ذلك؟ قال: لأنني حيثما ارتحلت، وحيثما اتجهت وجدت أن الله تعالى مطلع عليّ ويراني.

ثم قرأ قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7].

فالواجب على كل مسلم يريد أن يجعل لنفسه حرزاً من المعصية، أن يراقب الله تعالى في السر والعلانية، حتى يبتعد عن المعصية، ويكون في معية الله تعالى.

إخوة الإسلام:

لقد اهتم الشرع الحنيف اهتماماً بالغاً بضرورة العدل بين الأولاد، فلقد وضع الشرع الحنيف ضوابط متعددة لتحقيق العدل بين الأولاد، فتعالوا معي لتتعرف على هذه الضوابط.

أولاً: وجوب العدل بين الأولاد في كل شيء:

فإن الله تعالى جعل العدل بين الأولاد أمراً واجباً، وفريضة محتمة، وجعله غير مقصور على جانب واحد، وبين ذلك في قرآنه، فقال تعالى: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الأنعام: 152].

وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: 90].

ولقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً أن العدل بين الأولاد أمراً واجباً، فروى البيهقي والطبراني في معجمه الكبير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (سَوَّاءٌ بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِي الْعَطِيَّةِ، فَلَوْ كُنْتُ مُفَضَّلًا أَحَدًا، لَفَضَّلْتُ النِّسَاءَ).

وروى البيهقي وابن أبي الدنيا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (اعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِي التُّحْلِ، كَمَا تُحِبُّونَ أَنْ يَعْدِلُوا بَيْنَكُمْ فِي الْبِرِّ وَاللُّطْفِ). وروى أن الحسن قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث أصحابه حديثاً، إذ جاء صبي حتى انتهى إلى أبيه في ناحية القوم، فمسح رأسه، وأقعده على فخذه اليمنى، قال: فابث قليلاً، فجاءت ابنة له حتى انتهت إليه، فمسح رأسها، وأقعدها في الأرض، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (فهلا على فخذك الأخرى).

ففي هذا التوجيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم دلالة واضحة إلى وجوب العدل بين الأولاد في كل شيء، حتى ولو كان هذا الشيء من الأمور اليسيرة.

ثانياً: القرن بين التقوى والتسوية بين الأولاد.

فالرسول صلى الله عليه وسلم قرن في الأمر بين تقوى الله تعالى وبين التسوية بين الأولاد، وذلك ليدل على أهمية العدل بين الأولاد، وأن المسلم لا يستطيع أن يحقق التقوى كاملة، إلا إذا حقق العدل بين الأولاد، فروى البخاري ومسلم وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اتقوا الله، واعدلوا بين أولادكم).

ثالثاً: النهي عن الشهادة في العطية الجور.

فالرسول صلى الله عليه وسلم أعطى لنا أروع الأمثلة في عدم الشهادة على العطية التي فيها جور، فقد رفض أن يشهد على عطية أحد الآباء لأبنائه، ورفضه صلى الله عليه وسلم لهذه الشهادة دليل على اهتمام الشرع الحنيف بوجوب العدل بين الأولاد في العطية، فروى البخاري ومسلم عن النعمان بن البشير قال: سَأَلْتُ أُمِّي أَبِي بَعْضَ الْمَوْهَبَةِ لِي مِنْ مَالِهِ، فَأَلْتَوَى بِهَا سَنَةً، ثُمَّ بَدَأَ لَهُ، فَوَهَبَهَا لِي، وَإِنَّهَا قَالَتْ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ مَا وَهَبْتَ لِابْنِي، فَأَخَذَ بِيَدِي وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ، فَآتَى بِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمَّ هَذَا ابْنَةُ رَوَاحَةَ قَاتَلْتَنِي مُنْذُ سَنَةٍ عَلَى بَعْضِ الْمَوْهَبَةِ لِابْنِي هَذَا، وَقَدْ بَدَأَ لِي، فَوَهَبْتُهَا لَهُ، وَقَدْ أَعْجَبَهَا أَنْ تُشْهَدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَقَالَ: (يَا بَشِيرُ أَلَيْكَ وَلَدٌ سِوَى وَلَدِكَ هَذَا؟)، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَلَا تُشْهَدْنِي، أَوْ قَالَ: (لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ).

وفي رواية أحمد في المسند أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم، فلا تشهدني على جور، أيسرك أن يكونوا إليك في البر سواء؟)، قال: بلى، قال صلى الله عليه وسلم: (فلا إذاً).

وفي رواية أبي داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن لهم عليك من الحق أن تعدل بينهم، كما أن لك عليهم من الحق أن يبروك).

فالرسول صلى الله عليه وسلم اعتبر ما فعله والد النعمان من باب الظلم، وإن الشهادة عليه يعتبر من باب شهادة الزور، ولقد حذرنا الشرع منها، فالقرآن الكريم جعلها تساوي الشرك بالله تعالى في الإثم، فقال تعالى: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} [الحج: 30].

ففي هذه الآية قرن الله تعالى شهادة الزور بعبادة الأوثان، وذلك دلالة على خطورة شهادة الزور، وكذلك سوى الرسول صلى الله عليه وسلم بين شهادة الزور والشرك بالله تعالى، فروى أحمد والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أيها الناس: عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله تعالى، ثم قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} [الحج: 30].

وبين الرسول صلى الله عليه وسلم أن شهادة الزور من أكبر الكبائر، فروى البخاري ومسلم عن أبي بكر رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر-)، قلنا: بلى يا رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين-)، وكان متكئاً فجلس، ثم قال: (ألا وشهادة الزور، ألا وشهادة الزور-)، فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت.

وتعتبر الشهادة على هذا الصنيع من باب إعانة الظالم على ظلمه، ولقد حذرنا المولى تعالى من ذلك، فقال تعالى: {وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} [هود: 113].

وروى الطبراني في معجمه الكبير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ مَشَى مَعَ ظَالِمٍ لِّيُعِينَهُ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ ظَالِمٌ، فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الْإِسْلَامِ).

ويعتبر هذا العمل من باب التعاون على الإثم والعدوان، وقد حذرنا الله تعالى منه، فقال: {وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: 2].

وقال العلماء: يجب الإنكار على من خالف، ففضل بعض أولاده على بعضهم في الهبة؛ لأنه حيف وظلم، وتأسياً بما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم مع والد النعمان.

رابعاً: جواز التفضيل في العطية لمسوغ شرعي:

فإذا كان التفضيل له مسوغ شرعي كأن تقوم حاجة الأولاد لم تقم بالآخرين، كمرض، أو دين عليه، أو مكافأة له على حفظه للقرآن مثلاً، أو طالب علم متفرغ، فلا حرج في ذلك، ولكن على الوالد أن ينوي إذا أعطى أحداً من أولاده لسبب شرعي، أنه لو قام بولد آخر مثل حاجة الذي أعطاه، أنه سيعطيه كما أعطى الأول.

و هذا ما فعله أبو بكر الصديق رضي الله عنه مع السيدة عائشة رضي الله عنها فروى عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أبو بكر نحلني جزاء عشرين وسقا من ماله.

وفعل ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع ابنه عاصم، وفعل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه مع ابن له من أم كلثوم، وفعل ذلك عبد الله بن عمر رضي الله عنهم مع ابن له.

خامساً: جعل الشرع فرقاً بين النفقة والعطية:

فهناك فرق بين الإنفاق والعطية، فالإنفاق واجب على الوالد تجاه أولاده، وليس بشرط أن يعدل بينهم في الإنفاق، فقد يحتاج أحدهم إلى أكثر مما يحتاجه الآخرين، فمثلاً قد يكون أحدهم طالباً في الجامعة، والآخرين في الابتدائي، أو التعليم المتوسط، فلا شك أن طالب الجامعة يحتاج من المصاريف أكثر مما يحتاجه من هو أقل منه تعليمياً، وقد يكون أحدهم طويلاً والآخر قصيراً، فيحتاج الطويل إلى أكثر مما يحتاجه القصير، فلا يلزم التسوية بينهم في ذلك؛ لأن هذا من قبيل الإنفاق، وليس من جهة العطية والهبة.

سادساً: أباح الشرع للوالد الرجوع في العطية:

فعلى الأب الذي خص بعض أولاده بعطية أن يرجع في عطيته، ولا يعتبر في هذه الحالة داخلاً في النهي عن استرداد العطية، وتشبيهه الفاعل بالكلب يعود في قيئه؛ لما رواه أبو داود وأحمد وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يُعْطِيَ عَطِيَّةً، أَوْ يَهَبَ هَبَةً، فَيَرْجِعَ فِيهَا، إِلَّا الْوَالِدَ فِيمَا يُعْطِي وَلَدَهُ، وَمَثَلُ الَّذِي يُعْطِي الْعَطِيَّةَ ثُمَّ يَرْجِعُ فِيهَا، كَمَثَلِ

الْكَلْبِ يَأْكُلُ، فَإِذَا شَبِعَ قَاءً، ثُمَّ عَادَ فِي قَيْئِهِ-

وهذا ما فعله أبو بكر رضي الله عنه مع السيدة عائشة رضي الله عنها وذلك حين حضرت الوفاة أبا بكر رضي الله عنه قال لعائشة (رضي الله عنها): يا بنية، إن أحب الناس غنى بعدى لأنت، وإن أعز الناس عليّ فقراً بعدى لأنت، وأني كنت نحتك جذاذ عشرين وسقاً من مالي، ووددت أنك جذذته وحزته، وإنما هو اليوم مال الوارث، وإنما هما أخواك وأختاك، قالت: هذان أخوأي، فمن أختاي، قال: ذو بطن بنت خارجه، فأني أظنها جارية.

سابعا: أمر الله الآباء بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار:

وهذا لن يتأتى إلا بأمور كثيرة، من أهمها: تحقيق العدل المطلق بين الأولاد، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: 6].

ثامنا: وجوب المحبة بين الأولاد:

وهذا لن يتأتى إلا بالعدل في العطية بينهم، فالعدل في العطية من شأنه أن يحقق الأخوة والتعاون والمحبة بين الأولاد، أما الجور في العطية يكون سبباً في الهجر والشقاق بين الأولاد، وهذا منهي عنه، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ-).

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على الدوافع التي تدفع الوالدين أو أحدهما إلى عدم العدل في العطية بين الأولاد، فهناك دوافع كثيرة تحمل على هذا العمل البغيض، منها ما يلي:

أولاً: اتباع الهوى:

فالأب الذي لا يعدل بين أولاده في العطية قد اتبع هواه، وانحرف عن منهج الله تعالى، والله تعالى قد حذرنا من اتباع الهوى؛ لأن اتباع

الهوى يؤدي بالإنسان إلى الانحراف عن منهج الله تعالى، فقال: {وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون: 71].

وقال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية: 23].

ولم يكتف الأمر عند هذا الحد، بل بين الله تعالى العذاب الذي أعده لمن انحرف عن المنهج واتبع هواه، فقال تعالى: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} [طه: 123 - 127].

وقال تعالى: {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى} [طه: 15، 16].

وقال تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُضْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: 115].

ثانياً: معصية الله تعالى :

فعدم الطاعة لأوامر الله تعالى، سبب في عدم العدل في العطية بين الأولاد، ولقد حذرنا الله من معصيته تعالى، فقال: {وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} [النساء: 14].

وقال ﷺ: {وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا أَبَداً} [الجن: 23].

ولقد وجه الله تعالى إنذاراً شديداً للهِجَة لكل من تُسول له نفسه الانحراف عن طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً

شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً
يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّخُرَاجِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً {الطلاق: 8 - 11}.

ثالثاً: عدم مراقبة الله تعالى .

فالإنسان إذا غفل عن مراقبة الله تعالى يعمل ما يحلو له، ولا يهمله
هل ما فعله موافق لشرع الله تعالى أم لا؟ فماذا يقول الغافل عن مراقبة
الله تعالى، حينما يسأله المولى تعالى عن سبب عدم العدل في العطية بين
أولاده؟

فإذا أذكر الظالم ما فعله، أمر الله تعالى الشهود لتشهد عليه، وأول
شاهد يشهد على الإنسان يوم القيامة هو: الأرض، التي نمشي عليها، ونأكل
منها، وننام عليها، فقال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ
الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ
أَوْحَى

لَهَا * يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: 1 - 8].

وأما الشاهد الثاني هو: الملائكة، الذين يكتبون على الجميع أعمالهم،
ويسجلون على الكل الحسنات والسيئات، فقال تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا
نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: 80].

وقال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}
[الانفطار: 10 - 12].

وأما الشاهد الثالث هو: الجوارح، التي هي من نعم الله تعالى على
الجميع، فقال تعالى: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ
أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يسن: 65].

وقال تعالى: {حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ
وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا دُعَاهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ
الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ

أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ {فصلت: 20 - 24}.

وأما الشاهد الرابع هو: الله تعالى، فقال تعالى: {سُرِبِمِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} {فصلت: 53}.

رابعاً: العقوق للوالدين،

فعندما يقوم الابن منا بعقوق والديه، يقوم الأب بمعاقبة ابنه العاق، فيحرمه من العطية، بدجة أنه عاق له، فالعقوق لا يُجوز الجور في العطية بين الأولاد، فقال تعالى: {أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: 11].
ولذلك يقال: العقوق لا يمنع الحقوق.

خامساً: الاستهانة بعقوبة الله تعالى للظالم،

فالإنسان منا عندما يستهين بعقاب الله تعالى، يفعل ما يروق له، حتى ولو كان هذا الفعل مخالفاً لمنهج الله تعالى، ومنهج الرسول صلى الله عليه وسلم، فانه تعالى لا يغفل البتة عما يعملها الظالم، وليس مهملاً له، وليس تاركاً لعقابه، بل يحصي ذلك عليه ويعدده عداءً، انطلاقاً من قوله تعالى: {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا} [مريم: 84].

واسمع معي إلى ما أعده الله تعالى من عذاب للظالم، فقال: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتُهُمْ هَوَاءً * وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ * وَسَكَتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} [إبراهيم: 42 - 50].

وقال تعالى: {فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} [إبراهيم: 13].

وقال تعالى: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأنعام: 93].

سادساً: أن يكون الولد من غير الجنس المرغوب فيه،

وذلك بأن يكون أنثى، فلا يحب الذكر دون الأنثى، وما ذنب الولد إذا جاء أنثى، هل كونه أنثى يبيح للأب أن يحيف في عطيته للأولاد، ويتحجج الأب بحجج واهية، فإذا عذبت على أي إنسان يفعل هذا العمل القبيح، بادرك بالقول: كيف أجمع المال وأتعب فيه، ويأتي رجل ليس من جنسي ويأخذ هذا المال؟ فيقوم هذا الأب بظلم ابنته.

وقد يكون ظلم البنت في العطية سبباً في طلاقها، وقد يكون سبباً في وجود الخلاف والنزاع والشقاق بين الأخت وأخواتها الذكور، وهذا واضح كل الوضوح والواقع الذي نعيش فيه.

وإذا نظرنا إلى الشرع الحنيف نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصانا بالبنات، فروى البخاري وأحمد واللفظ له، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كُنَّ سِرّاً لَهُ مِنَ النَّارِ).

وروى البيهقي والطبراني في معجمه الكبير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (سَوُّوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِي الْعَطِيَّةِ، فَلَوْ كُنْتُ مُفَضَّلاً أَحَدًا، لَفَضَّلْتُ النِّسَاءَ).

وروى أحمد وأبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ عَالَ ثَلَاثَ بَنَاتٍ، فَأَدَبَهُنَّ، وَزَوَّجَهُنَّ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، فَلَهُ الْجَنَّةُ).

فالواجب على كل مسلم أن يعدل بين أولاده، ولا يتحجج بحجج واهية، فإن هذا لا ينفعه يوم القيامة، اقرأ معي قول الله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [غافر: 52].

* * *

الصبر على الابتلاء

الصبر على الابتلاء

أسباب نعيم القبر

الصبر على الابتلاء

الحمد لله رب العالمين: الذي خلق آدم من طين فسواه، ورد إلى يعقوب بصره حين ابيضت عيناه، وقال لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم: {وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل: 127]

الملك ملكه، والحكم حكمه، والأمر أمره، إنما أمره بين الكاف والنون إذا قال للشيء كن فيكون.

سبحانه: يغفر الذنوب، ويستتر العيوب، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ويعلم ما تفعلون، وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بين لنا في قرآنه أن الابتلاء في الدنيا أمر محتوم، فقال تعالى: {الْم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: 1 - 3]

وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بين لنا فضل الصبر على الابتلاء، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ما يُصِيبُ الْمُؤْمِنُ مِنْ وَصَبٍ (المرض) وَلَا نَصَبٍ (التعب) وَلَا سَقَمٍ (الآلام) وَلَا حَزَنٍ، حَتَّى الْهَمَّ يَهْمُهُ إِلَّا كَفَرَبَهُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ).

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد إخوة الإسلام:

ما زال الحديث موصولاً مع الدرس الثاني من الدروس المستفادة من الصوم، ألا وهو الصبر، وكنا في الجمعة الماضية تكلمنا عن الصبر على الطاعة، واليوم نكمل المسيرة ولكن مع مجال آخر من مجالات الصبر، ألا وهو: الصبر على الابتلاء.

فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني

وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك وهو القادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق هي الأساس في موضوعنا اليوم:

الحقيقة الأولى: إن الإنسان في هذه الحياة الدنيا عرضة للابتلاء والاختبار، عرضة لنوازل الدهر وهجوم الأحداث، عرضة للفقر والمرض، عرضة للهم والحزن والتعب، عرضة لنقص في الأموال والأنفس والثمرات.

فهذا هو شأن الدنيا وحالها، لا تعطي إلا لتأخذ، ولا تلمع فيها بوارق الأمل لحظة إلا وتتبعها سحب الآلام والأسقام، إن أضحكت يوماً أبكت أياماً، وإن أحسنت ساعة أساءت ساعات، فما أكثر همومها وشقاءها، وما أعظم كربها وبلاؤها.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ} [البقرة: 155].

وقال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [محمد: 31].

فالابتلاء في الدنيا أمر محتوم، فكل إنسان في هذه الحياة معرض للابتلاء لا محالة، فلا راحة من الابتلاء إلا إذا منَّ الله تعالى عليك بدخول الجنة، وصدق الله تعالى إذ يقول: {الْم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: 1 - 3].

قال ابن القيم: سأل رجل الشافعي، فقال: يا أبا عبد الله، أيهما أفضل للرجل: أن يُمَكَّنَ فيشكر الله تعالى، أو يُبْتَلَىٰ بالشر فيصبر؟ فقال الشافعي: لا يُمكن حتى يُبتلى، فإن الله تعالى ابتلى نوحاً عليه السلام وإبراهيم عليه السلام ومحمداً صلى الله عليه وسلم فلما صبروا مكنهم الله تعالى، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة.

الحقيقة الثانية: إن الله تعالى قدر المقادير قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء).

وقال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ [الحديد: 22، 23].

وما دام الأمر كذلك، ولا يستطيع أي فرد فينا أن يغير شيئاً من قدر الله تعالى، فلا بد من الصبر حلواً كان أو مرأ؛ ليبقى لك الثواب.

فكل إنسان فينا في حاجة شديدة إلى الصبر؛ ليتسلح به ويحميه عند النوازل، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {لَتَبْلُؤَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران: 186].

يقول الغزالي: إن الصبر خاصية الإنسان، ولا يتصور ذلك في البهائم ولا في الملائكة، أما البهائم فلنقصانها، أما الملائكة فلكمالها.

فالصبر على الابتلاء رحمة من الله تعالى أنزله الله تعالى في قلوب أهل الإيمان، فهو مفتاح كل خير، ودواء لكل داء، ولولاه لهلك الناس جميعاً، واختلطت الأعمال، وخربت الدنيا، وهان على الناس التخلص من الحياة، واعترضوا على القضاء، وتبرموا من القدر، وكفروا برب العالمين.

واسمع معي إلى المولى تعالى وهو يشير إلى هذا فيقول في الحديث القدسي: (ثلاث أشياء وسعت بها عليكم أرزاكم: الأولى سلطت السوس على الحب، ولولا ذلك لكنزه الأغنياء عنكم، والثانية: سلطت العفن على أجسادكم، ولولا ذلك ما دفن حبيب حبيبه، ولا ألو رحم رحمه، والثالثة: سلطت الصبر، ولولا أني أنسي أهل الأحزان أحزانهم، ما نسوا من بكوا عليهم - فالصبر نعمة من الله تعالى لعباده، ينعم الله تعالى به على من شاء من عباده).

الحقيقة الثالثة: إن الصبر على الابتلاء من أعلى مقامات الصبر، قال ابن عباس رضي الله عنهم: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء فرائض الله تعالى، فله ثلاثمائة درجة، وصبر عن محارم الله تعالى، فله ستمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، فله تسعمائة درجة.

وإنما كان الصبر على الابتلاء من أعلى مقامات الصبر؛ لأنه شديد على النفس، فلا يقدر عليه إلا الأنبياء ومن نهج نهجهم، ولأنه بضاعة الصديقين، ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى ابن ماجه والحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو موعوك (محموم) عليه قطيفة، فوضع يده فوق القطيفة، فقال: ما أشد حُمَاكَ يا رسول الله؟! قال صلى الله عليه وسلم: (إنا كذلك يُشدد علينا البلاء، ويُضاعف لنا الأجر - ثم قال: يا رسول الله من أشد الناس بلاء؟ قال صلى الله عليه وسلم: (الأنبياء - قال: ثم من؟ قال صلى الله عليه وسلم: (العلماء - قال: ثم من؟ قال صلى الله عليه وسلم: (الصالحون، وكان أحدهم يُبتلى بالقمل حتى يقتله، ويُبتلى أحدهم بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يلبسها، ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء من أحدهم بالعطاء--.

ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الله تعالى أن يرزقه الصبر على الابتلاء، فروى الترمذي والنسائي والحاكم، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أسألك من اليقين ما تهون علي به مصائب الدنيا).

الحقيقة الرابعة: ما هو الصبر على الابتلاء؟ الصبر هو: أن يرضى الإنسان بقضاء الله تعالى وقدره، دون سخط أو اعتراض أو تذمر.

وقيل: هو ترك الشكوى من ألم البلى لغير الله تعالى؛ فالشكوى لله تعالى لا تتعارض مع الصبر، لأن الله تعالى أثنى على عبده أيوب عليه السلام بالصبر،

فقال تعالى: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص44].

مع أنه دعا ربه أن يكشف عنه الضر، فقال تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأنبياء: 83].

فيفهم من هذا: أن العبد إذا دعا الله تعالى في كشف الضر عنه، لا يقدح في صبره.

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على موقف الشرع الحذيف من الصبر على الابتلاء.

لقد اهتم الدين الإسلامي اهتماماً بالغاً بالصبر على الابتلاء، وحثنا عليه جميعاً؛ لأن الحياة لن يكون لها طعم إلا بالصبر على الابتلاء، ولا يشعر الإنسان بالسعادة في الدنيا إلا به.

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم نجد أن الله تعالى أمرنا أن تخلق بخلق الصبر عند الابتلاء.

ففي سورة البقرة نجد أن الله تعالى يأمرنا بالصبر على الابتلاء قبل وقوعه، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} * وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: 153 - 157].

ويقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: 200].

وفي آية أخرى يبين الله تعالى أن الجنة لن يدخلها إلا من تخلق بخلق الصبر على الابتلاء، فقال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مِّثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: 214].

ويقول تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: 142].

وفي آية أخرى بين الله تعالى أن من يصبر على الابتلاء لا يضره
شئ

فقال تعالى: {إِنْ تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران: 120].

ولم يكن الصبر على الابتلاء مفروضاً على أمة الرسول صلى الله عليه وسلم فقط، بل فرضه الله تعالى على كل الأمم، وعلى الأنبياء والمرسلين.

فهذا سيدنا إسماعيل عليه السلام تخلق بخلق الصبر وبالتحديد في أصعب المواقف، فقال تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ} [الصافات: 102].

وهذا سيدنا يعقوب عليه السلام قال الله تعالى في شأنه: {وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يوسف: 18].

وهذا سيدنا موسى عليه السلام يأمر قومه بالصبر، فقال تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: 128].

وهذا سيدنا أيوب عليه السلام قال الله تعالى في شأنه: {وَوَحَدْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: 44].

وهذا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أمره الله تعالى بالصبر، فقال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَاؤُا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاحٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ} [الأحقاف: 35].

وقال تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ} [القلم: 48] إلى غير ذلك من الآيات التي تحدثنا جميعاً على الصبر.

وجاءت السنة النبوية تحتنا جميعاً على الصبر، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء فشكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر، كان خيراً له).

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنسوق بعض النماذج من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن حياة سلفنا الصالح نتعلم كيف يكون الصبر على الابتلاء.

النموذج الأول: رزق الله تعالى سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم إبراهيم بعد شوق طويل إلى الولد، وفرح به أعظم الفرح، ووجد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم عوضاً عما فقد، وتمنى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبقيه الله تعالى ليسعد به في شيخوخته، وليكون له عَقَباً وذكرى.

ولكن إبراهيم لم يبلغ ستة عشر شهراً، أو ثمانية عشر شهراً، حتى مرض، فلما كان في الاحتضار أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم فاعتمد على عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه لشدة ألمه، فقام الرسول صلى الله عليه وسلم ومشى حتى رأى إبراهيم في حجر أمه، وهو يُصَعَّدُ آخر أنفاسه، فوضعه في حجره، والحزن يعتصر قلبه العظيم، وقال: (إنا يا إبراهيم لا نغني عنك من الله شيئاً - ثم صمت وبكى، فلما أيقن الرسول صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم قد ودع الحياة، سال الدمع من عينيه وهو يقول: (يا إبراهيم لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وإن آخرنا سيلحق بأولنا، حزننا عليك أشد من هذا).

فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (يا ابن عوف: إنها رحمة - ثم أتبعها عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بأخرى، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا لفرাকك يا إبراهيم لمحزونون).

فالرسول صلى الله عليه وسلم كان قد بلغ الستين من عمره وهو يشيع

ابنه الحبيب، شاعراً بفداحة الخطب، لكنه راضٍ بقضاء الله تعالى، صابر لما أراد، حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال للجبل الذي دفن فيه ولده: (يا جبل: لو كان بك مثل ما بي هذك، ولكن: إنا لله وإنا إليه راجعون).

فالواجب على المسلم أن يتأسى بالرسول صلى الله عليه وسلم عند الابتلاء، وبالأخص عند فقد الولد، أو عزيز لديه، وعلى المسلم أن يلتزم بهدي الرسول صلى الله عليه وسلم عند الابتلاء، فروى أبو داود عن أم سلمة قالت: سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله تعالى: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبي، واخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها).

وروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إذا مات ولدُ العبد، قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول تعالى: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه: بيت الحمد).

النموذج الثاني: وهو لسيدنا عروة بن الزبير، قال ابن القيم: قدم عروة ابن الزبير على الوليد بن عبد الملك، ومعه ابنه محمد، وكان من أحسن الناس وجهاً، فدخل يوماً على الوليد في ثياب وشي (أي معلمة ومخططة) وله غدیرتان وهو يضرب بيده، فقال الوليد: هكذا تكون فتیان قریش فعانه (أي حسده) فخرج من عنده، فوقع في إصطبل الدواب، فلم تنزل الدواب تطؤه بأرجلها حتى مات، ثم إن الأكلة وقعت في رجل عروة، فبعث الوليد إليه بالأطباء، فقالوا: إن لم نقطعها سرت إلى باقي الجسد فتهلك، فعزم على قطعها، فنشروها بالمنشار، فلما صار المنشار إلى القصبة، وضع رأسه على الوسادة، فغشي عليه، ثم أفاق والعرق يتحدّر على وجهه، وهو يهلل ويكبر، فأخذها وجعل يقبلها في يده، ثم قال: أما والذي حملني عليك، إنه ليعلم إنني ما مشيت بك إلى حرام، ولا إلى معصية، ولا إلى مــــا لا يرضــــي الله تعالى، ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت في قضيصة، ثم بُعث بها إلى مقابر المسلمين، فلما قدم من عند الوليد إلى المدينة، تلقاه أهل بيته

وأصدقائه يعزونه، فجعل يقول كما قال المولى تعالى: {لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا} [الكهف: 62] ولم يزد، ثم أنه قال: إن سلبت فطالما أعطيت، وإن أخذت فطالما أبقيت، وأبقيت لنا فيك الأمل، يا برُّ يا وصول.

النموذج الثالث: روى البخاري عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهم: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، فقال صلى الله عليه وسلم: (إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك).

فقلت: أصبر، ولكني أتكشف فادع الله تعالى لي ألا أتكشف، فدعا لها الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك.

فاقتد بهم أخي المسلم واصبر على الابتلاء، فإن الفرج من الله تعالى، والله در من قال:

يا صاحب الهم، إن الهم منفرج :: أبشر بقرب فإن الفارج الله
إذا بليت فثق بالله وارض به :: إن الذي يكشف البلوى هو الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرتة :: ما لمرء حيلة فيما قضى الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه :: لا تجزعن فإن الكافي الله
والله مالك غير الله من أحد :: فقل بقلب سليم حسبي الله

والصبر على الابتلاء يكون عند الصدمة الأولى، روى البخاري وأحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن الرسول صلى الله عليه وسلم أتى على امرأة تبكي على صبي لها، فقال لها: (اتقي الله واصبري) - فقالت: وما تبالي بمصيبتي، فلما ذهب، قيل لها: إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذها مثل الموت، فأنت بابيه، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: يا رسول الله لم أعرفك، فقال صلى الله عليه وسلم: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى).

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على النتائج المترتبة على الصبر على الابتلاء:

أولاً: الرحمة والهداية من الله تعالى.

قال تعالى: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: 156، 157].

ثانياً: البشري من الله تعالى :

قال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [الحج: 34، 35].

ثالثاً: عدم إضاعة العمل:

قال تعالى: {قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَآ فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ} * قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنَ يَتَقٍ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: 89، 90].

رابعاً: المعية:

فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: 153] وهذه المعية منه تعالى تتضمن حفظهم ورعايتهم، وتأييدهم بنصره، وحمايته لهم.

خامساً: نيل الأجر بلا حدود:

قال تعالى: {إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: 10].

سادساً: تسليم الملائكة عليهم في الجنة:

قال تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} * جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: 22 - 24].

سابعاً: نيل الدرجات العلا في الجنة:

قال تعالى: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} * مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا} *

وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ * قَوَارِيرٍ مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا * عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ أَثِمًا أَوْ كَفُورًا { [الإنسان: 12 - 24].

ثامنا: محبة الله تعالى لهم:

قال تعالى: {وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: 146].

* * *

الصبر على الطاعة

الصبر على الطاعة

أسباب نعيم القبر

الصبر على الطاعة

الحمد لله رب العالمين: الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون.

سبحانه: جعل الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين، فقال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: 24]

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بين لنا في قرآنه ما أعهده للصابرين، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: 22 - 24]

وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بين لنا أن الصوم نصف الصبر، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (التسبيح نصف الميزان، والحمد لله يملؤه، والتكبير يملأ ما بين السماء والأرض، والصوم نصف الصبر، والطهور نصف الإيمان).

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

إننا اليوم مع الدرس الثاني المستفاد من الصيام، هذا الدرس الذي معنا اليوم، لن نستطيع الإنسان أن يحقق العبادة لله إلا به، أتدرون ما هو هذا الدرس الذي نعيش معه اليوم؟ إنه الصبر، هذا الدرس مستفاد من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (... والصوم نصف الصبر).

فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك وهو القادر

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق هي الأساس في موضوعنا اليوم.

الحقيقة الأولى: لماذا خلقنا الله تعالى ؟ هل خلقنا لنأكل ونشرب وفقط؟ هل خلقنا لنبحث عن المجد والشهرة والمال؟ هل خلقنا للعبع ونلهو؟ هل خلقنا لنتمتع بزيينة الدنيا وفقط؟ أم خلقنا بدون هدف، كما يذيل لبعض الناس، قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [المؤمنون: 115، 116] لا والله، إن الله تعالى خلقنا لغاية واحدة، ألا وهي تحقيق العبودية لله تعالى، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: 56 - 58].

وقال الله تعالى في الحديث القدسي: (يا عبادي ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة، ولأستعين بكم على عمل عجزت عن فعله، ولا لأستكثر بكم من قلة، ولكن خلقتكم كي تعبدوني طويلاً، وتذكروني كثيراً، وتسبحوني بكرة وأصيلاً).

الحقيقة الثانية: إن الإنسان العاقل هو الذي يعلم أن عمره في الدنيا محدود، وأنفاسه في هذه الدار معدودة، وعمله محسوب له أو عليه، وأن الموت نهايته، وأن القبر بيته، وأنه يوجد هناك سؤال مذكر ومنكير، وأن القيامة آتية لا ريب فيها، وأن الله تعالى يبعث من في القبور، وأن الجميع يعرض على الله تعالى للحساب، وأن هناك جنة أو نار كما يريد الواحد القهار، فما النجاة من هذه الأحوال كلها؟

النجاة تكمن أو تتمثل في طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فالسعيد من أطاع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة في القرآن الكريم، فقال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [النساء: 13].

وقال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور: 55].

وقال تعالى في الحديث القدسي: (يا عبادي إني أكملت عليكم نعمتي، وأرسلت إليكم الرسل الكرام لتعرفوا أحكام شريعتي، فلماذا تعرضون عني وأنا الغني الكريم، فوعزتي وجلالي لو أطعتموني لنصرتكم على أعدائكم، ولو استعنتم بي في الشدائد لأعتكم، ولكنكم عصيتموني فأعرضت عنكم، فوقعتم في الذل والعذاب المهين).

الحقيقة الثالثة: ما هو الصبر على الطاعة؟ الصبر على الطاعة يعني: الاستقامة على شرع الله تعالى، والمثابرة الدائمة على العبادات المالية والبدنية والقلبية، ومواصلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على

ما يعترض ذلك من أنواع الابتلاء وصنوف المحن، اسمع معي لسيدنا لقمان عليه السلام وهو يأمر ابنه بالصبر في الطاعة، فقال تعالى: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [لقمان: 17].

أو بمعنى آخر: أن يؤدي المسلم العبادة على الوجه الأكمل، الذي يرضي الله تعالى ويرضي رسوله صلى الله عليه وسلم.

والصبر في العبادة كان مفروضاً على كل الأنبياء، فهذا سيدنا إسماعيل عليه السلام تخلق بخلق الصبر وبالتحديد في أصعب المواقف، فقال تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [الصافات: 102].

وهذا سيدنا موسى عليه السلام يأمر قومه بالصبر، فقال تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: 128].

وهذا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أمره الله تعالى بالصبر، فقال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ} [الأحقاف: 35].

وقال تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ} [القم: 48].

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لتتعرف لماذا يحتاج المسلم الصبر في الطاعة؟ وكيف يحققه؟.

قد يندهش البعض ويقول: هل العبادة تحتاج إلى الصبر؟ أقول: نعم، إن العبادة تحتاج إلى الصبر للأسباب الآتية:

السبب الأول: إن العبادات التي فرضها الله تعالى على عباده فيها كلفة ومشقة، فتكليف الله تعالى لعباده معناه: القيام بما يشق بالنسبة إلى عدمه، فالقيام بأداء الصلوات الخمس مع تحقق الشرائط والأركان، فيه نوع مشقة بالنسبة لعدم الإتيان بها، وامتنال الإنسان في صوم رمضان، فيه نوع مشقة بالنسبة لعدم الصوم، وكذلك الحج فيه نوع مشقة بالنسبة إلى عدمه، فالإنسان يترك أهله وماله في سبيل أداء فريضة الحج، وهكذا فكل أنواع العبادة فيها مشقة، وبالتالي تحتاج إلى صبر.

السبب الثاني: إن النفس البشرية بطبيعتها تنفر عن العبودية، وتشتهي الربوبية، يقول الغزالي: قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهر فرعون من قوله: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: 24].

لكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً، فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه، وما من أحد إلا وهو يدعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه، وكل من تحت قهره وطاعته، وإن كان ممتنعاً من إظهاره.

السبب الثالث: من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد، فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد.

ولقد أشار المولى تعالى في قرآنه أن العبادة تحتاج إلى صبر، فقال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [البقرة: 45].

وقال تعالى: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [يونس: 109].

وقال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ} * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [هود: 114، 115].

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَىٰ} [الرعد: 22].

وقال تعالى: {رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: 65].

وقال تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعُ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا} * وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا} [الإنسان: 23 - 25].

ولقد أقسم المولى تعالى أن الناجين هم من تحقق فيهم صفات أربع: الإيمان، والعمل الصالح، والنصح للأمة، ثم الصبر على ذلك، فقال تعالى: {وَالْعَصْرُ - * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ - * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 1 - 3].

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف كيف يحقق المسلم الصبر على الطاعة.

أولاً. الصبر قبل الطاعة:

ويتحقق ذلك بتصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء، ودوا عي الآفات وعقد العزم على الإخلاص والوفاء، وهذا النوع من الصبر شديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس، ولقد نبه الله تعالى إلى هذا فقال: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ} [البينة: 5].

وروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إنما الأعمال

بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى... -

ولأهمية الصبر قبل الإقدام على الطاعة، نجد أن الله تعالى قدمه على العمل، فقال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [هود: 11].

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: 22].

ثانياً: الصبر حال العمل:

وذلك حتى لا يغفل الإنسان عن الله تعالى في أثناء عمله، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير، فيلزم الصبر عن دواعي الفتور إلى الرغبة، وهذا أيضا من شدائد الصبر، هذا النوع أشار إليه المولى تعالى فقال: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [العنكبوت: 58، 59] أي: صبروا إلى تمام العمل.

ثالثاً: الصبر بعد الفراغ من العمل:

فالإنسان يحتاج إلى الصبر بعد الفراغ من العبادة، عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العجب، وعن كل ما يحبط عمله ويحبط أثره، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذا النوع من الصبر في الطاعة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد: 33].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: 264].

فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى، فقد أبطل عمله، ويجب أن يعلم الجميع أن النفل مثل الفرض محتاج إلى الصبر، وقد جمعهما الله

تعالى في قوله: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ} [النحل: 90].
فالعَدْل هو الفرض، والإِحْسَان هو النفل، وإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى هو
المروءة وصلة الرحم، وكل ذلك يحتاج إلى صبر.

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنسوق بعض النماذج من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن حياة سلفنا الصالح لتتعلم كيف يكون الصبر على الطاعة.

النموذج الأول: أخرج البزار والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، وأبو جهل بن هشام، وشيبة وعتبة ابنا ربيعة، وعقبة بن أبي معيط، وأمّية بن خلف، ورجلان آخران كانوا سبعة وهم في الحجر، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي، فلما سجد أطال السجود، فقال أبو جهل: أيكم يأتي جزور بني فلان فيأتنا بفرتها (مكان في الكرش) فنكفوه على محمد؟

فانطلق أشقاها عقبة بن أبي معيط، فأتى به فألقاه على كتفيه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساجد، قال ابن مسعود: وأنا قائم لا أستطيع أن أتكلم ليس عندي مذعة تمنعني، فأنا أذهب إذ سمعت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبلت حتى ألقيت ذلك عن عاتقه، ثم استقبلت قريشاً تسبهم، فلم يرجعوا إليها شيئاً.

ورفع الرسول صلى الله عليه وسلم رأسه كما كان يرفع عند تمام السجود، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته: (اللهم عليك بقريش (ثلاثاً) عليك بعتبة، وعقبة، وأبي جهل، وشيبة - ثم خرج من المسجد فلقبه أبو البختري بسوط يتخصر به (أي يشد على خاصرته) فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم أنكر وجهه، فقال: مالك؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (خل عني - قال: علماً لله لا أخلي عنك، أو تخبرني ما شأنك، فلقد أصابك شيء، فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم أنه غير مخلص عنه أخبره، فقال: (إن أبا جهل أمر فطرح على فرث - فقال أبو البختري: هلم إليّ المسد، فد، فأتى

الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو البختري فدخلوا المسجد، ثم أقبل أبو

البخري إلى أبي جهل، فقال: يا أبا الحكم: أنت الذي أمرت بمحمد فطرح عليه الفرث؟ فقال: نعم، فقال: فرفع السوط فضرب به رأسه، قال: فثار الرجال بعضها إلى بعض، قال: وصاح أبو جهل: ويحكم، هي له، إنما أراد محمد أن يُلقي بيننا العداوة، وينجو هو وأصحابه، ورغم كل هذا صبر الرسول صلى الله عليه وسلم في طاعته لله تعالى.

النموذج الثاني: جاء في البداية والنهاية: عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما اجتمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألح أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظهور، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (يا أبا بكر إنا قليل - فلم يزل أبو بكر رضي الله عنه يلح، حتى ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته.

وقام أبو بكر رضي الله عنه في الناس خطيباً، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووطئ أبو بكر، وضرب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر رضي الله عنه حتى ما يعرف وجهه من أنفه.

وجاء بنو تميم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تميم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تميم فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة وبنو تميم يكلمون أبا بكر، حتى أجاب، فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فمسوا منه بالسنتهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: أنظري أن تطعميه شيئاً، أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: والله مالي علم بصاحبك، فقال أبو بكر رضي الله عنه: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت

أم جميل، فقالت إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم، فمضت معها، حتى وجدت أبا بكر صريعاً فذنت أم جميل وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

قال: فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، قال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم، قال: فإن الله علي أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول

الله صلى الله عليه وسلم، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: فأكب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله، وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله صلى الله عليه وسلم رقة شديدة، فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله ليس بي بأس، إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أُمِّي برة بالدهاء، وأنت مبارك، ادعها إلى الله وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار، قال: فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاها إلى الله فأسلمت.

النموذج الثالث: أخرج ابن سعد: أنه لما أسلم عثمان بن عفان رضي الله عنه أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية، فأوثقه رباطاً، وقال: أترغب عن ملة آبائك إلى دين مُحدث؟ والله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين، فقال عثمان رضي الله عنه: والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه، فلما رأى الحكم صلابته في دينه، تركه.

فيا لنتنا نتأسى بهم جميعاً ونحقق الصبر في الطاعة، لأننا وصل بنا الحال إلى أنه انعدم الصبر على الطاعة، فعلى سبيل المثال: إذا مكث الخطيب يخطب وأطال في الخطبة، ثار عليه الناس، كأنهم يجلسون في سجن ضيق، وتكثر الشكوى من الأمراض، في الوقت ذاته نمكث بالساعات الطوال أمام التلفاز لمشاهدة ما لا يسمن ولا يغني من جوع،

وساعتها لا نشكو من طول المكث، ولا نشكو من أي مرض.

وكذلك إذا أطل الإمام في صلاة الجماعة، تدجج الجميع بحجج واهية ما أنزل الله بها من سلطان، في الوقت ذاته عندنا استعداد أن نمكث فترة طويلة في أي طابور يتعلق بأي مصلحة دنيوية، كطابور الخبز، أو طابور صرف المرتبات أو المعاش، أو نوع آخر من أنواع الطوابير.

فهل أن الأوان لنا جميعاً أن نحقق الصبر في العبادة؛ لأن العبادة لن يقبلها الله تعالى إلا إذا حققنا فيها الصبر ابتغاء مرضاته، فالله تعالى قدم الصبر على العمل، فقال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [هود: 11].

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على النتائج المترتبة على التخلق بخلق الصبر في الطاعة.

أولاً: معية الله تعالى مع الصابرين:

فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: 153] وهذه المعية منه تعالى تتضمن حفظهم ورعايتهم، وتأيدهم بنصره، وحمايته لهم.

ثانياً: محبة الله تعالى لهم:

قال تعالى: {وَكَايْنِ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: 146].

ثالثاً: أن الله تعالى يحفظهم من كيد الأعداء:

قال تعالى: {إِنْ تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران: 120].

رابعاً: نيل الدرجات العلا في الجنة:

قال تعالى: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَريراً} * مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَريراً * * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِلاً * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا

تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا *
وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ
رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ
مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ
مَشْكُورًا * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ
إِنِّي أَوْ كَفُورًا [الإنسان: 12 - 24].

خامسا: تسليم الملائكة عليهم في الجنة:

قال تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ *
جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ
يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}
[الرعد: 22 - 24].

سادسا: الحصول على درجة الإمامة في الدين:

قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا
يُوقِنُونَ} [السجدة: 24].

* * *

الصلق

الصدق

أسباب نعيم القبر

الصدق

الحمد لله رب العالمين، الذي نطق بوحدايته جميع الكائنات، فالسما دأماً وأبداً تقول: سبحان من رفعني بقوته وأمسكني بقدرته، فهو ركني وعمادي، والأرض دائماً وأبداً تقول: سبحان من وسع كل شيء علماً، ومهدني تمهيداً، والبحار دائماً وأبداً تقول: سبحان من بمشيئته أجزاني، وأسأل عيون مائي لروادي، والعارف به دائماً وأبداً يقول: سبحان من دلني عليه، وإليه مرجعي ومآبي، حتى العاصي يقول: سبحان من اطلع علي في المعصية، فلما رأي سترني وغطاني، فلما تبت إليه قبلني وهداني.

سبحانه: جعل الصدق معياراً من معايير الرجولة الكاملة، فقال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً} [الأحزاب: 23، 24].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: رتب صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب على الصدق في القول، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً} * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً} [الأحزاب: 70، 71].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: جعل الصدق سبباً من أسباب دخول الفرد الجنة، فروى أحمد والبيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (اَضْمَنْوْا لِي سِتّاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، اَضْمَنْ لَكُمْ الْجَنَّةَ: اَصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا أَوْمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

ما زال الحديث موصولاً في أسباب نعيم القبر، وها نحن اليوم مع

سبب آخر من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: الصدق.

فأعبروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا.

الحقيقة الأولى: إن الله تعالى جعل الصدق صفة من صفاته المقدسة، فقال تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: 87].

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء: 122].

وكان الصدق صفة أصيلة من صفات الأنبياء، فهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام وصفه الله تعالى بالصدق، فقال تعالى: {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا} [مريم: 41].

وهذا سيدنا إسماعيل عليه السلام وصفه الله تعالى بالصدق، فقال تعالى: {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} [مريم: 54].

وهذا سيدنا إدريس عليه السلام وصفه الله تعالى بهذا الخلق العظيم، فقال تعالى: {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا} [مريم: 56].

ووصف الله تعالى سيدنا إسحاق عليه السلام وسيدنا يعقوب عليه السلام بالصـ

قال تعالى: {فَلَمَّا اعْتَرَلَ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صَدِّقٍ عَلِيًّا} [مريم: 49، 50].

ولقد كان الصدق صفة أصيلة من صفات الرسول صلى الله عليه

وسلم، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما نزل عليه جبريل عليه السلام أول مرة في غار حراء، وقرأ عليه قول الله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: 1 - 5].

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي)، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَذُهُ الرُّوْعُ، ثُمَّ قَالَ لِخَدِيجَةَ: (أَيَّ خَدِيجَةٍ: مَا لِي، وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي، قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَلَّا، أَبَشِرْ، فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا؛ وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَتَّصِلَ الرَّحِمَ، وَتَصُدِّقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتُقْرِى الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} صَدَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُذَادِي يَأَ بْنِي فَهْرٍ، يَأَ بْنِي عَدِيٍّ، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ، حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ، أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَفُرَيْشٌ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنتُمْ مُصَدِّقِي؟)، قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ).

فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا، فَنَزَلَتْ: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ} [المسد: 1 - 5].

الحقيقة الثانية: إن الله تعالى خلق السموات والأرض بالحق، وأشار إلى هذه الحقيقة في القرآن الكريم، فقال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} [الحجر: 85].

ومن أجل أن يستمر هذا الحق في الكون كله، أمرنا الله تعالى بالصدق، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}

[التوبة: 119].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً} [الأحزاب: 70، 71].

وأمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالصدق، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً).

وعليكم أسلوب إلزام وحتم، ثم استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم أسلوب الإغراء؛ ليشجع الناس على الصدق، فقال: (فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة).

فالواجب على كل مسلم أن يبني حياته كلها على الصدق، فلا يقول إلا صدقاً، ولا يعمل إلا صدقاً، فالصدق خلقٌ عظيم، يجمع بين خصال الخير كلها، وهو بناء الدين، وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان.

وإن من أجل نعم الله تعالى على العبد المسلم، أن يحبب إليه الصدق، فلا تترتاح نفس المسلم، ولا يهدأ ضميره إلا بالصدق، فإذا تردد المسلم في أمر، أثر الصمت على أن يقول قولاً لا يدري أفي حق هو أم في باطل، فروى البيهقي والحاكم والطبراني والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيْبَةٌ).

ولقائل يقول: لماذا أمرنا الله تعالى بالصدق؟ أقول: أمرنا الله تعالى بالصدق لعدة أسباب:

السبب الأول: لأن الحياة لن تستقيم ولن يكون لها أي طعم، إلا إذا التزم كل إنسان فينا بالصدق، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر هو: خصال الخير كلها).

واقراً معي قول الله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ

وَالْمَغْرِبَ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: 177].

السبب الثاني: لأن الكذب ينزع الثقة بين الناس، ويذشر الفوضى، ويمزق الأواصر بين الناس، ويرد الأقوياء ضعفاء واهنين، وبالتالي لا يأمن الإنسان على نفسه، ولا على ماله، ولا عرضه، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (وإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفجور).

السبب الثالث: لأن الصدق فيه النجاة في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [المائدة: 119]. وروى ابن أبي الدنيا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (تحروا الصدق، وإن رأيتم فيه الهلكة، فإن فيه النجاة).

وروى الترمذي أن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال للرسول صلى الله عليه وسلم: ما النجاة؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك).

السبب الرابع: لأن إسلام الفرد منا لا يكمل ولا يصح إلا إذا التزم بالصدق، فروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده).

السبب الخامس: لأن استقامة الأعضاء متوقفة على استقامة اللسان، وإن اعوجاج الأعضاء متوقف على اعوجاج اللسان، ولذلك نجد أعضاء جسد الإنسان تدصح اللسان كل يوم، وتأمره بالالتزام، فروى الترمذي وابن خزيمة وصحح الحديث الشيخ الألباني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أصبح ابن آدم: فإن الأعضاء تذكرُ اللسان، وتقول له: اتق الله فينا فإننا نحن بك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا).

وروى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا يستقيم إيمان عبدٍ حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة رجلٌ لا يأمن جاره بوائقه-).

السبب السادس: لأن الكذب لا يجتمع مع الإيمان أبداً، فإذا وجد الإيمان في قلب العبد خرج الكذب، وإذا وجد الكذب خرج الإيمان، فقال تعالى: {إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [النحل: 105].

وروى مالك عن صفوان بن سليم: أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أيكون المؤمن جباناً؟ قال صلى الله عليه وسلم: (نعم-)، قيل: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال صلى الله عليه وسلم: (نعم-)، فقيل له: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال صلى الله عليه وسلم: (لا-).

السبب السابع: لأن الإنسان منا سيحاسب على كل كلمة تخرج من لسانه، إن كانت خيراً فخييراً، وإن كانت شراً فشرّاً، فروى الترمذي أن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال للرسول صلى الله عليه وسلم: يا نبي الله: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (تكلمتكم أمك يا معاذ! وهل يكبُ الناس في النار على وجوههم، إلا حصائدُ ألسنتهم-).

وفي رواية: (على مناخرهم-).

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في النار سبعين خريفاً-).

الحقيقة الثالثة: إن الحيرة التي يقع فيها البشر الآن، ترجع إلى أنهم ابتعدوا عن هذا الأصل العظيم (الصدق)، وامتألت نفوسهم وعقولهم بأوهام وأكاذيب، فأصبح كثير من الناس يكذبون على أنفسهم، بل أصبحت الأمة الآن لا تحقق الصدق الحقيقي، فاختفى الصدق من معظم مجالات الحياة، إن لم يكن كلها.

اختفى الصدق من مجال السياسة، وادعت الأمة أن السياسة لا تصلح إلا بالكذب، واختفى الصدق من مجال الاقتصاد، وأوهمنا أنفسنا أن

الصدق لا يذفع في مجال الاقتصاد، مع أن الرسول أمرنا بالصدق في مجال الاقتصاد، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، أَوْ قَالَ: حَتَّى يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا، بُورِكَ لِهَمَّا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا، مُحِقَّتْ بَرَكَتُهُ بَيْعُهُمَا).

بل اختفى الصدق من مجال الأسرة، فأصبح يكذب بعضنا على بعض داخل نطاق الأسرة الواحدة.

فما من مجال إلا وقد دخله الكذب، فكان نتيجة لهذا كله أن تفرقت الأمة إلى فرق ومذاهب شتى، ففعلت هذه التفرقة الأفاعيل في الأمة، مما جعلت الأمة لقمة سائغة لأعداء الله ﷻ، وجعلت الأمة تخضع لأذل أمم الأرض، أليس بنو إسرائيل قد كتب الله ﷻ عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله تعالى؟

إن أغلب المسلمين الآن من هذه الأمة أذل من إخوان القردة والخنازير، لماذا؟ لأن أولئك ضيعوا التوراة فأذلهم الله تعالى، والمسلمين ضيعوا أعظم من التوراة، فأذلهم الله تعالى.

فالواجب على كل المسلمين إذا أرادوا أن يخرجوا من هذه الدوامة التي تمر بها الأمة الإسلامية الآن، أن يحققوا الصدق في كل مجالات الحياة، وإلا فإن الأمر سيزداد شدة على شدة، ومرارة على مرارة، ونحن قد لمسنا هذا بأيدينا، فماذا نريد بعد هذا؟

اقرأ معي قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: 70، 71].

وقال تعالى: {مَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} [طه: 123 - 127].

الحقيقة الخامسة: ما هو الصدق؟ الصدق هو: مطابقة الخبر للواقع.

وقيل هو: استواء السر والعلانية، والظاهر والباطن، بألا تُكذب أحوال العبد أعماله، ولا أعماله أحواله.

إخوة الإسلام:

إن الصدق ليس مجرد كلمة يرددها المسلم، وليس خلقاً يأتي بالتمني، فكل فرد فينا يتمنى في قرارة نفسه أن يكون صادقاً؛ لأن الصدق يوافق الفطرة السليمة.

ولكن من منا من سأل نفسه: كيف أحقق الصدق؟ أو بمعنى آخر: ما الأمور التي تعين الإنسان على الصدق؟ فتعالوا معي لنتعرف على الأمور التي تعين الإنسان على الصدق.

أولاً: الخوف من الله تعالى : فالمسلم الذي يريد أن يتصف بالصدق لا بد أولاً أن يحقق الخوف من الله تعالى، فإذا خاف المسلم من الله تعالى، استطاع أن يحقق بالصدق، فلا يكذب أبداً.

ولقد بين الله تعالى ما أعده لمن حقق الخوف منه، فقال تعالى: {وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جِئْتَانِ} [الرحمن: 46].

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [الملك: 12].

ولقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم نتيجة الخوف من الله تعالى يوم القيامة، وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإمام العادل، وشابٌّ نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل صدق أخفى حتى لا تعلم شهاله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه).

ثانياً: اتباع منهج الله تعالى : فاتباع منهج الله تعالى يعين الإنسان على الصدق، قال: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

ويقول تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {قُلْ هَذِهِ

سَبِيلٍ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: 108].

وقال تعالى: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} [طه: 123].

وروى أحمد وغيره أن الرسول صلى الله عليه وسلم خط خطاً، ثم قال: (هذا سبيل الله تعالى)، ثم خط خطوطاً عن يمينه، وخطوطاً عن يساره، وقال: (هذه السبل المتفرقة، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه-)، ثم قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

ثالثاً: الرغبة في النجاة من أهوال يوم القيامة: فعلى المسلم أن يعلم علم اليقين أن الله تعالى قد حكم أنه لا يذفع ولا يذجي من أهوال يوم القيامة إلا الصدق، فقال تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ} [المائدة: 119].
فما هو الجزاء، قال تعالى: {لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [المائدة: 119].

ولم يكتف الأمر عند هذا الحد، بل أعطاهم الله تعالى ما هو أعظم من الجنة، فقال تعالى: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [المائدة: 119].

رابعاً: مصاحبة الصادقين: فعلى المسلم الذي يريد أن يحقق الصدق عليه أن يصاحب الصادقين، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: 119].

وروى أحمد والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالط-).

خامساً: أن يتذكر الإنسان آثار الصدق وثمراته: فالصدق يهدي إلى البر، والبر هو جماع الخير والطاعة لله تعالى، والبر يهدي إلى الجنة، وهي أقصى ما يتمناه المرء، فروى البخاري ومسلم والترمذي وأحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ، فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصَّدَّقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ، حَتَّى

يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا.

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم ضمن الجنة لمن ضمن له ستاً، فروى أحمد والحاكم والبيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (اَضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ، أَضْمَنْ لَكُمْ الْجَنَّةَ: اَصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا أَوْثَقْتُمْ، وَاحْفَظُوا أَرْوَاجَكُمْ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكَفُّوا أَيْدِيَكُمْ).

سادساً: الدعاء: فالمسلم الذي يريد أن يتصف بالصدق، عليه أن يدعو الله تعالى أن يرزقه الصدق، فإذا قام العبد وسأل الله تعالى أن يرزقه الصدق بصدق، فإن الله تعالى يوفقه إلى ذلك، فقال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: 60].

وقال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: 186].

سابعاً: الخوف من النفاق: فالمسلم الذي يخاف من النفاق يحرص على الصدق؛ لأنه لو كذب يكون منافقاً، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا حَاصِمَ فَجَرَ).

ثامناً: الخوف من الفضيحة يوم القيامة: فالله تعالى كتب الفضيحة للكذاب على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فقال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: 18].

فأي حسرة بعد هذه الحسرة؟ وأي ندامة بعد ما فضحوا في الآخرة، ونادى كلُ الخلائق عليهم بالإشارة: هؤلاء هم الذين كانوا يكذبون في الدنيا على الله تعالى وعلى عباده.

تاسعاً: الخوف من سواد الوجه يوم القيامة: فالكذاب يسود وجهه يوم القيامة، قال تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ}

أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ} [الزمر: 60].

عاشراً: أن يستحضر المسلم الوعيد الذي أعده الله تعالى للكذاب: فقال تعالى: {وَدَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهَّلْهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا} [المزمل: 11 - 14].

حادي عشر: الخوف من عذاب القبر: ومما يعين المسلم على الصدق الخوف من عذاب القبر الذي أعده الله تعالى للكذاب، فروى البخاري ومسلم عن سمرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بَوَّجْهَهُ، فَقَالَ: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟ - قَالَ: فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا، فَيَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَسَأَلْنَا يَوْمًا فَقَالَ: (هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟ - قُلْنَا: لَا، قَالَ: (لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتْيَانِي، فَأَحَدًا بِيَدِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ وَرَجُلٌ قَائِمٌ، بِيَدِهِ كَلْبٌ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَدْخُلُ ذَلِكَ الْكَلْبُ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الْآخَرَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَلْتَمِسُ شِدْقَهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ.... قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَ: أَمَّا الَّذِي رَأَيْتُهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ، يُحَدِّثُ بِالْكَذْبَةِ فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْأَفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ-.

ثاني عشر: البعد عن صحبة السوء: فالمسلم الذي يريد أن يتصف بالصدق عليه أن يبتعد عن الرفقة السيئة، فإذا صاحب المسلم كاذباً فإنه يتوعد على الكذب مثله، ويندم في يوم لا يذفع فيه الندم، فقال تعالى: {وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: 27 - 29].

الصدق مع الله تعالى

الصدق مع الله تعالى

أسباب نعيم القبر

الصدق مع الله تعالى

الحمد لله رب العالمين، الذي نطقته بوحدانيته جميع الكائنات، فالسما دائماً وأبداً تقول: سبحان من رفعني بقوته وأمسكني بقدرته، فهو ركني وعمادي، والأرض دائماً وأبداً تقول: سبحان من وسع كل شيء علماً، ومهدني تمهيداً، والبحار دائماً وأبداً تقول: سبحان من بمشيئته أجزاني، وأسأل عيون مائي لروادي، والعارف به دائماً وأبداً يقول: سبحان من دلني عليه، وإليه مرجعي ومآبي، حتى العاصي يقول: سبحان من اطلع علي في المعصية، فلما رأني سترني وغطاني، فلما تبت إليه قبلني وهداني.

سبحانه: أشهد له بالوحدانية، وأقر له بالربوبية، فلا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه، جلّ في علاه، فقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: 26].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: جعل الصدق معه تعالى معياراً من معايير الرجولة الكاملة، فقال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا* لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً} [الأحزاب: 23، 24].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: أمرنا بالصدق، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابه أجمعين.

أما بعد : إخوة الإسلام:

ما زال الحديث موصولاً في أسباب نعيم القبر، وها نحن اليوم مع سبب آخر من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: الصدق مع الله تعالى.

فأعبروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا.

الحقيقة الأولى: لا يوجد إنسان على وجه الأرض إلا وهو يبحث عن السعادة، فهي غاية يتفق فيها البشر على اختلاف عقائدهم وعقولهم ومبادئهم وغاياتهم.

فلو سألت أي إنسان عن أي شيء تبحث عنه؟ لأجابك على الفور: أبحث عن السعادة، فكل الناس يريدون السعادة، ولكن الكثير من الناس يخطئ الطريق الموصل للسعادة!

فكثير من الناس يظن أن السعادة في جمع المال! وهذا ليس بحقيقة، فربما يكون المال سبباً من أسباب التعاسة والشقاء في الدنيا والآخرة، إذا لم يدرك صاحب المال غايته، وكلنا نعلم قصة قارون الذي خسف الله تعالى به وبداره الأرض، فقال تعالى: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ} [القصص: 81].

وقد يظن بعض الناس أن السعادة في الشهرة، وقد يظن البعض الآخر أن السعادة في الجاه والمنصب، وقد يظن البعض الآخر أن السعادة في الأولاد والزوجة، وكل هذا وهم خاطئ واعتقاد باطل.

ولكن أين توجد السعادة الحقيقية؟ إن السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة تكمن في الصدق مع الله تعالى.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ} [محمد: 21].

ولقد أكدت السنة النبوية هذه الحقيقة، فروى أحمد والحاكم والطبراني أن رجلاً من الأعراب جاء النبي صلى الله عليه وسلم، فأمن به وأتبعه، وقال: أهاجر معك، فأوصى النبي صلى الله عليه وسلم به أصحابه، فلمّا كانت غزوة خيبر، أو قال خيبر، غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم

شَيْئًا، فَقَسَمَهُ، وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرَعَى ظَهْرَهُمْ، فَلَمَّا جَاءَ دَفْعُهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: قَسَدَمَ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذَهُ، فَجَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَا هَذَا؟

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قَسَمَ قَسَمْتُهُ لَكَ-)، قَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنْ

عَلَى أَنْ أُرْمَى هَهُنَا بِسَهْمٍ، وَأَشَارَ إِلَى حَاقِيقِهِ، فَأَمُوتُ فَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنْ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِصَدُقِكَ-)، فَلَبِثُوا قَلِيلًا، ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ، فَأَتَى بِهِ يُحْمَلُ، قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَهُوَ هُوَ؟-)، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (صَدَقَ اللَّهُ فَصَدَقَهُ-).

فَكَفَّزَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جُبَّتِهِ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وقال: (اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ، فَقُتِلَ شَهِيدًا، وَأَنَا عَلَيْهِ شَهِيدٌ-). فالواجب علينا جميعاً إذا كنا نريد السعادة الحقيقية، فعلينا أن ندقق الصدق مع الله تعالى أولاً، قولاً وفعلاً، ظاهراً وباطناً، قصداً وإرادةً، وأن نسير حياتنا ومناهجنا وتصرفاتنا على المنهج الذي ارتضاه الله تعالى لنا؛ لنفوز بالسعادة والحياة الطيبة في الدنيا، ولندبوء بالمغفرة والرضوان في الآخرة.

الحقيقة الثانية: إن الصدق مع الله تعالى هو الذي يجعل المسلم فينا يضحى بكل غالٍ ورخيص في سبيل رضوان الله تعالى ومحبيه ونصرة دينه، مهما كانت التضحية، ومهما كان الثمن غالياً.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَنْظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: 23].

ولقد أشارت السيرة النبوية إلى هذه الحقيقة، فهذا طلحة بن عبد الله رضي الله عنه صدقه مع الله تعالى هو الذي دفعه أن يقي رسول الله تعالى في أحد حتى شلت يده رضي الله عنه.

والصدق مع الله هو الذي دفع بسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن يقاتل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد، وكان يناوله الذبل ويقول: (ارم يا سعد، فذاك أبي وأمي).

وروى أحمد أن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يجمع أباه وأمه لأحد غير سعد بن أبي وقاص، فإني سمعته يقول يوم أحد: (ارم يا سعد فذاك أبي وأمي).

والصدق مع الله تعالى هو الذي جعل أبا طلحة يستبسل في الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركون محيطون به وأبو طلحة يقول: "يا نبي الله، بأبي أنت لا تشرف إلى القوم ألا يصيبك منهم سهم، نحري دون نحرك"

أي: جعل الله نحري دون نحرك.

وهذا الشأن هو الذي دفع بنسرية بنت كعب رضي الله عنها في أحد أن تدب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف، وترمي بالقوس، وتصاب بجراح كثيرة.

والصدق مع الله تعالى، هو الذي جعل أبا دجانة يترس بنفسه دون رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقع النبل في ظهره، وهو منحن على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كثر فيه النبل.

أما الآن فقد تبدلت الأحوال وانقلبت الأوضاع، فنجد بعض المسلمين اليوم حينما تعرض عليه مصالح دنيوية، أو منافع ذاتية، تجده يسير وراءها لاهثاً، ويندفع نحوها مسرعاً، ويضحى بكل غال ورخيص، ولو كان ذلك على حساب دينه ومخالفة أمر الله تعالى.

هذا الصنف من الناس لم يحقق الصدق مع الله تعالى، فحرصوا على الدنيا، وانطبق عليهم قول الله تعالى: {اَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المجادلة: 19].

الحقيقة الثالثة: إن الأمة المسلمة اليوم وهي تحيط بها الفتن من كل جانب، وتعلو حياتها المصائب من كل حدب، في أمس الحاجة للصدق مع الله تعالى، صدق الإيمان والطاعة، صدق التوجه والإرادة، صدق العمل

والاتباع في كل شأن، وفي جميع مجالات الحياة.

فإذا كانت الأمة تريد فعلاً الإصلاح والعافية، وإذا كانت الأمة تريد التقدم والازدهار، وإذا كانت الأمة تريد التمكين في الأرض، فعليها أن تحقق الصدق مع الله تعالى.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور: 55].

فكل فرد من أفراد الأمة الإسلامية يحتاج إلى الصدق مع الله تعالى، فالحاكم في حاجة إلى الصدق مع الله تعالى في سياسة الرعية، ومراعاة مصالحهم، والقيام على تحقيق شؤونهم.

والرعية في حاجة إلى الصدق مع الله تعالى في طاعة الحاكم على المنهج الإسلامي الذي جاء به الشرع المطهر؛ لتحقيق مجتمع فاضل، تتحقق فيه الحياة الطيبة والعيشة الرضية.

والقاضي لا يوفق إلى الصواب إلا بصدق تام مع الله تعالى.

والمفتي لا يهتدي إلى ما فيه براءة ذمته، إلا إذا كان صادقاً مع الله ظاهراً وباطناً.

والتاجر في تجارته، والعامل في صناعته، والكاتب في كتابته، والإعلامي في إعلامه.

فكل فرد من أفراد الأمة الإسلامية لا يستقيم منهجه، ولا يصلح عمله، ولا يفلح سعيه، إلا إذا صدق مع الله تعالى، وصدق في المنهج الشرعي الذي تقوم عليه أصول مسؤوليته، وكان ذلك كله ابتغاء رضا الله تعالى، واسمع معي إلى ما قاله تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: 22].

الحقيقة الرابعة: ما معنى الصدق مع الله تعالى ؟

الصدق مع الله تعالى هو: أن يحقق الإنسان العبودية الكاملة لله تعالى، وأن يشعر الإنسان بالنقص أمام الله تعالى، وأن يعلم الإنسان علم اليقين أنه فقير إلى الله تعالى.

إخوة الإسلام:

إن الصدق مع الله تعالى ليس شعاراً يردده المسلم فقط، بل لا بد وأن يتحقق على أرض الواقع، فالصدق مع الله تعالى يتطلب من كل مسلم أن يلتزم بعدة أمور، من خلال هذه الأمور يستطيع الإنسان أن يحقق الصدق مع الله تعالى، فتعالوا معي لنتعرف على الأمور التي بها يحقق الإنسان الصدق مع الله تعالى.

الأمر الأول: أن يعرف العبد الله تعالى معرفة حقيقية:

فالواجب على كل مسلم يريد أن يحقق الصدق مع الله تعالى أن

يعرف الله تعالى حق المعرفة، وإذا سألت أي إنسان ماذا تعرف عن الله؟ وقف صامتاً ولا يستطيع أن يقول شيئاً، في الوقت ذاته لو سألت أي إنسان ماذا تعرف عن لاعب كرة أو فلان الممثل، لأخذ يسرد لك كل كبيرة وصغيرة تتعلق بحياته، فلا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

فمن هو الله تعالى ؟

الله تعالى : هذا الاسم الكريم الذي يطلق على الذات المقدسة، التي نؤمن بها، ونعمل لها، ونعرف أن منها حياتنا، وإليها مصيرنا.

الله تعالى : هو قبل كل شيء، وآخر كل شيء، وهو وارث كل شيء، أحاط بعلمه كل شيء، ولا يتوارى عنه شيء، ولا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

الله تعالى : هو أول من شهد لنفسه بالوحدانية، فقال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

[آل عمران: 18].

الله تعالى : هو الاسم الذي ما تعلق به فقيرٌ إلا أغناه الله تعالى.
الله تعالى : هو الاسم الذي ما تعلق به مريضٌ إلا شفاه الله تعالى وعفاه.

الله تعالى : هو الاسم الذي ما تعلق به ذليلٌ إلا أعزه الله تعالى وكفاه.
الله تعالى : هو الاسم الذي تقال به العثرات، وتستجاب به الدعوات، وتستدر به الرحمات.

الله تعالى : هو الاسم الذي به ولأجله قامت الأرض والسموات.
الله تعالى : أعلن عن نفسه فقال: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: 255].

الله تعالى : أعلن عن نفسه فقال: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الحشر: 22 - 24].

الله تعالى : أعلن عن نفسه فقال: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 1 - 4].

الله تعالى : الذي لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفَضُ الْقَسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ).

الله تعالى : اسمع معي وهو يقول: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: 26].

الأمر الثاني: أن يتقي المسلم ربه تعالى حق التقوى.

فالواجب على كل مسلم يبحث عن الصدق ويتمناه، أن يتخلق بخلق

التقوى، فالله تعالى أمرنا جميعاً أن نتخلق بخلق التقوى، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 102].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً} [الأحزاب: 70، 71].

وقال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: 2، 3].

وروى أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رجلاً جاءه، فقال: أوصني، فقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: سألت عما سألت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبلك، فقال صلى الله عليه وسلم: (أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله، وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء، وذكرك في الأرض).

وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر، فقال له: (أوصيك بتقوى الله في سرائك وعلانيتك).

فاستمسك بها أخي المسلم، واجعلها نصب عينيك حتى تحقق الصدق مع الله تعالى، اجعل التقوى مالك إن كنت فقيراً، اجعلها جندك إن كنت ضعيفاً، اجعلها حارساً أميناً لنعمتك إن كنت ذا نعمة، اجعلها بركة دارك وأهلك إن كنت ذا مال وعيال، اجعلها ذخراً لعقبك إن كان لك عقب وذرية، اجعلها أنيسك إن كنت غريباً، اجعلها جليسك إن كنت وحيداً، اجعلها دواءك إن كنت مريضاً عليلًا، ازرعها في أولادك وأحبائك، وحض عليها أصحابك وأتباعك، وأوصي بها أهلك وذويك؛ لتحقيق الصدق مع الله تعالى.

فما من أمر أمرنا به الله تعالى، أو نهى نهانا عنه الله تعالى، إلا من أجل أن يحقق المسلم فينا تقوى الله تعالى.

الأمر الثالث: أن يعبد المسلم الله تعالى حق العباد:

فالواجب على كل مسلم إذا أراد أن يدقق الصدق مع الله تعالى، أن يدقق العبادة الكاملة له تعالى، وأن يسلم حياته كلها لله تعالى، مصداقاً لقوله تعالى: {قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [الأنعام: 162 - 164].

وقال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رَّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ} [الذاريات: 56، 57].

وقال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور: 55].

الأمر الرابع: أن يطيع المسلم ربه قدر الاستطاعة:

فإذا أراد المسلم أن يدقق الصدق مع الله تعالى فعليه بالطاعة قدر الاستطاعة، فقال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [التغابن: 16].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: 59].

فلقد جعل الشارع الحذيف الطاعة من مقتضيات الإيمان الكامل، فإيماننا لا يكمل، بل لا يصح إلا إذا حققنا منهج الطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم،

فقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 64، 65].

فكل فرد فينا يقول: أنا مؤمن، ولكن من منا سأل نفسه ما علامة هذا

إنها الطاعة بلا انحراف وتردد، اقرأ معي قول الله تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} * وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور: 51، 52].

فهذا هو شعار المسلم: طاعة بلا انحراف، وسمع بلا تردد.

أخذي المسلم:

أعرض نفسك على أوامر الله تعالى، وأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم، واسأل نفسك: هل امتثلت لأوامر الله تعالى، وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم؟ هل وقفت عند حدود الله تعالى، وحدود رسوله صلى الله عليه وسلم؟.

فإن كنت ممن سمع الأمر وامتثل، والنهي فاجتنب، والحد فوقف عنده، فأنت مطيع لله ﷻ ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وقد حققت الصدق مع الله تعالى، وينطبق عليك قول الله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [النساء: 13].

وإن كنت ممن سمع الأمر ولم يمتثل، والنهي فلم يذته، والحد فلم يقف، فاعلم أنك عاص لله ﷻ ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ولم تحقق الصدق مع الله تعالى، وينطبق عليك قول الله ﷻ: {وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَعِذْ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} [النساء: 14].

الأمر الخامس: أن يتبع الإنسان منهج الله تعالى :

فالواجب على المسلم الذي يريد أن يحقق الصدق مع الله تعالى أن يتبع منهجه تعالى، قال: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

ويقول تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: 108].

واسمع إلى ما قاله المولى تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} [الجاثية: 18، 19].

وقال تعالى: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} [طه: 123].

وروى أحمد وغيره أن الرسول صلى الله عليه وسلم خط خطاً، ثم قال: (هذا سبيل الله تعالى -، ثم خط خطوطاً عن يمينه، وخطوطاً عن يساره، وقال: (هذه السبل المتفرقة، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه -، ثم قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

أما لو اتبع الإنسان منهجاً خلاف منهج الله تعالى، فلا يكون صادقاً مع الله تعالى، وهو وحده يتحمل نتيجة ذلك، فقال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} [طه: 124 - 127].

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على مجالات الصدق مع الله تعالى.

المجال الأول: الصدق في التوبة إلى الله تعالى،

ويتحقق الصدق في التوبة بأن تكون متوافرة الشروط التي يجب أن تتوافر فيها، من أن تكون توبة نصوحاً، وأن يصاحبها ندم على تقصير في جنب الله تعالى، والاعتراف بالذنب، والإقبال على الله تعالى وحده لا شريك له، ورد المظالم إلى أهلها إن وجدت.

ولقد طلب الله تعالى الصدق في التوبة من عباده، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التحريم: 8].

وهناك نماذج من حياة سلفنا الصالح تؤكد على ضرورة الصدق في التوبة، والأثر المترتب عليه.

النموذج الأول: الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن ربيعة العامري، و هلال بن أمية الواقفي، وكلهم من الأنصار، وقد قال الله تعالى فيهم: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: 118].

روى البخاري وغيره أن كعب قال في الحديث الطويل: فَوَ اللَّهُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ، بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ، أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا أَكُونَ كَذِبُهُ، فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَّبُوا.

فهؤلاء الثلاثة صدقوا في توبتهم، فقبلها الله تعالى منهم، ولذلك يقول تعالى بعد قبول توبتهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: 119].

النموذج الثاني: روى مسلم جَاءَتِ الْعَامِدِيَّةُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ، فَطَهِّرْنِي، وَإِنَّهُ رَدَّهَا، فَلَمَّا كَانَ الْعَدُّ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تَرُدُّنِي؟ لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدُّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا، فَوَ اللَّهُ إِنِّي لَحَبْلَى، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّمَا لَا فَادْهَبِي حَتَّى تَلِدِي).

فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ، قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ادْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ، حَتَّى تَفْطِمْهُ، - فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةٌ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: هَذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ فَطَمْتُهُ، وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا، فَيُقْبَلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ، فَرَمَى رَأْسَهَا فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ، فَسَدَّهَا فَسَمِعَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَهْلًا يَا خَالِدُ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي -

بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً، لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ- ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا، وَدُفِنَتْ.

والمكس: الضريبة والعشور، التي تأخذ على خلاف حكم الشرع.

وروى مسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَصَلَّى عَلَيْهَا، وَقَدْ زَنْتَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قَسِمْتُ بَيْنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتُ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا).

النموذج الثالث: روى البيهقي وأبو داود أن الرسول أَمَرَ بِرَجْمِ مَاعِزًا، فَرَجِمَ، فَسَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَيْنِ يَقُولُ أَدَّهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَلَمْ تَرَ إِلَى هَذَا الَّذِي سَدَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَلَمْ تَدْعُهُ نَفْسُهُ حَتَّى رَجِمَ رَجْمَ الْكَلْبِ، فَسَدَّارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَدِيدًا، ثُمَّ مَرَّ بِجِيفَةِ حِمَارٍ فَقَالَ: (أَيْنَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ، قُومًا فَانْزِلَا فَكُلَا مِنْ جِيفَةِ هَذَا الْحِمَارِ).

قَالَ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَلْ يُؤْكَلُ مِثْلُ هَذَا؟، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَمَا نَلْتُمَا مِنْ أَخِيكُمَا أَنْفَا شَرٌّ مِنْ هَذَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ الْآنَ لَفِي أَمْهَارِ الْجَنَّةِ يَتَغَمَّسُ فِيهَا).

المجال الثاني: الصدق في محبة الله تعالى .

إن الشرع الحنيف قد ربط قضية الإيمان بمحبة الله تعالى، فالفرد منا لا يؤمن ولا يصح إيمانه، إلا إذا حقق الحب الحقيقي لله تعالى.

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذا، فروى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا).

والفرد منا لا يستطيع أن يتذوق حلاوة الإيمان إلا إذا كان صادقاً في حبه لله تعالى، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ).

فحب الله تعالى فرض عين على كل مسلم؛ لأن العبودية معقودة بها،

فقال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: 24].

ولقد مدح القرآن الكريم المؤمنين الذين حققوا الحب الحقيقي لله تعالى، فقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} [البقرة: 165].

ولقد حقق الصحابة رضوان الله عليهم الحب الحقيقي لله تعالى، ففضلوا حب الله تعالى على الآباء، والأبناء، والإخوة، والعشيرة، فقال تعالى: {لَا تَحُدُّ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: 22].

ويمكن أن يقال في تعريف محبة الله تعالى: إسلام الوجه لله تعالى، والتفاني في طاعته، والبعد عن معصيته، وأن يعتقد الكمال الذاتي لله تعالى، وأن ينسب النعم كلها لله تعالى.

وفي هذا يقول المولى تعالى: {قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [الأنعام: 162 - 164].

وهذا سيدنا سليمان عليه السلام أحب الله تعالى بصدق، ففاق حبه لله تعالى كل شيء، فنراه يترك كل شيء من أجل حب الله تعالى، بل يقوم بذبح الخيل التي شغلته عن صلاة العصر، كما قال بعض المفسرين، فقال تعالى: {وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْخِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَفُتِّقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} [ص: 30 - 33].

أخِي الْمُسْلِم:

اسأل نفسك الآن: هل أنت صادق في حبك لله تعالى، أم لا؟ فإذا كنت صادقاً في حبك لله تعالى، فما الدليل على هذا الصدق في الحب؟ هل التزمت بقول الله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} [النساء: 13، 14].

وإذا كنت لا تحب الله تعالى كما ينبغي، فعليك أن تجتهد وتدعوا الله تعالى أن يرزقك محبته تعالى.

الأمر الثالث: الصدق في التوكل على الله تعالى :

إن الله تعالى أمرنا بالتوكل عليه وحده، فقال تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [إبراهيم: 11].

ولقد أمر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالتوكل عليه، فقال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُدْئُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا} [الفرقان: 58].

ولقد بين لنا الله تعالى النتيجة المترتبة على الصدق في التوكل عليه، فقال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: 3].

ولقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً النتيجة المترتبة على الصدق في التوكل، فروى ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا خاصاً، وتروح بطاناً).

ولقد ذكر القرآن الكريم ما كان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حمراء الأسد، وذلك صبيحة يوم أحد، فقال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} [آل عمران: 173، 174].

إنهم قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، تلك الكلمة العظيمة التي تدل على صدق التوكل على الله تعالى، وروى البخاري وغيره عن ابن عباس قال: {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا، وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

أما الأمة الآن لم تصدق مع الله تعالى في التوكل عليه، بل وثقت الأمة بما في أيدي أعدائها أكثر من ثقتها بما عند الله تعالى، فقال تعالى: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} [المائدة: 52].

فالواجب علينا جميعاً إذا أردنا أن نعود لقيادة البشرية، فعلينا أن نصدق مع الله تعالى في التوكل عليه، فقال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا [الطلاق: 3].

* * *

الإحسان إلى الجار

الإحسان إلى الجار

أسباب نعيم القبر

الإحسان إلى الجار

الحمد لله رب العالمين: أنزل الكتاب المكنون، وأرسل السحاب المتون، تكونت بقدرته الأشياء، وتوالت برحمته الآلاء، واندشت بحكمته الأرض والسماء، وكتب بمشيئته السعادة والهناء، فيرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون.

سبحانه: جعل أذية الجار أذيةً له تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، روى أبو الشيخ ابن حبان أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من آذى جـاره فقـد آذاني، ومـن آذاني فقـد آذى الله تعالى، ومن حارب جاره فقد حاربني، ومن حاربني فقد حارب الله تعالى -.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جمع بين حقه تعالى وبين حق الجار في الأمر، فقال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} [النساء: 36] وفي هذا تأكيد على حق الجار.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم، بين لنا أن أذية الجار سببٌ في دخول الإنسان النار، فروى أحمد والبخاري في الأدب، والحاكم، عـن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله إن فلانة يُذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقته، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال صلى الله عليه وسلم: (هي في النار).

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه).

وفي نفس الوقت بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن أول خصمين يُفضى بينهما يوم القيامة، جاران آذى أحدهما صاحبه، فروى

أحمد والطبراني في معجمه الكبير، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أول خصمين يوم القيامة جاران- وفي هذا دليل على أهمية حق الجوار الذي حث الشارع عليه).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع سبب من أسباب نعيم القبر، ألا وهو: الإحسان إلى الجار، انطلاقاً من قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أحمد والبخاري في الأدب، والحاكم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله إن فلانة يُذكرُ من قلة صلاتها وصيامها وصدقها، وإنها تتصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها، قال صلى الله عليه وسلم: (هي في الجنة).

فأعبروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك وهو القادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق هي الأساس في موضوعنا اليوم.

الحقيقة الأولى: إن الإنسان في هذه الحياة لا يستطيع أن يعيش وحده، ولا يمكنه أن يتغلب بمفرده على مشقات الحياة وصعابها، مهما كان وضعه، ومهما كان غناه.

فالإنسان منا في حاجة دائمة إلى معينٍ يعينه، وناصرٍ ينصره، وإنسانٍ يأخذ بيده كلما كثرت مشاكل الحياة، وازدادت صعوبتها.

فإذا نظرنا إلى الواقع الذي نعيش فيه نجد من المستحيل أن يعيش شخصٌ في معزل عن غيره، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يستغني عن غيره.

فالإنسان مهما بلغ فلن يستطيع أن يعيش وحده، وما سُدِّي الإنسان إنساناً؛ إلا لأنه يأنس بغيره وغيره يأنس به، وتلك هي الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف: 32] وفي هذا دليل على عدم استغناء الإنسان عن غيره مهما بلغ.

الحقيقة الثانية: إن أولى الناس بك في الحياة الدنيا هو جارك، الذي ربط الله تعالى بينك وبينه برباط وثيق وبرباط متين، جارك هو أحق الناس بإسداء الخير، وأولاهم بالمعروف والإحسان، فجارك أيها المسلم جزء منك وأنت جزء منه.

جارك إذا أحسنت العلاقة بينك وبينه كما أمر الله تعالى وكما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم يكون أول شخص يعينك إذا استعنت، ويغيتك إذا استغثت، ويلبي نداءك وقت الشدة إذا ناديت، وينهض لإزالة ما بك من أوجاع وآلام إذا توجعت أو تألمت، جارك يدمي بيتك في الغيبة، ويثور ويغضب إذا مست كرامتك وشرفك بسوء، جارك يحزن لحزنك ويفرح لفرحك، وصدق من قال:

فهو الصديق وإن نبا بك منزل :: وأخوك وإن ضاقت بك الأرجاء
يرعى الجميل ولا يضمن لحادث :: عند الشدائد والرخاء سواء

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى البخاري في الأدب عن أبي ذر رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بثلاث: (اسمع وأطع ولو لعبدٍ مُجَدِّعٍ الْأَطْرَافِ، وَإِذَا صَنَعْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ فَأَصِْبْهُمْ مِنْهُ بِمَعْرُوفٍ، وَصَلِّ الصَّلَاةَ لَوْ قَتَلَهَا، وَإِذَا وَجَدْتَ الْإِمَامَ قَدْ صَلَّى فَقَدْ أَحْرَزْتَ صَلَاتَكَ، وَإِلَّا فَهِيَ نَافِلَةٌ).

وروى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له: (إذا طبخت اللحم فأكثر المرق، وتعاهد جيرانك).

الحقيقة الثالثة: إن الإحسان إلى الجار واجبٌ على كل مسلم، ولقد

أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً} [النساء: 36].

وأشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذلك، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه).

فالمجتمع المسلم لا يكون مجتمعاً قوياً متعاوناً إلا إذا التزم كل مسلم فينا بحقوق الجار، وعمل كل مسلم فينا جاهداً لتنفيذ وصية جبريل عليه السلام

للرسول صلى الله عليه وسلم.

وإذا نظرنا إلى الشرع الحنيف نجد أنه اهتم اهتماماً بالغاً بالإحسان إلى الجار، فنجد الرسول صلى الله عليه وسلم علق الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر على الإحسان إلى الجار، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره).

وفي نفس الوقت نفى الرسول صلى الله عليه وسلم الإيمان عن الشخص الذي يشبع وجاره جائع، فروى الطبراني وأبو يعلى والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ليس المؤمن الذي يشبع، وجاره جائع).

الحقيقة الرابعة: لا يوجد عذر الدتة لأي إنسان في مقاطعة جيرانه، ويقول: إنهم يسيئون إليّ ويتمنون لي الشر، ويدبرون لي المكائد.

فالإنسان منا يستطيع أن يضم جيرانه إلى صفوفه بإدسانه وكرم أخلاقه، فإذا كان جيرانك أشراراً فكن أنت خيراً منهم، وإذا كانوا مسيئين فكن أنت محسناً، وتودد إليهم وإن تباعدوا، وعاملهم باللطف وإن جهلوا، وصل حبل المودة والسلام وإن قطعوه، فإن فعلت ذلك لانت قلوبهم وظهرت محبتهم، وزال بغضهم.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: 199].

وقال تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ} [المؤمنون: 96].

وقال الله تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: 34].

قال الحافظ ابن كثير: فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنساني والإحسان إليه؛ ليرده عنه طبعه الأصلي إلى الموالاة والمصافاة.

وروي أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال له: إن لي جاراً يؤذيني ويشتمني ويضيق علي، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: اذهب فإن هو عصى الله تعالى فيك، فاطع الله تعالى فيه.

إخوة الإسلام:

لقد وضع الشرع الحنيف ضوابط للإحسان إلى الجار، فتعالوا معي لننتعرف على هذه الضوابط.

أولاً: أن يعلم المسلم أن الإحسان إلى الجار من أخص صفات المؤمن: فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليحسن إلى جاره).

وروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من يأخذ عني هذه الكلمات فيعمل بهن، أو يعلم من يعمل بهن - فقال أبو هريرة رضي الله عنه: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي، فعد خمساً، فقال: (اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسمه لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحبه لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر من الضحك، فإن كثرة الضحك تُميت القلب).

ثانياً: الإخلاص لله تعالى: فعلى الإنسان منا عند إحسانه إلى جاره عليه أن يستصحب الإخلاص لله تعالى في كل عمل يقوم به؛ لأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم.

قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ} [البينة: 5].

وقال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: 162، 163].

أما لو انعدم الإخلاص في الإحسان إلى الجار فيكون غير مقبول، روى مسلم أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشَرَكُهُ).

ثالثاً: العفو والمسامحة: انطلاقاً من قول الله تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [الشورى: 40].

وروى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (وَلَا يَعْفُو عَبْدٌ عَنْ مَظْلَمَةٍ يَتَّبِعِيهَا وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى، إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ بِهَا عِزًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة والقُدوة الطيبة، فروى البخاري في الأدب المفرد عن عائشة رضي الله عنها قالت: إنه كانت ليأتي منه فطحت شيئاً من شعير، فجعلت له قُرْصاً، فدخل فَرَدَّ الباب، ودخل إلى المسجد، وكان إذا أراد أن ينام أغلق الباب، وأوكأ القربة، وأكفأ القدح، وأطفأ المصباح، فانتظرت أن ينصرف فأطعمته القرص، فلم ينصرف، حتى غلبني النوم، وأوجعه البرد، فأتاني فأقامني، ثم قال: (أدفعيني، أدفعيني - فقلت: له إني حائض، فقال: (وإن اكشفي عن فخذيك - فكشفت له عن فخذي، فوضع خده ورأسه على فخذي، حتى دفئ، فأقبلت شاةً لجاننا داجنة (الداجن: كل ما أَلِفَ البيوت وأقام بها من حيوان وطيور) فدخلت ثم عمدت إلى القرص فأخذته، ثم أدبرت به، قالت: وقلقت عنه، واستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم فبادرتها إلى الباب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (خذي ما أدركت من قرصك ولا تؤذي جارك في شاته).

رابعاً: أن تؤمن أن جيرانك أولى الناس بك وأحقهم بعطفك وخيرك: روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر: (يا أبا ذر: إذا طبخت مرقةً، فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك).

وروى البخاري أن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إن لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ قال صلى الله عليه وسلم: (إلى أقربهما منك باباً).

وروى أبو داود عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه ذبحت له شاة فجعل يقول لغلامه: أهديت لجارنا اليهودي؟ أهديت لجارنا اليهودي؟ فإني سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أن سيورته).

خامساً: أن تكون قدوة حسنة: وذلك في جميع أعمالك وتصرفاتك وأخلاقك مع جيرانك وجميع الناس.

فلا يليق بمسلم أن لا يكون قدوة لجيرانه، فقال تعالى: {اتَّأَمَّرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: 44]. ويقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: 3، 4].

سادساً: أن تحب لجارك ما تحبه لنفسك: روى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (وأحب للناس ما تحبه لنفسك تكن مسلماً).

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (والذي نفسي بيده لا يؤمن عبدٌ حتى يحبَّ لجاره، أو قال: لأخيه، ما يحبُّ لنفسه).

وقد أشتكى أحد سلفنا الصالح من كثرة الفئران في بيته، فقيل له: لو اقتنيت هراً؟ فقال: أخشى أن يسمع الفأر صوت الهر، فيهرب إلى دور الجيران، فأكون قد أحببت لهم ما لا أحب لنفسي.

سابعاً: الصبر على آذاه: روى الطبراني في المعجم الكبير، أن أبا ذر قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تعالى يُحِبُّ ثَلَاثَةَ رَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ جَارٌ سُوءٌ يُؤْذِيهِ، فَصَبَرَ عَلَى آذَاهُ، حَتَّى يَكْفِيَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ بِحَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ، وَرَجُلٌ سَافَرَ مَعَ قَوْمٍ، فَارْتَحَلُوا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ وَقَعَ عَلَيْهِمُ الْكَرَى، أَوِ النَّعَاسُ، فَزَلَّوْا، فَضَرَبُوا بُرْعُوسَهُمْ، ثُمَّ قَامَ، فَتَطَهَّرَ، وَصَلَّى رَغْبَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَرَغْبَةً فِيمَا عِنْدَهُ).

وروي أنه كان لمالك بن دينار جار يهودي، فحول اليهودي مستحمة إلى جوار بيت مالك، وكان الجدار متهدماً، فكانت تدخل منه النجاسات، ومالك يقوم على تنظيف هذه النجاسات، وهو صابر على هذا الإيذاء، وطالت المدة، حتى أن اليهودي ضاق صدره من صبر مالك حتى قال له:

يا مالك، لقد أذيتك كثيراً، وأنت صابر، فما الذي حملك على هذا؟

فقال مالك بن دينار: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أن سيورته - فندم اليهودي وأسلم، وحسن إسلامه).

وروي أن سهل بن عبد الله كان له جار ذمي، وكان هذا الذمي يرمي في دار سهل بالقاذورات، وكان سهل يجمع له هذه القاذورات، فمكث رحمه الله زمناً طويلاً على هذه الحالة، إلى أن حضرت سهلاً الوفاة، فدعا جاره الذمي، وقال له: ادخل ذلك البيت وانظر ما فيه، فدخل الذمي فرأى القاذورات التي كان يرميها عليه، فقال له: ما هذا؟ فقال سهيل: هذا منذ زمن طويل يسقط من دارك إلى داري، ولولا أن حضرتني أجلي، وأنا أخاف ألا تتسع أخلاق غيري لذلك، فافعل ما ترى، فقال الذمي: أيها الشيخ تعاملني بهذه المعاملة منذ زمن بعيد، وأنا مقيم على كفري، مد يدك،

فإن أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم مات سهيل رحمه الله تعالى.

ثامناً: الالتزام بالأسلوب الحسن: وذلك يكون بالكلام الطيب، والابتسامة، والبشاشة عند لقاءهم، والدعاء لهم، فالكلمة الطيبة صدقة، وتبسمك في وجه أخيك صدقة، وطلاقة الوجه صدقة، روى ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ).

وروى مسلم عن أبي ذر قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ).

واسمع معي إلى التوجيه الإلهي للرسول صلى الله عليه وسلم، فقد حذره من القسوة في المعاملة، فقال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 159].

تاسعاً: الاهتمام بالمناسبات الدينية: والتي يحث عليها الدين الإسلامي وإحيائها، مثل: الأعياد، وقدم مولود جديد، والعقيقة، والزواج، والوفاة.

إخوة الإسلام:

لقد وضع الشرع الحنيف حقوقاً للجار، فتعالوا معي لنتعرف على هذه الحقوق.

الحق الأول: السلام عليه: فالواجب على المسلم أن يسلم على جاره أينما لقيه، لأن السلام يعمق جذور الحب بين المسلمين، ويدخل الطمأنينة في قلوب المسلمين، روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم).

وروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أيها الناس: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام).

وروى البخاري ومسلم أن رجلاً سأل الرسول صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام خير، قال صلى الله عليه وسلم: (تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف).

وقد يقول قائل: أنا ألقى السلام على جاري ولا يرد علي، أقول ليس هذا مانعاً في عدم إلقاء السلام، روى البزار والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (السلام اسم من أسماء الله تعالى، وضعه الله تعالى في الأرض، فأفشوه بينكم، فإن الرجل المسلم إذا مرقوم فسلم عليهم فردوا عليه، كان له عليهم فضل درجة بتذكيره إياهم السلام، فإن لم يردوا عليه رد عليه من هو خير منهم).

الحق الثاني: إذا مرض عدته: وعيادة المريض أي زيارته، وزيارة المريض لها ثواب عظيم من الله تعالى، روى أبو داود والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ما من مسلم يعود مسلماً غدوة، إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن عاده عشية صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وكان في خريف الجنة).

وروى مسلم أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: (يا بن آدم: مرضت فلم تعدني، قال: يا رب: كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن

عبدى فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته، لوجدتني عنده.-
 وروى ابن حبان أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (خمس من عمله _____ من في يوم كتيبته _____
 الله تعالى من أهل الجنة: من عاد مريضاً، وشهد جنازة، وصام يوماً، وراح إلى الجمعة، وأعتق رقبة.-

وإن كان جارك يهودياً أو نصرانياً، فلا بأس بعيادته إذا رجوت ذلك مصلحة للإسلام، فروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم الرسول صلى الله عليه وسلم فمرض، فأتاه الرسول صلى الله عليه وسلم يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: (أسلم- فنظر إلى أبيه، فقال: أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: (الحمد لله الذي أنقذه من النار.-

الحق الثالث: اتباع جنازته: يعني السير مع جنازته، إكراماً له وتوديعاً كتوديع الضيف، واتباع الجناز له ثواب عظيم حدثنا الرسول صلى الله عليه وسلم، فروى أحمد والنسائي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من اتبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً، فصلى عليها، وأقام حتى تدفن رجع بقرطين من الأجر، كل قيراط مثل أحد، ومن صلى عليها ورجع قبل أن تدفن، فإنه يرجع بقراط.-

الحق الرابع: إذا دعاك أجبته: وإجابة الدعوة فرض عين، إن لم يكن لديه عذر، والعذر ذحو: إطفاء حريق، أو حضور صلاة الجماعة، أو دفن ميت، أو مرض، أو نحو ذلك، لما روى مسلم وأبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دعا أحدكم أخاه فليجبه، عرساً كان أو نحوه.-
 وروى أبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من دعي فلم يجب، فقد عصى الله ورسوله.-

الحق الخامس: إذا استنصحك فانصَح له: أي إذا طلب منك الرأي والمشورة، فأرشده إلى ما تراه صواباً، وانصحه فيما يغلب على ظنك أن فيه الخير له ولأسرته.

فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الدين النصيحة- قلنا

لم رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: (الله، وكتابه، ورسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم).

الحق السادس: وداعه إذا كان مسافراً والدعاء له: فيستحب للمسلم أن يودع جاره إذا علم أنه مسافر، لما رواه الترمذي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم كان يقول للرجل إذا أراد سفراً: ادن مني حتى أودعك، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعنا، فيقول: (أستودع الله دينك وأمانتك، وخواتيم عملك).

الحق السابع: أن يصلح ذات البين إن وُجدَ بينهما شقاقٌ: فإصلاح ذات البين أفضل عند الله تعالى من درجة الصيام والنفل والصلاة النفل والصدقة كذلك، روى أحمد والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟) قالوا: بلى، قال صلى الله عليه وسلم: (إصلاح ذات البين إذا تقاطعوا).

الحق الثامن: ألا يهجره فوق ثلاث: لأن الهجر يولد الشقاق والبغضاء والأحقاد، وإذا نظرنا إلى حالنا اليوم فإنه يوجد الخصام بين الجار لمدة طويلة قد تزيد عن السنة وربما أكثر، مع أن هذا محرم شرعاً، فالمدة التي حددها الرسول صلى الله عليه وسلم في الخصام هي ثلاثة أيام فقط، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما من بدأ بالسلام).

الحق التاسع: أن ينصره ظالماً أو مظلوماً: لما رواه البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً - قيل: يا رسول الله، ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال صلى الله عليه وسلم: (تمنعه عن الظلم، فذاك نصره إياه).

الحق العاشر: أن يذّب عنه: لما روي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ما من امرئ مسلم ينصر مسلماً في موضع يُتَّهَك فيه عرضه، ويُستحل

حرمته، إلا نصره،
الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ خذل مسلماً في موطن يُنتَهَك فيه حرمة، إلا خذله الله تعالى في موضع يحب فيه نصرته-.

الحق الحادي عشر: المواساة بالملبس والمأكَل والمشرب: وذلك إن احتاج إليه في حضر أو سفر، فروى الطبراني وأبو يعلى والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع-).

وروى الطبراني في معجمه الأوسط أن رجلاً ذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له: اكسني، فأعرض عنه، فقال يا سول الله: اكسني، فقَالَ

الرسول صلى الله عليه وسلم: (أما لك جار له فضل ثوبين - قال الرجل: بلى غيرة واحد،
قال صلى الله عليه وسلم: (لا يجمع الله بينك وبينه في الجنة-).

وروى الأصبهاني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (كم من جارٍ متعلقٌ بجاره، يقول: يا رب سل هذا لم أغلق عني بابه ومنعني فضله-).
إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على العقوبات التي أعدها الله لمن لم يحسن إلى جاره.

العقوبة الأولى: نفي الإيَّان: ولقد أكد ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم بالقسم المكرر، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن - قيل: من يا رسول الله؟ لقد خاب وخسر، قال صلى الله عليه وسلم: (من لا يأمن جاره بوائقه- قالوا: وما بوائقه؟ قال صلى الله عليه وسلم: (شره-).

العقوبة الثانية: مضاعفة العقوبة: روى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه رضوان الله عليهم: (ما تقولون في الزنا؟ قالوا: الزنا حرام، حرمه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لأن يزني الرجل بعشرة نسوة، أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره- فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما تقولون في السرقة؟-

قالوا: السرقة حرام، حرمها الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات، أهون عليه من أن يسرق من بيت جاره).

العقوبة الثالثة: اللعن من الله تعالى والناس: روى أبو داود أن رجلاً جاء على الرسول صلى الله عليه وسلم يشكو جاره، فقال صلى الله عليه وسلم: (اذهب فاصبر - فأتاه مرتين أو ثلاثاً، فقال صلى الله عليه وسلم: (اذهب فاطرح متاعك في الطريق - فطرح متاعه في الطريق، فجعل الناس يسألونه، فيخبرهم خبره، فجعل الناس يلعنونه، فعل الله به، وفعل وفعل، فجاء إليه جاره، فقال: ارجع، لا ترى مني شيئاً تكرهه).

وفي رواية الطبراني: أن الرجل جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يشكو إليه لعن الناس، ودعاهم عليه، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (قد لعنك الله قبل أن يلعنك الناس).

العقوبة الرابعة: دخول النار: روى أحمد والبخاري في الأدب، والحاكم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله إن فلانة يُذكرُ من كثرة صلاتها وصيامها وصدقته، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال صلى الله عليه وسلم: (هي في النار).

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه).

وأخيراً: يمكن القول: إن من سعادة الرجل أن يرزقه الله تعالى الجار الصالح، فروى أحمد والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أربع من السعادة: المسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء، والزوجة الصالحة).

* * *

الاستقامة

الاستقامة

أسباب نعيم القبر

الاستقامة

الحمد لله رب العالمين: الذي نطقته بوحدانيته جميع الكائنات، فالسماوات دائماً وأبداً تقول: سبحان من رفعني بقوته، وأمسكني بقدرته، فهو ركني وعمادي، والأرض دائماً وأبداً تقول: سبحان من وسع كل شيء علماً، ومهدني تمهيداً، والبحار دائماً وأبداً تقول: سبحان من بمشيئته أجراي، وأسأل عيون مائي لروادي، والعارف به دائماً وأبداً يقول: سبحان من دلني عليه، وإليه مرجعي ومآبي، حتى العاصي يقول: سبحان من اطلع عليّ في المعصية، فلما رأي سترني وغطاني، فلما تبّت إليه قبلني وهداني.

سبحانه: حدد الغاية الأسمى من بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي الهداية إلى الطريق المستقيم، فقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور [الشورى: 52، 53].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: جعل تدعيم شرعه، وفعل الطاعات، طريقاً موصلاً إلى الاستقامة، فقال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا * وَإِذَا لَا تَأْنِيَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجراً عَظِيماً * وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً [النساء: 65 - 68].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: بين لنا أن استقامة

أعضاء

جسم الإنسان، متوقفة على استقامة اللسان، فروى الترمذي وابن خزيمة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أصبح ابن آدم: فإن الأعضاء تذکر اللسان، وتقـ

له: اتق الله فينا، فإننا نحن بك، إن استقمتم استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا.

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابه أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع سبب من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: الاستقامة، فأعبروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا.

الحقيقة الأولى: إن المسلم لا يستطيع أن يثبت على دين الله تعالى إلا بمدد من الله ﷻ، فمهما ادعى المسلم لنفسه، فلن يستطيع أن يثبت على دين الله تعالى بنفسه، فهو في حاجة ملحة ودائمة إلى الله تعالى؛ ليثبتته على دينه.

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى أبو داود والنسائي وغيرهما عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِي يَوْمًا، ثُمَّ قَالَ: (يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَقَالَ مُعَاذُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَنَا أُحِبُّكَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ).

نعم اطلب العون والمدد من الله تعالى على عبادته ﷻ، وأنت إذا سلكت هذا الدرب المذير، لن يخزيك الله تعالى أبداً، أليس الله تعالى هو القائل: {الَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمر: 36].

فهذا وعد من الله تعالى، والله تعالى إذا وعد لا يخلف وعده، فقال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: 6].
فإن الله تعالى هو الذي يصرف بصرك عن الحرام، وهو الذي سيعصرف

قلبك عن الشهوات والشبهات، وهو الذي سيحفظ فرجك من الحرام، وهو الذي سيصرف يديك عن البطش في الحرام، وهو الذي سيصرف قدميك من الخطأ إلى الحرام، وهو الذي يحفظ بطنك من أكل الحرام.

وهذا ما فعله سيدنا يوسف عليه السلام حينما طلب الذسوة منه فعل الفاحشة معهم، فقال تعالى: {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنَنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ} [يوسف: 30 - 35].

وفعله أيضاً الرسول صلى الله عليه وسلم، فروى ابن ماجه وابن أبي شيبه وعبد الرزاق عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: (يا مثبت القلوب، ثبت قلبي على دينك)، قالوا: يا رسول الله، أما بك، وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال صلى الله عليه وسلم: (نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها).

فالواجب على كل مسلم أن يطلب العون من الله تعالى؛ لينتبه على طاعته، أليس هو القائل: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمر: 36].

الحقيقة الثانية: لقد كانت الاستقامة خلقاً من أخلاق الأنبياء والمرسلين، دون فرق بين نبي وذبي، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام: 83 - 87].

ثم فصل الله تعالى بعد ذلك، فهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام كان ملتزماً بالاستقامة، فقال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [النحل: 120، 121].

وعندما التزم سيدنا إبراهيم بالاستقامة على منهج الله تعالى، مدحه الله تعالى بقوله: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [النجم: 37].

وأمر سيدنا إبراهيم عليه السلام أباه باتباعه؛ لأن منهجه هو الصراط المستقيم، فقال تعالى: {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا} [مريم: 43].

وهذا سيدنا موسى عليه السلام وسيدنا هارون عليه السلام قال الله تعالى عنهما: {وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الصافات: 118].

بل تدبر معي قول الله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام ولسيدنا هارون عليه السلام: {وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يونس: 88].

وإذ بالحق ﷻ يقول: {قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [يونس: 89].

وهذا سيدنا عيسى عليه السلام وهو في المهد، يأمر بني إسرائيل أن عبادة الله تعالى هي الالتزام بالصراط المستقيم، فقال تعالى: {وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} [مريم: 36].

وهذا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يقول الحق تعالى له: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [هود: 112].

ولما نزلت هذه الآية الكريمة، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (شمروا شمروا-) وما رأيي بعدها ضاحكاً.

وقال ابن عباس رضي الله عنهم: ما نزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع القرآن آية أشد ولا أشق عليه من هذه الآية.

وروى الترمذي والطبراني والبخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (شَيْئَتْنِي هُوْدٌ وَأَخَوَاتُهَا-) وأخواتها هي: الواقعة، المرسلات، الذبأ،

التكوير.

وقال تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادُعْ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [الشورى: 15].

وقال تعالى: {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} [الزخرف: 43، 44].

الحقيقة الثالثة: إن الشرع الحنيف جعل الاستقامة أمراً مفروضاً على جميع المسلمين، دون تفرقة بين رجل وامرأة، ودون تفرقة بين متعلم وغير متعلم، فالكل سواء أمام هذا الأمر العظيم.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

ويقول تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: 108].

فقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ - مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ} [فصلت: 6].

فإنه تعالى بين لنا أن له سبيلاً واحداً، سماه صراطاً مستقيماً؛ لأنه أقرب طريق إلى الحق، والخير، والسلام.

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة أيضاً، فروى أحمد وغيره أن الرسول صلى الله عليه وسلم خط خطاً، ثم قال: (هذا سبيل الله تعالى - ثم خط خطوطاً عن يمينه، وخطوطاً عن يساره، وقال: (هذه السبل المتفرقة، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه - ثم قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

وروى مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي، أنه قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ أَحَدًا بَعْدَكَ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وسلم: (قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمَّ-.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يوصي أصحابه بها دائماً، وبالتحديد عند سفر أحدهم، فروى الحاكم والطبراني أن معاذ بن جبل أراد سفرًا فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أوصني، فقال صلى الله عليه وسلم: (اعْبُدِ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا-، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زِدْنِي، قَالَ صلى الله عليه وسلم: (إِذَا أَسَأْتَ فَأُحْسِنْ-، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زِدْنِي، قَالَ صلى الله عليه وسلم: (اسْتَقِمَّ وَلْتُحَسِّنْ خُلُقَكَ-.

ومن ثم يمكن القول: بأن الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلي، ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، فمن قال خيراً، وعمل خيراً، قبل منه، ومن قال خيراً، وعمل شراً، لم يقبل منه، فروى البيهقي في شعب الإيمان وابن أبي شيبة عن الحسن قال: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل.

فمن استقام قلبه على معرفة الله تعالى وخشيته ومحبته، استقامت الجوارح كلها على طاعة الله تعالى؛ لأن القلب أمير البدن، فإذا صلح، صلح الجسد كله، وإذا فسد، فسد الجسد كله، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (...أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ-.

فالواجب علينا جميعاً أن نستقيم على منهج الله تعالى، ومنهج رسوله صلى الله عليه وسلم، ونحقق ما قاله المولى تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر: 7].

فإنه تعالى يذكر العباد يوم القيامة بالاستقامة، وذلك على سبيل التقرير، فقال تعالى: {أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: 168].

مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} [يسن: 60 - 62].

الحقيقة الرابعة: إن الله ﷻ حذرنا من الانحراف واتباع الهوى، ورتب العقاب الشديد على ذلك، فقال تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ

الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُضْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: 115].

وقال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 63].

واقرا معي قول الله تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نَكْرًا} * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا} [الطلاق: 8 - 11].

وبالفعل لقد انحرفت الأمة عن الطريق المستقيم، وخالفت أمر ربها، فتفرقت إلى فرق ومذاهب شتى، ففعلت هذه التفرقة الأفاعيل في الأمة، مما جعلت الأمة لقمة سائغة لأعداء الله ﷻ، وجعلت الأمة تخضع لأذل أمم الأرض، أليس بنو إسرائيل قد كتب الله ﷻ عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله تعالى ؟

إن أغلب المسلمين الآن من هذه الأمة، أذل من إخوان القردة والخنازير، لماذا؟ لأن أولئك انحرفوا عن منهج التوراة فأذلهم الله تعالى، والأمة الآن انحرفت عن منهج القرآن، الذي هو أعظم من التوراة، فأذلهم الله تعالى.

فالواجب على كل المسلمين إذا أرادوا أن يخرجوا من هذه الدوامة، التي تمر بها الأمة الإسلامية الاعتصام بكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وإلا فإن الأمر سيزداد شدة على شدة، ومرارة على مرارة، ونحن قد لمسنا هذا بأيدينا، فماذا نريد بعد هذا؟ وإلى متى هذا التيه في الظلمات، والقرآن بين أيدينا، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم بين أيدينا، وفيهما النجاة، والضمان من الهلاك والخسران، قال تعالى: {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً

صَنَكَاءَ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمُ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى {طه: 123 - 127}.

وروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما).

الحقيقة الخامسة: ما هي الاستقامة؟ الاستقامة هي: التمسك بأمر الله تعالى، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، فعلاً وتركاً.

وقال ابن القيم: الاستقامة هي لزوم المنهج القويم، فمن هداه الله تعالى في الدنيا إلى الصراط المستقيم، الذي أرسل به الرسول صلى الله عليه وسلم، هدي هناك في الدار الآخرة إلى الصراط المستقيم، الموصول إلى جذته، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على الصراط، الذي نصبه الله تعالى لعباده في الدنيا، يكون ثبوت قدميه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذا الصراط، يكون سيره على ذاك الصراط، فليبتعد الإنسان عن الشبهات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط، فإنها الكلايب التي تكون بجانب ذاك الصراط المستقيم تخطفه، وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت، فذلك هناك.

إخوة الإسلام:

إن الحصول على الاستقامة ليس أمراً هيناً، بل هو بالغ الصعوبة؛ لأن هناك معوقات تعوق الإنسان على الحصول عليها، ومن هذه المعوقات ما يلي:

1 - إبليس: فقال تعالى: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: 16، 18].

2 - النفس: فقال تعالى: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [يوسف: 53].

3 - الهوى: فقال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: 37 - 41].

ولكن هناك أمور تعين الإنسان على الاستقامة، فتعالوا معي لنتعرف على هذه الأمور.

أولاً: الاعتصام بالله تعالى :

إن من أهم الأمور التي تعين الإنسان على الحصول على الاستقامة، الاعتصام بالله تعالى، فقال تعالى: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران: 101].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء: 174، 175].

وكلما ازداد قلب المسلم تعلقاً بالله تعالى، وتوكلاً عليه، كلما زادك الله تعالى تسديداً، وتوفيقاً، واستقامة على طاعته؛ لأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمان، قلبها كيف يشاء.

ثانياً: المسارعة إلى طاعة الله تعالى :

فالله تعالى حثنا على المسارعة إلى الخيرات، فقال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 133].

وقال تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّيِّءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: 21].

واستجاب الله تعالى دعاء سيدنا زكريا عليه السلام؛ لأنه كان يسارع إلى الخيرات، فقال تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: 90].

فالمسارعة إلى فعل الخيرات، تعين الإنسان على الحصول على

الاستقامة، فقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا * وَإِذَا لَا تَأْتِيَانَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهْدَيْنَاهُم صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} [النساء: 66 - 68].

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ؛ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِّنَ الدُّنْيَا).

فيجب على العبد أن يُسرع إلى طاعة الله تعالى، حتى يحصل على الاستقامة.

ثالثاً: التعايش مع القرآن الكريم:

فإن الله تعالى لم ينزل القرآن ليقرأ على الأموات في القبور، ولم ينزله الله تعالى ليوضع في العلب القطيفة الفضة الضخمة التي توضع في مؤخرة السيارة، وفي غرف الصالون.

ولم ينزله الله تعالى ليوضع في البراويز الفضية والذهبية ويلق على الجدران والحوائط، ولم ينزله الله تعالى ليحلى به النساء صدورهن في مصاحف صغيرة، ولم ينزله الله تعالى ليهديه الحكام والزعماء إلى بعضهم البعض، فترى الحاكم يستلم المصحف منحدياً على كتاب الله تعالى؛ ليقبله بخضوع جسدي كامل.

كلا، بل لقد أنزل الله تعالى على الرسول صلى الله عليه وسلم ليقوم به أمة ودولة، ويسعد به البشر في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} [الإسراء: 9].

فقال تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [المائدة: 15، 16].

فقد جعل الله تعالى هذا الكتاب منهج حياة متكاملة، وجعله من أعظم أسباب الهداية والاستقامة، فقال تعالى: {الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة: 1، 2].

رابعاً: الإخلاص في العبادة:

فإن الله تعالى أمرنا أن نعبدَه وحده، فلا نشرك معه غيره في العبادة، وأوجب على كل مسلم ضرورة الإخلاص في العبادة له وحده، فقال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ} [البينة: 5].

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل أمر الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم بضرورة الإخلاص في الأعمال، فقال عز وجل: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} [الزمر: 1 - 3].

وقال تعالى: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمَبِينُ} [الزمر: 11 - 15].

بل جعل الله تعالى الإخلاص شرطاً في قبول الأعمال، فقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: 110].

فكلما أخلص المسلم في طاعة الله تعالى، كلما وفقه الله تعالى لطاعته، ورزقه الاستقامة.

خامساً: طلب العلم والدعوة إلى الله تعالى :

فكلما ازداد العبد علماً، ازداد خشية، وكلما ازداد خشية، ازداد طاعة لله تعالى، واستقام على أمر الله تعالى، فقال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: 28].

ومن تعلم العلم، فعمل به، ودعا الناس إلى الله تعالى، فإن ذلك من أعظم أسباب الاستقامة على الطاعة؛ لأنه سيفوز بدعاء الكون كله له، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله وملائكته، وأهل السموات، وأهل الأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت، ليصلون على معلم الناس الخير).

سادسا: الصلحة الصالحة:

فالرجل على دين خليله، وإن الصاحب صاحب، فإما أن يأخذ بيدك إلى مرضاة الله تعالى، وإما أن يأخذ بيدك إلى غضب المنتقم الجبار. فابحث عن العلماء العاملين، والدعاة المؤمنين، والزم غرسهم، فإنهم سيأخذون بيدك إلى مرضاة الله تعالى، فروى أحمد والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِطُ). وفي رواية: (إلى من يخال).

وروى أبو داود والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا).

فعلى المسلم أن يحذر كل الحذر من الرفقة السيئة؛ لأنها تعين الإنسان على الانحراف، فيندم في وقت لا ينفع فيه الندم، ولقد حذرنا الشرع الحنيف من الرفقة السيئة، فقال تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا} * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا [الفرقان: 27 - 29].

سابعا: الدعاء:

فعلى المسلم أن يدعو الله تعالى أن يرزقه الاستقامة، فروى مسلم أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ).

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم دائما كثير الدعاء، فروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: (اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

وروى ابن ماجه وابن أبي شيبة وعبد الرزاق عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: (يا مثبت القلوب،

ثبت قلبي على دينك-.

وفي سورة الفاتحة يسأل العبد ربه الاستقامة، فقال تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: 6، 7].

قال الرازي في تفسير هذه الآية: أن يكون الإنسان معروضاً عما سوى الله تعالى، مقبلاً بكلية قلبه وفكره وذكره على الله تعالى... وأن يصير بحيث لو أمر بذبح ولده، لأطاع، كما فعله إبراهيم عليه السلام، ولو أمر بأن ينقاد ليزبحه غيره، لأطاع، كما فعله إسماعيل عليه السلام، ولو أمر بأن يرمي نفسه في البحر، لأطاع كما فعله يونس عليه السلام، ولو أمر بأن يتلذذ لمن هو أعلم منه بعد بلوغه في المنصب إلى أعلى الغايات، لأطاع، كما فعله موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام، ولو أمر بأن يصبر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على القتل والتفريق نصفين، لأطاع، كما فعله يحيى عليه السلام وزكريا عليه السلام.

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنسوق بعض النماذج من حياة سلفنا الصالح لنتعلم كيف تكون الاستقامة على منهج الله تعالى ومنهج الرسول صلى الله عليه وسلم. النموذج الأول: قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعد جيشاً تحت إمرة أسامة بن زيد، وجهته الشام، وكان الجيش يوم أن مات الرسول صلى الله عليه وسلم معكساً على بعد ثلاثة أميال من المدينة متعباً للسير، وأرجأت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم زحفه، واختلف الرأي بعد هذا في أمره.

فرأى فريق من المسلمين وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن بعث جيش أسامة إلى الشام مخاطرة رهيبة، في الوقت الذي أصبحت المدينة نفسها عاصمة الإسلام مهددة بغزو المرتدين، ورأوا ضرورة عودة الجيش إلى المدينة؛ ليكون في مواجهة الأحداث، وكان

أسامة من أصحاب هذا الرأي.

والمسألة حين تقاس بالمنطق المجرد لا يبدو الصواب إلا في هذا الرأي، الذي تبناه عمر وأسامة بن زيد رضوان الله عليهم.

لكن أبا بكر أراد أن يعطي الدنيا بأسرها درساً عملياً في الاستقامة على المنهج القويم، فكل قضية عند أبي بكر تتسع للاجتهاد، إلا قضية

أب—
الله ﷺ فيها حكماً، أو أصدر الرسول صلى الله عليه وسلم فيها أمراً.

ولقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته أن ينفذ بعث أسامة، فليكن ما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم به، مهما تكن مستجدات الظروف، ومهما تكن الأخطار التي تهدد المدينة.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: أنفذوا بعث أسامة، فو الله لو خطفتني الذئاب لأنفذته، كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما كنت أرد قضاء قضاء الرسول صلى الله عليه وسلم.

وعاد بعض المسلمين وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطلبون من أبي بكر أن يجعل على رأس الجيش قائداً غير أسامة الذي كان فتى صغيراً محدود الخبرة، لا سيما وفي هذا الجيش شيوخ الصحابة رضوان الله عليهم.

وهذه المسألة إذا بحثت في ضوء المنطق المجرد، يبدو ذلك الرأي سديداً، لم يكد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعرض الرأي على أبي بكر رضي الله عنه حتى وثب أبو بكر رضي الله عنه من مكانه، وأخذ بلحية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: ويحك يا بن الخطاب أيوليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتأمرنى أن أعزله، فماذا كانت نتيجة بعث جيش أسامة؟

كانت النتيجة أن القبائل التي مر بها جيش أسامة وهو في طريقه إلى الشام، لم تكد ترى هذا الجيش حتى عاد إليها صوابها.

وقال بعضهم لبعض: والله لو كانت المدينة تنن تحت وطأة الضعف والخلاف كما سمعنا، ما كان بوسعها أن تبعث هذا الجيش في هذه الأيام

لتنقاتل الروم.

النموذج الثاني: في صلح الحديبية وعندما تم الاتفاق على بنود الصلح، اعترض بعض الصحابة رضوان الله عليهم على هذا الصلح، لما فيه من شروط جائرة.

ووقف سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه معترضاً، فقال: فَأَتَيْتُ

نَبِيَّ
الله صلى الله عليه وسلم، فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ صلى الله عليه وسلم: (بَلَى)، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ صلى الله عليه وسلم: (بَلَى)، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ صلى الله عليه وسلم: (إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَلَسْتُ أَغْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي)، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُذْتُ تُحَدِّثُنَا أَنَا سَنَاتِي الْبَيْتِ فَتُطَوِّفُ بِهِ، قَالَ صلى الله عليه وسلم: (بَلَى)، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَا نَأْتِيهِ الْعَامَ، قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ صلى الله عليه وسلم: (فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ).
قَالَ عمر رضي الله عنه: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟

قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: أَتَيْهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكَ بِغُرْزِهِ، فَوَّاهُ اللهُ إِنْهُ عَلَى الْحَقِّ.

قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَا سَنَاتِي الْبَيْتِ وَنُطَوِّفُ بِهِ، قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ، قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ.

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على النتائج المترتبة على الاستقامة:

أولاً: كمال الإيمان:

روى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا يستقيم إيمان عبدٍ حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة رجلٌ لا يأمن جاره بوائقه).

ثانياً: البشرى الطيبة:

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نَزَّلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ} [فصلت: 30 - 32].

ثالثاً: الأمن من الخوف ونيل الجنة:

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأحقاف: 13، 14].

رابعاً: الرزق الواسع:

قال تعالى: {وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا} [الجن: 16].

خامساً: المرور على الصراط في أمان:

قال تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كُنتُمْ فِتْنَةً أَنْفُسُكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَإِزَّيْتُمْ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الحديد: 12، 15].

* * *

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر

أسباب نعيم القبر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الحمد لله رب العالمين: الذي خلق آدم من طين فسواه، ورد إلى يعقوب بصره حين ابديت عيناه، وقال لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم: {وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل: 127].

الملك ملكه، والحكم حكمه، والأمر أمره، إنما أمره بين الكاف والنون إذا قال للشيء كن فيكون.

سبحانه: إذا قال العبد: لا إله إلا الله، أخذها ملك وصعد بها إلى السماء، فيلتقيه ملك نازل إلى الأرض، فيسأل الملك النازل الملك الصاعد: إلى أين؟ فيقول الملك الصاعد: أصد بكلمة لا إله إلا الله من عبد قالها، ثم يسأل الملك الصاعد الملك النازل: وأنت إلى أين؟ فيقول الملك النازل: أنزل له براءة من النار من قبل الواحد القهار.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقوماً من مقومات الخيرية للأمة الإسلامية، فقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: 110].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: ألزمنا جميعاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسئولية الأمة: هذا هو عنوان لقائنا مع حضراتكم اليوم، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك

والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا اليوم.

الحقيقة الأولى: إن النفس البشرية أمارة بالسوء، توافقة إلى الشر، تورد الإنسان موارد التهلكة، وتقوده إلى مواطن الشر والخسران، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي- إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} [يوسف: 53].

وقد جرت العادة بأن النفس البشرية إذا اشتد ميلها إلى الشهوات، تلهت عن اتباع أوامر الله تعالى، ونسيت الوعد والوعيد، فهي في حاجة دائمة إلى من ينبهاها إلى ما أوجبه الله تعالى عليها، ويخوفها من عقابه تعالى إن تجاوزت الحد وانتهكت الحرمات، قال تعالى: {فَذَكَّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٌ} [ق: 45].

ومن هنا أوجب الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ليرجع العاصي عن غيه، ويتوب إلى ربه، ويسلك سبيل ربه، فلا يقصر في معروف، ولا يقترب من منكر، وصدق الله تعالى إذ يقول: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: 122].

الحقيقة الثانية: إن الشريعة الإسلامية جعلت الأمر بالمعروف والنهي عن النكر من أهم القواعد الدينية، وأجل الفرائض الشرعية، فهو القطب الذي تدور عليه رحى الدين، وهو المهمة العظمى التي من أجلها بعث الله تعالى الأنبياء والمرسلين، فقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [النحل: 36].

وقال تعالى: {رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: 165].

وقال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ

مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ {
[الأعراف: 157].

فإذا ما وضعه المسلمون أمام أعينهم، ونفذوه في كل أحوالهم وأعمالهم، رُفِعَتْ رايَتُهُمْ، وقويت شوكتُهُمْ، وعز جانبُهُمْ، وهابهم

أعـ _____
اقرأ معي قول الله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا * وَإِذَا لَا تَأْتِنَاهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} [النساء: 66 - 68].

الحقيقة الثالثة: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مقصوراً على العلماء، وليس خاصاً برجال الدين فقط، وليس مختصاً بطائفة دون طائفة، ولا مقصوراً على فريق دون فريق، بل ذلك ثابت لأحاد الناس، ما دام المعروف من الواجبات الظاهرة، والمنكر من المحرمات المشهورة، فمن الذي لا يعرف أن الصلاة واجبة؟... ومن الذي لا يعرف أن أكل أموال الناس بالباطل حرام؟...

وليس من الضروري أن تصعد منبراً، أو تلقي محاضرة، فإذا رأيت في الطريق جاهلاً ساقط المروءة يتبع امرأة في سيرها، ويؤذيها بفاحش الكلام وساقط القول، أو يقف على مفترق الطرق ليعاكس ويغازل، فانه عن ذلك، وإذا رأيت رجلاً ينقص في المكيال والميزان فانه عن ذلك، وخوفه من عقاب الله تعالى....

واسمع معي أخي المسلم إلى هذا النموذج لتكون على بينة من الأمر: هد هـد سليمان عليه السلام، ماذا فعل حين رأى بلقيس ملكة سبأ تعبد الشمس هي وقومها من دون الله تعالى ؟ وماذا كان دوره؟

لقد تحرك لكي يعمل لدين الله تعالى، تحرك ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر الذي وقع بصره عليه، فقام على الفور وأبلغ سيدنا سليمان عليه السلام، فقال تعالى: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ مَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً

تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُمْهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ} [النمل: 20، 24].

وهنا يعلن الهدد براءته من هذا المنكر، ومن تلك العقيدة الفاسدة، فيقول المولى تعالى: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [النمل: 25، 26].

أتعجز أن تكون مثل هذا الطائر الأعجم الذي تصرف بعقل وحكمة، ثم وجهه نبي الله سليمان عليه السلام التوجيه المبارك، فدخل الهدد رسالة سيدنا سليمان عليه السلام، وذهب إلى مكان المنكر، وأعطى الرسالة إلى امرأة بلقيس، فماذا كانت النتيجة؟ إنها إسلام القرية بأكملها، قال تعالى: {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [النمل: 44].

فالواجب على كل مسلم أن يشمر عن ساعد الجد، وأن يجدد العهد مع الله تعالى، وأن ينفذ غبار الخمول والكسل عن رأسه، ويلتزم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، انطلاقاً من قول الله تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: 104].

الحقيقة الرابعة: إن المسلم إذا رأى منكراً من المنكرات لا يجوز له أن يغمض عينيه ويهز كتفيه، ويقول: حسبي أني مستقيم، وليس لي شأن بالمنحرفين الضالين، ولا شأن لي بهؤلاء العابثين الفاسقين، فهذا تصرف ياباه الدين، وترفضه الطباع السليمة، وإياك أن تفهم قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلٍّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [المائدة: 105] خطأ، فالآية ليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولقد حذرنا المولى تعالى من إهمال هذا الواجب، فقال تعالى: {وَاتَّقُوا

فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ { [الأنفال: 25].

يقول الرازي: " واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالمين خاصة، بل تتعدى إليكم جميعاً وتصل إلى الصالح والطالح ".

وحذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من هذا، فروى أحمد أن أبا بكر رضي الله عنه قام فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال: أيها الناس: إنكم تقرأون هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [المائدة: 105]، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا المنكر فلا يغيرونه، أو شك الله أن يعمهم بعقابه).

وروى الترمذي: أن أبا ثعلبة الخشني سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [المائدة: 105]، فقال صلى الله عليه وسلم: (بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم).

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على موقف الشرع الحنيف من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد اهتم الدين الإسلامي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اهتماماً بالغاً، وذلك على النحو التالي:

أولاً: قدم الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الذكر على الإيمان، فقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: 110].

ثانياً: وقدمه في الذكر على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرَ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: 71].

وفي هذا التقديم إيضاح وبيان لعظم شأن هذا الواجب، وبيان لأهميته في حياة الفرد والمجتمعات والشعوب، فبتحقيقه والقيام به تصلح الأمة، ويكثر فيها الخير، ويضمحل الشر، ويقل المنكر.

ثالثاً: جعل الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صفات المؤمنين، فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآنَ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ* التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [التوبة: 111، 112].

وعلى العكس من ذلك أهل الشر والفساد، فقال تعالى: {وَالْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [التوبة: 167].

رابعاً: جعل الله تعالى هذا الواجب من خصال الصالحين، فقال تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ* يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران: 113، 114].

خامساً: بين الله تعالى أن سبب أفضلية هذه الأمة وخيريتها، أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: 110].

سادساً: بين الله تعالى أن الفلاح مقرون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال تعالى: {وَلَتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: 104].

سابعاً: بين الله تعالى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب في النجاة، فقال تعالى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ

وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأعراف: 165].

ثامناً: جعل الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علامة من علامات التمكين في الأرض، فقال تعالى: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج: 41].

تاسعاً: وعد الله تعالى الأمر بالمعروف بالأجر العظيم، فقال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: 114].

ولقد أوصى لقمان ابنه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال تعالى: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ} [لقمان: 17].

وجاءت السنة النبوية تبين منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيبين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل يوصل إلى الجنة، فروى الطبراني في معجمه الكبير وابن حبان والحاكم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت الرسول صلى الله عليه وسلم على عمل إذا عمل العبد به دخل الجنة، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (تؤمن بالله واليوم الآخر - قلت: يا رسول الله إن عملي؟

قال صلى الله عليه وسلم: (يتصدق مما رزقه الله تعالى - قلت: يا رسول الله: رأيت إن كان فقيراً لا يجد ما يتصدق؟ قال صلى الله عليه وسلم: (يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر).

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والجلوس في الطرقات - فقال الصحابة رضوان الله عليهم: يا رسول الله ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث عليها، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إذا أبيتم إلا الجلوس، فأعطوا الطريق حقه - قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: (غض البصر، كف الأذى، رد السلام، الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر-.

إخوة الإسلام:

لقد وضع الشرع الحنيف مراتب ثلاثة لتغيير المنكر، فتعالوا معي
لنتعرف على هذه المراتب:

المرتبة الأولى: تغيير المنكر باليد.

فالإنسان يستطيع أن يغير المنكر بيده دون أن يؤدي إلى مفسدة أشد
مما قصد تغييره، وليست هذه المرتبة خاصة بالحكام فقط، بل هي عامة،
فالأب سلطان في بيته، ورئيس العمل سلطان في عمله، وكل جهة على
حسب تخصصها، فتقوم هذه الجهة بإزالة المنكر، أو تلك المخالفة حسب
ما تقتضيه الحالة.

وليس من حَقِّك أن تعتدي على إنسان فعل منكراً فتضربه بيدك، وإلا
أصبح المجتمع في فوضى، فكل إنسان يضرب إنساناً ويقول: أنا ضربته؛
لأنه كان يفعل منكراً، أو يقتل إنساناً آخر، ويقول: إنه فعل منكراً.

المرتبة الثانية: تغيير المنكر باللسان.

إذا لم يقدر الإنسان على تغيير المنكر باليد، فليغيره بلسانه، فتكون
النصيحة باللسان، بالكلمة الطيبة، انصحه بلطف وحلم، قال تعالى: {وَلَوْ
كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 159].
وللنصيحة آداب منها ما يلي:

أولاً: ألا تنصحه أمام الناس علانية.

فالواجب على الناصح إذا أراد أن ينصح أحداً، فيجب أن تكون
النصيحة في السر، فلا تقل له أمام الناس: أنت تارك للصلاة مثلاً، لأنك
لو قلت له ذلك، فإنك حينئذ تشهر به وتقضه، ولذلك يقول الشافعي: "
من نصح أخاه سرّاً، فقد نصحه وزانه، ومن نصحه جهراً، فقد فضحه وشانه".
ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة والقُدوة
الطيبة، فإذا ما أراد أن ينصح أحداً كان يقول: (ما بال أقوام يفعلون كذا
وكذا-).

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه جالساً ذات مرة مع الناس، فأخرج رجل منهم ريحاً، فقال عمر رضي الله عنه: "عزمت على صاحب هذا أن يتوضأ" وكان جرير بن عبد الله رضي الله عنه حاضراً، فأحب أن يذق صاحب الريح من الحرج، فقال: "يا أمير المؤمنين لو تعزم علينا جميعاً أن نتوضأ" فأعجب عمر رضي الله عنه بالرأي الذي أشار به جرير بن عبد الله رضي الله عنه، وقال له: "جزاك الله"، وأمر الناس جميعاً أن يتوضؤوا، ونجا صاحب الريح بفضل نصيحة جرير رضي الله عنه.

ثانياً: أن يكون النصيح بالطيبة الرقيقة المهدبة:

لقول الله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل: 125].

وهذا ما فعله سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه، فكان يذصحه برفق وهدوء، فقال تعالى: {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا} [مريم: 41 - 48].

والرسول صلى الله عليه وسلم طبق هذا عندما بال الأعرابي في المسجد... والرجل الذي أراد أن يرخص له في الزنا...

وذات يوم استأذن رجل في الدخول على الخليفة العباسي المأمون، فلما أذن له، دخل عليه ودياه، ثم أخبره أنه ما حضر إليه إلا ليعظه ويخبره بعيوبه وينصحه، فتكلم بلهجة حادة، وأغلظ له في الأقول فتعجب المأمون من هذا الرجل الذي لم يقدم له النصيحة في رفق ولين وحكمة، فقال له: يا رجل ارفق، فقد بعث الله تعالى من هو خير منك إلى من هو

شر مني، فتعجب الرجل وتساءل عن الذي بعثه الله تعالى ناصحاً، وهو خيراً مني، وعن ما هو شر منه.

فقال له المأمون: بعث الله تعالى موسى عليه السلام وأخاه هارون عليه السلام إلى فرعون، وقال لهما: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: 44].

ثالثاً: أن يكون الناصح قدوة:

فيطابق قوله فعله؛ ليكون أشد تأثيراً في نفوس الناس، اقرأ معي قول الله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: 44].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: 2، 3].

وهذا ما حدث للرسول صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية... حين خرج بنفسه وذبح الهدي بنفسه ودعا الحلاق ليحلق له، ويتحلل من إحرامه، فلما رأى الصحابة رضوان الله عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك، فعلوا وتحلوا من إحرامهم.

المرتبة الثالثة: تغيير المنكر بالقلب:

وهذه المرتبة إنما تكون لمن لا يستطيع أن يغير المنكر بلسانه ولا بيده، وليس معنى الإنكار أن يقف المسلم موقفاً سلبياً ويقول: أنا مذكر بقلبي وبترك الأمر، لا، بل معناه أن لا تصاحب ولا تجالس هذا الإنسان الذي رأيتَه يفعل المنكر، حينئذ يشعر هذا الإنسان بأنه معزول عن المجتمع منبوذ، فيرجع إلى رشده ويعلم أنه مخطئ.

وهذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فعزل الرسول صلى الله عليه وسلم المجتمع كله عن هؤلاء الثلاثة، ونزل فيهم قول الله تعالى: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: 118].

والثلاثة الذين خلفوا هم: كعب بن مالك، ومرارة بن ربيعة العامري،

وهلال بن أمية الواقفي، وكلهم من الأنصار، ومكث هذا خمسين ليلة.

إخوة الإسلام:

لقد وضع العلماء شروطاً لتغيير المذكر، فتعالوا معي لتتعرف على هذه الشروط.

الشرط الأول: أن يكون المنكر محرماً مجعلاً على تحريمه.

وذلك مثل الكبائر المنصوص عليها في القرآن الكريم والسنة النبوية، فلا بد وأن يكون المذكر في درجة المحرم، أي ثبت إنكاره بنصوص الشرع المحكمة، أو قواعده القاطعة.

أما ما اختلف فيه الفقهاء بين مجيز ومانع، فلا يدخل في دائرة المنكر، مثل: القنوت في صلاة الصبح، والجهر بالبسملة...

الشرط الثاني: أن يكون المنكر ظاهراً.

أي يكون المنكر ظاهراً مرئياً، أما ما استخفى به صاحبه عن أعين الناس وأغلق عليه بابه، فلا يجوز لأحد من البشر أن يتجسس عليه، وهذا يدل عليه لفظ الحديث: (من رأى منكم منكراً... -).

فقد أناط الرسول صلى الله عليه وسلم التغيير برؤية المنكر ومشاهدته، ولم ينطه بالسماع عن المنكر من غيره، فكل من ستر معصية في داره وأغلق بابه، لا يجوز لأحد أن يتجسس عليه.

الشرط الثالث: ألا يؤدي تغيير المنكر إلى منكر أشد.

أي لا يخشى من أن يترتب على إزالته منكراً أكبر منه، كأن يكون سبباً لفتنة تسفك فيها دماء الأبرياء، وتنتهك فيها الحرمات، ولهذا قرر العلماء مشروعية السكوت على المنكر مخافة ما هو منكر أنكر منه وأعظم، (ارتكاب أخف الضررين).

الشرط الرابع: اختيار الرجل المناسب لتغيير المنكر.

وهذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية، عندما أراد إرسال سيدنا عمر رضي الله عنه إلى مكة، فرفض عمر رضي الله عنه وأشار عليه بعثمان بن عفان رضي الله عنه.

الشرط الخامس: الصبر:

وهذا ما أوصى به لقمان ابنه، فقال تعالى: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ} [لقمان: 17].

الشرط السادس: اختيار الوقت المناسب:

روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال للسيدة عائشة رضي الله عنها: (لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية، لهدمت البيت وأقمته على قواعد إبراهيم).

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لتتعرف على الآثار السلبيه المترتبة على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أولاً: وقوع الهلاك والعذاب:

قال تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: 25].

يقول الرازي: " واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالمين خاصة، بل تتعدى إليكم جميعاً وتصل إلى الصالح والطالح ".

وروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (والذي نفسي بيده: لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم).

وقد يقول قائل: وما ذنبي وأنا لا أفعل المذكر؟ أقول: لأنك قد رأيت المنكر ووقفت أمامه ولم تغيره بأي أسلوب من أساليب التغيير، لم تغير وجهك، ولم تغضب حين انتهكت حرمة من حرمت الله تعالى.

روى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا،

هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم، نجوا ونجوا جميعاً.

ثانياً: عدم إجابة الدعاء:

روى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مروا بالمعروف، وانها عن المنكر، قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم).

ثالثاً: اللعن:

روى أبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله تعالى بقلوب بعضكم بعضاً، ثم ليلعنكم).

وما حدث لبني إسرائيل ليس يغيب علينا، فأصابهم لعن الله تعالى بسبب تركهم لهذا الواجب، فقال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [المائدة: 78، 88].

* * *

التواضع

التواضع

أسباب نعيم القبر

التواضع

الحمد لله رب العالمين: الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون.

سبحانه: جعل التواضع سبباً من أسباب النجاة في الدار الآخرة، فقال تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: 83].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: يرفع المتواضعين، فروى أحمد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال الله تعالى: (من تواضع لي هكذا - وجعل يزيد باطن كفه إلى الأرض وأدناها) رفعته هكذا - وجعل باطن كفيه إلى السماء، ورفعهما نحو السماء.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: بين لنا أن الكبر يمنع صاحبه من دخول الجنة، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر - فقال رجل: يا رسول الله، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً، فقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق - دفعه ورده - وغمض - احتقار - الناس -).

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابه أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع سبب من الأسباب الموجبة للجنة، ألا وهو التواضع؛ انطلاقاً من الحديث الذي رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من مات وهو بريء من الكبر والغلول والدين، دخل الجنة -).

فأعبروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني

وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك وهو القادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق هي الأساس في موضوعنا:

الحقيقة الأولى: إن الله تعالى اختص لنفسه صفات، لا يجوز لنا نحن البشر أن نشارك الله تعالى فيها ولا نزاحمه فيها، ومن هذه الصفات التي اختصها لنفسه، ولا يجوز لنا أن نشاركه فيها، صفة الكبر.

صفة الكبر من الصفات الواجبة لله تعالى، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الحشر: 32].

وعلى الرغم من هذه الحقيقة التي يجب أن نؤمن بها، إلا أننا نرى طائفة من الناس قد أصابهم العتء، ودخل في قلوبهم التئى والعجب، وتمكن منهم الشذوذ والانحراف، حتى أعماهم الجهل، وأرادوا أن يشاركوا الرب في صفة الكبر التي اختص الله تعالى بها دون خلقه، وانفرد بها دون سواه.

فمن أجل هذا: نجد أن الله تعالى توعد لمن اذحرف عن المنهج السوي، واتصف بصفة الكبر، فروى الحاكم أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: (العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيها أخذته ولا أبالي).

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر).

بل بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أعد الخسف للمتكبر، فروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (بينما رجلٌ ممن كان قبلكم يجرُ إِزَارَهُ من الخيلاء، خُسِفَ به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة).

وليس ببعيد عنا ما حدث لقارون حين تكبر بماله، فقال تعالى: {إِنَّ

قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَعًا وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ { [القصص: 76 - 81].

الحقيقة الثانية: إن الله تعالى أوجب علينا التواضع، وأمرنا به في قرآنه فقال تعالى: {وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْتَشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} [لقمان: 18، 19].

وقال تعالى: {وَلَا تَمْتَشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} [الإسراء: 37، 38].

ولم يكتف الأمر عند هذا الحد بل نجد أن الله تعالى أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالتواضع، فقال تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 215].

ولقد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالتواضع أيضاً، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ).

بل الأعجب من هذا كله: أن الله تعالى جعل التواضع أول شرط من شروط قبول الصلاة، فروى البزار أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: (إنما أتقبل الصلاة من تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل على خلقي، ولم يبت مصراً على معصيتي، وقطع نهاره في ذكرى، ورحم المسكين والمصاب

والأرملة وابن السبيل-.

فإذا كنت تريد أن تُقبل صلاتك وعبادتك كلها فعليك الالتزام بهذا الواجب (التواضع).

الحقيقة الثالثة: إن التواضع من أجل النعم التي أنعم الله تعالى على عباده، فقد جعله الله تعالى أول صفة من صفات عباده، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [الفرقان: 63].

فأي شرف يضاهي هذا الشرف، وهو أن المتواضع منسوب للرحمن، منسوب إلى ذات الله تعالى المقدسة، وقد رضي الله تعالى أن ينسبهم إلى ذاته المقدسة باسم الرحمن؛ الذي يشعر بأنهم أهل لرحمة الله تعالى، وأنهم في دائرة هذه الرحمة، وأن الرحمة تحيطهم عن يمين وعن شمال، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم، فهم عباد الرحمن.

فهل تريد أخي المسلم أن تكون من عباد الرحمن؟ هل تريد أن تندسب إلى الله تعالى؟ هل تريد أن تكون واحداً من هؤلاء؟ فإذا كانت إجابتك بنعم، فالواجب عليك أن تكون من أهل التواضع، حتى يتحقق فيك قول الله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [الفرقان: 63].

الحقيقة الرابعة: ما هو التواضع؟ التواضع هو: انكسار القلب، وخفض الجناح والرحمة للخلق.

وسئل الفضيل بن عياض عن التواضع، فقال: يخضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله، ولو سمعه من صبي قبله، ولو سمعه من أجهل الناس قبله.

انطلاقاً من قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه ابن ماجه وغيره: (الحكمة ضالة المؤمن، أتي وجدها فهو أحق بها-).

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (خذ الحكمة من أي وعاء خرجت، ولا يضر ك من أي وعاء خرجت-).

إخوة الإسلام:

إن التواضع ليس كلمة تردد، أو شعاراً نعلقه على الصدور، بل التواضع خلق وسلوك من الإنسان في كل مجالات حياته، في مشيته، في لباسه، في تناول طعامه وشرابه، في إلقاء كلامه، في تصرفاته كلها، فالتواضع سلوك عملي، يجب أن يطبق على أرض الواقع، وليس سلوك قولي، فتعالوا معي لنتعرف كيف يحقق الإنسان التواضع، فالإنسان لن يحقق التواضع بالكلام، وإنما يحققه بالأمر التالية:

الأمر الأول: البساطة في كل شيء وعدم التكلف:

فالأوجب على المسلم الذي يريد أن يحقق التواضع أن يكون بسيطاً في كل شيء، ويترك التكلف؛ لأن البساطة من التواضع، والتكلف من الكبر المنهي عنه.

روى الطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (طوبى لمن تواضع في غير منقصة، وذل في نفسه من غير مسألة، وأنفق ماله في غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة).

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة والقُدوة الطيبة، فقد كان بسيطاً في كل شيء، فلقد ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم أروع النماذج في البساطة، فتعالوا معي لنسوق بعض النماذج من بساطة الرسول صلى الله عليه وسلم.

النموذج الأول: نهيه صلى الله عليه وسلم أصحابه عن القيام له عند دخوله عليهم:

فكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يحب أن يقوم له أحدٌ عند دخوله عليه، فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضوان الله عليهم: (إذا رأيتموني فلا تقوموا كما تصنع الأعاجم).

وقاموا ذات مرة له فغضب، وقال: (من سره أن يتمثل الناس له قياماً، فليتبوأ مقعده من النار).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: " ما كان شخصٌ أحبَّ إلينا من

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنا إذا رأيناه لم نقم له، لم نعلم من كراهته لذلك ".
ول

هذا هو حال الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الجانب، وانظر إلى حالنا اليوم: نجد أن هناك فارقاً شاسعاً بين ما نحن عليه اليوم وما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، فنجد الشخص منا يغضب وربما يثور إذا دخل على جماعة ولم يقم له أحد، ويقول: كيف لا يقم أحد إليّ وأنا كذا وكذا، ويعدد مناقبه.

إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم بلغ من تواضعه أنه نهى الصحابة رضوان الله عليهم عن القيام له عند دخوله عليهم، فنحن أخرى بذلك.

النموذج الثاني: نهيه صلى الله عليه وسلم أصحابه عن مدحه إياه:

فكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يحب أن يمدحه أحد، ولا يرفعه فوق قدره، ذات مرة جاء أحد الصحابة للرسول صلى الله عليه وسلم قائلاً له: يا رسول الله، إني قلت شعراً أثبت به على الله تعالى ومدحتك، فقال صلى الله عليه وسلم: (ما أثبت به على الله تعالى فهاته، وأما ما مدحتني به فدعه عنك).

وقال صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس لا ترفعوني فوق قدري، فإن الله قد اتخذني عبداً قبل أن يتخذني نبياً).

وروى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا خير البرية، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ذاك إبراهيم عليه السلام).

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله). والإطراء: هو مجاوزة الحد.

هذا هو حال الرسول صلى الله عليه وسلم كان لا يحب أن يمدح بما ليس فيه، وهذه هي البساطة التي بها يتحقق التواضع.

أما نحن اليوم نحب أن نمدح بصفات حتى ولو لم تكن فينا، مع أن ذلك منهى عنه، فقال تعالى: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ

يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَارَةِ مَنْ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: 188]

النموذج الثالث: التهوين على الناس أحوالهم:

فلقد بلغ من بساطة الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يهون الأمر ————— ور على غي ————— ره، فروى الحاكم أن رجلاً كلم النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة، فأخذته الرعدة، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (هون عليك، فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد- أي اللحم المجفف).

وروى أبو يعلى عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد).

النموذج الرابع: نهيه صلى الله عليه وسلم عن تقبيل يده:

فكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يحب أن يُقَبَّلَ أحدٌ يده، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: دخلت الأسواق مع الرسول صلى الله عليه وسلم فاشترى ما يخصه، وقال للوزان: (زن وأرجح - ثم قال أبو هريرة: فوثب إلى يد الرسول صلى الله عليه وسلم يقبلها، فجذبها الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: (هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم).

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: فذهبت لأحمل ما اشتراه الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال: (لا، صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله).

ما هذا؟ إنها البساطة من الرسول صلى الله عليه وسلم، والتي بها يتحقق التواضع، فيالتنا نقندي بالرسول صلى الله عليه وسلم.

ولقد اقتدى سلفنا الصالح بالرسول صلى الله عليه وسلم، وحققوا البساطة، فاتصفوا بالتواضع، فهذا سيدنا عمر رضي الله عنه يحقق البساطة وهو أمير المؤمنين.

أخرج ابن عساكر من طريق سيف عن الحسن رضي الله عنه فذكر الحديث في تنفيذ جيش أسامة رضي الله عنه، وفيه: ثم خرج أبو بكر رضي الله عنه حتى أتاهم، فأشخصهم وشييعهم وهو ماشٍ، وأسامة راكب،

وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر رضي الله عنه، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لتركين أو لأنزلنّ.

فقال: والله لا تنزل، والله لا أركب، وما عليّ أن أغبر قدميّ ساعة في سبيل الله تعالى، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبع مائة حسنة تكتب له، وسبع مائة درجة ترفع له، وتمحى عنه سبع مائة خطيئة. حتى إذا انتهى، قال له: إن رأيت أن تعينني بعمر بن الخطاب فافعل؟ فأذن له.

وعن الحسن قال: خرج عمر بن الخطاب في يوم حار، واضعاً رداءه على رأسه، فمر به غلام على حمار، فقال عمر رضي الله عنه: يا غلام احملني معك، فوثب الغلام عن الحمار، وقال: اركب يا أمير المؤمنين، قال رضي الله عنه: اركب وأركب أنا خلفك، تريد أن تحملني على المكان الوطىء وتركب أنت على الموضع الخشن، فركب سيدنا عمر رضي الله عنه خلف الغلام، ودخل المدينة والناس ينظرون إليه.

وأخرج الحاكم بسنده عن طارق بن شهاب قال: خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام ومعه أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، فأتوا على مخاضه وعمر على ناقة له فنزل عنها، وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته فحاض بها المخاضة، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا! تخلع خفيك وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة، ما يسرني أن أهل البلد استشفروك، فقال عمر رضي الله عنه: أوه لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله تعالى بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به، أذلنا الله تعالى.

إخوة الإسلام:

ومن الأمور التي يتحقق بها التواضع: مشاركة الناس في أعمالهم: فالواجب على المسلم الذي يريد أن يحقق التواضع أن يشارك الناس في أعمالهم بقدر الاستطاعة، ولنا في رسول الله تعالى الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة، فقد كان يشارك الناس في الأعمال، وبخاصة الأعمال

الشاقة، دون ضجر أو تأفف، وهناك نماذج من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في مشاركة الناس أعمالهم.

النموذج الأول: في غزوة الأحزاب (الخدق) كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدفر مع أصحابه، وكان يدمل التراب على كتفيه، حتى اغبرت بطنه، وهو يقول:

اللهم لو لا أنت ما اهتدينا :: ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكيناً علينا :: وثبت الأقدام إن لا قبنا
والمشركون قد بغوا علينا :: وإن أرادوا فتنة أبينا

فهذا تواضع من الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يستعمل سلطته كرئيس دولة، حتى وإن كان ذلك، فيجب أن يكون قدوة للوعية كلها.

أما نحن اليوم فحدث ولا حرج، يأنف رئيس العمل أن يشارك المرؤوسين ويقول: لا يليق بي ومنصبي أن أشارك المرؤوسين في العمل، ونسى الجميع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يشارك الصحابة في العمل، وجهل بعض الناس أن مشاركة الناس في أعمالهم تحقق لهم التواضع.

النموذج الثاني: ذات مرة كان الرسول صلى الله عليه وسلم في سفر مع أصحابه، أمر أصحابه بطهو شاة، فقال أحدهم: عليّ ذبحها، وقال الآخر: عليّ سلخها، وقال الثالث: عليّ طبخها، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (وعليّ جمع الحطب- فقالوا: يا رسول الله نكفيك العمل).

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (علمت أنكم تكفوني، ولكن أكره أن أتميز عليكم، وإن الله تعالى يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه).

وأولى الناس بالمشاركة في أعمالهم هم الأهل، والرسول صلى الله عليه وسلم كان يشارك أهله في العمل، فعن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: سأل رجل عائشة رضي الله عنها هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل في بيته؟ قالت: نعم، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل في بيته، كما يعمل أحدكم في بيته.

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان الرسول

صلى الله عليه وسلم في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إليها.

إخوة الإسلام:

ومن الأمور التي يتحقق بها التواضع: عدم تغير النفس بعد تغير المكانة: فالواجب على الفرد فينا إذا وصل إلى أعلى المناصب أن لا تتغير نفسه، وهناك نماذج من حياة سلفنا الصالح في هذا المضمار:

النموذج الأول: سيدنا أبو بكر رضي الله عنه وهو يأتي في المرتبة الثانية بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، ما طلعت شمس على رجل بعد النبيين أفضل من أبي بكر، ولو وزن إيمان الخلق بإيمان أبي بكر لرجح إيمان أبي بكر، بلغ من تواضعه أنه كان يقوم بخدمة جارة له عجوز، فكان يحلب لها شياها كل يوم، فلما تمت له البيعة، وأصبح خليفة للمسلمين، وهذا أعلى منصب في الدولة، غلب على ظن هذه الجارة العجوز أن أبا بكر سوف ينساها، ففي صبيحة اليوم الأول من تسلم هذا الخليفة العظيم منصب الخلافة، طرق باب العجوز، قالت لابنتها: يا ابنتي افتحي الباب، ثم سألتها من الطارق؟ قالت ابنتها: جاء حالب الأشياء يا أمي.

النموذج الثاني: سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج ذات ليلة في جولة من جولاته التي كان يخرج فيها وحيداً والناس نيام، ليطمئن على قومه، ويتفقد أحوالهم، وعند مشارف المدينة رأى كوخاً ينبعث منه أنين امرأة، فاقترب يسعى ورأى رجلاً يجلس بباب الكوخ، وعلم منه أنه زوج السيدة التي تئن، وعلم أنها تعاني كرب المخاض، وليس معها أحد يعينها، ورجع عمر رضي الله عنه إلى بيته مسرعاً، وقال لزوجته أم كلثوم بنت سيدنا علي رضي الله عنه: هل لك في مثوبة ساقها الله تعالى إليك؟ قالت: خيراً؟ قال: امرأة غريبة تمخض، وليس معها أحد، قالت: نعم إن شئت.

وقام فأعد من الزاد والماعون ما تحتاجه الوالدة من دقيق وسمن ومزق ثياب يلف فيها الولد، وحمل عمر رضي الله عنه القدر على كتف والدقيق على كتف، وقال لزوجته: اتبعيني، ويأتيان الكوخ، وتدخله أم

كلثوم لتساعد المرأة في مخاضها، أما أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فيجلس خارج الكوخ، وينصب الأثافي ويضع فوقها القدر، ويوقد تحتها النار، وينضج للوالدة طعاماً، والزوج يرمقه شاكرأً، ولعله كان يقول في نفسه: بأن هذا العربي أولى بالخلافة من عمر رضي الله عنه.

وفجأة صرخ في الكوخ صراخ الوليد، لقد وضعت أمه بسلام، وإذا صوت أم كلثوم ينطلق من داخل الكوخ عالياً: يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بسلام.

ويفيق الأعرابي من الدهشة، ويستأخر بعيداً على استحياء، ويحاول أن ينطق الكلمتين: أمير المؤمنين، ولكن شفاته لا تقويان على الحركة من فرط المفاجأة.

ويلحظ عمر كل هذا فيشير للرجل: أن ابق مكانك ولا تخف، ويدمل أمير المؤمنين القدر ويقترب من باب الكوخ منادياً رضي الله عنه زوجته: خذي القدر يا أم كلثوم، وأطعمي الأم وأشبعيها، وتطعمها أم كلثوم حتى تشبع، وترد القدر إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بما بقي من الطعام، فيضعها سيدنا عمر رضي الله عنه بين يدي الأعرابي، ويقول له: كل واشبع، فإنك قد سهرت طويلاً وعانيت كثيراً.

ثم ينصرف هو وزوجته بعد أن يقول للرجل: إذا كان الصباح فائتني بالمدينة لأمر لك من بيت المال ما يصلحك، ولنفرض لوليدك حقه.

هكذا كان حال سلفنا الصالح، لم تتغير نفوسهم بالمناصب، ولكن المناصب كانت تزيدهم تواضعاً، أما نحن الآن فحدث ولا حرج، فبمجرد وصول الإنسان إلى أعلى المناصب تتغير نفسه، وينسى من هو أدنى منه.

ومن الأمور التي يتحقق بها التواضع: إلقاء السلام:

فالإسلام يرغبنا في السلام، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أيها الناس: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام).

وروى ابن حبان أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن في الجنة

غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام-.

ولكن للأسف الشديد نجد بعض الناس قد أصابهم العته والكبر، فيأنف الفرد أن يلقي السلام على غيره، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم بين أن السلام سبب من أسباب انتشار المحبة بين الناس.

ومن الأمور التي يتحقق بها التواضع أيضاً: مشورة الناس: فالرسول صلى الله عليه وسلم كان دائماً يأخذ بمشورة أصحابه في غير أمور الوحي، ففي غزوة بدر الكبرى أخذ الرسول بمشورة الدباب ابن المنذر في أن يجعل مياه بدر خلفه لئلا يستفيد منها المشركون.

وفي غزوة الأحزاب أخذ الرسول بمشورة سلمان الفارسي بدفر الخندق، وكان يقول لأصحابه: (أشيروا عليّ، أشيروا عليّ-).

ومن التواضع أيضاً: العمل في أي مهنة طالما كانت حلالاً: فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرعى الغنم، روى ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مما بعث الله تعالى نبياً إلا راعى غنم- فقال الصحابة رضوان الله عليهم: وأنت يا رسول الله،

قال صلى الله عليه وسلم: (وأنا كنت أرهاها لأهل مكة بالقراريط-).

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على النتائج المترتبة على التواضع.

أولاً: قبول الصلاة:

روى البزار أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: (إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل على خلقي، ولم يبت مصراً على معصيتي، وقطع نهاره في ذكري، ورحم المسكين والمصاب والأرملة وابن السبيل-).

ثانياً: محبة الله تعالى :

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا

يَخَافُونَ لَوْمَةً لَّائِمًا ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: 54].

ثالثاً: الرفعة في المكانة:

روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله.-
وروى ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من تواضع لله درجة يرفعه الله درجة، حتى يجعله في أعلى عليين.-

رابعاً: الفوز بالآخرة:

قال تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: 83].

خامساً: الفوز بالجنة:

روى الترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من مات وهو بريء من الكبر والغلول والدين، دخل الجنة.-

سادساً: المكانة العالية في الجنة:

روى الطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (طوبى لمن تواضع في غير منقصة...-.

* * *

حرمة الدم المسلم

حرمة الدم المسلم

أسباب عذاب القبر

حرمة الدم المسلم

الحمد لله رب العالمين: الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلا ما تشكرون.

سبحانه: أراد لعباده الخير والدبر، وطلب من عباده إقامة منهج العدل والفضيلة، فقال تعالى: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} [البقرة: 138].

وقال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّلْقَوْمِ يُوفُّونَ} [المائدة: 50].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: شرع القصاص حرمة للدم المسلم، فقال تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 179].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم : بين لنا أن زوال الدنيا أهـ زوال الـ
عند الله تعالى من قتل مؤمن، فروى مسلم والترمذي والذسائي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ-).

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: أخوة الإسلام

حرمة الدم المسلم: هذا هو عنوان لقائنا مع حضراتكم اليوم، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني

وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا.

الحقيقة الأولى: إن الله تعالى كرم الإنسان تكريماً عظيماً، حيث خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} [السجدة: 7 - 9].

وقال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ * فَاذْأَسْوَيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ} [ص: 71 - 76].

ولم يكتف الأمر عند هذا الحد، بل أنزل الله تعالى له الكتب والرسل، ووضع له شريعة محكمة، تضمن له الحقوق، وتحقق له السعادة في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا * وَإِذَّا لَا تَتْنَاهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا} [النساء: 66 - 70].

وإن أول حق، وأعظم حق ضمنته الشريعة الإسلامية لكل إنسان على وجه الأرض، أي كان هذا الإنسان، سواء أكان مسلماً أم غير

مسلم، هو حق الحياة، فقال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الأنعام: 151].

وقال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} [الإسراء: 33].

فإن الله تعالى وحده خالق الحياة وواهبها، ولا ينبغي لأحد البتة مهما كانت سلطته، أن يسلب هذه الحياة من أحد، إلا بأمر الله تعالى، في نطاق الحدود التي شرعها الله تعالى، ولا يسلب الروح إلا خالفها، فهو تعالى عليم بهم، خبير بما يصلحهم ويفسدهم، فقال تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: 14].

ومن هنا يجب على كل فرد أن يعي تماماً أن حق الحياة مكفول لكل إنسان، وأنه لا يسلب الحياة إلا خالق الحياة.

الحقيقة الثانية: إن الدين الإسلامي سوى بين الدم والمال في الحرمة، فحرمة الدم كحرمة المال، ورتب العقاب الشديد على من يعتدي على النفس بدون حق شرعي.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُذُّوْنَا وَظَلَمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [النساء: 29، 30].

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة أيضاً، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الزَّمَانُ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا،

مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ، أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟-، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يُسَمِّيهِ بَغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ؟-، قُلْنَا: بَلَى، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟-، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بَغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَلَيْسَ الْبَلَدَةُ؟-، قُلْنَا: بَلَى، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟-، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بَغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَلَيْسَ يَوْمُ النَّحْرِ؟-، قُلْنَا: بَلَى، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَتَسْتَلْقُونَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كَفَارًا أَوْ ضَلَالًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا لِيُبْلِغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ-.

فالأوجب على كل مسلم أن يعلم علم اليقين أن حرمة الدم لا تقل عن حرمة المال، وأن الاعتداء على النفس يوجب النار، فقال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [النساء: 29، 30].

الحقيقة الثالثة: إن الله تعالى جعل الدماء أول ما يقضى فيها من حقوق العباد يوم القيامة، ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى البخاري ومسلم وغيرهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ-.

وروى النسائي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةَ، وَأَنْ أَوَّلَ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ-.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حرمة الدماء عند الله تعالى، وأنها ليست رخيصة، يسفكها من شاء، في أي وقت شاء، بل

هي عزيمة عند الله تعالى، ولذلك جعلها الله تعالى أول ما يقضى فيها من حقوق العباد يوم القيامة.

فإذا قامت القيامة، وقام الناس جميعاً لرب العالمين، ووقفوا في أرض المدشر حفاة عراة غرلاً، وقد دنت الشمس من الرؤوس، وتصبب العرق على قدر الأعمال، وزفرت جهنم وزمجرت، وقد جيء بها ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، وتطايرت الصحف، ونصبت الموازين، فقال تعالى: {وَنُزِعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء: 47].

ونودي عليك، ففرع النداء قلبك، وارتعدت فرائصك، واضطربت جوارحك، وتغير لؤئك، وجاءت الملائكة يسوقونك إلى الله تعالى.

حتى إذا وقفت بين يدي أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، أخذت صحيفةً التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، وفي هذا يقول المولى تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: 49].

ينادي عليك أيها القاتل المجرم، يا من سفكت دماء الموحدين بالله تعالى، فتأتي فرداً عارياً لا سلطان لك، ولا مال معك، لتفتدي به، وقد أحاط بك من كل ناحية من قتلتهم في الدنيا، وقد تعلقوا بك، وأوداجهم (عروقه) تشخب (تسيل) دماً، ويقولون لله تعالى: سل هذا القاتل فيم قتلنا؟.

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذلك، فروى النسائي وأحمد عن ابن عباس رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة، ناصيته ورأسه في يده، وأوداجه

تشخب دماً، يقول: يا رب قتلني، حتى يدينه من العرش.-

قال: فذكروا لابن عباس رضي الله عنهم التوبة، فتلا هذه الآية: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: 93].

قال ابن عباس رضي الله عنهم: ما نسخت منذ نزلت، وأنى له التوبة!!

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أتدرون من المفلس؟)، قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمْتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أَخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ- أخوة الإسلام:

لقد قام الشرع الحنيف بوضع سياج أمني على النفس، ووضع التدابير الاحترازية التي تمنع الغير من الاعتداء عليها، حتى لا تسول نفس أي فرد بإراقة دم مسلم، فتعالوا معي لتتعرف على التدابير الاحترازية للحفاظ على النفس.

أولاً: حرمة المؤمن عند الله تعالى أعظم من حرمة الكعبة: روى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهم قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة، ويقول: (ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك، ماله ودمه-.

ثانياً: زوال الدنيا أهون من قتل مؤمن: فروى مسلم والترمذي والنسائي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لزوال الدنيا أهون على

الله تعالى من قتل رجل مسلم-.

ثالثاً: قتال المسلم كفر: فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر-).

رابعاً: القتل من الكبائر بعد الشرك بالله تعالى : فقال تعالى : {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا} [الفرقان: 63 - 69].

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أكبر الكبائر: الإشرak بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وقول الزور-).

خامساً: القتل من الموبقات: فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ-، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟، قَالَ: (الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ-).

سادساً: توعده الله تعالى للقاتل بالنار: فقال تعالى : {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: 93].

وروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن، لأكبهم الله تعالى في النار-).

سابعاً: توعد الله تعالى القاتل بالعذاب: روى البيهقي أن ابن عباس رضي الله عنهم قال: قُتِلَ بالمدينة قتيلٌ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يُعلم من قتلَه، فصعد النبي صلى الله عليه وسلم المنبر فقال: (أيها الناس: قُتِلَ قتيلٌ وأنا فيكم، ولا يُعلم من قتله، لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرئٍ، لعذبهم الله تعالى، إلا أن يفعل ما شاء).

ثامناً: اليأس من رحمة الله تعالى: روى ابن ماجه والأصبهاني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من أعان على قتل مؤمن، ولو بشرط كلمة، جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله تعالى). وفي رواية الأصبهاني: قال سفيان بن عيينة هو أن يقول: اق، يعني لا يُم كلمة اقتل.

تاسعاً: لا يغفر الله تعالى للقاتل: روى أبو داود وابن حبان أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلا الرجل يموت مشركاً، أو يقتل مؤمناً متعمداً).

عاشراً: قتل النفس بغير حق قتل الناس جميعاً: وفي ذلك ما فيه من تغليظ الجرم، وبشاعة الذنب، فقال تعالى: {مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} [المائدة: 32].

حادي عشر: حرمة الانتحار: فقال تعالى: {وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: 195].

ثاني عشر:- العقوبة الشديدة للمتحر: فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُّخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُّخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ

بَحْدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ، يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا.-
وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم التقي هُوَ
وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى
عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الْآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ لَا يَدْعُ لَهُمْ شَاذَةً وَلَا فَاذَةً إِلَّا اتَّبَعَهَا
يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالَ: مَا أَجْزَأَ مِذَا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ، فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ).

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ
وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ: فَجَرَحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا،
فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتُ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ، وَذَبَابُهُ بَيْنَ تَدْيِيهِ، ثُمَّ
تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
(وَمَا ذَاكَ؟).

قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ أَنْفَاءً أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ
ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا،
فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتُ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الْأَرْضِ، وَذَبَابُهُ بَيْنَ تَدْيِيهِ،
ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
عِنْدَ ذَلِكَ: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَمُوتُ لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ
أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فَيَمُوتُ لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ
أَهْلِ الْجَنَّةِ).

ثالث عشر: حدد الشرع الحالات التي يجوز فيها القتل: فلقد حدد لنا
الشرع الحذيف ثلاث حالات لا رابع لهن، يجوز فيها قتل النفس،
ولقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم الحالات التي يجوز فيها
القتل، فروى البخاري ومسلم وغيرهما أن الرسول صلى الله عليه
وسلم قال: (لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ

إِلَّا بِإِخْدَى ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيْبُ الزَّانِي، وَالسَّارِقُ مِنَ الدِّينِ،
التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ-.

فأما الحالة الأولى: فهي القصاص العادل، فتطبيق القصاص حياة للمجتمع كله، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْرِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 178، 179].

نعم في القصاص حياة! حياة بردع هؤلاء الذين يفكرون مجرد التفكير في الاعتداء على الناس، وحياة بكف أهل المقتول عن الأثر، الذي قد لا يقف عند القاتل، بل يتعداه إلى أهله ممن لا ذنب لهم ولا جريمة.

وحياة يأمن فيها كل فرد على نفسه؛ لأنه يعلم يقيناً أن هناك قصاصاً عادلاً، ينتظر كل من يتعدى حدود الله تعالى.

الحالة الثانية: التي يجوز فيها القتل بالرجم، فهي للثيب الزاني الذي رزقه الله تعالى الحلال الطيب، فيذهب يرتع في مستنقع الرذيلة العفن، ويقتل العزة والكرامة.

الحالة الثالثة: تكون لمن ترك دينه، وارتد بعد أن منَّ الله تعالى به عليه، فالردة بالإجماع سبب لإباحة دم المسلم، فروى البخاري وأحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من بدل دينه فاقتلوه-).

فهذه هي الحالات الثلاث التي تبيح قتل المسلم على يد ولي الأمر، أو من ينوب عنه، وهذا أمر مجمع عليه بين الفقهاء.

أما فيما عدا هذه الحالات فإنه لا يجوز أبداً قتل النفس، بل إن الأمر جد خطير، وكيف لا؟، وقد قال المولى تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا

مُتَعَمِّدًا فَجَزَّأُوهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: 93].

رابع عشر: أوجب القصاص على القاتل العمد: فالله تعالى أوجب على القاتل الاستسلام لأمر الله تعالى والانقياد للقصاص المشروع، إذا أراد ولي الدم القتل، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٍ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

وفائدة قوله تعالى: {ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ} أن أهل التوراة كان لهم القتل، ولم يكن لهم غير ذلك، وأهل الإنجيل كان لهم العفو، ولم يكن لهم قود ولا دية، فجعل الله تعالى ذلك تخفيفاً لهذه الأمة، فمن شاء قَتَلَ، ومن شاء أخذ الدية، ومن شاء عفا.

ومعنى قوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: قتل بعد أخذ الدية وسقوط الدم، قاتل وليه، قال الحسن: كان الرجل في الجاهلية إذا قتل قتيلاً، فرَّ إلى قومه، فيجيء قومه فيصالحون بالدية، فيقول وليُّ المقتول: إني أقبل الدية؛ حتى يأمن القاتل ويخرج، فيقتله، ثم يرمي إليهم بالدية.

خامس عشر: وجوب الدية على القتل الخطأ: والقتل الخطأ هو: ألا يقصد الإنسان قتل غيره، بأن يضربه بشيء لا يقتل غالباً، كمن ضرب ولداً ليؤدبه، أو ضرب تلميذاً ليعلمه، أو ضرب غيره بآلة لا تقتل غالباً، فقد أوجب الله تعالى في هذا النوع الدية الكاملة، وتدفع لولي الدم، فقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ

فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: 92].
ففي هذه الآية بيان لثلاث حالات للقتل الخطأ وهي:

الحالة الأولى: أن يقع القتل على مؤمن أهله مؤمنون في دار الإسلام، وفي هذه الحالة يجب تحرير رقبة مؤمنة، ودية مسلمة إلى أهله، فأما تحرير الرقبة المؤمنة، فهي تعويض للمجتمع المسلم عن قتل نفس بعثت نفس مؤمنة أخرى.

وأما الدية فتسكين لثائرة نفوس أهل القتل، وشراء لخاطرهم، بعدما فُجعوا في قتلهم، وتعويض لهم عن بعض ما فقدوه، إلا أن يصدقوا، ويتنازلوا عن الحق تسامحاً وتعاطفاً.

الحالة الثانية: أن يقع القتل على مؤمن وأهله محاربون للإسلام في دار الحرب، ففي هذه الحالة يجب تحرير رقبة مؤمنة؛ لتعويض النفس المؤمنة التي قُتِلَتْ، لكن لا يجوز دفع الدية لقوم القتل المحاربين، حتى لا يستعينوا بها على قتال المسلمين، إذ لا مكان ولا مجال هنا لاسترضاء أهل القتل؛ لأنهم محاربون وأعداء للإسلام والمسلمين.

الحالة الثالثة: أن يقع القتل على مؤمن، أو على غير مؤمن قومه معاهدون، أي لهم عهد هدنة، أو عهد ذمة، ففي هذه الحالة يجب أن تدفع الدية إلى أهله المعاهدين، ولو لم يكن المقتول مؤمناً؛ لأن عهدهم مع المؤمنين يجعل دماءهم مصونة كدماء المسلمين، ويجب على القاتل أيضاً تحرير رقبة مؤمنة.

سادس عشر: عدم قبول توبة القاتل العمد: لقد اختلف العلماء في هذه المسألة، فلقد روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلتُ فيها إلى ابن عباس رضي الله عنهم، فسألته عنها، فقال هذه الآية: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: 93].

قال ابن عباس رضي الله عنهم : هي آخر ما ترك، وما نسخها شيء.

وفي رواية للنسائي يقول سعيد: قرأت على ابن عباس رضي الله عنهم آية الفرقان: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا} [الفرقان: 68، 69].

قال ابن عباس رضي الله عنهم : هذه مكية، نسختها آية مدنية.

وذهب أصحاب الرأي الثاني: أن القاتل المتعمد إن تاب، تاب الله تعالى عليه؛ لأن الأخذ بظاهر قول الله تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: 93]، ليس بأولى من الأخذ بظاهر قول الله تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود: 114].

وقول الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [الشورى: 25].

وقول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء: 48].

واقرا معي قول الله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} [الفرقان: 68 - 71].

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فذُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَاتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا،

فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟، فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟، فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى، فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضٌ سَوْءٌ، فَانْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فِإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَذْنَى، فَهَوَّ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَذْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ.-

* * *

الصلح بين الناس

الصلح بين الناس

أسباب نعيم القبر

الصلح بين الناس

الحمد لله رب العالمين: الذي أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، وجعلنا والله الحمد خير أمة أخرجت للناس، فقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: 110].

سبحانه: رغبتنا في الإصلاح بين المتخاصمين، ورتب على ذلك الخير العظيم، والفيض العميم، فقال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّبْجَاهُمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: 114].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: جعل إصلاح ذات البين أمراً مفروضاً على كل مسلم، فقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ} [الأنفال: 1].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: بين لنا أن الخصومة بين البشر تكون سبباً في تأجيل مغفرة الذنوب، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيَعْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءٌ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا).

ومعنى أنظروا: أي: أخروهما.

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع خلق من الأخلاق الإسلامية، ألا وهو: الصلح بين الناس، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى

أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إني ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله: بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا اليوم:

الحقيقة الأولى: إن الاجتماع والاتحاد بين أفراد الأمة الواحدة أمر ضروري، لا غنى عنه بأي حال من الأحوال، ولا يذكر ذلك إلا جاهل، أو عميل لأعداء الأمة، أو بعيد كل البعد عن منهج الله تعالى، ومنهج الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: 102، 103].

وأشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة أيضاً، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ).

ولم يكتف الأمر عند هذا الحد، بل نجد أن الله تعالى نهانا جميعاً عن التفرق، ورتب العقاب الشديد عليه، فقال تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: 105].

وقال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: 46].

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [الأنعام: 159].

وقال تعالى: {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الأنعام: 159].

[الروم: 31، 32].

ومن أجل الحفاظ على الوحدة والأخوة بين أفراد المجتمع الواحد، أمرنا الله تعالى بالتدخل الجاد والمخلص، للصلح بين أي عائلتين، أو بين فردين، إذا حصل بينهما شقاق أو نزاع، فقال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [الحجرات: 9، 10].

الحقيقة الثانية: إن الخلاف الذي يحدث بين الناس أمر طبيعي، ولا يسلم منه أحدٌ من البشر، فقد يكون الخلاف بينك وبين أخيك، بينك وبين ابن عمك، بينك وبين أحد أقاربك، وقد يكون الخلاف بينك وبين زوجتك، وقد يكون بينك وبين صديقك، فهذا أمر طبيعي، فلا دنز عج منه، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال ﷺ: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} * إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [هود: 118، 119].

والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما يلي:

1 - اختلاف سيدنا موسى عليه السلام مع سيدنا هارون عليه السلام، فقال تعالى: {قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا بُنُوِّمْ لَا تَأْخُذْ بِلِخِيِّي وَلَا بَرَأَيْي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} [طه: 92 - 94].

2 - اختلاف سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام، فقال تعالى: {قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتُهَا لِئُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا نُّكَرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ

بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا فَوْجَدًا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا { [الكهف: 71 - 78].

3 - اختلاف سيدنا سليمان عليه السلام مع سيدنا داود عليه السلام، فقال تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ { [الأنبياء: 78، 88].

4 - أهل قباء رضوان الله عليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أنزل الله تعالى فيهم قوله تعالى: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ { [التوبة: 108].

هؤلاء القوم حصل بينهم خلاف، حتى رمى بعضهم بعضاً بالحجارة، فذهب إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ليصلح بينهم.

5 - اختلاف أبي بكر وعمر رضوان الله عليهم، فقد حصل بينهما شيء من الخلاف، فروى أبو الدرداء قال: كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ أقبل أبو بكر رضي الله عنه آخذاً بطرف ثوبه، حتى أبدى عن ركبتيه، وقال يا رسول الله: إنه كان بيني وبين عمر بن الخطاب رضي الله عنه شيء، فأسرعت إليه نادماً، وسألته أن يغفر لي، فأبى عليّ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (يغفر الله لك يا أبا بكر).

ثم إن عمر رضي الله عنه ندم، فأتى منزل أبي بكر رضي الله عنه فلم يجده، ثم أتى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله: إني كنت أظلم... يا رسول الله: إني كنت أظلم، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى بعثني إليكم، فقلتم: كذب، وقال أبو بكر رضي الله عنه: صدقت، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركون لي صاحبي، فهل أنتم تاركون لي صاحبي).

6 - الخلاف بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين نسائه، وقد استمر

هذا الخلاف تسعاً وعشرين يوماً، حتى أشيع في المدينة أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلق نسائه، فنزل قول الله تعالى: {إِنْ تَوَبَّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكُمْ مُّسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} [التحريم: 4، 5].

وبناءً عليه: فلا ننزعج من أي خلاف يحدث بين أفراد الأمة، أو بين أي شخصين، ولكن لا ينبغي أن نقف مكتوفي الأيدي، ونكون سلبيين، ولكن لا بد من الإيجابية، للعمل على تقريب وجهات النظر بين الأطراف المختلفة، حتى نزيل هذا الخلاف، ابتغاء مرضات الله تعالى، فقال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} [الأنفال: 1].

وقال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: 114].

الحقيقة الثالثة: إن المحافظة على وحدة الأمة الإسلامية، والأخوة بين الأفراد، أمر مفروض علينا جميعاً، ولا سبيل إلى تحقيق الوحدة والأخوة بين أفراد المجتمع الواحد، إلا إذا كان هناك في كل حي، أو في كل قرية، جماعة من أهل الدين والفضل والعلم، تقوم بالإصلاح بين المتخاصمين، وتوقف الظالم عن ظلمه، وترده إلى رشده وصوابه، ولقد أشار المولى عليه السلام إلى ذلك، فقال: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: 104].

وقال تعالى: {وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف: 181]. وينبغي لهذه الطائفة المباركة أن تبذل من وقتها قدر طاقتها؛ لحل المنازعات بين الناس، ولتعلم هذه الجماعة المباركة أن لها منزلة عالية عن

الله تعالى يوم القيامة، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ تَعَالَى، وَكَلَّمْنَا

يَدِيهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ، وَأَهْلِيهِمْ، وَمَا وَلَّوْا.

فما أحوجنا اليوم: إلى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، يؤلفون بين القلوب المتنافرة، ويوحدون الصفوف المتفرقة.

ما أحوجنا اليوم: إلى رجال يحدثون عن المتخاضمين، ليصلحوا بينهم.

ما أحوجنا اليوم: إلى رجال يفتشون عن المتباغضين؛ ليزيلوا أسباب العداوة والبغضاء من قلوبهم.

ما أحوجنا اليوم: إلى رجال مخلصين، يجردون أنفسهم من الهوى والشهوات، ويظهرون قلوبهم من الدقد والدسد، فينادون بين المسلمين بالصلح والتصافح، ويعملون على تقريب وجهات النظر، وجمع الكلمة، وتوحيد الصف ابتغاء مرضات الله تعالى، وصدق الله إذ يقول: {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: 114].

فكم من بيت كاد أن يهدم، بسبب خلاف سهل بين الزوج وزوجته، وكاد الطلاق يقع، فإذا بهذا المصلح بكلمة طيبة، ونصيحة غالية، ومال مبذول، يعيد المياه إلى مجاريها، ويصلح بينهما.

وكم من قطيعة كادت أن تكون بين أخوين، أو صديقين، أو قريبيين، بسبب زلة لسان، أو هفوة نفس، وإذا بهذا المصلح يرقع خرق الفتنة، ويصلح بينهما.

فكم عصم الله تعالى بالمصلحين من دماء وأموال، وفتن شيطانية كادت أن تشتعل، لولا فضل الله تعالى، ثم المصلحين.

إخوة الإسلام:

لقد اهتم الدين الإسلامي اهتماماً بالغاً بالإصلاح بين الناس، فذعالوا معي لتتعرف على هذا الاهتمام.

أولاً: جعل الشرع الصلح بين الناس أمراً مفروضاً: ولقد وردت آيات عديدة تؤكد هذا الواجب، فقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}

[الأنفال: 1].

وقال تعالى: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا} [النساء: 35].

وقال تعالى: {وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء: 128].

وروي أن سبب نزول هذه الآية: أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث إلى سودة بنت زمعة رضي الله عنها بطلاقها، فلما أن أتاها جلست له على طريق عائشة رضي الله عنها، فلما رأته، قالت له: أزدك بالذي أنزل عليك كلامه، واصطفاك على خلقه، لما راجعتني، فإني كبرت، ولا حاجة لي في الرجال، لكن أريد أن أبعث مع نسائك يوم القيامة، فراجعها، فقالت: إني جعلت يومي وليأتي لحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم تعني: عائشة رضي الله عنها.

وقال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَجَاثِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات: 9، 10].

ثانياً: نفي الإثم على المصلح: فقال تعالى: {فَمَنْ خَافَ مِن مُّوَصٍّ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [البقرة: 182].

ثالثاً: الصلح أفضل من الصيام النفل والصدقة النفل: فروى أبو داود والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصَّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟)، قَالُوا: بَلَى، قَالَ صلى الله عليه وسلم: (إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ).

رابعاً: الثواب العظيم لمن يقوم بهذا الواجب: قال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: 114].

وروى الحاكم والبيهقي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما

رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس، إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال له
عمرو بن الخطاب رضي الله عنه: ما أضحكك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وسلم: (رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة، فقال أحدهما: يا رب خُذْ لي مظمتي من أخي، فقال الله تعالى للطالب: فكيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء؟ قال: يا رب فليحمل من أوزاري، قال: وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء، ثم قال: (إن ذلك اليوم عظيم، يحتاجُ الناسُ أن يُحملَ عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك فانظر في الجنان، فرفع رأسه، فقال يا رب: أرى مدائن من ذهب، وقصوراً من ذهب مكللة بالؤلؤ، لأي نبي هذا؟ ولأي صديق هذا؟ ولأي شهيد هذا؟ قال: لمن أعطى الثمن، قال: يا رب ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه، قال: بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك، قال: يا رب فإني قد عفوت عنه، قال الله تعالى: فخذ بيد أخيك فأدخله الجنة).

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم عند ذلك: (اتقوا الله تعالى وأصلحوا ذات بينكم، فإِنَّ الله تعالى يصلح بين الناس).

وروي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبي أيوب: (ألا أدلك على تجارة؟)، قال: بلى يا رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم: (صل بين الناس إذا تفاسدوا، وقرب بينهم إذا تباعدوا).

فأين الراغبون في هذه التجارة الرباحة؟ أين نحن جميعاً من هذا الواجب الديني؟ لقد أهملنا هذا الواجب، وكانت النتيجة الحتمية لهذا الإهمال أن كثرت حالات الطلاق في المجتمع، ووصل هذا العدد في العام الماضي إلى ستين ألف حالة طلاق، وكذلك كثرت القضايا المعروضة في ساحة القضاء، وضاعت الحقوق.

خامساً: حرم الشرع الهجر بين المسلمين فوق ثلاث: فروى البخاري

وغيره أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ).

سادساً: عدم مغفرة ذنوب المتخاصمين: فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءٌ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا).

إخوة الإسلام:

لقد وضع الدين الإسلامي شروطاً معينة، يجب أن تتوافر فيمن يقوم بهذا العمل الجليل، حتى تتم مهمته بنجاح، فتعالوا معي لتتعرف على هذه الشروط.

الشرط الأول: اختيار الرجل المناسب:

فالواجب اختيار الرجل المناسب للصلح، فهناك من الرجال لا يصلحون لهذه المهمة، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، ففي العام السادس من الهجرة عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على الخروج إلى مكة؛ ليزور البيت الحرام، فوصل إلى عُسْفَانَ، فجاءته الأنبياء أن قريشاً قد علمت بمسيرته، فخرجت في ثياب الحر للقاءه، واستأنف الرسول صلى الله عليه وسلم مسيرته المباركة، حتى بلغ مهبط الحديبية، على مشارف مكة، واستقر بأصحابه هناك.

وأخذت قريش تبعث برسلها ومندوبيها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ليثبطوا عزمه، وليحملوه على الرجوع.

وكان آخر هؤلاء المبعوثين عروة بن مسعود الثقفي، جلس يقول للرسول صلى الله عليه وسلم: يا محمد إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل (النساء والصبيان)، قد لبسوا جلود الذمور، متعاهدين ألا تدخلها عليهم عنة أبداً.

وعاد عروة إلى قومه قائلاً لهم: يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإنني والله ما رأيت ملكاً

يعظمه قومُه، مثلما يعظمُ أصحابُ محمدٍ محمداً، ولا رأيت ملكاً يحبه قومُه، كما يحب أصحابُ محمدٍ محمداً، وإنهم والله لن يُسلموه أبداً، فروا رأيكم، لكنَّ قريشاً كعادتها أخذتها العزة بالإثم.

هنالك أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبعث رسولاً من عنده؛ ليؤكد لهم أنه صلى الله عليه وسلم لم يأت غازياً، بل جاء زائراً للبית ومعظماً له، فدعا الرسول صلى الله عليه وسلم خُراشَ بنَ أمية الخزاعي، وانتدبه لهذه المهمة، بيد أن قريشاً لم تكد تراه وتسمع كلماته، حتى عقرت بغيره الذي كان يركبه، وهموا به ليقتلوه، لولا أن منعه الأحابيش، وأنقذته من الموت، و عاد خراش الخزاعي رضي الله عنه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وقص عليه ما حدث.

وفي اليوم التالي بعثت قريشُ خمسين رجلاً من أشدائها؛ ليتحرشوا بالمسلمين، وليضربوا معسكرهم بالحجارة والذبال، وليختطفوا منهم ما يستطيعون اختطافه.

فقرر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبعث برجل آخر، فأشار على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأبى عمر رضي الله عنه، وقال: إن قريشاً تعلم عداوتي لها، ولكني أدلك على من يصلح لهذه المهمة، إنه عثمان بن عفان رضي الله عنه.

فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم عثمان بالسير إلى قريش، وعلى أبواب مكة واجه الجموع المتدفزة من قريش، فبلغهم رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان جوابهم له: إن شئت أن تطوف بالبית فطف، أما محمد وأصحابه فلا.

فيرد عليهم عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما كنت لأفعل حتى يـ

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحال جاهه ومكانته من قريش دون الاعتداء على حياته، لكنهما لم يحولا دون اعتقاله واحتجازه.

الشرط الثاني: الإخلاص لله تعالى وحده:

فلا بد وأن يتوافر في المصلح الإخلاص، حتى يوفقه الله تعالى في أداء هذه المهمة، فقال تعالى: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا} [النساء: 35].

ولقد حذر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم من عدم الإخلاص، فقال تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: 65].

الشرط الثالث: العلم،

فيجب على من يتصدى لهذه المهمة العظيمة، أن يكون على علم بأحكام الشريعة الإسلامية، في القضية التي يقوم بالصلح فيها، وأن يكون على علم بأحوال من يصلح بينهم، حتى يكون تصرفه في حدود الشرع، أما إذا كان جاهلاً بهذه الأمور، فإنه سوف يفسد أكثر ما يصلح، فقال تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: 122].

الشرط الرابع: الرفق وحسن الخلق،

يجب على من يتصدى للصلح بين الناس، أن يتخلق بالرفق واللين في الكلام، انطلاقاً من قول الله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل: 125].

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ، إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ، إِلَّا شَانَهُ).

الشرط الخامس: الصبر وتحمل الأذى،

فإن الصبر وتحمل الأذى من الصفات الهامة التي يجب أن يتخلى بها من يصلح بين الناس، فالمعتاد لمن يقوم بهذه المهمة السامية، أن يصيبه أذى، ولو كان قليلاً، ويتضح ذلك جلياً في وصية لقمان لابنه، قال تعالى: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ

ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ {لقمان: 17}.

الشرط السادس: الموضوعية في الصلح:

والموضوعية في الصلح تعني: الشفافية، والحياد التام، وأن لا يتحيز لطرف على حساب الطرف الآخر، وذلك انطلاقاً من قول الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرَصُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء: 135].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: 8].

الشرط السابع: سماع وجهة نظر كل من الطرفين:

فالواجب على المصلح أن يسمع من الطرفين، ولا يحكم عند سماع طرف واحد، فلا بد وأن يسمع الطرفين، ثم بعد ذلك يصدر حكمه، ولقد عاتب الله تعالى سيدنا داود عليه السلام عندما حكم في قضية قبل أن يسمع الطرف الثاني، قال تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضُمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحْزَنْ خَاصِمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْبَةً وَلِي نَعْبَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْبَتِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ} [ص: 21 - 25].

الشرط الثامن: العدل بقدر الإمكان:

قال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا الْحِسَابَ} [ص: 26].

وقال تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ

بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [الشورى: 15].

الشرط التاسع: أن يكون الصلح موافقاً لشرع الله تعالى :

فالصلح ينبغي أن يكون على أساس الكتاب والسنة، وعلى المتخاصمين أن يسلموا لحكم أهل الصلح إذا كان موافقاً لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإن خالف أهوائهم.

قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} [النساء: 65].

وقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً} [الأحزاب: 36].

أما إذا كان الصلح مخالفاً لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو مردود على أصحابه وإن رضي به المتخاصمون، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً، أو أحل حراماً، والمسلمون عند شروطهم، إلا شرطاً حرم حلالاً، أو أحل حراماً).

إخوة الإسلام:

هناك عدة أمور يجب التنبيه عليها، وهي ما يلي:

النقطة الأولى: جواز الكذب للصلح بين الناس:

روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، ويقول خيراً، وينمي خيراً).

النقطة الثانية: الصلح بالتنازل عن بعض الحقوق:

ينبغي لمن يتصدى لهذه المهمة أن يحض الأطراف على التنازل عن بعض حقوقهم ابتغاء مرضات الله تعالى، وإتباعاً لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهذا ما حدث للرسول صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية،

فعندما اتفق الطرفان على بنود الصلح، دعا الرسول صلى الله عليه وسلم عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه ليكتب الكتاب، فقال له: (اكتب بسم الله الرحمن الرحيم).

فقال سهيل: أما الرحمن فلا أدري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللهم، فأبى المسلمون، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (اكتب باسمك اللهم، ثم قال: (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو).

فقال سهيل: والله لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (والله إني لرسول الله حقاً وإن كذبتُموني)، ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه بمحو ما كتب وكتابة محمد بن عبد الله، فامتنع علي تأدياً، فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم الصحيفة فمحاها، وكتب محمد بن عبد الله، وهو لا يحسن أن يكتب.

وروى البخاري ومسلم عن كعب بن مالك رضي الله عنه أنه تقاضى من ابن أبي حردد ديناً، كان عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعهما الرسول صلى الله عليه وسلم في بيته، فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم إليهما، حتى كشف سجد حجرته، فنادى كعب بن مالك، فقال: (يا كعب، فقال: لبيك يا رسول الله، فأشار بيده أن ضع الشطر، فقال: قد فعلت يا رسول الله، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (قم فاقضه).

وهذا ما يسمى في الفقه بقاعدة: ضع وتعجل.

النقطة الثالثة: جواز الأخذ من الزكاة للصلح بين الناس.

فإن من غرم مالا في الصلح فإنه يأخذه من مال الزكاة، أو من بيت مال المسلمين، قال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: 60].

قال القرطبي في تفسير {وَالْغَارِمِينَ}: يجوز للمتحمل في صلح أو بر، أن يُعطى من الصدقة، ما يؤدي ما تحمل به، إذا وجب عليه وإن كان

غنياً.

وروى مسلم عن قبيصة بن مخرق الهلالي رضي الله عنه قال: تَحَمَّلْتُ حِمَالَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَقِمَّ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا)، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: (يَا قَبِيصَةُ: إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحُلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةً: رَجُلٌ تَحْمَلُ حِمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ، حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكَ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ، اجْتَاَحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ، حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ، - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ، حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةً مِنْ ذَوِي الْحِجَابِ مِنْ قَوْمِهِ، لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ، حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا، يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا-.

* * *

العفو

العفو

أسباب نعيم القبر

العضو

الحمد لله رب العالمين: الذي نطقته بوحدانيته جميع الكائنات، فالسماء دائماً وأبداً تقول: سبحان من رفعني بقوته، وأمسكني بقدرته، فهو ركني وعمادي، والأرض دائماً وأبداً تقول: سبحان من وسع كل شيء علماً، ومهدني تمهيداً، والبحار دائماً وأبداً تقول: سبحان من بمشيئته أجزاني، وأسأل عيون مائي لروادي، والعارف به دائماً وأبداً يقول: سبحان من دلني عليه، وإليه مرجعي ومآبي، حتى العاصي يقول: سبحان من اطلع علي في المعصية، فلما رأي سترني وغطاني، فلما تبت إليه قبلني وهداني.

سبحانه: أشهد له بالوحدانية، وأقر له بالربوبية، فلا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه، جلّ في علاه، فقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: 26].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: جعل العفو من أعظم الأبواب لجلب المودة والمحبة بين العباد، فقال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: 34، 35].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: بين لنا أن الأعمال لا تقبل من المتخاصمين، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحَاءٌ، فَيَقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد : إخوة الإسلام :

ما زال الحديث موصولاً في أسباب نعيم القبر، وها نحن اليوم مع سبب آخر من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: العفو.

فأعبروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.
أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا:

الحقيقة الأولى: إن الله تعالى جعل العفو صفة من صفاته المقدسة، فقال تعالى: {إِنْ تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء: 149].

وقال تعالى: {الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِّنْ نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} [المجادلة: 2].

فلو لم يكن العفو صفة من صفات الله تعالى، ما أبقي أحداً يعصيه على وجه الأرض، فليس من المعقول أن يخلقنا الله تعالى ويرزقنا، ونعصيه ونخالف أمره، وليس من المعقول أن نأكل رزقه، ونعبد غيره، وليس من المعقول أن نسكن أرضه ونوالي غيره، فقال تعالى: {وَرُبَّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَّوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا} [الكهف: 58].

وقال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} [فاطر: 45].

وقال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [النحل: 61].

وكان العفو صفة أصيلة من صفات الأنبياء، فهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام اتصف بهذا الخلق العظيم، فقال تعالى: {قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ

بَدْعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا} [مريم: 46 - 48].

وهذا سيدنا يوسف عليه السلام فقد اتصف بالعفو، وبالتحديد مع أخوته الذين باعوه في الأسواق، كما يباع الرقيق، وكادوا له، كما حكى سورة يوسف، فقال تعالى: {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ- وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} * قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ لَا تَعْرِفُ يُونُسَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: 88 - 92].

وهذا سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم اتصف بالعفو المطلق، فروى البخاري ومسلم أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم قال في وصف الرسول صلى الله عليه وسلم: (والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُنِيرًا- وَنَذِيرًا} {وَحَرَزًا لِلْأُمَمِينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ، لَيْسَ بَفُظٍ وَلَا غِلِظٍ وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بَأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا).

وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ، حَتَّى كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: (أَشْعَرْتُ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيهَا فِيهِ شَفَائِي، أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: مَا وَجَعَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَيْدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، قَالَ: فِي مَاذَا؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَجُفَّ طَلْعَةٍ ذَكَرَ، قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بَشْرِ ذَرَوَانَ)، فَخَرَجَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ لِعَائِشَةَ حِينَ رَجَعَ: (نَحَلُّهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ، فَقُلْتُ: اسْتَخَرَجْتَهُ، فَقَالَ: (لَا، أَمَّا أَنَا فَقَدْ شَفَانِي اللَّهُ، وَخَشِيتُ أَنْ يُثِيرَ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا، ثُمَّ دُفِنْتُ الْبُرَّةَ).

الحقيقة الثانية: إن الله تعالى جعل العفو خلقاً مطلوباً من جميع

المسلمين، دون تفرقة بين رجل وامرأة، ودون تفرقة بين متعلم وغير متعلم، فالكل سواء أما هذا الخلق العظيم.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {وَلَا يَأْتَلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: 22].
قال عبد الله بن المبارك: هذه آية في كتاب الله تعالى.

وقال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: 34، 35].

بل الأعجب من هذا كله: أن العفو ليس مطلوباً بين المسلمين فحسب، بل هو مطلوب مع العدو أيضاً، وهذا ما أعلن عنه المولى تعالى في قرآنه، فقال: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: 109].

وقال تعالى: {لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران: 186].

وقال تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [المائدة: 13].

وهذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة ذات الرقاع، فروى البخاري ومسلم وغيرهما أن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ رضي الله عنه قال: أَتَيْتُهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوَةَ قَيْلٍ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَذْرَكْتُهُمُ الْقَائِلَةَ يَوْمًا فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَذَرَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعِضَاهِ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْتَ سَمُرَةٍ فَعَلَّقَ فِيهَا

سَيِّفُهُ، قَالَ جَابِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَنِمْنَا نَوْمَةً، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُونَا فَأَجْبَدَاهُ، فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِي صَلَتَا، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِذْيَ؟ فَقُلْتُ: (اللَّهُ-)، فَقَالَ ثَانِيَةً: مَنْ يَمْنَعُكَ مِذْيَ، فَقُلْتُ: (اللَّهُ-)، فَشَدَّ السَّيْفَ وَجَلَسَ، فَلَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ.

فإذا ظلمك شخص فتجاوز عنه، فإن الله تعالى يدافع عنك، فאלله تعالى يدافع عن المظلوم، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} [الحج: 38].

وقال تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَصْرُنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} [الحج: 60].

هذا في حق من عاقب بمثل ما عوقب به، لينصرنه الله تعالى، فكيف بالذي يترك حقه كله، ويعفو ابتغاء مرضات الله تعالى ؟

ولقائل يقول: لماذا أمرنا الله تعالى بالعفو؟ أقول: أمرنا الله تعالى بالعفو؛ لأنه يترتب عليه نتائج جليلة، وأثار عظيمة في حياة الفرد والمجتمع، فعلى العفو تتوقف سلامة الأسر، وعلى العفو يقوم ارتباط الأفراد والجماعات بعضهم مع بعض، بالعفو تتأكد المحبة بين المتحابين، وتتألف قلوب المتنافرين، بالعفو تتقرب نفوس المتباعدين، وتهدي قلوب الحائرين، بالعفو تصفو نفوس المتباغضين، اسمع معي إلى قول الله تعالى وهو يوضح أثر العفو فيقول تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: 34، 35].

بالعفو يرتفع الشخص، وتعظم منزلته، فالرجل الذي يتخلق بخلق العفو ويعفو عن ظلمه، ويسامح من يعتدي عليه، محبوب عند الله تعالى، ومحبوب عند الناس، فهو موضع ثنائهم، ومحط تقديرهم، يبتعدون عن إلحاق الأذى بهم، ويتعاونون في قضاء مصالحه، وتيسير أموره، وتحقيق رغباته، فالرجل الذي يتخلق بخلق العفو سعيد هانئ في دنياه، منعم مكرم

في آخرته.

الحقيقة الثالثة: إن الشرع الحنيف أعطى الحق للمظلوم أن ينتصر لنفسه بقدر مظلمته، وهذا ليس معناه: أن الشخص المظلوم إذا أخذ حقه بقدر مظلمته أنه ظالم للناس، بل هو محق إذا لم يتجاوز القدر في الظلم والاعتداء، بل أعلن الله تعالى أنه يدافع عنه.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة في أكثر من موضع، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [الشورى: 39، 43].

وقال تعالى: {وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّهُ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} [الإسراء: 33].

بل الأعجب من هذا كله: أن الله تعالى سيكون مدافعاً عن المظلوم الذي يأخذ حقه، وناصراً له، إذا لم يتجاوز قدر مظلمته، فقال تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} [الحج: 60].

فالفنس بشرية، والظلم حرام، والمظلوم لا يكاد يصبر على الظالم في كل الأحوال، وليس كل ظلم يُتَحَمَلُ ويُطَاق، ومن ثم شرع الله تعالى القصاص في الدنيا، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٍ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: 178، 179].

ولقائل يقول: لماذا أعطى الله تعالى الحق للمظلوم أن يأخذ حقه بقدر مظلمته، وأنه سيدافع عنه، ويكون معيناً له؟ أقول: لسببين:

السبب الأول: لأنه كم من ظالم إذا ترك، يتمادى في ظلمه، وفي غيه، وفي شره وفساده.

السبب الثاني: أن العفو لا يُندب إليه، ولا يُرشد إليه في كل الأوقات، فقد يُفهم العفو عند قوم من أهل الغباء والجهل على أنه ضعف وخور. وقد يُفهم الصّبح على أنه استسلام للظلم، ومن ثم يتمادى الظالم في ظلمه، والطاغي في طغيانه، والباغي في بغيه.

ويؤكد هذا كله أن الله تعالى قال: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: 9].

الحقيقة الرابعة: ما هو العفو؟ العفو هو: الصّبح والمغفرة والتجاوز عن الإساءة، في غير كراهية للمسيء، أو حقد عليه، أو إصرار على الانتقام فيما بعد، مع القدرة على العقوبة أو الثأر.

فليس من العفو التسامح المؤقت الذي يضمّر صاحبه السيئة في نفسه؛ لينتقم ممن عفا عنه في وقت آخر، وليس من العفو الصّبح الناشئ عن عجز أو ضعف، فالعفو لا بد وأن يكون مع القدرة.

إخوة الإسلام:

لقد اهتم الشرع الحنيف اهتماماً بالغاً بالعفو، فتعالوا معي لننتعرف على موقف الشرع الحنيف من العفو:

أولاً: جعل الشرع العضو متعدد المجالات:

فالشريعة الإسلامية لم تقصر العفو على مجال واحد، ولم تجعله في نطاق واحد، أو دائرة مغلقة، بل جعلت الأمر فيه موسّعاً؛ ليشمل جوانب كثيرة من شؤون الحياة.

فبدأ الشارع بحض القيادة الكبرى، وأهل الولاية العظمى بذلك؛ لأنّ تمثّل القيادة بخلق العفو والتسامح أمانة من أمارات القائد الناجح، فأمر الله تعالى به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: 199].

وقال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظاً غَلِيظَ الْقَلْبِ

لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159].

وقال تعالى: {فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} [الحجر: 85].

ولقد حث الشرع الحذيف على العفو في مجال الدماء والقصاص، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ} [البقرة: 178، 179].

كما حث الشرع الحنيف الزوجين على العفو في مسألة الصداق في حالة الطلاق قبل الدخول، فقال تعالى: {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة: 237].

بل حث الشرع الحذيف على العفو في المعاملات المدنية من بيع وشراء ومداينات، فروى أبو داود وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من أقال مسلماً ببعته، أقال الله تعالى عشرته).

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا، قَالَ لِفَتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ؛ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ).

وفي مجال الخادم أمرنا الشرع بالعفو، فروى أبو داود والترمذي أن رجلاً جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كم نعفو عن الخادم؟ فصمت، ثم أعاد عليه الكلام، فصمت، فلما كان في الثالثة، قال: (اعفوا عنه في كل يوم، سبعين مرة).

ثانياً: جعل الله تعالى العفو من صفات المتقين:

فقال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: 133، 134].

وقال تعالى: {وَأَنْ تَعْمُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة: 237].

ثالثاً: جعل الله تعالى أجرة العافي عليه:

وذلك ليطمع العافي في أجر الله تعالى، فقال تعالى: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [الشورى: 40].

رابعاً: ربط الله تعالى عضوه على الناس بعضو الناس بعضهم على بعض:

وذلك لحث الناس على العفو فيما بينهم، فقال تعالى: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: 22].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التغابن: 14].

خامساً: العضو يزيد المسلم عزاً:

وليس كما يتصور بعض الجاهلين، بأن العفو فيه ذل وانكسار، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدُ اللَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ).

سادساً: العضو من أفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة:

فروى أحمد والحاكم والطبراني في معجميه الأوسط والكبير عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَبَدَرَتْهُ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، أَوْ بَدَرَنِي فَأَخَذَ بِيَدِي، فَقَالَ: (يَا عُقْبَةُ، أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ أَخْلَاقِ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَأَهْلِ الْآخِرَةِ؟ تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ).

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنسوق بعض النماذج من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن حياة سلفنا الصالح، لنرى كيف كانوا يعفون عمن ظلمهم، ولنتعلم نحن كيف يكون العفو.

النموذج الأول: روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

قال: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْلًا قَبِلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، يُقَالُ لَهُ: ثِمَامَةُ بْنُ أَنَالٍ سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: (مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثِمَامَةُ؟)، فَقَالَ: عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ، إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُذِّتْ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتِ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْعَدِ فَقَالَ: (مَا عِنْدَكَ يَا ثِمَامَةُ؟)، قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُذِّتْ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتِ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى كَانَ مِنَ الْعَدِ، فَقَالَ: (مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثِمَامَةُ؟)، فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُذِّتْ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَطْلِقُوا ثِمَامَةَ-، فَاَنْطَلِقْ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَاغْتَسِلْ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهَكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذْتَنِي وَأَذَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، قَالَ لَهُ قَائِلٌ: أَصَدَّبَتْ، فَقَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي رواية للبيهقي: فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أطلقوه، فقد عفوت عنك يا ثمامة-.

النموذج الثاني: روى البخاري وغيره عن ابن عمر رضي الله عنه أن عبد الله بن أبي لَمَّا تُوَفِّي، جَاءَ ابْنُهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَعْطِنِي قَمِيصَكَ أَكْفَنُهُ فِيهِ، وَصَلَّ عَلَيْهِ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُ، فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَمِيصَهُ، فَقَالَ: (إِذْنِي أَصَلِّيَ عَلَيْهِ-، فَأَذَنُهُ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، جَذَبَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: أَلَيْسَ اللَّهُ نَهَاكَ أَنْ تُصَلِّيَ

عَلَى الْمُنَافِقِينَ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَنَا بَيْنَ خَيْرَتَيْنِ، قَالَ: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَزَلَّتْ: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ}).

ولا يخفى على الجميع من هو عبد الله، فهو رأس المنافقين، وصاحب حادثة الإفك، وهو الذي قال عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: والله ما نجت منه، ولا نجا منها، ثم قال: وبئس ما قال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقودها.

يرمى الرسول صلى الله عليه وسلم في عرضه، ويسببه في شرفه، ولم يكتف الأمر عند هذا الحد، فقال: لئن رجعت إلى المدينة، لأخرجن منها محمداً ذليلاً، وأنا العزيز، وفي هذا يقول المولى تعالى: {يَقُولُونَ لَسِنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون: 8].

ويبرئ الله تعالى السيدة عائشة رضي الله عنها، ويدخل الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة عزيزاً، وبعد هذا كله يعفو الرسول صلى الله عليه وسلم عنه، ويصفح عنه، ويقوم فيصلي عليه، ويستغفر له، ما هذا؟ إنه الرسول صلى الله عليه وسلم سيد الأولين والآخرين.

النموذج الثالث: عفو الرسول صلى الله عليه وسلم العام عن أهل مكة: فلما بلغت قريش في أذاها للرسول صلى الله عليه وسلم، وأحكمت قبضتها منه، ثم أخرجته من بين أهله وعشيرته، وقتلوا من أصحابه يوم أحد سبعين، وجرحوا آخرين، وجرح الرسول صلى الله عليه وسلم، وكسرت ربايعيته، وشج وجهه، وهو يقول: (اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون).

ثم أمكنه الله تعالى منهم، فعاد فاتحاً مكة، ومعه أكثر من عشرة آلاف، معهم السيوف مسلطة على رؤوس قريش، وهو يقول لهم: (ما ترون أي فاعل بكم؟)، قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال صلى الله عليه وسلم: (أقول لكم كما قال يوسف عليه السلام لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء).

النموذج الرابع: عفو الرسول صلى الله عليه وسلم عن اليهودية التي وضعت السم له في الشاة، فروى البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ يَهُودِيَّةً أَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَاةٍ مَسْدُومَةٍ، فَأَكَلَ مِنْهَا، فَجِيءَ بِهَا، فَقِيلَ: أَلَا نَقْتُلُهَا؟ قَالَ: (لَا، فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

النموذج الخامس: كان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه يذفق على رجل فقير يسمى مسطح بن أثاثه، وكان هذا الرجل ممن يتكلم في حادثة الإفك، فلما قال ما قاله عن السيدة عائشة رضي الله عنها، ونزلت الآيات تبرئ السيدة عائشة رضي الله عنها، قال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ساعتها: "والله لا أعد أنفق على مسطح أبداً".

فنزل قول الله ﷻ: {وَلَا يَأْتِلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: 22].

فدعا الرسول صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه، فتلا عليه هذه الآية، فلما أن سمعها أبو بكر رضي الله عنه حتى قال: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، والله لأردنَّ على مسطح ما كنت قطعتُه منه.

النموذج السادس: روى البيهقي أن جارية لعلي بن الحسين رضي الله عنه جعلت تسكب عليه الماء؛ ليتهايأ للصلاة، فسقط الإبريق من يدها، فشجه، فرفع رأسه إليها، فقالت: إن الله تعالى يقول: {وَالْكَافِرِينَ الْغِيَظُ}، فقال لها: قد كظمت غيظي، قالت: {وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} قال: قد عفا الله عنك، قالت: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى.

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على النتائج المترتبة على التخلق بخلق العفو.

أولاً: رفع الدرجات ومحو الخطايا.

روى الترمذي وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ما من رجل يُصَابُ بشيءٍ في جسده، فيتصدقُ به، إلا رفعه الله به درجة، وحط عنه خطيئة).

وروى الحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من سره أن يُشرفَ له البنيان، وتُرفعَ له الدرجات، فليعف عمن ظلمه، وليعط من حرمه، ويصل من قطعه-).

وروى البزار والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أدلكم على مـــــــرغــــة إلى مـــــــرغــــة يرغــــم الله تعالى به الدرجات؟)، قالوا: بلى يا رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم: (تحلم على من جهل عليك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك-).

ثانيا: يحاسبه الله تعالى حسابا يسيرا:

روى البيهقي والبزار والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، حَاسِبُهُ اللهُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ، قَالُوا: مَنَ يَسْأَلُ رَسُوْلَ اللهِ؟ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تُعْطَى مِنْ حَرَمِكَ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ- قَالَ: فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ، فَمَا لِي يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: (أَنْ تُحَاسِبَ حِسَابًا يَسِيرًا، وَيُدْخَلَكَ اللهُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ-).

ثالثا: دخول صاحب العضو الجنة بلا حساب:

روى الطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إذا وقف العباد للحساب، جاء قوم واضعي سيوفهم على رقابهم، تقطر دماءً، فازدحموا على باب الجنة، فقيل: من هؤلاء؟ قيل: الشهداء، كانوا أحياء مرزوقين، ثم نادى منادي: ليقم من أجره على الله، فليدخل الجنة، ثم نادى الثانية: ليقم من أجره على الله، فليدخل الجنة، قال: ومن ذا الذي أجره على الله تعالى؟ قال: العاфин عن الناس، ثم نادى الثالثة: ليقم من أجره على الله، فليدخل الجنة، فقام كذا وكذا ألفاً، فدخلوها بغير حساب-).

رابعا: المنزلة الرفيعة في الجنة:

روى الحاكم والبيهقي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بيذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال له عمر رضي الله عنه: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟

قال صلى الله عليه وسلم: (رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة، فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخي، فقال الله تعالى للطالب: فكيف بأخيك ولم يبق من حسناته شيء؟ قال: يا رب فليحمل من أوزاري-)، قال: وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء، ثم قال: (إن ذاك اليوم عظيم يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك، فانظر في الجنان، فرفع رأسه، فقال: يا رب، أرى مدائن من ذهب وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا؟ أو لأي صديق هذا؟ أو لأي شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى الثمن، قال: يا رب ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه، قال: بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك، قال: يا رب فإني قد عفوت عنه، قال الله تعالى: فخذ بيد أخيك فادخله الجنة-)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: (اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المسلمين-).

* * *

الوفاء بالعهد

الوفاء بالعهد

أسباب نعيم القبر

الوفاء بالعهد

الحمد لله رب العالمين: شعاع من رضاه يطفئ غضب ملوك أهل الأرض، ولمحة من غضبه تزهق الروح ولو انغمست في نعيم الدنيا، وقطرة من فيض جوده تملأ الأرض رياءً، ونظرة بعين رضاه تجعل من الكافر ولياً.

سبحانه: توعد باللعن وسوء الدار يوم القيامة لمن يخلف عهده، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [الرعد: 25].
وأشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له: جعل الوفاء بالعهد معيار من معايير الرجولة الكاملة، فقال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [الأحزاب: 23، 24].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: جعل الوفاء بالعهد سبباً من أسباب دخول الفرد الجنة، فروى أحمد والحاكم والبيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمْ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا أَوْثَقْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكَفُّوا أَيْدِيَكُمْ).

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

ما زال الحديث موصولاً في أسباب نعيم القبر، وها نحن اليوم مع سبب آخر من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: الوفاء بالعهد.

فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا اليوم:

الحقيقة الأولى: إن الله تعالى جعل الوفاء صفة من صفاته المقدسة، فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: 111].

وكان الوفاء بالعهد صفة أصيلة من صفات الأنبياء، فهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام وصفه الله تعالى بهذا الخلق العظيم، فقال تعالى: {وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [النجم: 37].

وهذا سيدنا إسماعيل عليه السلام وصفه الله تعالى بهذا الخلق فقال تعالى: {وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} [مريم: 54].

وهذا سيدنا موسى عليه السلام اتصف بهذا الخلق العظيم، فكان أوفى الأوفياء، فلما ورد سيدنا موسى عليه السلام ماء مدين، وسقى لابلتي الرجل الصالح، وجاءته إحداهما لتدعوه إلى أبيها لأخذ الأجرة على سقيه للأغنام، كما جاءت به سورة القصص، فقال تعالى: {فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْثِيًا عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّاحِينَ} [القصص: 25 - 27].

فماذا كان رد سيدنا موسى عليه السلام ؟ فقال تعالى: {قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} [القصص: 28].

وروى البخاري عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: سَأَلَنِي يَهُودِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ: أَيُّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى حَبْرِ الْعَرَبِ فَأَسْأَلُهُ، فَقَدِمْتُ فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: قَضَى أَكْثَرُهُمَا وَأَطْيَبُهُمَا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِذَا قَالَ فَعَلَ.

وهذا الرسول صلى الله عليه وسلم كان متصفاً بخلق الوفاء، فشهد له أعداؤه بهذا، فشهد أبو سفيان وهو ما زال على كفره بوفاء الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك عندما سأله هرقل ملك الروم: هل يغدر؟ فقال أبو سفيان: لا.

الحقيقة الثانية: إن الله تعالى جعل الوفاء بالعهد أمراً مفروضاً على جميع المسلمين، دون تفرقة بين رجل وامرأة، ودون تفرقة بين متعلم وغير متعلم، فالكل سواء أمام واجب الوفاء بالعهد.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة في أكثر من موضع في القرآن،

فقال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} [الإسراء: 34].

وقال تعالى: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الأنعام: 152].

وقال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [النحل: 91].

ولقد أشارت السنة النبوية إلى هذه الحقيقة أيضاً، فروى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحْجَّ فَلَمْ تَحْجَّ حَتَّى مَاتَتْ، أَفَأَحْجُّ عَنْهَا؟

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكَ دَيْنٌ أَكُنْتَ قَاضِيَةً، أَقْضُوا اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ-).

ولقائل يقول: لماذا أمرنا الله تعالى بالوفاء بالعهد؟ أقول: أمرنا الله تعالى بالوفاء بالعهد لعدة أسباب:

السبب الأول: لأن الحياة لن تستقيم ولن يكون لها أي طعم إلا إذا التزم كل إنسان فينا بما قطعه على نفسه، واحترم كل إنسان فينا كلمته التي نطق بها.

السبب الثاني: لأن الغدر ينزع الثقة بين الناس، ويذشر الفوضى، ويمزق الأواصر بين الناس، ويرد الأقوياء ضعفاء واهنين، فقال تعالى: ﴿رَؤُوفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: 91، 92].

فالواجب على كل مسلم إذا أبرم عقداً يجب أن يحترمه، وإذا أعطى عهداً يجب أن يلتزم به، وأن يكون الرجل عند كلمته التي قالها، فيعرف بين الناس بأن كلمته موثق غليظ، لا خوف من نقضها، ولا مطمع في اصطیادها.

الحقيقة الثالثة: لقد أصبح الوفاء بالعهد عملةً نادرةً بين البشر، فكثير من الناس لا يحترم عهده ولا ذمته، فإذا وعدك إنسان بعمل شيء معين لك، أو التزم إنسان بشيء، تجده نقض كلامه ورجع فيه وتبرأ منه، حتى كدنا نرى الغدر موضحة عند كثير من الناس.

مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم حذرنا من الغدر وعده من صفات المنافقين، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ).

وإذا قمت بمعاتبته أو توجيه اللوم إليه، بادرك بالقول في استخفاف ولا مبالة، ويقول لك: هو إحنا كنا نتكلم بجدا!، أو يقول لك: وإيه يعني لما أرجع في كلامي، ويتحجج بدجج واهية لا أساس لها من الصحة، وما أنزل الله تعالى بها من سلطان.

حتى أصبحت أعمالنا دعاية سيئة للإسلام والمسلمين، وأصبح أعداء

الدين ينظرون إلينا نظرتهم إلى قوم همج، لا يُوثَق بأقوالهم، ولا يُرتَبَط بوعودهم، ولا يُطمأن لمواعيدهم.

واسمع معي أخي المسلم إلى ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم في شأن هؤلاء الناس، فروى البخاري ومسلم وغيرهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ، فَيَقِيلُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فَلَانِ ابْنِ فَلَانٍ-).

الحقيقة الرابعة: ما هو الوفاء بالعهد؟ الوفاء بالعهد هو: القيام بما يجب عليك تجاه إنسان آخر من رعاية، أو أداء، سواء أكان العهد معتمداً على توثيق مكتوب، أم على وعد شريف.

فروى أحمد وأبو داود والبيهقي عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْحَمَسَاءِ قَالَ: بَايَعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ، فَوَعَدْتُهُ أَنْ آتِيَهُ بِهَا فِي مَكَانِهِ ذَلِكَ، قَالَ: فَتَسْبِيحُهُ يَوْمِي ذَلِكَ وَالْعَدِّ، فَأَنْبِئْتُهُ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ وَهُوَ فِي مَكَانِهِ، فَقَالَ لِي: (يَا فَتَى لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ، أَنَا هَاهُنَا مِنْ ثَلَاثٍ أَنْتَظِرُكَ-).

إخوة الإسلام:

لقد ضرب لنا الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم أروع الأمثلة في الوفاء بالعهد، فتعالوا معي لنسوق بعض النماذج من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وحياة سلفنا الصالح؛ لنتعلم من خلال هذه النماذج كيف يكون الوفاء بالعهد، وهل هناك عذر لأحد في أن ينقض عهده أم لا؟

النموذج الأول: روي أن الرسول صلى الله عليه وسلم وعد أبا الهيثم بن التيهان خادماً، أتى الرسول بثلاثة من الأسبي، فأعطى اثنين وبقي واحد، فاتت فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم تطلب خادماً، وتقول: ألا ترى أثر الرحي بيدي، فتذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وعده لأبي الهيثم، فجعل يقول: وكيف بوعدى لأبي الهيثم؟

فأعطاه الخادم، وأثر على ابنته وفلذة كبده، وهي في أشد الحاجة إلى الخادم، إذ إنها كانت تدير الرحي بيديها الضعيفتين، كل ذلك وفاء للعهد.

أما في الوقت الحاضر فحدث ولا حرج في نقض العهد، وخلف

الوعد، ففي مثل هذا النموذج يقول الإنسان: إن ابنتي أولى من غيرها، ولكن أين الوفاء بالعهد....

النموذج الثاني: روى مسلم أن حذيفة بن اليمان قال: مَا مَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٍ، قَالَ: فَأَخَذْنَا كَفَّارُ قُرَيْشٍ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَا نَقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: (انْصَرِفَا نَفْيَ لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ).

إن هذا العمل العظيم الذي فعله الرسول صلى الله عليه وسلم ليس وفاءً فحسب، بل هو أسمى ما يصبوا إليه الوفاء؛ وذلك لأن الوفاء في العهد في وقت السلم فضيلة، وأمر جاز شرعاً وعقلاً.

أما إذا كان الوفاء بالعهد في حرب متصلة مع عدو شديد العداوة، متصل المكيدة، متلاحق الدر، وقد بيت هذا العدو للرسول صلى الله عليه وسلم القتل، فقال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُجْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: 30]، فيكون الوفاء في هذه الحالة أفضل الفضائل.

ثم إن وفاء الشخص بعهده فضيلة، فإذا ما حض غيره على الوفاء بعهد لم يشارك هو به، ولم يُشِرْ به، ولم يُقره، ولم يشهد عليه، وهو يعلم أنه عهد باطل؛ لأنه قام على الاضطرار، وعلى التحايل للفرار، والرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أن نقض هذا العهد يزيد عدد جنوده، ويقوى جيشه، في وقت كان فيه جيشه قليل العدد.

إن الوفاء حينئذ ليس فضيلة فحسب، بل هو أعظم الفضائل، لهذا كان أمر الرسول لحذيفة وأبيه بالوفاء بعهدهما أعلى ما يصبوا إليه الخلق العظيم من درجات الوفاء بالعهد.

إن هذا النموذج من الوفاء لا أسوقه إلى المسلمين فحسب، بل أسوقه إلى العالم كله، وأحب أن أقول لبعض دول العالم التي تدعي العلم والتقدم والحضارة والديمقراطية، هل عندكم نموذج يضاهي الرسول صلى الله عليه وسلم

وسلم في الوفاء بالعهد؟

فهل أن الآوان لدول العالم المتقدم أن تسمع لهذا؟ هل لها عقول تعي؟ هل لها بقيا من الضمانر تتقبل التربية والعلاج، أما أن الآوان لهذه الدول أن تعلم أن علمها زائف، وأن تقدمها تأخر، وأن حضارتها همجية. إن الدول التي يقال عنها: إنها متقدمة ومتحضرة تتخذ الدغدر موضة وخلقاً لها، وكذلك الواقع الذي نعيش فيه.

فإذا حدثت خصومة بين فرد وفرد، أو بين عائلتين، نجد أن أول شيء يحدث بينهما هو نقض أي عهد بينهما.

فهل أن الآوان لنا جميعاً أن نتصف بصفة الوفاء بالعهد مع أنفسنا أولاً، ومع خصومنا ثانياً.

فالواجب على كل مسلم فينا إذا أبرم عقداً يجب أن يحترم مه، وإذا أعطى عهداً يجب أن يلتزم به، وأن يكون الرجل منا عند كلمته التي قالها، فيُعرف بين الناس بأن كلمته موثق غليظ، لا خوف من نقضها، ولا مطمع في اصطيلها.

النموذج الثالث: في صلح الحديبية لما كان سيدنا علي بن أبي طالب يكتب الشروط، وكان سهيل بن عمرو مندوب قريش في المفاوضات، وَإِنَّ الصَّحِيفَةَ لَتُكْتَبُ إِذْ طَلَعَ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سُهَيْلٍ بْنُ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي الْحَدِيدِ، وَقَدْ كَانَ أَبُوهُ حَبَسَهُ، فَأَقْلَتِ، فَلَمَّا رَأَاهُ سُهَيْلٌ قَامَ إِلَيْهِ فَضْرَبَ وَجْهَهُ وَأَخَذَ يَلْبِبُهُ يَنْلُئُهُ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ قَدْ وَلَجَتِ الْقَضِيَّةُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ هَذَا، قَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (صَدَقْتَ).

وَصَاحَ أَبُو جَنْدَلٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَرَدْتُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونِي فِي دِينِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي جَنْدَلٍ: (أَبَا جَنْدَلٍ اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا، إِنَّا قَدْ صَالَحْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَجَرَى بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الْعَهْدُ، وَإِنَّا لَا نَغْدُرُ).

فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَمْشِي إِلَى جَنْدَلِ بْنِ أَبِي جَنْدَلٍ وَأَبُوهُ يَنْلُئُهُ وَهُوَ يَقُولُ: أَبَا جَنْدَلٍ اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ فَإِنَّمَا هُمْ الْمُشْرِكُونَ وَإِنَّمَا

دَمَ أَحَدِهِمْ دَمَ كَلْبٍ، وَجَعَلَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُدْنِي مِنْهُ قَائِمَ السَّيْفِ، فَقَالَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رَجَوْتُ أَنْ يَأْخُذَهُ فَيَضْرِبَ بِهِ أَبَاهُ، فَضَنَّ بِأَبِيهِ.

أرأيت أخي المسلم كيف حافظ الإسلام على الوفاء بالعهود مهما كان الثمن غالياً، فالواجب على كل مسلم أن يلتزم بالعهد الذي قطعه على نفسه تجاه غيره، تأسيساً بالرسول صلى الله عليه وسلم.

النموذج الرابع: جيء بالهرمزان قائد جيش الفرس أسيراً إلى سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وكان قد فعل بالمسلمين الأفاعيل، عُرض عليه الإسلام فأبى، فأراد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قتله، لكن القائد استمهله قليلاً، وقال: مهلاً يا أمير المؤمنين، فأنا عطشان، ولأن أقتل وأنا ريان خير من أقتل وأنا على ظمأ، فأمر له سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشربة ماء، فلما وضعت بين يديه قال لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هل أنا آمن حتى أشربها؟ قال له سيدنا عمر رضي الله عنه: نعم، فأراق الماء على الأرض، وصاح بأعلى صوته: الوفاء نور أبلج، فغضب سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأدرك أن الهرمزان قد خدعه، فاستشار أصحابه في شأنه، فقالوا له: بالوفاء، فغفى عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأسلم.

النموذج الخامس: في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقعت حادثة، وهي: أن راعي غنم قتل صاحب بستان، وحُكِمَ عليه بالقتل قصاصاً.

فلما جاء موعد تنفيذ القصاص، نظر الرجل إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له: إن لي أطفالاً صغاراً، وقد خبأت لهم مالاً لا يعرفون مكانه، فأمهلي ثلاثة أيام؛ لأخرجه لهم، ثم أعود.

فأبى سيدنا عمر بن الخطاب أن يمهله إلا بضامن، فضمنه أبو هريرة رضي الله عنه على غير سابق معرفة به، فلما انقضت الثلاث لم يعد الرجل، فأرادوا أن ينفذوا القصاص في أبي هريرة رضي الله عنه، ولكن لطف الله تعالى حضر الرجل مسرعاً في آخر لحظة موفياً بوعد، فتعجب أبناء القتل من وفاء الرجل، وكان ذلك سبباً في أنهم تقدموا إلى سيدنا عمر

رضي الله عنه بالعفو عن الرجل، فسر الجميع.

وأحضر سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الثلاثة: الأعرابي، وأبا هريرة، وأبناء القتيل، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "ما الذي حملك على الرجوع إلينا، وقد علمت أنك تعود للموت؟".

فقال الرجل: خفت أن يقول الناس: ضاع الوفاء بين المسلمين!

ثم قال لسيدنا أبي هريرة رضي الله عنه: "وأنت يا أبا هريرة ما الذي حملك على ما فعلت، وقد علمت أنك ضمنته على الموت".

فقال سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: "خفت أن يقول الناس: ضاعت المروءة بين المؤمنين".

ثم قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبناء القتيل: "وأنتم يا أبناء القتيل، ما الذي دفعكم إلى العفو؟"

فقلوا: خفنا أن يقول الناس: ضاعت الرحمة بين المسلمين.

فانظر أخي المسلم إلى تلك النفوس الطاهرة، والقلوب المليئة بالرحمة والإخلاص والوفاء.

رجلان يقدمان نفسيهما فداءً لحفظ كرامة المسلمين، وآخرون يعفون عن قاتل أبيهم، ومهلك عزيزهم؛ لأجل أن تظل سمعة الإسلام طيبة، ورائحته عطرة ذكية.

وانظر إلى الوقت الذي نعيش فيه: كيف تنتقض العهود، وتخلف الوعود، وكيف تداس الشروط، وتهد الاتفاقات، وانتشر الذصب والتحايل والغش والخيانة والتدليس، فلقد أساء المسلمين إلى الإسلام، وشوهوا سمعته، وأصبحوا مثلاً سيئاً بين الأمم والشعوب.

تذهب إلى صاحب صنعة لتتفق معه على عمل شيء تريده، فيعدك بأن تأخذه بعد أسبوع أو أسبوعين مثلاً، فتتظم عملك على هذا، ثم تذهب إليه في الوقت المحدد، فتجد وللأسف وعده مكذوباً، وعهده منقوضاً.

تتفق مع صديق أو شريك لم عل أن يحضر إليك في يوم كذا، أو في ساعة كذا، فترتب أمرك، وتنظم وقتك على هذا الميعاد، ثم تنتظر

صاحبك، ولكن يا خبيبة الرجاء، ويا لضيعة الأمل.

وهكذا وجد تهاوناً بين المسلمين في المحافظة على الوعود، وإهمالاً لما يبرم بينهم من عهود وعقود.

فهل أن الآوان لنا جميعاً أن نتخلق بخلق الوفاء تأسيساً بالرسول صلى الله عليه وسلم؛ لنعيش في سعادة حقيقية لا تدانيها سعادة.

النموذج السادس: في يوم من الأيام خرج عبد الله بن المبارك لمبارزة رجلاً مجوسياً، فلما جاء وقت صلاة العصر، استأذن عبد الله من المجوسي في هدنة قصيرة يؤمنه فيها على نفسه، حتى يفرغ من الصلاة، وقال له: عاهدني على الأمان حتى أتم صلاتي، وكان له ذلك، ولما جاء وقت الغروب، وكان المجوسي هذا من عباد الشمس والنار، طلب منه أن يعطيه فرصة ليؤدي هو الآخر صلاته، فعاهده عبد الله على ذلك، ولكنه نظر إليه وهو ساجد، ووسوست له نفسه أن يفتك به وهو في الصلاة، وبينما هو يُعد نفسه للوثوب عليه، إذ بهاتف يهتف ويقول: اتق الله يا عبد الله، ويقول: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [النحل: 91].

فتراجع عنه وهو يردد هذه الآية، ولما فرغ المجوسي من صلاته سأله، لقد هممت بي سوءاً، ثم عدت دون أن تفعل شيئاً فلماذا؟

فأخبره بما قاله الهاتف، فقال المجوسي: نِعَمَ الرب ربك يا عبد الله، إن رباً يعاتب حبيبه من أجل عدوه لهو رب عظيم، ثم أسلم وحسن إسلامه، وكل هذا ببركة الوفاء بالعهد.

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لتتعرف على النتائج المترتبة على التخلق بخلق الوفاء بالعهد:

أولاً: الوفاء بالعهد صفة من صفات المتقين: فقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: 177].

وقال تعالى: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 76].

ثانياً: الوفاء صفة من صفات أصحاب العقول السليمة: فقال تعالى :
 {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ} [الرعد: 19، 20].

ثالثاً: الأجر العظيم: فقال تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: 10].

رابعاً: الفردوس الأعلى: فقال تعالى : {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون: 1 - 11].

* * *

دستور الأمة المغيب

دستور الأمة المغيب

أسباب نعيم القبر

القرآن الكريم

الحمد لله رب العالمين: أنزل الكتاب المكنون، وأرسل السحاب المتون،
تكونت بقدرته الأشياء، وتوالت برحمته الآلاء، واذشقت بحكمته الأرض
والسماء، وكتب بمشيئته السعادة والهناء، فیرحم من يشاء، ويعذب من يشاء،
وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون.

سبحانه: أعد الجنة والرحمة لمن أطاعه، وأعد النار وسخطه لمن
عصاه، فقال تعالى: {إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا
يَحْيَى} * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى *
جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى {طه:
74-76}.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: وصف القرآن الكريم بأنه
نور، فقال تعالى: {فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ} [التغابن: 8].

وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا
الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: 52] والمراد بالنور في الآيتين: القرآن
الكريم.

وإذا كان منزل القرآن على عبده محمد صلى الله عليه وسلم هو النور
كله، كما قال تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} [النور: 35].
والذي كان يتولى عملية إنزال القرآن على الرسول صلى الله عليه
وسلم، فقال تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ}
[الشعراء: 193، 194].

وقد خلقه الله تعالى من نور، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه
وسلم قال: (خلقت الملائكة من نور.. -).

ولقد وصف الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه نور،
فقال: {قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} [المائدة: 15].

فإذا كان الله تعالى هو النور، وجبريل خلق من نور، والقرآن نور، والرسول موصوف بأنه نور، فكيف تعيش أمة الرسول صلى الله عليه وسلم في الظلام؟!

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: حثنا على تلاوة القرآن، فـ_____ روى أحمد في المسند وحسن الحديث الشيخ الألباني قال أبو ذر رضي الله عنه قال: _____

يا رسول الله، أوصني، فقال صلى الله عليه وسلم: (عليك بتقوى الله، فإنها رأس الأمر كله- قلت: يا رسول الله، زدني، فقال صلى الله عليه وسلم: (عليك بتلاوة القرآن الكريم، فإنه نور لك في الأرض، وذخر لك في السماء-).

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع القرآن لكريم، مع معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الكبرى، مع حبل الله تعالى المتين، والصراط المستقيم، والنور المبين.

فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم من أهل القرآن وخاصته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا اليوم:

الحقيقة الأولى: إن من أكبر النعم التي أنعم الله تعالى بها على أمة الرسول صلى الله عليه وسلم أن أنزل عليهم القرآن الكريم، فالله تعالى جعل نزول القرآن الكريم على الأمة المحمدية نعمة لا تحصى، ومنة عظمى منه تعالى، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة فقال: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ} [العنكبوت: 51].

بل أمرنا الله تعالى أن نفرح بهذه النعمة (نعمة القرآن)، فقال تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: 58].

قال ابن عباس رضي الله عنهم: فضل الله تعالى: الإسلام، ورحمته: أن جعلكم من أهل القرآن الكريم، فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفي بها نعمة، والحمد لله على نعمة القرآن وكفي بها نعمة.

ولم يكتف الأمر عند هذا الحد، بل أتم الله تعالى علينا النعمة، فتولى حفظ القرآن بنفسه، فقال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9].

فهو الكتاب الوحيد على وجه الأرض الذي لم تذله أيدي التحريف والتبديل، ولم تعبت به أيدي العابثين والمجرمين، فقال تعالى: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 42] وجعل الله تعالى القرآن الكريم مهيمناً على الكتب السابقة عليه، فقال تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ} [المائدة: 48].

بل جعله الله تعالى أحسن الحديث، فقال تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر: 23].

وقد حوى القرآن الكريم كل شيء، فما من شيء يحدث أو نازلة تأتي، إلا ولها في كتاب الله تعالى مخرج، قال تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ- [الأنعام: 38].

فلقد جمع القرآن كل ما يحتاج إليه الخلائق في معاشهم وميعادهم، فجاء بالعقائد الصافية، والعبادات الهادية، والمعاملات السليمة، والأخلاق الكريمة، والسياسة الحكيمة، والمعارف الرائقة، والتوجيهات النافعة، والحجج الساطعة. الحقيقة الثانية: إن الله تعالى تحدى بالقرآن البشرية عامة، وتحدى به

المشركين خاصة، وما زال التحدي قائماً إلى يوم القيامة، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً} [الإسراء: 88].

فلما عجزوا عن الإتيان بقرآن مثله، تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، فقال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [هود: 13].

فعجزوا، فذفف الله تعالى التحدي إلى أقل درجاته، فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثل سور القرآن الجليل فعجزوا، قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [يونس: 38].

وقال تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} * فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: 23، 24].

الحقيقة الثالثة: إن القرآن الكريم لو أنزل له الله تعالى على جبل لتصدع الجبل من خشية الجليل، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمُثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: 21].

وعلى العكس من ذلك فإن قلوب العباد الآن لن تخشع من ذكر القرآن؟ سؤال مريب كيف تتصدع الجبال للقرآن ولا تتحرك له القلوب؟ فإذا نظرنا إلى قلوب الناس الآن نجد أنها تنقسم إلى ثلاثة أصناف تجاه القرآن الكريم.

الصنف الأول: ميت القلب، فهذا لو سمع القرآن كله ما تدبر وما تأثر، وكثير ما هم.

الصنف الثاني: حي القلب، لكنه معرض عن القرآن، حي القلب لكنه لا يسمع بأذن رأسه ولا بأذن قلبه لآيات الله المتلوة، ومن ثم هو لا يتأثر البتة بآيات الله المتلوة والمرئية في الكون؛ لأنه معرض بسمعه وقلبه عن الله تعالى، هؤلاء هم أهل الغفلة، والعياذ بالله.

الصنف الثالث: حي القلب، منتفع بالآيات المتلوة والمرتبة، قال تعالى

: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: 37].

فالقرآن تخشع وتتصدع له الجبال ولا تتحرك له القلوب الموات، لذا قال عثمان رضي الله عنه: " والله لو طهرت قلوبنا ما شبعنا من كلام ربنا ".

وإذا نظرنا إلى مكة نجد أن قريشاً كانت تخشى على نفسها من سماع القرآن؛ لأن القرآن كان يصدع عناد الكفر والكبر في قلوبهم، تخيل أن المشركين على عنادهم وكفرهم بالله تعالى كانوا يتأثرون بالقرآن الكريم، فذات مرة اجتمعوا في بيت الله الحرام، وأردوا القضاء على النبي صلى الله عليه وسلم وتخيل هذا الموقف.

النبي صلى الله عليه وسلم يصلي، وأبو جهل يقترب منه يريد الفتك به، والنبي صلى الله عليه وسلم موصول بالله مشغول بالصلاة يقرأ أي القرآن، وإذا بأبي جهل يجري مسرعاً إلى الخلف يدفع بيديه عن وجهه، فلما اقترب من المشركين سألوه، مالك يا أبا الحكم؟ لماذا رجعت؟ لماذا جريت بهذه الصورة المزرية؟

فقال أبو جهل: إن بيني وبين محمد صلى الله عليه وسلم خندقاً من نار، وإنني أرى أجنحة، وبينما النبي صلى الله عليه وسلم يصلي ويقرأ من أول سورة النجم، إلى أن وصل إلى قول الله تعالى: {أَزَفْتُ الْأَزْفَةَ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضَحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا} [النجم: 57 - 62].

وهنا يخبر النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً لله تعالى، والمشركون الذين اجتمعوا لقتله، إذا بهم يخرجون جميعاً لله تعالى سجوداً وتسليماً واستسلاماً لعظمة القرآن، وذاع الخبر في الناس وانتشر انتشار النار في الهشيم، حتى أشيع بين الناس أن قريشاً قد أسلمت.

بل وسجد الجن مع الرسول صلى الله عليه وسلم بسورة النجم، ندم الجن، ألم يقل تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا} [الجن: 1، 2].

ألم يقل المولى تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ

فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ { [الأحقاف: 29 - 32].

وهذا هو الوليد بن المغيرة وكان متعنناً متكبراً مذكراً فلما ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليعرض عليه الملك والجاه والسلطان، حتى يرجع إلى دين آبائه وأجداده، وقد قرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم آيات جليلة من القرآن الكريم، قال الوليد كلماته الخالدة في حق القرآن: إني سمعت كلاماً من محمد صلى الله عليه وسلم لا هو كلام الإنس ولا هو من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه.

ولم لا؟ وهو كلام ربنا تعالى، قال تعالى: {حَمْدُ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ} [الزخرف: 1 - 4].

وقال تعالى: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ} [يوسف: 1 - 3].

وقال تعالى: {حَمْدُ * تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْنُ غَافِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ} [فصلت: 1 - 6].

هذا الكتاب الذي يجمع أسرار الدنيا كلها ويحوى أخلاق الدين ودستور الحداية، حتى فطن له أعداؤنا قبل أن نفطن له، وأخذوا منه وشربوا، ثم حاولوا طمس معالمه فما استطاعوا تحقيقاً لو عد الله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9].

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف كيف وصل إلينا القرآن الكريم بهذه الصورة التي بين أيدينا؟.

لقد مر القرآن الكريم بثلاث مراحل حتى وصل إلينا بالصورة التي نراها عليه الآن:

المرحلة الأولى: كانت في عهد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وهي المرحلة التي جمع فيها في صدر النبي صلى الله عليه وسلم وفي صدور الصحابة رضوان الله عليهم، من الله تعالى عليهم بمكة حفظ جليلة، وحفظ النبي صلى الله عليه وسلم القرآن، فانتقل القرآن من صدر النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدور الصحابة رضوان الله عليهم، بل كان النبي ﷺ من شدة حرصه على حفظ القرآن يتعجل التلاوة خلف أمين السماء، فنزل قول الله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: 16 - 19].

فُجِّعَ القرآن في صدر النبي صلى الله عليه وسلم، واتخذ النبي صلى الله عليه وسلم مجموعة من كتاب الوحي كزيد بن ثابت، وكأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود وغيرهم رضوان الله عليهم، فكان النبي إذا نزل عليه جبريل بالآية أمر كتاب الوحي فندسوها في اللخاف والعسب، واللخاف نوع من أنواع الحجارة الرقيقة التي كانت تنحت أو يكتب عليها، والعسب: جمع عسيب وهو جريد النخل كانوا يكتبون عليه أيضاً، فكان يأمر النبي ﷺ كتبة الوحي بكتابة الآيات كما يملئها عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وظل القرآن في هذه المرحلة في اللخاف والعسب أي: في جريد النخل ومكتوب على الحجارة وفي صدور الرجال إلى أن مات سيد الرجال صلى الله عليه وسلم.

المرحلة الثانية: فلقد كانت في عهد أبي بكر رضي الله عنه لما وقعت معركة اليمامة بين مسيلمة الكذاب وبين الصحابة، قتل في هذه المعركة عدد هائل من الصحابة رضوان الله عليهم الذين كانوا يحفظون القرآن في صدورهم، فجاء عمر رضي الله عنه إلى أبي بكر، وقال له: يا أبا بكر، يا

خليفة رسول الله اجمع القرآن في مصحف واحد.

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله، لا... فقال عمر رضي الله عنه: هذا والله خير... قال الصديق: فمزال عمر يراجعني، حتى شرح الله صدري بقول عمر: فأرسل إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه.

اسمع... فقال الصديق لزيد: يا زيد إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، فتتبع القرآن واجمعه، قال زيد: والله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرني به من جمع القرآن.

انظروا إلى أصحاب الهمم العالية الذين يقدرّون المسؤوليات الضخام الجسم قال: والله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرني به من جمع القرآن، قال: فتتبع القرآن فجمعه من اللخاف أي: من الحجارة الرقيقة ومن العسب، أي من جريد النخل وصدور الرجال وجمع القرآن في صحف ضخمة عديدة، وانتقلت هذه الصحف إلى بيت الصديق رضي الله عنه فلما توفي الصديق انتقلت الصحف إلى بيت عمر رضي الله عنه، فلما توفي عمر رضي الله عنه انتقلت الصحف إلى أم المؤمنين حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم.

المرحلة الثالثة: والكبيرة والخطيرة كانت في عهد عثمان رضي الله عنه، فروى البخارى أن حذيفة بن اليمان عاد إلى عثمان رضي الله عنه بعد غزوة أرمينيا في الشام مع أهل الشام وبعد غزوة أذربيجان مع أهل العراق، دخل حذيفة على عثمان فزعاً وهو يقول: يا أمير المؤمنين أدرك الأمة قبل أن يختلّفوا في كتاب ربهم كما اختلّف اليهود والنصارى.

قال عثمان: وما ذاك؟ رأى حذيفة أهل الشام يقرؤون القرآن بقراءة أبى ابن كعب رضي الله عنه، ورأى حذيفة أهل العراق يقرؤون القرآن بقراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فكان أهل الشام يسمعون قراءة من أهل العراق لم يسمعوها من قبل، وكان أهل العراق يسمعون قراءة من أهل الشام لم يسمعوها من قبل، فاختلّفوا اختلافاً شديداً حتى كفر بعضهم بعضاً، فجاء حذيفة فزعاً: أدرك الأمة قبل أن تختلّف في كتاب

ربها، كما اختلف اليهود والنصارى مع أن الله تعالى من رحمته وتيسيره على الخلق قد أنزل القرآن على سبعة أحرف كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف).

فلما سمع أهل الشام القراءة ما سمعوها من أبي بن كعب رضي الله عنه، وسمع أهل العراق قراءة ما سمعوها من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، اختلفوا، فأرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى حفصة أم المؤمنين أرسلني إلينا بالصحف، أي: التي جمعت في عهد الصديق رضي الله عنه لننسخها في مصحف واحد، فأرسلت حفصة المصحف إلى عثمان، فأرسل عثمان إلى كاتب النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت رضي الله عنه وإلى مجموعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمرهم أن ينسخوا الصحف في مصحف واحد، وقال لهم: إن اختلفتم في الكتابة مع زيد، فاكتبوا بلسان قريش، فإنه قد نزل بلسانها، أي: بالقراءة التي حفظها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من قريش.

ونسخوا مجموعة من هذا المصحف الواحد مجموعة كثيرة، وأرسل عثمان إلى كل مصر من الأمصار بمصحف واحد إمام، وأمر ببقية الصحف غير هذا المصحف الإمام أن تحرق.

وبذلك جمع عثمان رضي الله عنه الأمة كلها على مصحف واحد،

قَرَأَ بِـ كَـ
نبينا صلى الله عليه وسلم وهذا هو المصحف الذي هو بين أيدينا الآن، وهو يسمى بالمصحف الإمام، أي: الذي جمعه عثمان رضي الله عنه من الصحف كلها.

وهكذا حفظ الله تعالى القرآن الكريم، فلم تتغير منه آية، ولم تتبدل منه كلمة، ولم يحذف منه حرف، فما تولى الله تعالى حفظة لا يضيعه أحد، قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9].

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف ما هو الواجب علينا تجاه القرآن الكريم؟.

الواجب الأول: تلاوة القرآن الكريم:

فأعلى الذكر منزلة تلاوة القرآن الكريم، ولقد وردت آيات عديدة تحثنا على تلاوة القرآن، وتبين المنزلة العالية لمن حقق هذا الواجب.

فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ* لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} [فاطر: 29، 30].

وحثنا الرسول صلى الله عليه وسلم على تلاوة القرآن الكريم، وبين لنا المنزلة العالية لمن يداوم على قراءته، فروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة (الملائكة الكتبة) الكرام البررة (البررة جمع بار، وهو المطيع) والذي يقرأ القرآن وهو يتعتع فيه وهو شاق عليه، له أجران).

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مثل الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل الذي لا يقرأ القرآن مثل الثمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الخنظلة ليس لها ريح وطعمها مر).

وكلما ازداد الإنسان في القراءة ازدادت درجاته في الجنة، فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها).

بل بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن القرآن يشفع لصاحبه يوم القيامة، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه).

ولكن للأسف الشديد أهملنا قراءة القرآن إلى حد بعيد، نقرأ القرآن الكريم في المناسبات الحزينة، وزينا به صدور النساء، فأصابنا ما نحن فيه، وصدق الله تعالى إذ يقول: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان: 30].

إن الله تعالى لم ينزل القرآن ليقراً على الأموات في القبور، ولم ينزله الله تعالى ليوضع في العلب القطيفة الفضة الضخمة التي توضع في

مؤخرة السيارة، وفي غرف الصالون.

ولم ينزله الله تعالى ليوضع في البراويز الفضية والذهبية ويعلق على الجدران والحوائط، ولم ينزله الله تعالى ليحلى به النساء صدورهن في مصاحف صغيرة، ولم ينزله الله تعالى ليهديه الحكام والزعماء إلى بعضهم البعض، فترى الحاكم يستلم المصحف منحياً على كتاب الله تعالى ليقبله بخضوع جسدي كامل.

اقرأ معي قول الله تعالى وهو يبين لماذا أنزل القرآن، فقال: {طه: ١، 2} ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به، أو لتشقى الأمة من بعدك به، أو لتشقى بحدوده وأوامره ونواهيه وتكاليفه.

كلا، بل لقد أنزل الله تعالى على الرسول صلى الله عليه وسلم ليقيم به أمة ودولة، ويسعد به البشر في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} [الإسراء: 9].

الواجب الثاني: العمل به وتطبيق أحكامه:

إن الله تعالى أنزل كتابه بالحق والميزان، ليقوم الناس بالقسط، وليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وفرض على المسلمين ما فيه من أحكام.

فقال تعالى: {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوفُونَ} [المائدة: 49، 50].

إن إهمال التشريع الإلهي واعتناق القوانين الأرضية، عبث شائن، وجاهلية منكرة، قال تعالى: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا

تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ
إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ { [الأنعام: 114-116].

* * *

بر الوالدين

بر الوالدين

أسباب نعيم القبر

بر الوالدين

الحمد لله رب العالمين: نحمدك يا رب كما علمتنا أن نحمدك، وإن كنت في غنا عن حمدنا لك، لكنها منة مننت بها علينا أن رضيت لنا أن نحمدك.

إلهي: هل في الوجود رب سواك فيدعي؟!، أم هل في الملا إله غيرك فيرجى؟!.

إلهي: لا رب لنا سواك فندعوه، ولا إله لنا غيرك فنرجوه.

إلهي: هذه ذنوبي في الورى كثرت ::: وليس لي عمل في الحشر ينجيني وقد أتيتك بالتوحيد يصحبه حب ::: المصطفى وهذا القدر يكفيني يا من لطف بحالي قبل تكويني ::: لا تجعل النار يوم الحشر تكويني وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: بين لنا أن بر الوالدين ليس من خصوصيات الأمة المحمدية فدسب، بل إنه أمر إلهي قديم، فرضه الله تعالى على الأمم قبلنا، وأخذ عليهم العهد والميثاق بذلك، فقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ} [البقرة: ٨٣].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم : بين لنا أن أحق الناس بالبر والإحسان في الدنيا: الوالدان، فروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أُمُّكَ-)، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ثُمَّ أُمُّكَ-)، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ثُمَّ أُمُّكَ-)، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ثُمَّ أَبُوك-).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابه أجمعين.

أما بعد : إخوة الإسلام

إننا اليوم على موعد مع سبب من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: بر الوالدين، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا:

الحقيقة الأولى: إن الله تعالى ربط بين أمرين لا غنى لأحدهما عن الآخر، فربط بين الأمر بعبادته والأمر ببر الوالدين، وبين ذلك في القرآن الكريم في مواضع متعددة، وذلك على النحو التالي:

1 - قال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} [النساء: ٣٦].

2 - وقال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقُ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الأنعام: ١٥١].

3 - وقال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبِّيَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا} [الإسراء: ٢٣ - ٢٥].

ولقائل يقول: لماذا ربط الله تعالى بين توحيده والإحسان إلى الوالدين؟

أقول: ربط الله تعالى بين توحيده والإحسان إلى الوالدين لسببين:

السبب الأول: لأن الذنشة الأولى من عند الله تعالى، والذنشة الثانية (التربية) من جهة الوالدين.

السبب الثاني: لأن عبادة الله تعالى لا تكفي مع العقوق، ولا يغني بر الوالدين مع الشرك بالله تعالى؛ لأن من طبيعة العبادة الامتثال والطاعة، فلا تتم العبادة إلا بهما، (توحيد الله تعالى، وبر الوالدين).

وقد أكد الشرع الحنيف هذا الربط بعدة أمور:

أولاً: تكرار الأمر بالإحسان إلى الوالدين في القرآن الكريم: فقال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ} * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [لقمان: ١٤، ١٥].

وقال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [العنكبوت: ٨].

وقال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [الأحقاف: ١٥].

ثانياً: جعل الرسول صلى الله عليه وسلم بر الوالدين مقدماً على الجهاد في سبيل الله تعالى: فروى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْجِهَادِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَخِيَّ وَالِدَاكَ؟)، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَفِيهَا فَجَاهِدْ).

وروى أحمد والبيهقي والذسائي أن جاهمة جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُو، وَقَدْ جِئْتُكَ أَسْتَشِيرُكَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟)، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَالْزَمِهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلِهَا).

ثالثاً: جعل الرسول صلى الله عليه وسلم رضا الرب في رضا الوالدين: فروى الطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (رضا

الرب في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما.

فالواجب على كل مسلم أن ينتبه لهذا الأمر، ويعمل جاهداً لتحقيق هذا الواجب، حتى ينال رضا الله تعالى، ورضا الرسول صلى الله عليه وسلم. الحقيقة الثانية: إن بر الوالدين كان صفة أصيلة من صفات الأنبياء والمرسلين، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة، وذكر لنا نماذج متعددة لبر الأنبياء والرسل إلى الوالدين، وذلك على النحو التالي:

أولاً: سيدنا إبراهيم عليه السلام:

فلقد صور لنا القرآن أن سيدنا إبراهيم عليه السلام بلغ مبلغاً عظيماً لا مثيل له في البر بأبيه، فكان يدعو أباه إلى الجنة، وأبوه يدعوهُ إلى النار، يدعو أباه إلى توحيد الله تعالى، وأبوه يدعوهُ إلى الشرك بالله تعالى، سيدنا إبراهيم عليه السلام يدعو أباه بحلم، لكن أباه يعترضه بغضب وشدة، وكان يكرر دعوته لأبيه بغاية التلطف واللين، مستعملاً في خطابه معه يا أبت؛ ليشعره بأنه ابنه، والابن البار يكون حريصاً على كل ما يذفع أباه، فقال تعالى: {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا} [مريم: ٤١ - ٤٣].

إن سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يصف أباه بالجهل المفرط، ولم يصف نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم، وشيئاً منه ليس معك، فاقبل قلبي ونصحي، ثم يقول له متوسلاً إليه، ومستطعفاً إياه: {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا} [مريم: ٤٤، ٤٥].

وبالرغم من هذا اللين، وذاك التلطف في الخطاب، والتزام أقصى حدود الأدب، إلا أنه أجابه كما قال المولى تعالى: {قَالَ أَرَأَيْتَ أَنتَ عَنْ أَهْلِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا} [مريم: ٤٦].

فرد سيدنا إبراهيم عليه السلام على أبيه بكل لطف وحنان، فقال تعالى: {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزُ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا} [مريم: ٤٧، ٤٨].

ثانياً: سيدنا إسماعيل عليه السلام:

فهذا النبي عليه السلام ضرب أروع الأمثلة في بر الوالدين، وذلك لما رأى سيدنا إبراهيم عليه السلام تلك الرؤيا الربانية، التي تأمره أن يذبح ولده إسماعيل عليه السلام، وكان قد بلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، وهي سن خطيرة في مرحلة الشباب، ولقد صور لنا القرآن الكريم ذلك، فقال تعالى: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَحِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِسْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ} [الصافات: ١٠١ - ١٠٧].

ثالثاً: سيدنا يحيى عليه السلام:

فلقد ذكر لنا القرآن الكريم أنه كان برّاً بوالديه، فقال تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً * وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً * وَبَرّاً بِوَالَدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً} [مريم: ١٢ - ١٥].

رابعاً: سيدنا عيسى عليه السلام:

فلقد ذكر لنا القرآن الكريم أنه كان برّاً بأمه، فقال تعالى: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّاراً شَقِيّاً * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً} [مريم: ٣٠ - ٣٣].

فالواجب على كل مسلم أن يقتدي بهؤلاء الأنبياء، وأن يكون برّاً بوالديه، كما كانوا، فهم قدوة لنا، واتباعهم واجب علينا جميعاً، فقال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٩٠].

وعلى المسلم العاقل أن يبتعد عن العقوق؛ فلقد دعا الرسول صلى الله عليه وسلم بالعدل على العاق لوالديه، فروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (رَغِمَ أَنْفٌ "أَي لَصِقَهُ بِالْتَرَابِ، وَالْمَقْصُودُ الدَّعَاءُ عَلَيْهِ بِالذَّلِّ" ثُمَّ رَغِمَ

أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ- قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا، فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ-.

فمن أدرك أبويه أو أحدهما حياً، ولم يكن سبباً في دخوله الجنة، استحق نار جهنم، فروى الحاكم عن كعب بن عُجرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (احضروا المنبر- فحضرنا، فلما ارتقى درجة قال: (آمين- فلما ارتقى الدرجة الثانية، قال: (آمين- فلما ارتقى الدرجة الثالثة، قال: (آمين-.

فلما نزل، قلنا: يا رسول الله لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه، قال صلى الله عليه وسلم: (إن جبريل عليه السلام عَرَضَ لي فقال: بُعْدًا لِمَنْ أَدْرَكَ رمضان فلم يغفر له، قلت: آمين، فلما رقيت الثانية، قال: بُعْدًا لِمَنْ ذُكِرَتْ عنده فلم يُصَلِّ عليك، قلت: آمين، فلما رقيت الثالثة، قال: بُعْدًا لِمَنْ أَدْرَكَ أبواه الكبر، أو أحدهما، فلم يُدْخِلْهُ الجنة، قلت: آمين-.

الحقيقة الثالثة: إن الإنسان منا مهما قدم لوالديه، فهو قليل في جانب ما قدماه، فمهما قدم الإنسان من معروف، ومهما فعل من خير، فلن يستطيع أن يؤدي ولا جزء يسير مما قدمه الوالدان طوال مراحل عمر الإنسان المختلفة.

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى مسلم وغيره أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا يجزي ولدٌ والدَه، إلا أن يجده مملوكاً، فيشتريه فيعتقه-.

وروى البخاري في الأدب المفرد وأبو داود أن ابن عمر رضي الله عنه شهد رجلاً يمانياً يطوف بالبيت، حمل أمه وراء ظهره، وهو يقول:

إني لها بعيرُها المذلل :::: إن أذعرتُ ركبُها لم أذعر
الله ربي ذو الجلال الأكبر :::: حملتها أكثر مما حملت

ثم قال: يا بن عمر أتراني جازيئُها؟ قال ابن عمر رضي الله عنه: لا، ولا بزفرة واحدة، وفي رواية: ولا بسهر ليلة من لياليها عليك، ولكن قد أحسنت، والله تعالى يثيبك على القليل كثيراً.

وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لي أمأ، بلغ منها

الكبر أنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري لها مطية، فهل أديت حقها؟ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا؛ لأنها كانت تصنع بك ذاك، وهي تتمنى بقاءك، وأنت تصنعه، وتتمنى فراقها.

فالواجب على كل مسلم أن يعي تماماً أنه مهما قدم من بر وإحسان إلى الوالدين، فهو قليل بجانب ما أخذه منهما، فمن نور الوالدين استمد الولد شعاع الحياة، ومن أفقهما سطع فجر وجوده، وتحت مظلتهم الوارفة الحنون نما وترعرع، وشب عن الطوق وأينع.

إخوة الإسلام:

لقد وضع الشرع الحنيف مظاهر متعددة لبر الوالدين، وجعل من هذه المظاهر ما يكون في حياتهما، ومظاهر أخرى تكون بعد مماتهما، فتعالوا معي لنتعرف على مظاهر بر الوالدين في حياتهما.

أولاً: الشكر للوالدين:

لقد فرض الله تعالى الشكر على الأبناء للوالدين، ومما يزيد من أهمية الشكر للوالدين ووجوبه، أن الله ﷻ قرنه بشكره تعالى، فقال ﷻ: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان: ١٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهم: ثلاث آيات نزلت مقروناً بثلاث، ولا يقبل الله تعالى واحدة منهن بغير قرينتها:

أولها: قول الله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّائِعِينَ} [البقرة: ٤٣]، فمن صلى ولم يؤت الزكاة، لم تقبل صلاته.

ثانيها: قول الله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [آل عمران: ١٣٢] فمن أطاع الله تعالى ولم يطع الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يقبل منه.

ثالثها: قول الله تعالى: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان: ١٤]، فمن شكر الله تعالى ولم يشكر والديه، لم يقبل منه.

وهذا يعني: أن الله تعالى لا يقبل الشكر له، إلا إذا كان مقروناً بشكر الوالدين، فإذا شكر الإنسان الله تعالى، ولم يشكر والديه، فلن يقبل الله

تعالى منه الشكر، وإن العبد إذا شكر والديه، ولم يشكر الله تعالى، فيكون شكره غير مقبول أيضاً.

وروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يَشْكُرُ اللَّهَ، مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ).

وأولى الناس بالشكر في الدنيا: الوالدان، وقد قال بعض التابعين: شكر الله تعالى أن يصلي في كل يوم خمس مرات، وكذلك شكر الوالدين أن يدعوا لهما في كل يوم خمس مرات.

وعلى الرغم من وجوب الشكر للوالدين، إلا أننا نرى كثيراً من الأبناء لا يقومون بهذا الواجب، بل والأعجب من هذا كله، أن من الأبناء اليوم من ينكر ما فعله أبوه له....

ثانياً: خفض الجناح:

وخفض الجناح هو: التواضع للوالدين، ولين القول لهما، والتأدب عند مخاطبتهما، وعدم رفع الصوت بحضرتهما، ولقد أشار المولى تعالى إلى وجوب خفض الجناح للوالدين، فقال: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} [الإسراء: 24].

وروى البخاري في الأدب أن ابن عمر رضي الله عنه قال لرجل: أتفرق من النار، وتحب أن تدخل الجنة؟ قال الرجل: إي والله، قال ابن عمر رضي الله عنه: أحي والداك؟ قال الرجل: عندي أمي، قال ابن عمر رضي الله عنه: فوالله لو ألفت لها الكلام، وأطعمتها الطعام، لتدخلن الجنة ما اجتنبت الكبائر.

ولقد كان السلف الصالح لا يرفعون أصواتهم بحضرة والديهم، فقد كان محمد بن سيرين لا يكلم أمه، إلا كما يكلم الأمير الذي لا ينتصف منه.

بل لقد بلغ البر بأحد سلفنا الصالح أنه كان لا يستفهم أمه ولا أباه كلاماً، حتى يخرج من عندهما.

ثالثاً: إلقاء السلام عليهما:

فالواجب على كل مسلم إذا دخل على والديه أن يلقي السلام عليهما،

فإن ذلك من البر بهما، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذا الواجب، فقال: {فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [النور: ٦١].

وروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أيها الناس: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام).

وأولى الناس بإلقاء السلام الوالدان، ويُفضل أن يقرن ذلك بتقبيل يديهما، فروى البخاري في الأدب المفرد وأحمد عن أبي مرة: أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يستخلفه مروان، وكان يكون بذى الحليفة، فكانت أمه في بيت، وهو في آخر، قال: فإذا أراد أن يخرج وقف على بابها، فقال: السلام عليك يا أمتاه ورحمة الله وبركاته، فتقول: وعليك يا بني ورحمة الله وبركاته، فيقول: رحمك الله كما ربيتنى صغيراً، فتقول: رحمك الله كما بررتني كبيراً، ثم إذا أراد أن يدخل صنع مثله.

رابعاً: الإذن عند السفر

فالواجب على المسلم إذا أراد أن يسافر إلى أي مكان، عليه أن يستأذن والديه في السفر، فإن ذلك من الواجب عليه، حتى ولو كان السفر إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذا الحق، فروى أبو داود عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْيَمَنِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (هَلْ لَكَ أَحَدٌ بِالْيَمَنِ؟) قَالَ: أَبَوَايَ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَذِنَا لَكَ، لَا، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ارْجِعْ إِلَيْهِمَا، فَاسْتَأْذِنْهُمَا، فَإِنْ أَذِنَا لَكَ فَجَاهِدْ، وَإِلَّا فَبِرْهُمَا).

قال الجصاص في أحكام القرآن: قال أصحابنا: لا يجوز أن يجاهد إلا بإذن الأبوين.

وقال ابن قدامة: وذهب بعض الفقهاء إلى أن إذن الوالدين شرط لصحة الجهاد، إذا كانا مسلمين، فإن كانا غير مسلمين، فلا إذن لهما في الجهاد.

خامساً: الدعاء لهما:

فالواجب على الابن أن يدعو الله تعالى لوالديه، بالرحمة والمغفرة، فإن هذا الأمر من البر، ولقد أشار المولى تعالى إلى هذا الواجب، فقال: {وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: 24].

وفي هذه الآية ربط جميل بين ضعفين: ضعف الطفولة، وضعف الشيخوخة، حتى يرق القلب ويلين، فيسارع بالدعاء ويرفعه إلى الله تعالى، ملتمساً الرحمة والمغفرة.

ولا يظن أحد أن الدعاء للوالدين يكون بعد موتهما، أو موت أحدهما، فالدعاء للوالدين يكون في حياتهما وبعد موتهما.

وهذا ما فعله سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه، فقد دعا له على الرغم أنه على الشرك، فقال تعالى: {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعِزَّنَا لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا} [مريم: ٤٧، ٤٨].

سادساً: عدم سبهما:

فالواجب على الابن ألا يسب والديه، ولا يكون سبباً في سبهما، فإن هذا من البر لهما، أما لو سبهما، أو كان سبباً في سبهما، فقد ارتكب كبيرة من الكبائر، فروى مسلم وغيره أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَنْ الْكَبَائِرُ شَتَمَ الرَّجُلَ وَالِدَيْهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ يَشْتِمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ).

سابعاً: عدم التأفف والتضرع من أوامرهما:

فإذا أمرك والدك، أو أحدهما بأمر هو في استطاعتك، فالواجب عليك الالتزام والطاعة لأوامرهما، فالتأفف من أوامر الوالدين منهي عنه، فقال تعالى: {فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا} [الإسراء: 23].

بل الواجب على الابن أن لا يتكلم إلا بالكلام الطيب، انطلاقاً من قول الله تعالى: {وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} [الإسراء: 23].

فكم من الأبناء إذا أمره والداه بأي أمر، أو طلبا منه أي طلب، تجده

يَتَأَفَّفُ وَيَتَضَجَّرُ، وَيُصَدِّرُ كَلَامَهُ بِكَلِمَةِ أَفْ، وَيَتَذَمَّرُ مِنْ طَلَبَاتِ أَبِيهِ،
فهذا من العقوق الذي قد نهانا الشرع عنه.

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على صور البر بعد وفاة الوالدين.

أولاً: الدعاء لهما،

روى مسلم والبيهقي واللفظ له، أن الرسول صلى الله عليه وسلم
قال: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ أَشْيَاءَ: مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ
عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ).

فروى أحمد وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ
الرَّجُلَ لَتَرْفُعَ دَرَجَتَهُ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَنَّى هَذَا؟ فَيَقَالُ: بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدِكَ لَكَ).

ثانياً: الصدقة عنهما،

فيجوز للابن أن يتصدق عن والديه بعد موتهما، فإن ذلك جائز
شرعاً، روى البخاري ومسلم عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: أَنَّ
رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمَّيْ أَفْلَدْتُ
نَفْسَهَا، وَلَمْ تُوصِ، وَأَظْنُّهَا لَوْ تَكَلَّمْتُ، تَصَدَّقْتُ، أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ
عَنْهَا؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (نَعَمْ).

وروى أبو داود عن سعد بن عبادَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ
اللَّهِ إِنَّ أُمَّ سَعْدٍ مَاتَتْ، فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
:(الْمَاءُ)، قَالَ: فَحَقَّرَ بِنْرًا، وَقَالَ: هَذِهِ لَأُمِّ سَعْدٍ.

وروى أحمد والذسائي عن سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رضي الله عنه: أَنَّ أُمَّهُ
مَاتَتْ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ أُمَّيْ مَاتَتْ، أَفَأَتَصَدَّقُ عَنْهَا، قَالَ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (نَعَمْ)، قَالَ رضي الله عنه: فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (سَقْيُ الْمَاءِ)، قَالَ رضي الله عنه: فَتِلْكَ سِقَايَةُ آلِ سَعْدٍ بِالْمَدِينَةِ.

ثالثاً: قضاء دينهما،

فإذا مات الوالدان أو أحدهما، وعليهما أو على أحدهما دين، فالواجب
على الابن أن يسد هذا الدين، فقضاء دين الوالدين بعد موتهما من البر

بهما، روى أحمد والترمذي وابن ماجه والبيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تَزَالُ نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةً بِدَيْنِهِ، حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ).

وروى ابن عساكر في التاريخ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من قضي دين والديه بعد وفاتها، وأوفى نذرهما، ولم يستتب لهما، كتب باراً، وإن كان عاقلاً لهما).

رابعاً: الحج عنهما:

فإذا مات الوالدان، ولم يتمكن من الحج لأي سبب ما، فيجوز للابن أن يحج عنهما، بشرط أن يكون قد حج عن نفسه أولاً، روى البخاري ومسلم أن رجلاً قال: يا ذبي الله، أبي مات ولم يحج، أفأحج عنه؟ قال صلى الله عليه وسلم: (أرأيت لو كان على أبيك دين، أكنيت قاضيه؟ - قال: نعم، قال صلى الله عليه وسلم: (فدين الله أحق).

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ، فَمَاتَتْ قَبْلَ أَنْ تَحُجَّ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (نَعَمْ، فَحُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكَ دَيْنٌ، أَكُنْتُ قَاضِيَتَهُ؟ - قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اقْضُوا اللَّهَ، فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ).

خامساً: الصوم عنهما:

فلو مات أحد الوالدين وعليه صيام، ولم يتمكن من قضائه قبل موته لعذر المرض، فيجوز للابن أن يصوم عنه، روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمٌ شَهْرٍ، أَفَأَقْضِيهِ عَنْهَا؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكَ دَيْنٌ، أَكُنْتُ قَاضِيَتَهُ عَنْهَا؟ - قَالَ: نَعَمْ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فدين الله أحق أن يقضى).

سادساً: زيارة قبرهما:

فمن البر بالوالدين بعد موتهما، أن يزور الابن قبرهما، فروى مسلم وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (اسْتَأذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَ أُمِّي، فَأَذِنَ لِي، وَاسْتَأذَنْتُهُ فِي أَنْ أَدْعُو

لَهَا، فَأَبَى أَنْ يَأْذَنَ لِي.-

سابعاً: أن يصل المسلم أقاربهما وأصدقائهما بعد موتهما:

فمن البر أن يصل الإنسان ما كان يصله أبواه، فروى مسلم وأبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ أَبْرَّ الْبَرِّ، صَلََةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ.- وروى البخاري في الأدب المفرد والطبراني عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهم، أَنَّهُ مَرَّ بِأَعْرَابِيٍّ فِي سَفَرٍ، وَكَانَ أَبُو الْأَعْرَابِيِّ صَدِيقًا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، فَقَالَ لِلْأَعْرَابِيِّ: أَلَسَدْتَ فُلَانٌ بِنَ فُلَانٍ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَأَمَرَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه بِحِمَارٍ لَهُ كَانَ يَعْتَقِبُ، وَنَزَعَ عِمَامَةً كَانَتْ لَهُ عَلَى رَأْسِهِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ: شُدَّ بِهَا رَأْسُكَ، فَقَالَ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَهُ: إِنَّمَا كَانَ يَكْفِي هَذَا دِرْهَمًا، قَالَ ابْنُ عُمَرَ صلى الله عليه وسلم: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (احْفَظْ وَدَّ أَيْبِكَ، وَلَا تَقْطَعْهُ، فَيُطْفِئُ اللَّهُ نُورَكَ.-

وروى أبو داود عن أَبِي أُسَيْدٍ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلْ بَقِيَ مِنْ بَرِّ أَبِي شَيْءٍ أَبْرُهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ قَالَ صلى الله عليه وسلم: (نَعَمْ الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَادُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا.-

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على النتائج المترتبة على بر الوالدين، فهناك نتائج في الدنيا، ونتائج في الآخرة، أما النتائج التي في الدنيا، فهي على النحو التالي:

أولاً: رضا الله تعالى:

ولا شك أن هذه الثمرة الطيبة يتمناها كل مؤمن موحد بالله تعالى، بل هي غايته العظمى، و هل بعد رضا الله تعالى على عبده شيء؟ روى الترمذي وابن حبان والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ.-

ثانياً: غفران الذنوب:

روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه قال: أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله: إني أصبتُ ذنباً عظيماً، فهل لي من توبة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (هل لك من أم؟)، قال: لا، قال صلى الله عليه وسلم: (فهل لك من خالة؟)، قال: نعم، قال صلى الله عليه وسلم: (فبرّها-).

ثالثاً: استجابة الدعاء:

روى مسلم كان عمرُ بنُ الخطّابِ رضي الله عنه إذا أتته عليه أمدادُ أهلِ اليمنِ سألهم: أفيكم أويسُ بنُ عامرٍ؟ حتّى أتى على أويسٍ، فقال رضي الله عنه: أنت أويسُ بنُ عامرٍ؟ قال: نعم، قال: من مرادٍ، ثم من قرنٍ، قال: نعم، قال رضي الله عنه: فكان بك برصٌ فبرأت منه، إلا موضعَ درهمٍ، قال: نعم، قال رضي الله عنه: لك والدّة؟ قال: نعم، قال رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يأتي عليكم أويسُ بنُ عامرٍ، مع أمدادِ أهلِ اليمنِ، من مرادٍ، ثم من قرنٍ، كان به برصٌ، فبرأ منه، إلا موضعَ درهمٍ، له والدّة، هو بها برٌّ، لو أقسم على الله لأبرّه، فإن استطعت أن يستغفرَ لك فافعلْ، فاستغفر لي، فاستغفر له).

رابعاً: السعة في العيش والبركة في العمر:

روى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من سره أن يمد له في عمره، ويزاد له في رزقه، فليبر والديه، وليصل رحمه-). وروى الطبراني والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من بر والديه، طوبى له، زاد الله ﷻ في عمره-).

خامساً: تضييع الكرب:

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (انطلق ثلاثة رهط من كان قبلكم، حتى أوامهم المبيت إلى غار، فدخلوه، فأنحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه والله لا ينجيكم من هذه الصخرة، إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت لا أغبق

قبلهما أهلاً ولا مالاً، فناء بي طالب السحر يوماً، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فجئتهما به، فوجدتهما نائمين، فخرجت أن أوقظهما، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فقامت والقده على يدي أنتظر استيقاظهما، حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت انفراجاً لا يستطيعون الخروج منها، وقال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم، وكانت أحب الناس إلي، فأردتها عن نفسها، فامتنعت مني، حتى أملت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار، على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها، قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فخرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها، وهي أحب النساء إلي، وتركت الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها، ثم قال الثالث: اللهم استأجرت أجراً، فأعطيتهم أجورهم، غير رجل واحد منهم، ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال وارتعجت، فجاءني بعد حين، فقال لي: يا عبد الله أد لي أجري، فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذ ذلك كله، فاستافه فلم يترك منه شيئاً، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، فخرجوا من الغار يمشون.

سادساً: ثواب الحاج والمُعتمر والمجاهد:

فروى أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط عن أَدَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قال: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي أَشْتَهِي الْجِهَادَ، وَإِنِّي لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (هَلْ بَقِيَ أَحَدٌ مِنْ وَلَدَيْكَ؟)، قَالَ: أُمِّي، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَاتَّقِ اللَّهَ فِيهَا، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ، فَأَنْتَ حَاجٌّ وَمُعْتَمِرٌ، وَمُجَاهِدٌ، فَإِذَا دَعَاكَ أُمُّكَ، فَاتَّقِ اللَّهَ وَبِرَّهَا).

سابعاً: بر الوالدين أحب الأعمال إلى الله تعالى:

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الصَّلَاةُ لَوَقْتِهَا)، قَالَ ابن مسعود رضي الله عنه: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بِرُّ الْوَالِدَيْنِ -).

أما النتائج التي تكون في الآخرة، فهي على النحو التالي:

أولاً: الوصول إلى أعلى درجات القرب من الله تعالى :

روى أحمد عن عمرو بن ميمون الأزدي لما تعجل موسى عليه السلام إلى ربه تعالى رأى في ظل العرش رجلاً، فغبطه بمكانه، وقال: إن هذا لكريم على ربه، فسأل ربه أن يخبره باسمه، فلم يخبره باسمه، قال: (أحدثك من عمله ثلاث: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولا يعق والديه، ولا يمشى بالنميمة -).

ثانياً: دخول الجنة:

روى ابن ماجه والنسائي والحاكم عن مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ أَنَّ جَاهِمَةَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَدْتُ الْغَزْوَ، وَجِئْتُكَ أَسْتَشِيرُكَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الرَّزْمَهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلِهَا -).

وروى الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (الْوَالِدُ أَوْسَطُ بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِنْ شَتَّ فَحَافِظٌ عَلَى الْبَابِ، أَوْ ضَيَّعَ -).

وروى أحمد عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نِمْتُ، فَرَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ، فَسَمِعْتُ صَوْتَ قَارِئٍ يَقْرَأُ، فَقُلْتُ مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ -، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ذَاكَ الْبَرُّ، كَذَاكَ الْبَرُّ -، وَكَانَ أَكْبَرُ النَّاسِ بِأَمِهِ).

* * *

صلة الرحم

صلة الرحم

أسباب نعيم القبر

صلة الرحم

الحمد لله رب العالمين: هو الأول فلا شيء قبله، وهو الآخر فلا شيء بعده، وهو الظاهر فلا شيء فوقه، وهو الباطن فلا شيء دونه، وصدق الله تعالى إذ يقول: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد: 3].

سبحانه: يصل من يصل رحمه، ويقطع من يقطع رحمه، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم، قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال المولى تعالى: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأن أقطع من قطعك، قالت: بلى، قال المولى تعالى: فذاك لك-).

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أمرنا بصلة الرحم، فقال تعالى: {وَأَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا} [الإسراء: 26].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بين لنا أن صلة الرحم تكفر الذنوب، فروى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه قال: أتى الرسول صلى الله عليه وسلم رجلاً فقال: إني أذنبت ذنباً عظيماً، فهل لي من توبة؟

فقال صلى الله عليه وسلم: (هل لك من أم؟- قال الرجل: لا، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (فهل لك من خالة؟- قال الرجل نعم، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (فبرها-).

وفي نفس الوقت بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى لا يقبل عمل قاطع رحم، فروى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن أعمال بني آدم تعرض كل خيس ليلة الجمعة، فلا يقبل عمل قاطع رحم) فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: إخوة الإسلام:

إننا اليوم على موعد مع سبب من أسباب نعيم القبر، ألا وهو: صلة الرحم، انطلاقاً من قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي: (أيها الناس: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام).

وروى البخاري ومسلم أن رجلاً سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن عمل يدخله الجنة ويباعده عن النار، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم).

فأعبروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك وهو القادر عليه.

أهبتى في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق هي الأساس في موضوعنا اليوم:

الحقيقة الأولى: إن الإنسان في هذه الحياة لا يستطيع أن يعيش وحده، ولا يمكنه أن يتغلب بمفرده على مشقات الحياة وصعابها، مهما كان وضعه، ومهما كان غناه.

فالإنسان منا في حاجة دائمة إلى معين يعينه، وناصر ينصره، وإنسان يأخذ بيده كلما كثرت مشاكل الحياة، وازدادت صعوبتها.

فإذا نظرنا إلى الواقع الذي نعيش فيه نجد من المستحيل أن يعيش شخص في معزل عن الكون، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يستغني عن غيره.

فالإنسان مهما بلغ فلن يستطيع أن يعيش وحده، وما سمي الإنسان إنساناً إلا لأنه يأنس بغيره وغيره يأنس به، وتلك هي الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ}

دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخَذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف: 32] وفي هذا دليل على عدم استغناء الإنسان عن غيره مهما بلغ.

الحقيقة الثانية: إن أكثر الناس بك صلة في الحياة هم أقاربك ورحمك، الذين ربط الله تعالى بينك وبينهم برباط وثيق وبرباط متين.

فأقاربك هم أحق الناس بإسداء الخير، وأولاهم بالمعروف والإحسان، فقريبك أيها المسلم جزء منك وأنت جزء منه.

قريبك إذا أحسنت العلاقة بينك وبينه كما أمر الله تعالى وكما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم يكون أول شخص يعينك إذا استعنت، ويغيثك إذا استغثت، ويلبي نداءك وقت الشدة إذا ناديت، وينهض لإزالة ما بك من أوجاع وآلام إذا توجعت أو تألمت، قريبك يدمي بيدتك في الغيبة، ويثور ويغضب إذا مست كرامتك و شرفك بسوء، قريبك يحزن لحزنك ويفرح لفرحك، وصدق من قال:

فهو الصديق وإن نبا بك منزل :: وأخوك وإن ضاقت بك الأرجاء
يرعى الجميل ولا يضمن لحادث :: عند الشدائد والرخاء سواء

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنفال: 75]
وقال تعالى: {وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} [الأحزاب: 6].

الحقيقة الثالثة: إن صلة الرحم واجبة على كل مسلم، وقطيعتها كبيرة من كبائر الذنوب، وقد نزل الاتفاق على وجوب صلة الرحم وتحريم القطيعة القرطبي والقاضي عياض وغيرهما.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: 90].

وقال تعالى: {فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الروم: 38].

بل كانت صلة الأرحام مفروضةً على بني إسرائيل، فقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ} [البقرة: 83].

وإذا نظرنا إلى الشرع الحنيف نجد أنه اهتم بصلة الأرحام اهتماماً بالغاً، فقدم صلة الأرحام على اليتامى والمساكين وابن السبيل في الذكر والرعاية والاهتمام، فقال تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: 177].

وقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [البقرة: 125].

وقال تعالى: {وَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا} [الإسراء: 26].

الحقيقة الرابعة: لا يوجد عذر البتة لأي إنسان في مقاطعة أهله، ويقول: إنهم يسيئون إلي ويتمنون لي الشر، ويدبرون لي المكائد.

فالإنسان منا يستطيع أن يضم أقاربه إلى صفوفه بإحسانه وكرم أخلاقه، فإذا كان أقاربك أشراراً فكن أنت خيراً منهم، وإذا كانوا مسيئين فكن أنت محسناً، وتودد إليهم وإن تباعدوا، واملهم باللطف وإن جهلوا، وصل حبل المودة والسلام وإن قطعوه، فإن فعلت ذلك لانت قلوبهم وظهرت محبتهم، وزال بغضهم.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا

السَّيِّئَةُ أَذْفَعُ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ {
[فصلت: 33، 34].

ولقد أشارت السنة النبوية إلى ذلك، فروى مسلم أن رجلاً جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسؤنوا إلي، وأحلم عليهم ويجهلون علي، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن كان كما تقول، فكأنما تسفهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك).

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة والقُدوة الطيبة، فقد كانت معاملته لأقرب به خير قُدوة، فقد آذاه قومه، وأرادوا قتله، وبيدوا أمرهم، حتى اضطروه إلى الخروج من وطنه ومسقط رأسه، فلما جاء نصرُ الله تعالى والفتحُ المبين، دخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة ظافراً منتصراً على أعدائه الذين أخرجوه من داره.

فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم في رفق وحلم: (ما تظنون أي فاعل بكم؟ - قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: (أذهبوا فأنتم الطلقاء- وعفا عنهم).

إخوة الإسلام:

لقد وضع الشرع الحنيف ضوابط لصلة الرحم، فتعالوا معي لتتعرف على هذه الضوابط.

أولاً: أن يعلم المسلم أن صلة الرحم من أخص صفات المؤمنين: فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليصل رحمه).

بل إن صلة الأرحام كانت من أخص صفات سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، فروى البخاري ومسلم أن السيدة خديجة رضي الله عنها قالت للرسول الله صلى الله عليه وسلم مطمئنة له، ومهدئة من روعه: (كلا، لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم).

ثانياً: الإخلاص لله تعالى: فعلى الإنسان منا عند صلته لأرحامه عليه أن يستصحب الإخلاص لله تعالى في كل عمل يقوم به؛ لأن الله تعالى لا

يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم.

قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ} [البينة: 5].

وقال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: 162، 163].

أما لو انعدم الإخلاص في صلة الأرحام فتكون غير مقبولة، فيقول تعالى في الحديث القدسي الذي رواه مسلم: (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشَرَكُهُ).

ثالثاً: العفو والمسامحة: انطلاقاً من قول الله تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: 34].

وقال تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: 199].

ولنا في سيدنا يوسف عليه السلام الأسوة والقوة الطيبة، فقد حسده إخوته وأجمعوا على أن يلقوه في غيابات الحب، فتم لهم ما أرادوا، وبيع سيدنا يوسف عليه السلام في السوق كما يباع الرقيق، ولقي من المحن والشدائد ما لم يتحملة إلا عباد الله المخلصين.

ثم بعد ذلك دارت الأيام دورتها، وأكرمه الله تعالى أشد الكرم، وصارت خزائن الأرض ببيده، والناس في قحط وجوع، فذهب إليه إخوته الذين انتمروا عليه، فأكرمهم وقال لهم كما قال المولى تعالى: {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} * قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَتُنتَكُ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتِّقَ وَيَضَرُّ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: 88 - 92].

رابعاً: أن تستشعر أن أقاربك وأرحامك أولى الناس بك وأحقهم بعطفك

وخيرك: قال تعالى: {وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنفال: 75].

وروى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي القرابة ثنتان، صلة وصدقة-).

خامساً: أن تكون قدوة حسنة: وذلك في جميع أعمالك وتصرفاتك وأخلاقياتك مع جميع أقاربك وغيرهم، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة، ففي صلح الحديبية عندما رفضت قريش دخول الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين رضوان الله عليهم مكة، وتم الصلح على أن يعودوا هذا العام ويأتون العام القادم للعمرة، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه رضوان الله عليهم أن يتحللوا، فرفضوا، فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم ودخل خيمته، وكانت أم سلمة (رضي الله عنها) بها، فسألته عن سبب غضبه، فدكى لها، فقالت أرى أن تخرج بنفسك وتتحلل أنت أولاً، فإذا رأوك قد تحللت تحللوا، وبالفعل خرج الرسول صلى الله عليه وسلم وتحلل، فلما رأى الصحابة رضوان الله عليهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تحلل، تحللوا جميعاً.

فلا يليق بمسلم ألا يكون قدوة لأقاربه، فقال تعالى: {اتَّامُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: 44]. ويقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: 3، 4].

سادساً: صلة الرحم وإن كانوا لا يصلون: فبعض الناس لا يصل أقاربه إلا إذا وصلوه، وهذه ليست بصلة في الحقيقة، بل هذه تعد من باب المكافأة، فالواصل ليس بالمكافيء، روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ليس الواصل بالمكافيء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها-).

سابعاً: الالتزام بالأسلوب الحسن: وذلك يكون بالكلام الطيب، والابتسامة، والبشاشة عند لقاءهم، والدعاء لهم، فالكلمة الطيبة صدقة،

وتبسمك في وجه أخيك صدقة، وطلاقة الوجه صدقة، روى ابن حبان عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ).

واسمع معي إلى التوجيه الإلهي للرسول صلى الله عليه وسلم، فقد حذره من القسوة في المعاملة، فقال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 159].

ثامناً: الاهتمام بالمناسبات الدينية: والتي يحث عليها الدين الإسلامي وإحيائها، مثل: الأعياد، وقدم مولود جديد، والعقيقة، والزواج، والوفاة.

إخوة الإسلام:

تعالوا معي لننتعرف على النتائج المترتبة على صلة الأرحام.

أولاً: صلة الأرحام سبب لصلة الله تعالى للواصل، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم، قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال المولى تعالى: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأن أقطع من قطعك، قالت: بلى، قال المولى تعالى: فذاك لك).

ثانياً: صلة الأرحام من أحب الأعمال إلى الله تعالى، روى أبو يعلى أن رجلاً من خثعم سأل الرسول صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أحب إلى الله تعالى؟ قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (الإيمان بالله). قال: ثم مه؟ قال صلى الله عليه وسلم: (صلة الأرحام). قال: ثم مه؟ قال صلى الله عليه وسلم: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر). قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أبغض إلى الله تعالى؟ قال صلى الله عليه وسلم: (الإشراك بالله). قال: قلت: يا رسول الله، ثم مه؟ قال صلى الله عليه وسلم: (قطيعة الرحم). قال الرجل: ثم مه؟ قال صلى الله عليه وسلم: (الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف).

ثالثاً: صلة الرحم تشهد للواصل بالوصل يوم القيامة، فروى البخاري في الأدب والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (وكلُّ رحم آتية يوم القيامة أمام صاحبها تشهد له بصلة إن كان وصلها، وعليه بقطيعة إن كان

قطعها-.

رابعاً: صلة الرحم سبب لزيادة العمر وبسط الرزق، روى البخاري عن أنس بن مالك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من أحب أن يُبْسَطَ له في رزقه، ويُنْسَأَ له في أثره، فليصل رحمه-).

ومعنى زيادة العمر، وبسط الرزق: أن يبارك الله تعالى في عمر الإنسان ورزقه، فيعمل في وقته ما لا يعمله غيره فيه.

خامساً: صلة الرحم تعجل الثواب وقطيعتها تعجل العقوبة، روى البيهقي في سننه وصحح الحديث الشيخ الألباني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ليس شيء أطيع الله تعالى فيه أعجل ثواباً من صلة الرحم، وليس شيء أعجل عقاباً من البغي وقطيعة الرحم-).

سادساً: صلة الرحم تدفع ميتة السوء، روى عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من سره أن يمد له في عمره، ويوسع له في رزقه، ويدفع عنه ميتة السوء، فليق الله وليصل رحمه-).

سابعاً: صلة الرحم تثمر الأموال وتعمر الديار، روى الطبراني والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تعالى ليعمر بالقوم الديار، ويشمر لهم الأموال، وما نظر الله تعالى إليهم منذ خلقهم بغضاً لهم- قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: (بصلتهم لأرحامهم-).

ثامناً: صلة الرحم سببٌ لمدبة الأهل للواصل، روى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن صلة الرحم محبة في الأهل، مثرة في المال، منسأة في الأثر-).

تاسعاً: غفران الكبائر، فروى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه قال: أتى الرسول صلى الله عليه وسلم رجلاً فقال: إني أذنبت ذنباً عظيماً، فهل لي من توبة؟

فقال صلى الله عليه وسلم: (هل لك من أم؟- قال الرجل: لا، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (فهل لك من خالة؟- قال الرجل نعم، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (فبرها-).

عاشراً: صلة الرحم تضاعف الثواب، روى الإمام أحمد والذسائي

وابن ماجه، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي القرابة ثنتان، صلة وصدقة).

حادي عشر: صلة الرحم سبب لدخول الجنة، روى البخاري ومسلم عن أبي أيوب الأنصاري أن رجلاً سأل الرسول الله صلى الله عليه وسلم عن عمل يدخله الجنة ويبيعه من النار، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم).

وروى الترمذي وصحح الحديث الشيخ الألباني، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس قيام، تدخلوا الجنة بسلام).

إخوة الإسلام:

إن أوامر الله تعالى وأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم ناطقة بأن صلة الرحم قرابة عالية، وعمل جليل، فما بالنا وقد أعرضنا عن هذه الحقوق حتى أصبحنا نرى العداوة والبغضاء في الأغلب لا تظهر إلا بين الأقارب، ما بالنا نرى التشاحن والخصام والنزاع يظهر بين أفراد الأسرة الواحدة، نرى القتل والتدابير يظهر بين أولاد العم والخال، نرى اختلاق التهم وتدبير المكائد يحدث بين أفراد العائلة الواحدة.

ما بالنا وقد نرى قلوب الأقارب قد قست بعضها على بعض، ونرى نفوسهم قد تغيرت، ما لهم قد أعلنوا الحرب بينهم، ولعب بهم الشيطان، إنهم اتبعوا أهوائهم وخالفوا القرآن والسنة النبوية، فوقعوا في الشر، وأصابهم الخذلان، والواقع يشهد على ما أقول.

فمثلاً: عندما يغتني رجل من عائلة ما، نجده يتكبر على أهله ويذكرهم، ويقاطعهم، ويتهرب منهم، فبهذا العمل الشنيع يغرس في قلوبهم بغضهم له.

مثال آخر: نجد الإنسان منا ينفق ماله في كثير من الأبواب الخارجية مفاخرة ومباهاة أمام أعين الناس، وبجاذبه عم أو خال، أو قريب له، قد حطمه الفقر، ودوخه البؤس، وأمام منظره فرد من أفراد عائلته وأقاربه يتكفون الناس السؤال، أو يعيشون بين أحضان المتاعب والآلام، فيسألونه إعانة فلا يجدون منه مجيباً، وينتظرون منه عطفاً فلا يحسون

منه شفقة، كأن قلبه قد من الصخر، وكأنه إن أعان قريبه قد ارتكب جرماً كبيراً، أو جني جنابة تنشق لها الأرض، أو تخر لها الجبال هدأً.

ألا فليسمع هؤلاء الناس الذين يفضلون الغريب على القريب إلى قول الله تعالى: {وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنفال: 75].

وقال تعالى: {وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} [الأحزاب: 6].

وليسمع الجميع إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (دينار أنفقت في سبيل الله تعالى، ودينار أنفقت في رقة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقت على أهلك، أعظمها أجراً الدينار الذي أنفقت على أهلك).

فالواجب على كل مسلم فينا أن يعرف ما عليه من حقوق وواجبات تجاه الأهل، وأن يكون براً بهم، وأن يكون عطوفاً عليهم ورحيماً بهم، حتى لا يعرض نفسه لغضب المنتقم الجبار، وغضب الناس فيفرون لمصائبه وبلاياه.

إخوة الإسلام:

بعد أن علمنا النتائج المترتبة على صلة الأرحام، تعالوا معي لننتعرف على العقوبات التي أعدها المولى تعالى لقاطع الرحم.

أولاً: قاطع الرحم لا يدخل الجنة: روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنة قاطع). قال سفيان بن عيينة أحد رواة الحديث: يعني قاطع الرحم.

وروى أحمد وابن حبان والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر).

ثانياً: قاطع الرحم لا يقبل عمله: فروى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن أعمال بني آدم تعرض كل خميس ليلة الجمعة، فلا يقبل عمل قاطع رحم).

ثالثاً: قاطع الرحم لا تنزل عليه الرحمة، روى الأصبهاني والطبراني عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: (لا يجالسنا اليوم قاطع رحم).

فقام فتى من الحلقة فأتى خالة له، قد كان بينهما بعض الشيء، فاستغفر لها، واستغفرت له، ثم عاد إلى المجلس، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الرحمة لا تنزل على قوم وفيهم قاطع رحم).

رابعاً: قاطع الرحم ملعون: قال تعالى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ} [محمد: 22، 23].

خامساً: قاطع الرحم يقطعه الله تعالى: روى أبو داود والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (يقول الله تعالى: أنا الله، وأنا الرحمان، خلقت الرحم بيدي، واشتقت لها اسماً من أسمائي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته).

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم، قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال المولى تعالى: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأن أقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال المولى تعالى: فذاك لك).

سادساً: تعجيل العقوبة: روى أبو داود والترمذي وابن ماجه، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدْخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، مِثْلُ الْبَغْيِ، وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ).

* * *

يوم الجمعة

يوم الجمعة

أسباب نعيم القبر

يوم الجمعة

الحمد لله رب العالمين: الذي شرفنا بالإسلام، وجعلنا والله الحمد خير أمة أخرجت للناس، فقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠].

سبحانه: أشهد له بالوحدانية، وأقر له بالربوبية، فلا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه، جلّ في علاه، فقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: ٦٢].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: أمرنا بالتفرغ الآتام لإقامة شعائر الجمعة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الجمعة: ٩].

وبين أن التفرغ لإقامة شعائر الجمعة أفضل من الاشتغال باللهو وبالتجارة، فقال تعالى: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الجمعة: 11].

ثم بعد ذلك أمرنا بالسعي على الرزق بعد الانتهاء من الصلاة، فقال تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الجمعة: 10].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم : بين لنا أصناف الناس الذين يحضرون صلاة الجمعة، فروى أحمد وأبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (يُحْضِرُ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ: رَجُلٌ حَضَرَهَا يَلْغُو، وَهُوَ حَظُّهُ مِنْهَا، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا يَدْعُو، فَهُوَ رَجُلٌ دَعَا اللَّهَ تَعَالَى، إِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ، وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُ، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا بِإِنْصَاتٍ وَسُكُوتٍ، وَلَمْ يَتَخَطَّ رَقَبَةً مُسْلِمًا، وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا، فَهِيَ كَفَّارَةٌ إِلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا، وَزِيَادَةٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [الأنعام: 160].

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد:

أخوة الإسلام:

ما زال الحديث موصولاً في أسباب نعيم القبر، وها نحن اليوم مع سبب آخر من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: يوم الجمعة، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا.

الحقيقة الأولى: إن الله تعالى خصَّ أمة الرسول صلى الله عليه وسلم بعدة خصائص، لم تشاركها فيها أمة من الأمم السابقة، ومن هذه الخصائص: يوم الجمعة، ولقد فرضه الله تعالى على الأمم قبلنا، فضلوا فيه، وأعرضوا عنه، فاختر اليهود يوم السبت ليكون عيداً لهم، بدجة أن الله تعالى لما خلق الخلق تعب، وأراد أن يستريح، فاختر يوم السبت ليستريح فيه، فرد الله تعالى عليهم كذبهم، فقال: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} [ق: ٣٨ - ٤٠].

وفرضه الله تعالى على النصارى، فضلوا فيه، واختاروا يوم الأحد، ليكون عيداً لهم، بدجة أن الله تعالى بدأ فيه الخلق، وفرضه الله تعالى علينا، وهدانا إليه، وجعله خصوصية من خصوصيات أمة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، بَيِّدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَاخْتَلَفُوا، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، هَدَانَا اللَّهُ لَهُ، فَالْيَوْمُ لَنَا، وَغَدًا لِلْيَهُودِ، وَبَعْدَ غَدٍ

لِلنَّصَارَى-

وليسست الخصوصية مقصورة على الدنيا فحسب، بل هو من خصوصية أمة النبي صلى الله عليه وسلم في الآخرة أيضاً، فروى الطبراني في معجمه الأوسط والبيهقي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أتى جبريل عليه السلام بمرأة بيضاء، فيها وكْتُهُ (الوكْتة بفتح فسكون: الأثر في الشيء، كالنقطة من غير لون) إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَا هَذِهِ؟)، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام: هذه الجمعة، فَضَلَّتْ بِهَا أَنْتَ وَأَمَّتْكَ، فَالْأَناسُ لَكُمْ فِيهَا تَبِع، اليهود والنصارى، ولكم فيها خير، وفيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو الله بخير، إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ، وهو عندنا يوم المَزِيد، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا جبريل: ما يوم المَزِيد؟) قال عليه السلام: إِنْ رَبُّكَ اتَّخَذَ فِي الْفَرْدَوْسِ وادِياً أَفْخِجَ (واسع) فِيهِ كُتُبَ (التل) مِسْكَ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَا شَاءَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ وَحَوْلِهِ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، عَلَيْهَا مَقَاعِدُ لِلنَّبِيِّينَ، وَحَفَ تِلْكَ الْمَنَابِرِ بِمَنَابِرٍ مِنْ ذَهَبٍ، مَكَلَّةٌ بِالْيَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ، عَلَيْهَا الشَّهَدَاءُ وَالصَّدِيقُونَ، فَجَلَسُوا مِنْ وَرَائِهِمْ عَلَى تِلْكَ الْكُتُبِ، فيقول الله لهم: (أَنَا رَبُّكُمْ، وَقَدْ صَدَقْتُمْ وَعَدِي، فَاسْأَلُونِي أُعْطِيَكُمْ-)، فيقولون: ربنا نسألك رضوانك، فيقول تعالى: (قَدْ رَضِيتُ عَنْكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مَا تَمْنَيْتُمْ، وَلَدَيَّ مَزِيدٌ-)، فهم يحبون يوم الجمعة؛ لما يعطيهم فيه ربهم من الخير.

ولقد أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن اليهود يحسدوننا على هذا اليوم الأغر، فروى أحمد عن عائشة (رضي الله عنها) قَالَتْ: بَيْنَمَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَأَذِنَ لَهُ، فَقَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَعَلَيْكَ-)، قَالَتْ: فَهَمَمْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، قَالَتْ: ثُمَّ دَخَلَ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَعَلَيْكَ-)، قَالَتْ: ثُمَّ دَخَلَ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: بَلِ السَّامُ عَلَيْكُمْ، وَغَضَبَ اللَّهُ إِخْوَانَ الْقُرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، أَتَحْيُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا لَمْ يُحْيِهِ بِهِ اللَّهُ، قَالَتْ: فَنَظَرُ إِلَيَّ، فَقَالَ: (مَهْ-)، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ، قَالُوا قَوْلًا، فَردَدْنَاهُ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَضُرَّنَا شَيْءٌ، وَلَرِمَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِنَّهُمْ لَا يَحْسُدُونَا عَلَى شَيْءٍ، كَمَا يَحْسُدُونَا عَلَى يَوْمِ

الْجُمُعَةِ، الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا، وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا، وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ: آمِينَ.

فالواجب على كل مسلم أن ينتهز هذا اليوم، ويقدر له قدره، ويجتهد فيه بالعبادة والذكر والدعاء، حتى ينال رضا الله تعالى، ورضا الرسول صلى الله عليه وسلم.

الحقيقة الثانية: لقد جعل الشرع الحنيف يوم الجمعة أفضل الأيام على الإطلاق، فلقد اصطفاه الله تعالى على غيره من الأيام، وفضله على ما سواه من الأزمان، وجعله خير الأيام.

ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحقيقة، فروى مسلم والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُهْبِطَ، وَفِيهِ تَبَّ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ مُسِيخَةٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ حِينَ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ، إِلَّا الْخَنَ وَالْإِنْسَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يَصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّيُ يَسْأَلُ اللَّهَ حَاجَةً، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهَا).

وجعله الله تعالى سيد الأيام، فروى أحمد وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (سَيِّدُ الْيَوْمِ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خَمْسُ خِلَالَ: فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُهْبِطَ، وَفِيهِ تَوَفَّى اللَّهُ آدَمَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يَسْأَلُ الْعَبْدُ رَبَّهُ شَيْئًا فِيهَا إِلَّا آتَاهُ، مَا لَمْ يَسْأَلْ مَأْتًا، أَوْ قَطِيعَةً رَحِمَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَمَا مِنْ مَلِكٍ مُقَرَّبٍ، وَلَا سَآءٍ، وَلَا أَرْضٍ، وَلَا جِبَالٍ، وَلَا رِيَّاحٍ، وَلَا بَحْرٍ، إِلَّا وَهُوَ يُشْفِقُ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، أَنْ تَقُومَ فِيهِ السَّاعَةُ).

وجعله الله تعالى أفضل من يوم عيد الأضحى وعيد الفطر، فروى البيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها، وأعظم عند الله من يوم الفطر، ويوم الأضحى).

الحقيقة الثالثة: للقد انفرد يوم الجمعة بعدة خصائص لم يشاركه فيها يوم غيره، وهي ما يلي:

أولاً: صلاة الجمعة:

فصلاة الجمعة من أكد فروض الإسلام، ومن أعظم مجامع المسلمين،

وهي من أعظم من كل مجمع يجتمعون فيه وأفرضه، سوى مجمع عرفة، ولقد أمرنا الله تعالى بالسعي إليها، والتفرغ الكامل لأدائها، فقال تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** {الجمعة: ٩}.

ثانياً: ساعة الإجابة.

ففي يوم الجمعة ساعة إجابة، وهي الساعة التي لا يسأل الله تعالى خيراً، إلا أعطاه لسانه، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: **(إِنَّ فِي الْجُمُعَةِ لَسَاعَةً لَا يُؤَافِقُهَا مُسْلِمٌ قَائِمٌ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ).**

واختلف العلماء في تحديد هذه الساعة، فذهب فريق من الفقهاء إلى أنها وقت جلوس الإمام على المنبر، حتى تنتهي الصلاة، فروى مسلم عن أبي بريدة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: **قَالَ لِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: أَسَمِعْتَ أَبَاكَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَأْنِ سَاعَةِ الْجُمُعَةِ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (هِيَ مَا بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الْإِمَامُ، إِلَى أَنْ تُقْضَى الصَّلَاةُ).**

وذهب فريق آخر من الفقهاء إلى القول: بأنها آخر ساعة بعد صلاة العصر، فروى أبو داود والذسائي والحاكم عن جابر رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: **(يوم الجمعة ثنتا عشرة ساعة، منها ساعة لا يوجد عبد مسلم يسأل الله شيئاً، إلا آتاه الله إياه، فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر).**

ثالثاً: تكفير السيئات.

فيوم الجمعة يكفر السيئات والخطايا والذنوب الذي ارتكبتها المسلم طوال الأسبوع، بشرط اجتناب الكبائر، فروى مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: **(مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَمَنْ مَسَّ الْحَصَى فَقَدْ لَغَا).**

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: **(الصَّلَوَاتُ**

الْحَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغَشَّ الْكَبَائِرُ.-

وروى البخاري والترمذي أن يزيد بن مريم قال: لحقني عباية بن رفاعه بن رافع، وأنا أمشي إلى الجمعة، فَقَالَ: أَبْشِرْ، فَإِنَّ خُطَاكَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، سَدَمْتُ أَبَا عَبْسٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَرَّمَهَا اللَّهُ عَلَى النَّارِ.-

رابعاً: خلق الله تعالى فيه آدم عليه السلام :

فروى مسلم والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُهْبِطَ، وَفِيهِ تَبَّ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مَاتَ...-.

خامساً: تقوم فيه القيامة:

روى مسلم والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (... وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ.-

فالواجب على المسلم الحريص على دينه أن يغتنم فرصة هذا اليوم، ويجتهد فيه بالعبادة، حتى يكفر الله تعالى عن سيئاته، ببركة هذا اليوم الأغر.

أخوة الإسلام:

لقد جعل الشرع الحنيف ليوم الجمعة آداباً خاصة به، فتعالوا معي لنتعرف على هذه الآداب.

أولاً: الغسل:

والغسل يوم الجمعة سنة مؤكدة، كما قال جمهور الفقهاء، فروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ الْجُمُعَةَ، فَلْيَغْتَسِلْ.-

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الْغُسْلُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ.-

ولقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم فضل الغسل يوم الجمعة، فروى الطبراني وابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن أبي

قتادة قال: دخل علي أبي وأنا أغتسل يوم الجمعة، فقال: غسلك هذا من جنابة أو للجمعة؟ قلت: من جنابة، قال: أعد غسلاً آخر، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من اغتسل يوم الجمعة، كان في طهارة إلى الجمعة الأخرى).

وروى الطبراني في معجمه الكبير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الغسل يوم الجمعة، ليسل الخطايا من أصول الشعر استلاماً).

وروى أحمد والبخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنْ طَهْرٍ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَرْوِحُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَلَا يَفْرُقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ لِلْإِمَامِ إِذَا تَكَلَّمَ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى).

ثانياً: لبس أفضل الثياب:

فعلى المسلم الذي يريد الذهاب إلى صلاة الجمعة، أن يلبس أفضل ثيابه، فروى أبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَا عَلَى أَحَدِكُمْ أَنْ يَجِدْكُمْ، أَنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، سِوَى ثَوْبَيْ مَهْنَتِهِ).

والمراد بأحسن الثياب: الثياب البيض، لما رواه أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الْبُسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيْضَ، وَكَفَّنُوا فِيهَا مَوْتَكُمْ).

ثالثاً: الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم:

فيستحب الإكثار من الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وليلته، فروى البيهقي وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أَكْثَرُوا مِنَ الصَّلَاةِ عَلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَإِنَّهُ يَوْمٌ مَشْهُودٌ، تَشْهَدُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَإِنْ أَحَدًا لَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ، إِلَّا عُرِضَتْ عَلَيَّ صَلَاتُهُ، حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا، - قيل: وبعد الموت، قال صلى الله عليه وسلم: (وبعد الموت، إن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، فَنبِيُّ اللَّهِ حَيٌّ يُرْزَقُ).

ورسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الخلق، والجمعة سيد الأيام، فالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم مزية ليست

لغيره.

وروى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ، يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ).

رابعاً: قراءة سورتي السجدة والإنسان في فجر الجمعة:

فكان من هدي الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ في فجر الجمعة سورة السجدة في الركعة الأولى، وسورة الإنسان في الركعة الثانية، فروى مسلم عن ابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنه: أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة: {الْم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ}. وقد يظن ممن لا علم عنده أن المراد تخصيص فجر الجمعة بسجدة زائدة، ويسمونها بسجدة الجمعة، ويعتقد أن الإمام إذا لم يأت بها، تكون الصلاة ناقصة، وهذا وهم، وخطأ كبير.

وقد يقول قائل: لماذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يخصص فجر الجمعة بقراءة هاتين السورتين؟

يقول ابن تيمية: إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقرأ هاتين السورتين في فجر الجمعة؛ لأنهما تضمنتا واشتملتا على خلق آدم عليه السلام، وعلى ذكر الميعاد، وحشر العباد، وكل ذلك سيحدث يوم الجمعة، فكان قراءتهما في فجر الجمعة تذكيراً للأمة بما كان فيه، وما يكون فيه، وتكون السجدة جاءت تابعة للسورة، وليست مقصودة لذاتها.

خامساً: الدنو من الإمام:

فلقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على الدنو من الإمام، وحذر من التأخير، فروى البيهقي والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (احضروا الجمعة، وادنوا من الإمام، فإن الرجل ليتخلف عن الجمعة، حتى إنه ليتخلف عن الجنة، وإنه لمن أهلها).

وروى أبو داود عن سمرة بن جندب قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (احْضَرُوا الذِّكْرَ، وَادْنُوا مِنَ الْإِمَامِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَا يَزَالُ يَتَبَاعَدُ حَتَّى يُؤَخَّرَ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنْ دَخَلَهَا).

سادساً: وجوب الإنصات:

إن الإنصات للإمام وهو يخطب الجمعة واجب على كل مصلّي، فالكلام أثناء خطبة الجمعة حرام ولا يجوز، حتى ولو كان أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.

والرسول صلى الله عليه وسلم حكم على الفرد الذي لم يذصت للإمام وهو يخطب بالغاء جمعته، حتى وإن صلاها، فهي غير مقبولة، وتكون مردودة عليه، فروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ: أَنْصِتْ، فَقَدْ لَغَيْتَ-). ومعنى لغوت: ضيعت من الأجر، وقيل: بطلت فضيلة جمعتك، ويؤيد هذا المعنى ما في حديث أبي داود: (من لغا، وتخطى رقاب الناس، كانت له ظهراً-).

بل الأعجب من هذا كله: أن الرسول صلى الله عليه وسلم شبه الرجل الذي يتكلم والإمام يخطب، بالدمار الذي يدمل أسفاراً، فروى أحمد والبزار والطبراني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ تَكَلَّمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ، فَهُوَ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا-).

سابعاً: سنة الجمعة:

يعتقد كثير من الناس أن للجمعة سنة قبلية، فهذا خطأ، فالجمعة ليس لها سنة قبلية، بل يجوز للمصلي أن يصلي ما شاء من التطوع، قبل أن يصعد الإمام المنبر.

أما السنة البعدية: فهي أربعاً في المسجد، واثنان في البيت، فروى الجماعة إلا البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إذا صلى أحدكم الجمعة، فليصل بعدها أربع ركعات-).

وروى البخاري ومسلم وغيرهما أن ابن عمر رضي الله عنه قال: كان الرسول صلى الله عليه وسلم يصلي بعد الجمعة ركعتين في بيته.

أما لو دخل الفرد والإمام يخطب، فلا يجلس حتى يصلي ركعتين، ويتجاوز فيهما، فروى مسلم عن جابر رضي الله عنه أنه قال: جَاءَ سُلَيْكُ الْغَطَفَانِيِّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدٌ عَلَى الْمِنْبَرِ،

فَقَعَدَ سُلَيْكُ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَرَكَعْتَ رَكْعَتَيْنِ؟)، قَالَ: لَا، قَالَ: (إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ، وَلْيَتَجَوَّزْ فِيهِمَا).

ثامنا: يكره إفراد صوم يوم الجمعة:

فالأولى لمن يريد أن يصوم يوم الجمعة أن يصوم يوماً قبله، أو يوماً بعده، روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يَصُومَنَّ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، إِلَّا أَنْ يَصُومَ يَوْمًا قَبْلَهُ، أَوْ يَوْمًا بَعْدَهُ).

وروى أحمد والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إِنْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَوْمٌ عِيدٌ، فَلَا تَجْعَلُوا يَوْمَ عِيدِكُمْ يَوْمَ صِيَامِكُمْ، إِلَّا أَنْ تَصُومُوا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ).

تاسعا: حرمة البيع والشراء وقت الجمعة:

لقد نهى المولى تعالى عن البيع وقت الجمعة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الجمعة: ٩].

والنهي في الآية يقتضي التحريم، فأى مال يدخل في كسب المسلم بعد أذان الجمعة، كان مالا خبيثا وحراما.

عاشرًا: استحباب قراءة سورة الكهف:

روى البيهقي والنسائي والحاكم والدرامي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ).

حادي عشر: التبكير إلى المسجد:

لقد رغب الشرع الحنيف في ضرورة التبكير إلى المسجد يوم الجمعة، وبين الثواب فيه، فروى البخاري ومسلم وغيرهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ، ثُمَّ رَاحَ، فَكَأْتَا قَرَبَ بَدَنَةٍ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ، فَكَأْتَا قَرَبَ بَقَرَةٍ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ، فَكَأْتَا قَرَبَ كَبْشَا أَفْرَنْ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ، فَكَأْتَا قَرَبَ دَجَاجَةٍ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ، فَكَأْتَا قَرَبَ بَيْضَةٍ، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ،

حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ-.

وروى أحمد والترمذي والبيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَغَسَلَ، ثُمَّ ابْتَكَّرَ، وَغَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ، ثُمَّ جَلَسَ قَرِيبًا مِنَ الْإِمَامِ، حَتَّى يُنْصِتَ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ خَطَاَهَا عَمَلٌ سَنَةٍ صِيَامُهَا وَقِيَامُهَا-).

وبين الرسول صلى الله عليه وسلم أن الملائكة يجلسون على أبواب المساجد؛ ليكتبوا الحاضرين، الأول فالأول، وهكذا، إلى أن يصعد الإمام على المنبر، فروى أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (تَقْعُدُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَيَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي وَالثَّالِثَ، حَتَّى إِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ، رُفِعَتِ الصُّفُفُ-).

وروى ابن خزيمة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (تبعث الملائكة على أبواب المسجد يوم الجمعة، يكتبون مجيء الناس، فإذا خرج الإمام، طويت الصحف، ورفعت الأقلام، فتقول الملائكة بعضهم لبعض: ما حبس فلاناً؟ اللهم إن كان ضالاً فاهده، وإن كان مريضاً فشفه، وإن كان عائلاً فأغنّه-). فانظر أخي المسلم إلى هذه الأحاديث وغيرها، التي تحتثنا على التذكير إلى المسجد يوم الجمعة، وتبين لنا مدى الثواب الذي أعده الله تعالى للمسلم الذي يبكر في الذهاب إلى المسجد يوم الجمعة، فهل طبقنا هذه الأحاديث؟ هل كل واحد منا يجتهد في التذكير في الذهاب إلى المسجد يوم الجمعة؟

إن معظم الشباب وبعض الناس في هذه الأيام يتعمدون الذهاب إلى المسجد بعد انتهاء الخطيب من خطبته، أو قرب الانتهاء منها.

إننا إذا أردنا أن نعقد مقارنة بين ذهابنا إلى المساجد وإلى الذهاب إلى الأفراح، نجد أننا نتسارع ونتسابق في الذهاب مبكرين إلى الأفراح، سواء أ كنا شباباً أم شيوخاً، أم أطفالاً.

أما الذهاب إلى المساجد يوم الجمعة نجد أننا لا نهتم بالتذكير، مع أن التذكير فيه ثواب عظيم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

فهل هذا تقصير من الخطباء؟ أم إهمال منا جميعاً؟ أهكذا فعل بنا

الشيطان، وسيطر علي عقولنا، ومنعنا من الذهاب مبكرين إلى المساجد؟ أهكذا كرهننا الشيطان في الذهاب مبكرين إلى المساجد؟ أهكذا يكون تنفيذ أوامر الله تعالى وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم؟

وفي النهاية نطمع في جنة الله تعالى، ومن أين لنا بجنة الله تعالى، ونحن غافلون عن تنفيذ أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن الجنة لن نفوز بها إلا إذا نفذنا أوامر الله تعالى، وأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم ووصاياه، ومن تعاليمه ووصاياه ضرورة التذكير إلى المسجد يوم الجمعة.

بل الأعجب من هذا كله: إن الرجل يكون جالساً في بيته، ولا يمدعه أي شيء من الذهاب إلى المسجد مبكراً، ومع ذلك لا يهتم بأي شيء، فكثير من الناس يعتقدون أن الجمعة عبارة عن ركعتين فقط، فلماذا هذا الإهمال؟!

إن اليهود والمسيحيين يذكرون في الذهاب إلى كنائسهم ومعابدهم، يومي السبت والأحد، فلماذا لا نكون نحن المسلمون أفضل منهم.

بل إننا نرى بعض المحلات التجارية تكون مفتوحة، وتقوم بالبيع والشراء، ألم يعلم الجميع أن البيع باطل وحرام أثناء إقامة شعائر الجمعة، ألم يسمع أصحاب المحلات التي تفتح أثناء صلاة الجمعة إلى قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الجمعة: 9].

ألم يسمع الجميع إلى قول الله تعالى: {قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمَنْ التَّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الجمعة: 11].

أخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على المخالفات الشرعية التي تحدث من بعض المصلين يوم الجمعة.

أولاً: تخطي رقاب الناس،

لقد حذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من تخطي رقاب الناس يوم الجمعة، فروى أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان جاء رجلٌ يَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وسلم يخطُبُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اجْلِسْ فَقَدْ آذَيْتَ وَأَنْتَ).

ومعنى آذيت، أي: الناس بتخطيك، ومعنى أنيت، أي: أخرت المجيء وأبطأت.

وبين النبي صلى الله عليه وسلم العقوبة المترتبة على هذا العمل الشنيع، فروى الترمذي وابن ماجه والبيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ تَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، اتَّخَذَ لَهُ جِسْرًا إِلَى جَهَنَّمَ). ولكن هناك استثناء من هذا النهي: الإمام، ومن وجد فرجة في الصفوف الأمامية.

ثانياً: التهاون في صلاة الجمعة:

إن الرسول بين الأعدار التي تبيح ترك الجمعة، فروى أبو داود والبيهقي عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة في كل يوم جمعة، إلا مريضاً، أو مسافراً، أو امرأة، أو صبيّاً، أو مملوكاً).

ولكن هناك من الناس من يتهاون في صلاة الجمعة، ويتركها بحجج واهية، وبدون عذر شرعي، ولقد حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من التهاون في ترك الجمعة بدون عذر شرعي، وبين العقوبات المترتبة على هذا العمل الشنيع.

1- حرق البيوت: فروى مسلم والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمَرَ رَجُلًا يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أُحَرِّقَ عَلَى رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجُمُعَةِ بِيُوتِهِمْ).

2- الختم على القلب: فروى مسلم وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَيَكُنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ).

وروى أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمُعٍ تَهَاوُنًا، بَهَا طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ). وفي رواية عند أحمد: (مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمُعٍ تَهَاوُنًا مِنْ غَيْرِ عُدْرٍ، طَبَعَ اللهُ

تعالى عَلَى قَلْبِهِ-.

3- النفاق: فروى الطبراني في الكبير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من ترك ثلاث جمعات من غير عذر، كتب من المنافقين-.

وروى البيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ سَمِعَ النَّدَاءَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَلَمْ يَأْتِهَا، طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ، وَجَعَلَ قَلْبَهُ قَلْبَ مُنَافِقٍ-.

4- عدم البركة: فروى البيهقي وابن ماجه أن سعيد بن المسيب عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر: (تَوْبُوا إِلَى رَبِّكُمْ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا، وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الزَّائِكَةِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا، وَصَلُّوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ بِكَثْرَةِ ذِكْرِكُمْ إِيَّاهُ، وَالصَّدَقَةَ فِي السَّرِّ- وَالْعَلَانِيَةِ، تَجَبَّرُوا وَتُنْصَرُّوا وَتُرْزَقُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى افْتَرَضَ عَلَيْكُمُ الْجُمُعَةَ فِي يَوْمِي هَذَا، فِي شَهْرِي هَذَا، فَمَنْ تَرَكَهَا فِي حَيَاتِي، أَوْ بَعْدَ مَوْتِي، وَلَهُ إِمَامٌ عَادِلٌ، أَوْ جَائِرٌ، اسْتَخَفَّافًا بِهَا، وَجُحُودًا لَهَا، فَلَا جَمْعَ اللَّهُ شَمْلُهُ، وَلَا بَارَكَ اللَّهُ فِي أَمْرِهِ، أَلَا وَلَا صَلَاةَ لَهُ، أَلَا وَلَا زَكَاةَ لَهُ، أَلَا وَلَا صِيَامَ لَهُ، أَلَا وَلَا حَجَّ لَهُ، إِلَّا أَنْ يَتُوبَ، فَإِنْ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، أَلَا وَلَا يَوْمٌ أَعْرَابِيٌّ مُهَاجِرًا، أَلَا وَلَا تَوْمٌ أَمْرَأَةٌ رَجُلًا، أَلَا وَلَا يَوْمٌ فَاجِرٌ مُؤْمِنًا، إِلَّا أَنْ يَخَافَ سَيْفَهُ وَسَوْطَهُ-.

ثالثا: التشبيك في المسجد:

فالتشبيك في المسجد أثناء الجمعة مكروه، روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إذا كان أحدكم في المسجد، فلا يشبكنَّ، فإن التشبيك من الشيطان، وإن أحدكم لا يزال في صلاة ما كان في المسجد، حتى يخرج منه-.

رابعا: العبث حال الخطبة:

لما رواه ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من مس الحصى فقد لغا-.

خامسا: القيام من مجلسه واجلاس غيره فيه:

قال الشافعي (رحمه الله): وأكره أن يقيم غيره من مجلسه، ليجلس في موضعه صلاة الجمعة؛ لما للأول من حق السبق، ولما فيه من سوء

الأدب، روى البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا يقيم من أحدكم الرجل من مجلسه، حتى يخلفه فيه، وليقل: توسعوا وتفسحوا).

فإن قام الرجل له مختاراً عن مجلسه من غير أمره، لم يكره له الجلوس فيه، ويكره ذلك للقائم إلا أن يعدل لمثل مجلسه أو خير منه لقربه من الإمام. ولو بعث رجلاً يأخذ له في الصف الأول موضعاً، لم يكره له ذلك، فقد روي عن ابن سيرين أنه كان يبعث بغلامه ليأخذ له موضعاً، فإذا جاء، جلس فيه، فلو أن رجلاً جلس في موضع، ثم أراد الانتقال منه إلى غيره يوم الجمعة، يكره له ذلك، إلا أن ينتقل إلى موضع أفضل من موضعه، أو يكون قد غلبه النعاس، فأراد الانتقال لطرد النوم عن نفسه، فلا يكره له الانتقال.

ولو أن رجلاً جلس في موضع من المسجد، ثم خرج من المسجد لعارض، ثم عاد وقد سبقه غيره إلى موضعه، فالسابق إلى الموضع أحق به من العائد إليه، لكن يستحب أن يتدحى له عن الموضع، فروى مسلم والبيهقي والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إذا قام الرجل من مجلسه، ثم عاد إليه، فهو أحق به).

سادساً: التأخر عن الصف الأول:

فالمبادرة إلى الصف الأول لها ثواب عظيم، أعلن عنه الرسول صلى الله عليه وسلم، فروى البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه، لاستهموا، ولو يعلمون لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا).

وروى أحمد وأبو داود وابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول).

وللأسف الشديد نرى كثيراً من المصلين يحضرون إلى المساجد مبكرين، لكنهم يجلسون في أي مكان، أي دون الصف الأول، وهذا جهل، وعدم اتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومخالفتهم ما كان عليه السلف الصالح، والزهد في الثواب.

سابعاً: الاحتباء والاحتباء هو: أن يجلس الرجل على إتيه رافعاً

ساقيه، ضاماً ركبتيه إلى بطنه بثوبه أو يديه، فهذا منهي عنه، لما روى أبو داود عن معاذ بن جبل رضي الله عنه " أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن الحُبوة يومَ الجمعةِ، والإمامُ يخطُبُ ".

والحكمة في النهي عن الاحتباء: أنه جالب للنعاس أو النوم، كما أنه يعرض الطهارة للنقض.

* * *

مراقبة الله تعالى

مراقبة الله تعالى

أسباب نعيم القبر

مراقبة الله تعالى

الحمد لله رب العالمين: الذي شرفنا بالإسلام، وجعلنا والله الحمد خير أمة أخرجت للناس، فقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠].

سبحانه: أشهد له بالوحدانية، وأقر له بالربوبية، فلا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه، جلّ في علاه، فقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: ٦٢].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: بين لنا أنه رقيب على كل أعمالنا، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم: بين لنا أن مراقبة الله تعالى أعلى مقامات الدين، فروى مسلم أن جبريل عليه السلام سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الإحسان، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ).

فاللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحابه أجمعين.

أما بعد:

أخوة الإسلام:

ما زال الحديث موصولاً في أسباب نعيم القبر، وها نحن اليوم مع سبب آخر من أسباب النعيم في القبر، ألا وهو: مراقبة الله تعالى، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على

بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا.

الحقيقة الأولى: إن الإنسان العاقل هو الذي يعلم أن عمره في الدنيا محدود، وأنفاسه في هذه الدار معدودة، وعمله محسوب له أو عليه، وأن الموت نهايته، وأن القبر بيته، وأنه يوجد هناك سؤال مذكر ونكير، وأن القيامة آتية لا ريب فيها، وأن الله تعالى يبعث من في القبور، وأن الجميع يعرض على الله تعالى للحساب، وأن هناك جنة أو نار كما يريد الواحد القهار، فما النجاة من هذه الأهوال كلها؟.

النجاة تكمن أو تتمثل في مراقبة الله تعالى، فالسعيد من راقب الله تعالى في السر والعلانية.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة في القرآن الكريم، فقال: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق: 31-34].

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [الملك: 12].

ولذلك نجد أن لقمان الحكيم أعطى لابنه أول درس بعد توحيد الله تعالى في مراقبة الله تعالى، فقال تعالى: {يَا بُنَيَّ إِنِّي أَنَا تَكَ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 16].

والشقي من غفل عن مراقبة الله تعالى، فروى ابن ماجه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا عَلَمَ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي، يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضَاءٍ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ تَعَالَى هَبَاءً مَنْثُورًا).

قال ثوبان: يَا رَسُولَ اللَّهِ: صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَمَّا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ، انْتَهَكُوهَا).

ويؤيد هذا أيضاً قول الله تعالى: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا *}

ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا} [الكهف: 103-106].

فالواجب على كل مسلم يريد أن يحقق السعادة في الدنيا، وينال الأجر العظيم في الآخرة، أن يتخلق بمراقبة الله تعالى في السر والعلانية.

الحقيقة الثانية: إن الله تعالى انفراد بخصائص لا يشاركه فيها غيره، ومن هذه الخصائص التي انفراد بها: إحاطته بالكون كله.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: 12].

فإن الله تعالى مطلع علينا جميعاً، ولا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، فقد وسع سمعه كل شيء، فهو يسمع كل المسموعات، ويرى كل المبصرات، وهو عليم بالموجودات والمعلومات.

اقرأ معي قول الله تعالى وهو يؤكد على هذا المعنى، فيقول: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [سبا: 3].

وقال تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ بِمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَيْسَتْخَفُوا مِنْهُ إِلَّا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [هود: 5].

وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7].

وقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق: 16].

كل هذا ليعلم الإنسان علم اليقين أن الله تعالى مطلع عليه في كل مكان وزمان.

ولم يكتف الأمر عند هذا الحد، بل وضع الله تعالى علينا شهوداً يشهدون على أفعالنا، ويراقبون كل تحركاتنا، حتى لا يكون للإنسان حجة على الله تعالى يوم القيامة، وذلك على النحو التالي:

الشاهد الأول: الأرض: هذه الأرض التي خلقنا منها، وفيها نعود، وعليها نمشي، ومذها نأكل، ومذاً من يطيع الله تعالى عليها، ومذاً من يعصي الله تعالى عليها، فهي تشهد لنا أو علينا يوم القيامة، فقال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا} [الزلزلة: 5-1].

الشاهد الثاني: الكرام الكاتبين: فقد وضع الله تعالى من الملائكة من يكتبون أعمالنا، ويسجلون لنا حسناتنا وسيئاتنا، فقال تعالى: {أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: 80]. وقال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار: 10-12].

وقال تعالى: {إِذْ يَتَلَكَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: 17، 18].

الشاهد الثالث: الجوارح: فالجوارح التي أنعم الله تعالى بها الإنسان تكون شاهداً يوم القيامة على الإنسان، فقال تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} [النور: 24، 25].

وقال تعالى: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يسن: 65].

وقال تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا دُعَاؤُنَا لَشَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ * أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الْخَاسِرِينَ} [فصلت: 20-23].

الشاهد الرابع: الله تعالى: فقال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: 53].

فالواجب على كل إنسان أن يعلم تمام العلم أنه لا يعيش بمفرده على وجه الأرض، وأن هناك أشياء عديدة تراقبه، وتعد عليه أعماله، حتى يراها يوم القيامة كاملة غير منقوصة، فقال تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: 49].

كل هذا من شأنه يجعل الإنسان مراقباً لمولاه تعالى في السر والعلانية.

الحقيقة الثالثة: ما معنى مراقبة الله تعالى ؟ مراقبة الله تعالى هي: دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق تعالى على ظاهره وباطنه، بمعنى: أن يعلم العبد أن الله تعالى مطلع عليه في السر والعلانية.

وتأمل معي حين أراد الإمام الشافعي (رحمه الله) أن يعلم تلاميذه كيفية مراقبة الله تعالى في السر والعلانية، وأراد أن يزرع فيهم هذا الأمر، فماذا فعل؟

أمر أن يحضر كل تلميذ من تلاميذه دجاجة حية، ثم يقوم بذبحها شريطة أن يكون ذلك في مكان لا يراه فيه أحد.

وفي اليوم التالي جاء كل تلميذ وقد ذبح كل واحد منهم دجاجته، إلا واحداً، فقد أتى بها حية لم يذبحها، فسأله الشيخ: لماذا لم تذبح الدجاجة؟ قال: لأنني لم أستطع الوفاء بالشرط، قال له: كيف ذلك؟ قال: لأنني حيثما اتجهت، وحيثما ارتحلت، وجدت أن الله تعالى مطلع عليّ ويراني، وفي هذا يقول المولى تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7].

أخوة الإسلام:

إن الحصول على مراقبة الله تعالى في السر والعلانية ليس أمراً هيناً، بل هو بالغ الصعوبة؛ لأن هناك معوقات تعوق الإنسان على الحصول

عليها، ومن هذه المعوقات ما يلي:

1- إبليس اللعين: فقال تعالى: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا يَنبَغُ لَهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: 16، 18].

2- النفس الأمارة بالسوء: فقال تعالى: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [يوسف: 53].

3- الهوى: فقال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية: 23].

وقال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: 37-41].

ولكن هناك أمور تعين الإنسان على التخلص بمراقبة الله تعالى، فتعالوا معي لنتعرف على هذه الأمور.

أولاً: معرفة الله تعالى معرفة حقيقية:

فمن هو الله؟

الله تعالى : هذا الاسم الكريم الذي يطلق على الذات المقدسة، التي نؤمن بها، ونعمل لها، ونعرف أن منها حياتنا، وإليها مصيرنا.

الله تعالى : هو قبل كل شيء، وآخر كل شيء، وهو وارث كل شيء، أحاط بعلمه كل شيء، ولا يتوارى عنه شيء، ولا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

الله تعالى : هو أول من شهد لنفسه بالوحدانية، فقال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: 18].

الله تعالى : هو الاسم الذي ما تعلق به فقيرٌ إلا أغناه الله تعالى.

الله تعالى : هو الاسم الذي ما تعلق به مريضٌ إلا شفاه الله تعالى

وعفاه.

الله تعالى : هو الاسم الذي ما تعلق به ذليلٌ إلا أعزه الله تعالى وكفاه.
الله تعالى : هو الاسم الذي تقال به العثرات، وتستجاب به الدعوات،
وتستدر به الرحمات.

الله تعالى : هو الاسم الذي به ولأجله قامت الأرض والسموات.
الله تعالى : أعلن عن نفسه فقال: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ
سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ
كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: 255].

الله تعالى : أعلن عن نفسه فقال: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ
الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ
الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ} [الحشر: 22-24].

الله تعالى : أعلن عن نفسه فقال: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ
وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 1-4].

الله تعالى : الذي لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، روى مسلم أن الرسول
صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفَضُ
الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ
اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ-).

الله تعالى : اسمع معي وهو يقول: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ
مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: 26].

فإذا ما عرف المسلم ربه معرفة حقيقة تليق بذاته المقدسة، فإنه
يستطيع بكل سهولة أن يتخلق بمراقبة الله تعالى.

ويجب أن يعلم الجميع: أنه كلما ازداد الإنسان معرفة بربه تعالى،
ازداد مراقبة له في السر والعلانية، روى البخاري ومسلم أن الرسول
صلى الله عليه وسلم قال: (أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَخْشَاكُمْ لَهِ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ-).

ثانياً: أن يعرف الإنسان الحكمة من خلقه:

إن الله تعالى لم يخلق الخلق لحاجة يحتاجها منهم، ولم يخلق الخلق ليستأنس بهم من وحشة، ولم يخلق الخلق ليستكثر بهم من قله، ولم يخلق الخلق ليستعين بهم على عمل عجز عن فعله، ولم يخلق الخلق ليجلب بهم منفعة، أو يدفع بهم مضرة، بل خلق الخلق ليعبدوه وحده، ويشكروه وحده، ويقدسوه وحده، ويعظموه وحده، وليسبحوه وحده.

ولقد أشار المولى تعالى إلى هذه الحقيقة، فقال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} * مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مَزْجٌ وَمَا أَرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ { [الذاريات: 56-58].

وروي في الحديث القدسي: (يا عبادي: ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة، ولا لأستعين بكم على عمل عجزت عن فعله، ولا لأستكثر بكم من قلة، ولكني خلقتكم كي تعبدوني طويلاً، وتذكروني كثيراً، وتسبحوني بكرة وأصيلاً). وليس معنى العبادة أن ينصرف الإنسان عن الدنيا وينقطع عنها، ويمكث في المسجد ليل نهاراً، فهذه ليست عبادة، وإنما العبادة تعني: أن يكون كل عمل تقوم به موافقاً لشرع الله تعالى، ويكون خالصاً لوجهه الكريم.

فإذا علم الإنسان أنه خلق لعبادة الله تعالى، استطاع أن يحقق المراقبة الكاملة لله تعالى.

ثالثاً: التقوى:

والتقوى هي: أن يجعل العبد بينه وبين سخط الله تعالى وغضبه وعذابه، وقاية تحفظه وتمنعه.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هي العمل بالتنزيل، والخوف من الجليل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

فالتقي هو من يتحقق فيه قول الله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ

الدُّنُوبَ إِلَّا اللَّهَ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ {آل عمران: 133-136}.

التقي هو من يتحقق فيه قول الله تعالى: {الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة: 1-5].

ولقد أصبح كثير من الناس يفهمون التقوى فهماً ضيقاً، ويدسبونها مجرد ركعات تصلى، وأيام تصام، ورسوم ظاهرة تؤدي، وطقوس تنظم وتقام، وكذلك تراهم مع صلاتهم وصيامهم من الحرام يعيشون، وبالربا يتعاملون، وللاسرة والغش والخيانة يفعلون، ولحقوق الناس يغتالون، وبالكذب والنفاق والرياء وخراب الذمم يتعاملون، ومع ذلك يحسبون أنهم لمجرد صلاتهم أو صيامهم متقون ناجون، ألا فليعلم هذا الصنف من الناس أنهم عن طريق النجاة حائدون، وعن سبيل الخير والفلاح ضالون، وفي شهواتهم وأهوائهم متورطون، وصدق الله تعالى إذ يقول: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَآخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا} [الكهف: 103-106].

ليست التقوى كذلك أيها المسلم، بل التقوى عبادة ومعاملة، فالتقي يعبد الله تعالى عبادة صحيحة خالية من الرياء، بعيدة عن البدع والخرافات، لا دجل فيها ولا شعوذة، ولا تضليل، ثم بعد ذلك يعامل الناس معاملة حسنة، ومعاملة مبذية على الذمة والأمانة، وسلامة الذية، وطهارة القلب، فلا يداهن، ولا يغش، ولا يخادع، ولا يمكر الناس.

ولقد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالتقوى في كل الأحوال والظروف والمناسبات، فقال في الحديث الذي رواه ابن ماجه: (اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن).

يعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال هذا الحديث أن التقوى تكون في الصلاة، وفي الصوم، وفي الزكاة، والحج، وتكون كذلك في البيع والشراء، وفي الأخذ والعطاء، وتُطلب من الإنسان بالليل والنهار، في الصباح والمساء، في حالة الشدة والرخاء، وفي أي حالة وجد عليها الإنسان نفسه.

فالإنسان الذي يدقق التقوى، يستطيع أن يدقق مراقبة الله تعالى بكل سهولة.

رابعاً: الاتباع:

والاتباع هو: أن يجعل كل مسلم فينا الرسول صلى الله عليه وسلم قدوته؛ لقول الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21].

والله تعالى فرض علينا اتباع سبيله، وما شرع من الدين القويم، فقال: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

ويقول تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: 108].

فالله تعالى بين لنا أن له سبيلاً واحداً، سماه صراطاً؛ لأنه أقرب طريق إلى الحق والخير والسلام.

وروى أحمد وغيره أن الرسول صلى الله عليه وسلم خط خطاً، ثم قال: (هذا سبيل الله تعالى - ثم خط خطوطاً عن يمينه، وخطوطاً عن يساره، وقال: (هذه السبل المتفرقة، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه - ثم قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

فالأوجب علينا جميعاً أن نتبع كل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع أقواله وأفعاله، والتأسي به في سائر أحواله، قال تعالى

{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر: 7].

وروى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (دعوني ما تركتكم عليه، فإنما أهلك من كان قبلكم: سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم).

وإن الاتباع لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون في كل مجالات الحياة، من عبادة، وشرعية، وأخلاق، وسياسية، فالاتباع في كل مجالات الحياة أمر محتتم علينا، وليس لنا فيه أي خيار، فقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} [الأحزاب: 36].

خامساً: طاعة الله تعالى :

والطاعة هي: فعل المأمورات، وترك المنهيات، أو بمعنى آخر: أن يحقق الإنسان منهج الفعل ولا تفعل، قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر: 7].

وقال ﷺ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: 208].

قال ابن عباس رضي الله عنه : "يعني الطاعة".

وروى البخاري ومسلم: أن أعرابياً جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله: دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان).

قال الأعرابي: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئاً أبداً ولا أنقص منه، فلما ولى، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فليُنظر إلى هذا).

ولقد أمرنا الله تعالى بالطاعة له ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فقال ﷺ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد: 33].

وقال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مِمَّا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [التغابن: 16].

وعندما أمر الله تعالى المؤمنين بالتثبت عند لقاء العدو، أمرهم بالطاعة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: 45، 46].

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: 59].

فطاعة الله تعالى تعين الإنسان على التخلص بمراقبة الله تعالى في السر والعلانية.

سادساً: الرفقة الطيبة:

فالرجل على دين خليله، وإن صاحب صاحب، فإما أن يأخذ بيدك إلى مرضاة الله تعالى، وإما أن يأخذ بيدك إلى غضب المنتقم الجبار.

فابحث عن العلماء العاملين، والدعاة المؤمنين، والزم غرسهم، فإنهم سيأخذون بيدك إلى مرضاة الله تعالى، فروى أحمد والحاكم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِطُ-).

وفي رواية: (إلى من يخال).

وروى أبو داود والترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا-).

فعلى المسلم أن يحذر كل الحذر من الرفقة السيئة؛ لأنها تعين الإنسان على المعصية، فيندم في وقت لا يدفع فيه الدنم، ولقد حذرنا الشرع الحنيف من الرفقة السيئة، فقال تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا} * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: 27-29].

فالرفقة الطيبة من شأنها تعين الإنسان على مراقبة الله تعالى.

سابعا، عدم إطاعة الكافرين والمنافقين،

فإن الله تعالى نهانا عن إطاعة الكافرين والمنافقين، وحذرنا منها؛ لأنهم لا يأمرُونَ إلا بالشر، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {آل عمران: 100، 101}.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُم عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ} * بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ {آل عمران: 149، 150}.

ولقد نهى الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم عن إطاعة الكافرين والمنافقين، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا {الأحزاب: 1-3}.

ولقد حذر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى ومن اتباعه لهما، فقال تعالى: {وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ {البقرة: 120}.

وقال تعالى: {وَلَئِن آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا فِئَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قَبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قَبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لِّمِنَ الظَّالِمِينَ} {البقرة: 145}.

وقال تعالى: {وَأَن اخْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} {المائدة: 49}.

فطاعة الكافرين والمنافقين تبعد الإنسان عن منهج الله تعالى، وتجعلها لا يستطيع أن يحقق مراقبته تعالى.

أخوة الإسلام:

تعالوا معي لنسوق بعض النماذج من سلفنا الصالح لنتعلم كيف ندقق

المراقبة لله تعالى :

النموذج الأول: جاء في أسد الغابة لابن الأثير: بينما عثمان في مال له بالعالية في يوم صائف، إذ رأى رجلاً يسوق بكرين - من الإبل- وعلى الأرض مثل الفراش من الحر، فقال: ما على هذا لو أقام بالمدينة حتى يبرد، ثم يروح.

ثم دنا الرجل فقال لعبده: انظر من هذا، فنظر، فقال: أرى رجلاً مُعْتَمّاً بردائه يسوق بكرين، ثم دنا الرجل، فقال: انظر، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب، فقال: هذا أمير المؤمنين.

فقام عثمان بن عفان رضي الله عنه، فأخرج رأسه من الباب، فإذا نفح السموم فأعاد رأسه حتى حاذاه، فقال: ما أخرجك هذه الساعة؟ فقال رضي الله عنه : بكران من إبل الصدقة تخلفا، وقد مضي بإبل الصدقة، فأردت أن ألحقهما بالحمى، وخشيت أن يضيعا، فيسألني الله تعالى عنهما. فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين هلم إلى الماء والظل ونكفيك، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : عد إلى ظلك، فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : عندنا من يكفيك!

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : عد إلى ظلك، فمضى.

فقال عثمان رضي الله عنه : من أحب أن ينظر إلى القوي الأمين، فليُنظر إلى هذا!.

النموذج الثاني: يقول عبد الله بن دينار خرجت مع ابن عمر رضي الله عنه إلى مكة، فعمرسنا - نزلنا للراحة- ببعض الطريق، فأنحدر إلينا راعٍ من الجبل، فقال له ابن عمر رضي الله عنه : يا راعي الغنم بعنا شاة من هذه الأغنام، فقال الرجل: أنا مملوك، فقال له ابن عمر رضي الله عنه : قل لسيدك أكلها الذئب، فقال الراعي: إن قلت ذلك لسيدي وصدقني، فأين الله؟ ماذا أقول لله تعالى ؟ فبكى ابن عمر رضي الله عنه، وذهب إلى سيد الراعي فاشترى منه الأغنام، واشترى العبد وأعتقه، وأهدى له قطيع الأغنام.

النموذج الثالث: روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرَّ بامرأة

تَغَيَّبَ عنها زوجها منذ شهر في الجهاد في سبيل الله تعالى، قد تغيبت في ظلمات ثلاث، في ظلمة الغربية والبعد عن زوجها، وفي ظلمة الليل، وفي ظلمة قعر بيتها، وإذا بها تنشد وتقول وتحكي مأساتها:

تطاول هذا الليل وازور جانبه :: وأرقني أن لا حبيب الأعبه
فو الله لولا الله لا رب غيره :: لحرك من هذا السريري جوانبه
مخافة ربي، والحياء يصدني :: وأكرم بعلي أن تنال ركائبه
وتبين لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أن زوجها مجند في أحد
جيوشه، وعند الصباح ذهب إلى ابنته حفصة (رضي الله عنها) ويسألها:
يا حفصة: كم تصبر المرأة عن زوجها؟

فيجيبه حفصة (رضي الله عنها): تصبر شهراً، وشهرين، وثلاثة،
وينفذ مع الشهر الرابع صبرها.

فيسن عمر رضي الله عنه من فوره قانوناً بالألا يغيب في الجهاد جندي
متزوج أكثر من أربعة أشهر، فيرسل إلى زوج السيدة يستدعيه من فوره.

النموذج الرابع: أصدر عمر بن الخطاب رضي الله عنه قانوناً يمنع
غش اللبن، بخلطه بالماء، وذات ليلة خرج عمر رضي الله عنه بالليل
يتفقد أحوال الرعية، فإذا بامرأة تريد أن تخلط اللبن بالماء، طمعاً في
زيادة الربح، فذكرتها ابنتها بأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فتقول
الأم: وهل أمير المؤمنين يرانا؟ فتقول البنات: إذا كان أمير المؤمنين لا
يرانا، فرب أمير المؤمنين يرانا.

فما كان من عمر رضي الله عنه الذي سمع تلك المقالة من هذه الفتاة
الصالحة المراقبة لله تعالى، إلا أن قام إلى أولاده، وقال: ليذهب أحكم إلى
تلك الفتاة فليتزوجه، فإني لأرجو الله تعالى أن يخرج من أصلابها رجلاً
يوحد الله تعالى به كلمة المسلمين.

فقد تزوجها عاصم رضي الله عنه، فأنجبت له بنتاً تسمى ليلى،
وكنيت بأم عاصم، ثم تزوجت ليلى بعبد العزيز بن مروان، فأنجبت له
الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الذي قاد المسلمين إلى
كل خير.

فهذا ما كان عليه السلف الصالح، أما اليوم فقد تغيرت الأحوال، وانعكست المفاهيم، وقلَّ الخوف من الله تعالى، وضعفت مراقبة الله تعالى في نفوس الناس.

فأين الذين استهانوا بعقيدة التوحيد؟ وأفسدوا في الأرض بالبدع والخرافات بعد إصلاحها بالإيمان؟ أين هم من مراقبة الله تعالى ؟

أين الذين يراعون في أعمالهم، ويدهنون بأقوالهم وأفعالهم، ويتبعون رضا الناس ورغباتهم، أين هم من مراقبة الله تعالى القائل: {أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [التوبة: 13].

أين الذين أطلقوا ألسنتهم في الحرام، ويتكلمون بالغيبة والنميمة والكذب والسب من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم).

أين الذين أطلقوا فروجهم وأيديهم وأرجلهم وأذانهم وجعلوها مواقع الحرام؟ أين هم من قول الله تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} * يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} [النور: 24، 25].

وقال تعالى: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يسن: 65].

وقال تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} * وَقَالُوا لَوْلَا دِينُنَا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالَوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْشِدُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ} * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [فصلت: 20- 23].

أين الشباب المنغمس في أحوال الرذائل والمذكرات؟ فلا يعرفون الجماعات ولا يؤدون الصلاة؟ أين هم من مراقبة الله تعالى ؟

لقد أغرهم ما هم فيه من صحة وقوة، وندسوا أن الموت يأتي بغتة، فلا يفرق بين كبير وصغير، ولا بين صحيح وسقيم.

أين النساء اللاتي سرنَّ في ركاب الجاهلية الأولى؟ فلا يبالين بتعاليم الدين الحنيف، بل اتبعن أهوائهن، فوقعن فيما حرم الله تعالى.

أين المجتمع كله من مراقبة الله تعالى؟ أنسي الجميع قول الله تعالى: {أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: 4-6].

فالكل سيقف أمام الله تعالى، كما قال: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} [الحاقة: 18].

أخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على النتائج المترتبة على مراقبة الله تعالى، فهناك نتائج دنيوية، ونتائج أخروية، أما النتائج الدنيوية فعلى النحو التالي:

أولاً: ترك المعاصي:

فمراقبة الله تعالى في السر والعلانية من أعظم الأسباب التي تؤدي إلى ترك المعاصي الظاهرة والباطنة، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران: 135، 136].

ثانياً: جلب الخير للأمة:

فمراقبة الله تعالى تحيي القلوب الميتة، وتوقظ الضمائر النائمة، وتجعل من الإنسان نموذجاً فريداً، يندر وجوده بين البشر، فهو لا يخطو خطوة واحدة إلا ويسأل نفسه: هل هذا العمل يرضي الله تعالى أم لا؟

وإذا راقب كل فرد منا الله تعالى، فإن الأمة بأسرها تعيش في مأمن من كل سوء، ويسوق الله تعالى الخير لها، ويدحب عذها كل شر، فقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف: 96].

ثالثاً: اعتراف المؤمن بجريمتة:

إن مراقبة الله تعالى تجعل المسلم الذي ارتكب أي جريمة أن يعترف على نفسه حتى يطهر نفسه من هذا الذنب الذي ارتكبه، فإذا كان الناس يبحثون دائماً عن ثغرات في القانون - وما أكثرها، لأنه ليس من عند الله تعالى - فيحاولون الهروب من زمام العقوبة على جرائم قد ارتكبوها.

أما إذا نظرنا إلى ما يفرضه قانون الإيمان على الفرد، فإن إيمانه يفرض عليه مراقبة الله تعالى في السر والعلن، فإذا وقع في الجريمة وجد الإيمان يقوده إلى أن يعترف على نفسه، ويطلب القصاص من نفسه، حتى يفوز بمغفرة الله تعالى ورضوانه، ورجاء أن يكون ذلك كفارة له عن ذنبه وشفيعاً له إلى ربه، ولا يخشى في ذلك أن تقطع يده، أو أن يرجم، أو أن يجلد.

روى مسلم وغيره أَنَّ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ الْأَسَدِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَزَنَيْتُ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي، فَرَدَّهُ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ أَتَاهُ أَيضًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ، فَرَدَّهُ الثَّانِيَةَ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: (أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِي بِأَسَا؟ تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا؟ -، فَقَالُوا: لَا نَعْلَمُهُ إِلَّا وَفِي الْعَقْلِ مِنْ صَالِحِينَ فِيمَا نَرَى، قَالَ: فَأَتَاهُ الثَّالِثَةُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيضًا، فَسَأَلَ عَنْهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَا بِعَقْلِي، فَلَمَّا كَانَ الرَّابِعَةَ، حَفَرَ لَهُ حُفْرَةً، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ.

ثم جَاءَتِ الْغَامِذِيَّةُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرَنِي، وَإِنَّهُ رَدَّهَا، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لِمَ تَرُدُّنِي؟ لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا فَوَ اللَّهُ إِنِّي لَحُبْلَى، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّمَا لَا قَاذِمِي حَتَّى تَلِدِي -، فَلَمَّا وَلَدَتْ، أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خُرْقَةٍ، قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ادْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ، حَتَّى تَقْطِيعِيهِ -، فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةَ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: هَذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ فَطَمْتُهُ، وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا، فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا، فَيُقْبَلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ

عنه بِحَجَرٍ، فَرَمَى رَأْسَهَا، فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَسَبَّهَا، فَسَمِعَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَهْلًا يَا خَالِدُ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي - بِيَدِهِ: لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ، - ثُمَّ أَمَرَ بِهَا، فَصَلَّى عَلَيْهَا، وَدُفِنَتْ).

رابعاً: الأكل الحلال:

فالمؤمن يعلم تماماً انه سيسأل عن ماله، من أين اكتسبه وفيما أنفقه؟ فروى الترمذي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن أربع، - وذكر منهم- وماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه-).

فمراقبة الله تعالى تجعله لا يأكل إلا الحلال، وتجعله ينأى بنفسه عن مواطن الشبهات، فلا يأكل إلى الحلال، ولا يدخل في بيته إلا الحلال.

روى البخاري عن عائشة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ: كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غُلَامٌ يُخْرِجُ لَهُ الْخَرَاجَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ الْغُلَامُ: أَتَذَرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُذْتُ تَكْهَنُ لِلنَّاسِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَا أَحْسِنُ الْكِهَانَةَ، إِلَّا أَذَى خَدْعَتُهُ، فَلَقَيْتَنِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتُ مِنْهُ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدَهُ فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ.

خامساً: إشاعة العدل:

إن مراقبة الله تعالى توقظ ضمير المؤمن، فتجعله يخاف أن يأتي يوم القيامة مفلساً من كثرة المظالم، فتجده يقتص من نفسه خوفاً من أن يلقي الله تعالى وعليه مظلمة لأحد من الناس، فروى الطبراني في الأوسط والكبير والبخاري وعبد الرزاق عن الفضل بن عباس رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَهُمْ فِي شَدَاةٍ الْوَدِيِّ تُوْفِّي فِيهِ، فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَتَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: (أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّهُ قَدْ دَنَا مِنِّي خُفُوقٌ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِكُمْ، فَمَنْ شَتَمْتُ لَهُ عَرَضًا فَهَذَا عَرَضِي، وَمَنْ ضَرَبْتُ لَهُ ظَهْرًا فَهَذَا ظَهْرِي، - ثُمَّ

قَالَ: (الْحَقُّ بَعْدِي مَعَ عُمَرَ حَيْثُ كَانَ).

وفي عام المجاعة كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يأكل إلا الخبز والزيت، حتى اسود جلده، فيكلمه بعض الصحابة رضي الله عنه في ذلك، فيقول: بئس الوالي أنا إن شبعت والناس جياع.

سادسا: جعل الضمير حيا يقظا:

فمراقبة الله تعالى تجعل ضمير المسلم حيا يقظاً دائماً، فتجده يحاسب نفسه أولاً بأول، ماذا عملت، ولماذا عملت؟ وكيف عملت؟ فهو قاض على نفسه، يصدر حكماً سريعاً على نفسه بالثوبة أو العقوبة، فقال تعالى: {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} [القيامة: 2].

قال الحسن البصري في هذه الآية: لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشريتي؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه.

سابعا: تزكية النفس:

إن الله تعالى جعل تزكية النفس إحدى المهمات التي من أجلها بعث رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [آل عمران: 164].

وأقسم الله تعالى أحد عشر قسماً على حقيقة واحدة هي قوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [الشمس: 9، 10].

فمراقبة الله أقرب طريق لتزكية النفس، فروى أبو داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ثَلَاثٌ مِّنْ فَعَلُهُنَّ، فَقَدْ طَعِمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَن عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ ...).

وفي رواية البيهقي: (وزكيت نفسه-)، فقال رجل: ما تزكية المرء نفسه يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: (يعلم أن الله معه حيث ما كان).

ثامنا: تطهير الكروب:

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سمعت

الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم، حتى أوامهم المبيت إلى غار، فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه والله لا ينجيكم من هذه الصخرة، إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم..... وقال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم، وكانت أحب الناس إلي، فأردتها عن نفسها، فامتنعت مني، حتى ألت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار، على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها، قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتخرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها، وهي أحب النساء إلي، وتركت الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها...-.

أما النتائج الأخروية فمنها ما يلي:

أولاً: الأجر العظيم:

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [الملك: 12].

ثانياً: النجاة:

فروى البيهقي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، وكلمة الحق في الرضا والغضب-).

ثالثاً: ظلال عرس الرحمن:

روى البخاري ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ الله في ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإمام العادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل صدق بصدقه فأخفاها، حتى لا تعلم ميمنه ما تنفق شمله، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه-).

رابعاً: الجنة:

وليست جنة واحدة، بل جنتان، فقال تعالى: {وَلَيْنَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ}

[الرحمن: 46].

قال مجاهد في تفسير هذه الآية: هو الرجل يخلو بمعصية الله تعالى،
فيذكر مقام الله تعالى، فيدعها فرقاً من الله تعالى.

* * *

الفهرس

4	المقدمة
8	1 - حب الله تعالى
16	أولاً: تحقيق العبودية لله تعالى :
19	ثانياً: مراقبة الله تعالى :
21	المثل الأول: يدي الحلق للي بلا ودان:
22	المثل الثاني: رزق الهيل على المجانين:
22	المثل الثالث: اللي بيعتقد في حجر ينفعه:
22	المثل الرابع: ربنا افكره:
22	المثل الخامس: أنا اصطبحت بوش مين:
23	المثل السادس: طور الله في برسيمه:
23	سابعاً: الرزق يحب الفهلوة:
25	2 - حب الرسول صلى الله عليه وسلم
34	الأمر الأول: التأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم في الأقوال والأفعال: ...
35	الأمر الثاني: الاتباع فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم:
37	الأمر الثالث: تحكيم الرسول في كل أمور الحياة:
38	الأمر الرابع: توقيره والتأدب معه:
40	الأمر الخامس: عدم الغلو في مدحه:
43	3 - حب الصحابة رضوان الله عليهم
56	الأمر الأول: احترامهم وتوقيرهم:
56	الأمر الثاني: عدم سبهم والنيل منهم:
57	الأمر الثالث: عدم الخوض فيما شجر بينهم:
58	الأمر الرابع: الترضي عنهم والدفاع عن أعراضهم:
59	الأمر الخامس: الدعاء والاستغفار لهم:
60	4 - حب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
74	أولاً: احترامهم وتوقيرهم:
75	ثانياً: متابعة آل البيت:
76	ثالثاً: الصلاة عليهم:
78	5 - الاتباع
80	أما بعد : إخوة الإسلام:

89	أولاً: الاتباع دليل المحبة الكاملة، ويجلب محبة الله تعالى لعبده:
90	ثانياً: الاتباع دليل الفلاح وقبول التوبة:
90	ثالثاً: الاتباع مجلب لرحمة الله تعالى ومغفرته ورضوانه:
90	رابعاً: دعاء الملائكة:
90	خامساً: السعادة في الدارين: (رضا الله):
90	سادساً: حصول الهداية:
91	سابعاً: السلام:
91	ثامناً: الأمان:
93	6- التقوى
105	أولاً: الثواب الدنيوي:
106	ثانياً: الثواب الأخروي:
108	7- طاعة الله تعالى
119	فيما من تدعي الإيمان:
123	أولاً: الهداية:
123	ثانياً: الفلاح والفوز:
123	ثالثاً: كمال الأجر:
123	رابعاً: الرحمة:
123	خامساً: التمكين في الأرض:
124	أولاً: الفوز العظيم:
124	ثانياً: الفوز بالجنة:
124	ثالثاً: المعية مع الأنبياء:
125	8- ذكر الله تعالى
137	9- مواطن الذكر
143	النوع الأول: القرآن الكريم:
145	النوع الثاني: ذكر أسماء الرب تعالى وصفاته والثناء عليه:
145	النوع الثالث: ذكر أمره ونهيه:
146	النوع الرابع: ذكر آلائه ونعمه:
146	النوع الخامس: ذكر الدعاء والاستغفار:
146	النوع السادس: ذكر الرعاية:
147	أولاً: الذكر عند دخول الخلاء، والخروج منه:
147	ثانياً: الذكر بعد الوضوء:
147	ثالثاً: الذكر أثناء الأذان:

147	رابعاً: الذكر بعد الأذان:
148	خامساً: الذكر عند افتتاح الصلاة:
149	سادساً: الذكر في الركوع والسجود:
149	سابعاً: الذكر بعد الصلاة:
150	ثامناً: الذكر في الصباح:
150	تاسعاً: الذكر عند النوم:
150	عاشرأ: الذكر عند الكرب والهم:
151	حادي عشر: الذكر عند المصيبة:
151	ثاني عشر: الذكر عند زيارة المريض:
151	ثالث عشر: الدعاء عند السفر:
151	رابع عشر: الذكر عن القيام من المجلس:
152	خامس عشر: الذكر عند دخول السوق:
152	سادس عشر: الذكر عند العطاس:
152	سابع عشر: الذكر عند دخول البيت:
152	ثامن عشر: الذكر عند الخروج من المنزل:
155	10- الشكر
162	أولاً: شكر العينين:
163	ثانياً: شكر القلب:
164	ثالثاً: شكر الأذنين:
164	رابعاً: شكر اليدين:
166	خامساً: شكر اللسان:
166	سادساً: شكر الفرج:
167	سابعاً: شكر الرجلين:
167	ثامناً: شكر المال:
169	تاسعاً: شكر العلم:
178	11- الصلاة
187	أولاً: الأمور التي يجب أن تتوافر قبل الدخول في الصلاة:
188	ثانياً: الأمور التي يجب أن تتوافر أثناء الصلاة:
190	ثالثاً: الأمور التي يجب أن تتوافر بعد الانتهاء من الصلاة:
195	12- صلاة الجماعة
199	أولاً: القرآن الكريم:
200	ثالثاً: أقوال الصحابة:

202	أولاً: الشهادة بالإيمان:
203	ثانياً: مغفرة الذنوب:
203	ثالثاً: البراءة من النفاق:
203	رابعاً: مضاعفة الأجر:
204	خامساً: استغفار الملائكة:
204	سادساً: تكريم الله تعالى :
204	سابعاً: فرح الله تعالى به:
205	ثامناً: رفع الدرجات:
205	تاسعاً: صلاة الجماعة تعدل قيام الليل:
205	عاشرأً: أجر الحاج والمعتمر:
205	أولاً: المنزلة العالية في الجنة:
205	ثانياً: النور التام يوم القيامة:
206	ثالثاً: في ظلال عرش الرحمن:
214	13 - الزكاة
227	14 - الصدقة
233	أولاً: النذب إلى الصدقة قبل فوات الأوان:
234	ثانياً: الإنفاق في سبيل الله تعالى من صفات المتقين:
234	ثالثاً: مضاعفة الأجر للصدقة:
236	رابعاً: جعل الله تعالى الصدقة تطهيراً للمال:
236	خامساً: الإبدال خير مما تصدق:
236	سادساً: القرب من الله تعالى ومن الجنة ومن الناس:
236	سابعاً: الصدقة ترفع البلاء والأمراض عن صاحبها:
236	أولاً: إخلاص النية لله تعالى :
237	ثانياً: أن لا يفسدها باليمن والأذى:
238	ثالثاً: الإسرار بإخراجها:
239	رابعاً: أن تكون الصدقة من كسب طيب:
241	15 - الصيام
250	أولاً: الفوائد الدنيوية:
251	ثانياً: الفوائد الدينية:
252	الأمر الأول: صوم اللسان:
253	الأمر الثاني: صوم العين:
253	الأمر الثالث: صوم القلب:

254	الأمر الرابع: صوم الأذن:
254	الأمر الخامس: صوم البطن:
255	الأمر السادس: صوم اليد والرجل:
255	أولاً: الصوم من أفضل أنواع العبادات:
256	ثانياً: الصوم كفارة للخطايا:
256	ثالثاً: الصيام وقاية من النار:
256	رابعاً: للصوم باباً في الجنة يقال له الريان:
256	خامساً: الصوم يشفع لصاحبه يوم القيامة:
257	سادساً: رائحة فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك:
257	سابعاً: للصائم فرحتان:
257	ثامناً: دعوة الصائم مستجابة:
258	16 - الأمانة
269	أولاً: التقوى:
270	ثانياً: الاتباع:
272	ثالثاً: التوكل على الله تعالى:
272	رابعاً: عدم إطاعة الكافرين والمنافقين:
273	خامساً: الرفقة الطيبة:
273	سادساً: طاعة الله تعالى:
275	17 - أمانة الأولاد
	الضابط الأول: اتباع منهج الله تعالى ومنهج الرسول صلى الله عليه وسلم في
283	التربية:
284	الضابط الثاني: التضرع إلى الله تعالى بالدعاء لصالح الذرية:
286	الضابط الثالث: تعليم الأبناء أمور الدين:
290	18 - أمانة الزوج
310	19 - أمانة الزوجة
328	20 - أمانة المال
335	الضابط الأول: طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم:
337	الضابط الثاني: التقوى:
338	الضابط الثالث: مراقبة الله تعالى:
	الضابط الرابع: اتباع منهج الله تعالى ومنهج الرسول صلى الله عليه وسلم:
340	
341	الضابط الخامس: الصدق:

- 342..... الضابط السادس: التوكل على الله تعالى :
 342..... الضابط السابع: أن يكون كسب المال من طريق مباح:
 343..... الضابط الثامن: أن يكون كسب المال عن طريق الرضا:
 344..... الضابط الأول: النهي عن الإسراف:
 344..... الضابط الثاني: النهي عن التبذير:
 344..... الضابط الثالث: الإنفاق في حقه:
 344..... الضابط الرابع: أن يصل فيه رحمه، ويتقي فيه ربه تعالى :
 345..... الضابط الخامس: أن يؤدي الحق الواجب فيه:
 346..... الضابط السادس: أن يؤدي التطوع:
 349..... 21- أمانة العلم
 356..... الضابط الأول: الإخلاص:
 358..... الضابط الثاني: العمل بالعلم:
 360..... الضابط الثالث: التواضع بالعلم:
 361..... الضابط الرابع: عدم كتمان العلم:
 362..... الضابط الخامس: الموضوعية في الفتوى:
 363..... الضابط السادس: ألا يخاف إلا من الله تعالى :
 365..... الضابط السابع: أن يصون العلم كما صانه علماء السلف:
 366..... 22- العدل
 374..... أولاً: العدل بين الرعية:
 381..... 23- العدل بين الأولاد
 389..... أولاً: وجوب العدل بين الأولاد في كل شيء:
 390..... ثانياً: القرن بين التقوى والتسوية بين الأولاد:
 390..... ثالثاً: النهي عن الشهادة في العطية الجور:
 392..... رابعاً: جواز التفضيل في العطية لمسوغ شرعي:
 392..... خامساً: جعل الشرع فرقاً بين النفقة والعطية:
 392..... سادساً: أباح الشرع للوالد الرجوع في العطية:
 393..... سابعاً: أمر الله الآباء بوقاية أنفسهم وأهلهم من النار:
 393..... ثامناً: وجوب المحبة بين الأولاد:
 393..... أولاً: اتباع الهوى:
 394..... ثانياً: معصية الله تعالى :
 395..... ثالثاً: عدم مراقبة الله تعالى :
 396..... رابعاً: العقوق للوالدين:

396	خامساً: الاستهانة بعقوبة الله تعالى للظالم:
397	سادساً: أن يكون الولد من غير الجنس المرغوب فيه:
398	24 - الصبر على الابتلاء
408	أولاً: الرحمة والهداية من الله تعالى :
409	ثانياً: البشرى من الله تعالى :
409	ثالثاً: عدم إضاعة العمل:
409	رابعاً: المعية:
409	خامساً: نيل الأجر بلا حدود:
409	سادساً: تسليم الملائكة عليهم في الجنة:
409	سابعاً: نيل الدرجات العلا في الجنة:
410	ثامناً: محبة الله تعالى لهم:
411	25 - الصبر على الطاعة
417	أولاً: الصبر قبل الطاعة:
418	ثانياً: الصبر حال العمل:
418	ثالثاً: الصبر بعد الفراغ من العمل:
422	أولاً: معية الله تعالى مع الصابرين:
422	ثانياً: محبة الله تعالى لهم:
422	ثالثاً: أن الله تعالى يحفظهم من كيد الأعداء:
422	رابعاً: نيل الدرجات العلا في الجنة:
423	خامساً: تسليم الملائكة عليهم في الجنة:
423	سادساً: الحصول على درجة الإمامة في الدين:
424	26 - الصدق
437	27 - الصدق مع الله تعالى
444	الأمر الأول: أن يعرف العبد الله تعالى معرفة حقيقية:
445	الأمر الثاني: أن يتقي المسلم ربه تعالى حق التقوى:
446	الأمر الثالث: أن يعبد المسلم الله تعالى حق العبادة:
447	الأمر الرابع: أن يطيع المسلم ربه قدر الاستطاعة:
448	الأمر الخامس: أن يتبع الإنسان منهج الله تعالى :
449	المجال الأول: الصدق في التوبة إلى الله تعالى :
451	المجال الثاني: الصدق في محبة الله تعالى :
453	الأمر الثالث: الصدق في التوكل على الله تعالى :
456	28 - الإحسان إلى الجار

- 29- الاستقامة 471
- أولاً: الاعتصام بالله تعالى : 481
- ثانياً: المسارعة إلى طاعة الله تعالى : 481
- ثالثاً: التعايش مع القرآن الكريم:..... 482
- رابعاً: الإخلاص في العبادة:..... 483
- خامساً: طلب العلم والدعوة إلى الله تعالى : 483
- سادساً: الصحبة الصالحة: 484
- سابعاً: الدعاء: 484
- أولاً: كمال الإيمان: 487
- ثانياً: البشرى الطيبة:..... 488
- ثالثاً: الأمن من الخوف ونيل الجنة:..... 488
- رابعاً: الرزق الواسع:..... 488
- خامساً: المرور على الصراط في أمان: 488
- 30- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر 490
- المرتبة الأولى: تغيير المنكر باليد: 499
- المرتبة الثانية: تغيير المنكر باللسان: 499
- أولاً: ألا تتصحه أمام الناس علانية: 499
- ثانياً: أن يكون النصح بالكلمة الطيبة الرقيقة المهدبة: 500
- ثالثاً: أن يكون الناصح قدوة: 501
- المرتبة الثالثة: تغيير المنكر بالقلب: 501
- الشرط الأول: أن يكون المنكر محرماً مجمعاً على تحريمه: 502
- الشرط الثاني: أن يكون المنكر ظاهراً: 502
- الشرط الثالث: أن لا يؤدي تغيير المنكر إلى منكر أشد: 502
- الشرط الرابع: اختيار الرجل المناسب لتغيير المنكر: 502
- الشرط الخامس: الصبر: 503
- الشرط السادس: اختيار الوقت المناسب: 503
- أولاً: وقوع الهلاك والعذاب: 503
- ثانياً: عدم إجابة الدعاء: 504
- ثالثاً: اللعن: 504
- 31- التواضع 505
- الأمر الأول: البساطة في كل شيء وعدم التكلف: 511
- النموذج الأول: نهيه صلى الله عليه وسلم أصحابه عن القيام له عند دخوله

511	عليهم:
512	النموذج الثاني: نهيه صلى الله عليه وسلم أصحابه عن مدحه إياه:
513	النموذج الثالث: التهوين على الناس أحوالهم:
513	النموذج الرابع: نهيه صلى الله عليه وسلم عن تقبيل يده:
518	أولاً: قبول الصلاة:
518	ثانياً: محبة الله تعالى :
519	ثالثاً: الرفعة في المكانة:
519	رابعاً: الفوز بالآخرة:
519	خامساً: الفوز بالجنة:
519	سادساً: المكانة العالية في الجنة:
520	32 - حرمة الدم المسلم
537	33 - الصلح بين الناس
547	الشرط الأول: اختيار الرجل المناسب:
548	الشرط الثاني: الإخلاص لله تعالى وحده:
549	الشرط الثالث: العلم:
549	الشرط الرابع: الرفق وحسن الخلق:
549	الشرط الخامس: الصبر وتحمل الأذى:
550	الشرط السادس: الموضوعية في الصلح:
550	الشرط السابع: سماع وجهة نظر كل من الطرفين:
550	الشرط الثامن: العدل بقدر الإمكان:
551	الشرط التاسع: أن يكون الصلح موافقاً لشرع الله تعالى :
551	النقطة الأولى: جواز الكذب للصلح بين الناس:
551	النقطة الثانية: الصلح بالتنازل عن بعض الحقوق:
552	النقطة الثالثة: جواز الأخذ من الزكاة للصلح بين الناس:
555	34 - العفو
563	أولاً: جعل الشرع العفو متعدد المجالات:
564	ثانياً: جعل الله تعالى العفو من صفات المتقين:
565	ثالثاً: جعل الله تعالى أجر العافي عليه:
565	رابعاً: ربط الله تعالى عفوهُ على الناس بعفو الناس بعضهم على بعض:...
565	خامساً: العفو يزيد المسلم عزاً:
565	سادساً: العفو من أفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة:
568	أولاً: رفع الدرجات ومحو الخطايا:

569		ثانياً: يحاسبه الله تعالى حساباً يسيراً:
569		ثالثاً: دخول العافي الجنة بلا حساب:
569		رابعاً: المنزلة الرفيعة في الجنة:
572		35 - الوفاء بالعهد
585		36 - دستور الأمة المغيب
595		الواجب الأول: تلاوة القرآن الكريم:
597		الواجب الثاني: العمل به وتطبيق أحكامه:
599		37 - بر الوالدين
604		أولاً: سيدنا إبراهيم عليه السلام:
605		ثانياً: سيدنا إسماعيل عليه السلام:
605		ثالثاً: سيدنا يحيى عليه السلام:
605		رابعاً: سيدنا عيسى عليه السلام:
607		أولاً: الشكر للوالدين:
608		ثانياً: خفض الجناح:
608		ثالثاً: إلقاء السلام عليهما:
609		رابعاً: الإذن عند السفر:
610		خامساً: الدعاء لهما:
610		سادساً: عدم سبهما:
611		أولاً: الدعاء لهما:
611		ثانياً: الصدقة عنهما:
611		ثالثاً: قضاء دينهما:
612		رابعاً: الحج عنهما:
612		خامساً: الصوم عنهما:
612		سادساً: زيارة قبرهما:
613		سابعاً: أن يصل المسلم أقاربهما وأصدقائهما بعد موتهما:
613		أولاً: رضا الله تعالى:
614		ثانياً: غفران الذنوب:
614		ثالثاً: استجابة الدعاء:
614		رابعاً: السعة في العيش والبركة في العمر:
614		خامساً: تفريج الكرب:
615		سادساً: ثواب الحاج والمعتمر والمجاهد:
615		سابعاً: بر الوالدين أحب الأعمال إلى الله تعالى:

616	أما النتائج التي تكون في الآخرة، فهي على النحو التالي:
616	أولاً: الوصول إلى أعلى درجات القرب من الله تعالى :
616	ثانياً: دخول الجنة:
618	38 - صلة الرحم
633	39 - يوم الجمعة
638	أولاً: صلاة الجمعة:
639	ثانياً: ساعة الإجابة:
639	ثالثاً: تكفير السيئات:
640	رابعاً: خلق الله تعالى فيه آدم عليه السلام :
640	خامساً: تقوم فيه القيامة:
640	أولاً: الغسل:
641	ثانياً: لبس أفضل الثياب:
641	ثالثاً: الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم :
642	رابعاً: قراءة سورتي السجدة والإنسان في فجر الجمعة:
642	خامساً: الدنو من الإمام:
643	سادساً: وجوب الإنصات:
643	سابعاً: سنة الجمعة:
644	ثامناً: يكره إفراد صوم يوم الجمعة:
644	تاسعاً: حرمة البيع والشراء وقت الجمعة:
644	عاشراً: استحباب قراءة سورة الكهف:
644	حادي عشر: التبكير إلى المسجد:
646	أولاً: تخطي رقاب الناس:
647	ثانياً: التهاون في صلاة الجمعة:
648	ثالثاً: التشبيك في المسجد:
648	رابعاً: العبث حال الخطبة:
648	خامساً: القيام من مجلسه وإجلاس غيره فيه:
649	سادساً: التأخر عن الصف الأول:
651	40 - مراقبة الله تعالى
658	أولاً: معرفة الله تعالى معرفة حقيقية:
660	ثانياً: أن يعرف الإنسان الحكمة من خلقه:
660	ثالثاً: التقوى:
662	رابعاً: الاتباع:

- 663 خامساً: طاعة الله تعالى :
664 سادساً: الرفقة الطيبة:
665 سابعاً: عدم إطاعة الكافرين والمنافقين:
669 أولاً: ترك المعاصي:
669 ثانياً: جلب الخير للأمة:
670 ثالثاً: اعتراف المؤمن بجريمته:
671 رابعاً: الأكل الحلال:
671 خامساً: إشاعة العدل:
672 سادساً: جعل الضمير حياً يقظاً:
672 سابعاً: تزكية النفس:
672 ثامناً: تفريج الكروب:
673 أولاً: الأجر العظيم:
673 ثانياً: النجاة:
673 ثالثاً: ظلال عرش الرحمن:
673 رابعاً: الجنة:
675 الفهرس

* * *